

سوريا جزيرة الحرية الخضراء

الفريق عفيف البزري

سورية جزيرة الحرية الخضراء

الفريق عفيف البزري

إن فترة الخمسينات من هذا القرن كانت تلك التي برزت فيها كل الظروف لانهيار الاستعمار القديم في الوطن العربي، في الوقت الذي اشتدت فيه هجمة الاستعمار الجديد بزعامة الولايات المتحدة الأميركية على هذا الوطن تحت الشعار المشهور: "ملء الفراغ" الذي خلّفه المستعمرون القدماء بجلائهم عنه. ونحن هنا نستعرض أخبار أحداث تلك الفترة في سورية، الأحداث التي شاركنا فيها أو شاهدناها عن كثب.

الفريق عفيف البزري

الفصل الأول

الاستعمار الجديد

ظروف نشوء الإمبراطورية الأميركية

إن النظام الرأسمالي، الذي هو موضع كره شعوب الأرض قاطبة بدءاً من جماهير أممه، مرّ بعدد من المراحل في أثناء مسيرته في قهر البشر. ففي مرحلة ما قبل الاحتكار، عندما كان التنافس الحر سائداً بين العديد من الرأسماليين أصحاب المشاريع المستقلة، الصغيرة والمتوسطة التي يملكها فرد واحد أو عائلة واحدة، في مجتمعات غربي أوروبا، لا سيما منها المجتمعين الإنجليزي والفرنسي، كانت الأزمات لا تنقطع في هذه المجتمعات فتقوم فيها لذلك الاضطرابات الداخلية وتندلع الحروب فيما بينها. فالتقدم في وسائل الإنتاج، والتقدم في التجارب الإنسانية، والتقدم الفكري الإنساني، نقول باختصار: إن التقدم أظهر بجلاء منذ زمن بعيد أن تعاون الإنسان وتكامله وتكافله أجدى عليه من الناحية العملية، وليس

فقط من الناحية الأخلاقية المثالية، من التنافس والتعارض واستعباد بعضه بعضاً. إلا أنه كانت دوماً تأتي أقلية من الناس المتحكمين لتجهض الاتجاه الإنساني الصحيح وتستبدله بآخر يستجيب لمصالحها الأنانية. فالتنافس الرأسمالي الحر، الذي أدت أزماته مثلاً إلى كل الثورات والحروب الاستعمارية المعروفة في أوروبا والعالم، أدى في النهاية إلى قناعة الناس بوجوب القضاء عليه كنظام عام مفلس واستبداله بنظام ينتزع التحكم بعملية الإنتاج الاجتماعي من أيدي الأفراد المتنافسين المتناحرين وإعادة هذه العملية إلى أشكالها الطبيعية التي يسود فيها التعاون والتكامل والتكافل في كل مجتمع وفيما بين المجتمعات الإنسانية. ودعا الاشتراكيون الطوباويون إلى نبذ الفردية في التعايش والإنتاج والسعي إلى ما يحقق المجتمع الأفضل. ثم قام الاشتراكيون العلميون ببناء عقيدة يقوم جوهرها على العمل على تنظيم الإنتاج اجتماعياً ومنع التأثيرات الفردية الأنانية فيه، وذلك بالعمل على تحقيق التعاون والتكامل والتكافل في الحياة الاجتماعية، أي بالعمل على تحقيق النظام الاشتراكي. إلا أن نظام التنافس الحرّ

للرأسمالية المفلس، بدلاً من استبداله بالنظام الاشتراكي الذي كان يجب أن يتسع ويعمّ جملة المجتمعات الإنسانية، استبدل بنظام شركات الاحتكاريين، بالنظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي الذي تم فيه اقتسام العالم بين الإمبراطوريات الاستعمارية وعلى رأسها إمبراطوريتا إنجلترة وفرانسة. وبقي التنافس بطبيعة الحال قائماً على أشده بين احتكاريين رأسماليين في هذه المرحلة وليس بين رأسماليين صغار ومتوسطين. فتفاقمت أزمات النظام العالمي الرأسمالي وانتهت بالجملة الإنسانية إلى الحرب العالمية الأولى، لأن المصالح موضوع التنافس تصاعدت واتسعت لتصبح عالمية ولم تقف عند حدود المصالح الصغيرة نسبياً لأيام التنافس الحر التي كان يمكن حصر حروبها في قارة واحدة. وبنتيجة هذه الحرب انتهت السيادة العالمية المطلقة للنظام الرأسمالي الاحتكاري، وقام النظام الاشتراكي في منطقة روسيا القيصرية التي تشمل سدس اليابسة، وابتدأت مرحلة الانتقال العالمي إلى الطور الأعلى، طور الاشتراكية المنتصرة عالمياً،المرحلة التي أخذتها، خطأً وجهلاً وانتهازاً، البيروقراطية الاشتراكية

الوثنيـة علـى أنهـا طـور الاشـتراكية وقـادت بالتـالي معسكرها على هذا الأساس إلى الخراب تحت عنوان "تجديد البناء".

وفي أثناء نشوء الرأسمالية الاحتكارية العالمية فـي الثلث الأخيـر مـن القـرن الماضـي، عنـدما بلـغ التنـاحر أقصـاه بـين الاحتكاريين للحصول على اكبر ما يمكن من الغنائم في عملية اقتسـام الكـرة الأرضـية التـي كانـت دائـرة حينـذاك، قامـت الصهيونية المعاصرة كإحدى ظواهر الرأسمالية فـي مرحلتهـا الاحتكارية. فالقسم الآسيوي من الوطن العربي، بلبنه وعسـله، هـو أزليـاً موضـع أطمـاع الصـليبيات بأشـكالها وأسـمائها المختلفة. وقد التقت هذه الأطماع مع أطماع أوساط المرابين اليهـود مـن آل روتشـيلد والساسـون والمونتفيـوري وغيـرهم الـذين تفـاقم دورهـم فـي عـالم الرأسـمالية عنـدما امتـزج رأس المال النقدي برأس المـال الصـناعي بقيـام النظـام الاحتكـاري. وكصدى لتلك الأطماع جميعاً، أطماع الصـهيونية الرأسـمالية المسـيحية وأطمـاع الصـهيونية اليهوديـة، تولّـد مشـروع جمـع الخـزر المتهـودين وسـوقهم إلـى فلسـطين لجعلهـا قاعـدة استعمارية لكل من يدفع اكثر مـن المسـتعمرين المتنافسـين فـي

منطقة احتياطي النفط العالمي وعلى طريق الثروات الأسطورية في المحيط الهندي والشرق الأقصى. وقد صمم هذا المشروع الأفّاق الخزري المتهود "ثيودور هرتزل" الذي رأى الاستفادة من أوضاع أولئك الخزر المتهودين الذين كان ينزل بهم الاضطهاد في روسيا القيصرية فيسوقهم إلى سوق النخاسة الرأسمالية حيث يعرضهم كمرتزقة لأية دولة استعمارية ترغب في الاستفادة من خدماتهم لإقامة قاعدة لها على طرق الغزو والاستعمار، لا سيما على أرض فلسطين بإحياء تلك الأسطورة الكاذبة حول أرض ميعاد مزعومة لشعب يزعم بأنه "مختار" لا صلة له مع ذلك على الإطلاق بهؤلاء الخزر المتهودين. ونحن هنا لا نتجنّى أبداً بهذا الوصف لحركة المتاجرة بأعراض هؤلاء الناس بإخراجهم من بلدهم ليذهبوا إلى بلد آخر بعيد حيث يذبحون أهله ويسلبونهم أرضهم لجعلها قاعدة عدوان تخدم المستعمرين، وذلك بدلاً من تنظيمهم في بلدهم وجعلهم يتآزرون مع مواطنيهم الروس وأبناء القوميات الأخرى للكفاح من أجل إزالة ظلم القياصرة والتمتع بحقوقهم في أوطانهم الأصلية

تلك. إن هرتزل بذاته اعترف في مذكراته بفائدة اضطهاد اليهود والمتهودين من قبل الأنظمة في أوطانهم الأوروبية. وقد حكى خبر وزير داخلية القيصر الذي عرض مساعدته في تهجير المتهودين هناك إلى فلسطين "بتوجيه رفسة في قفا كل واحد منهم" تلقيه خارج حدود روسيا. وكان يكرر باستمرار، بحسب ما جاء في يومياته، إن فلسطين بالنسبة إلى المستعمرين الإنجليز كمصر تماماً في وقوعها على طريق الهند فيمكن استخدام الخزر المتهودين حراساً في قاعدة إنجليزية تقام في هذا القطر. ثم إن حمّى النشاط الصهيوني في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر عاصرت العملية الحاسمة لإبادة الهنود الحمر في أميركا واستيلاء الغزاة البيض على مرابعهم، ومنها مثلاً الحملة الهستيرية الكبرى الشهيرة التي انفلت فيها عقال أولئك الهمج البيض وتوجهت قطعانهم نحو الغرب بحثاً عن الذهب فأبادوا في طريقهم أهل تلك البلاد بوحشية فاقت كل وحشية يتذكرها التاريخ الإنساني. ومن المعروف أن أولئك البائسين الهنود الحمر الذين بقوا أحياء بعد ذبح معظم أفراد بني جنسهم كانوا يحشرون في

مخيمات تقام عن قصد في أماكن موبوءة بالحمّيات والحشرات السامة كي تجهز عليهم الأمراض الفتاكة ولسعات الأفاعي. فكان هرتزل، الذي عاصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هذه العاصفة الجنونية الأميركية، يقترح (تشبهاً بهؤلاء الغزاة الأميركيين الذين اتخذهم له مثلاً أعلى) الاستيلاء على الأراضي الجيدة للعرب وإسكان أصحابها في الأراضي الموبوءة تماماً كأولئك المقهورين الهنود الحمر. كما إن الصهاينة اقتبسوا ذات العبارة التي كان الأميركيون يتداولونها أثناء إبادتهم للهنود الحمر وهي: "إن الهندي الجيد هو الهندي الميت"، فاستبدلوا كلمة الهندي في هذه العبارة بكلمة العربي. وهذا أمر يبين لنا كم هو مضحك مبكي منظر ذلك المسؤول العربي الذي كثيراً ما تعرضه علينا وسائل الإعلام العربية وهو يستفيض في شرح مظلمة أبناء قومنا الفلسطينيين، بالأرقام والشواهد، لوفد أميركي أتى يستعلم عن أحوالنا، دون أن ينتبه هذا الشارح إلى أن هؤلاء الأميركيين هم أحفاد مباشرون لأولئك الذين فعلوا بالهنود الحمر ما يفعله بنا اليوم الصهاينة بذاته. وفي غالب الأحيان يكون هؤلاء

الدارسون الأميركان آتين إلينا من قبل جهات يهمها الاطلاع عن كثب على أحوالنا، كالمخابرات المركزية مثلاً، لإصلاح خططها تجاهنا وجعلها أشد نكاية بنا.

نقول إذن إن مرحلة الاحتكار الرأسمالي لم تدم طويلاً كنظام مسيطر عالمياً بشكل مطلق. وقد انتهت هذه المرحلة بسرعة بثورة أكتوبر عندما قام إلى جانب النظام الرأسمالي نظام ثوري وانطلقت جملة المجتمعات الإنسانية في مرحلة انتقال إلى الطور الأعلى. وبقي النظام الرأسمالي، بطبيعة الحال، على تناحر دوله المتقدمة في أوروبا، وزاده تفسخاً قيام النظام الثوري الاشتراكي المعارض إلى جانب الثورات العارمة للمستعمرات وأشباه المستعمرات وإلى جانب الاضطرابات والانتفاضات التي كانت تقوم في مجتمعات المستعمرين بذاتهم. وبلغ تناحر المستعمرين أقصاه مع ما رافقه من أزمات ماحقة في فترة ما بين الحربين العالميتين، لا سيما في الثلاثينات التي سبقت الحرب العالمية الثانية. فالثورة التقنية بلغت شأواً رفيعاً في العالم في الوقت الذي اشتدت فيه وصلبت ثورات الإنسان في كل مكان على الأرض ضد

المستعمرين. وتفاقم عجز النظام الرأسمالي الاحتكاري عن احتواء كل هذه الثورات التي تعصف في بنيانه. وقام من جديد البرهان الواضح العملي على أن هذا النظام متهافت يقسم العالم الرأسمالي إلى إمبراطوريات استعمارية متعادية بالإضافة إلى قسمة جملة المجتمعات الإنسانية إلى القسمين المتعارضين الآنفي الذكر: الرأسمالي الاحتكاري والثوري الاشتراكي. وآل الأمر إلى أن أزمة الرأسمالية الاحتكارية دفعت الجملة الإنسانية إلى أتون الحرب العالمية الثانية التي عصفت بالنظام الرأسمالي القديم وخربت بلاده الأوروبية بدمارها الشامل حيث سقط عشرات ملايين القتلى ودمرت المدن والمعامل وظهر السلاح النووي الذي أباد مئات ألوف الناس خلال عدد من الثواني في اليابان وأُحرقت قيم من الذخائر والأسلحة والوسائل والأرزاق ما لو أمكن تخصيصه للبناء لانعدم الفقر في العالم. وبدلاً من الاتعاظ بهذا الدرس البليغ والاستجابة إلى المطلب الملحّ لإقامة علاقات إنسانية تلجم الوسائل الجبارة التي غدت بيد الإنسان والتي أصبح خطرها يهدد عالم الحياة على الكرة الأرضية بالزوال، نقول

بدلاً من إقامة علاقات توجه هذه الوسائل الجبارة في اتجاه إنتاج القيم في نظام عالمي يتعاون فيه الناس ويتكاملون ويتكافلون فيمتنع الخراب ويعمّ البناء في الجملة الإنسانية، أتى الأميركيون الاحتكاريون وحرفوا هذا الاتجاه الطبيعي للحياة وطوروا القهر بتعاون المستعمرين وتكاملهم وتكافلهم في الوقوف في وجه التقدم الإنساني. لقد أجهضوا المطلب الملح للحياة بإزالة نظام استعمار الإنسان وقهره بإقامة إمبراطورية عالمية استعمارية واحدة متعددة الرؤوس بزعامتهم على أنقاض الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة. وتكرر بهذا الأمر ما وقع عند نفي نظام التنافس الرأسمالي الحر في النصف الثاني من القرن الماضي حيث أتى نظام الاحتكار يصعّد التنافس بين الأفراد ليصبح بين مجموعات رأسمالية احتكارية ويقود الإنسانية إلى الحروب العالمية التي لا تبقي ولا تذر. والآن نجد أن الاستعمار القديم يُستبدل باستعمار جديد يصعّد النكاية بالإنسان فنرى أن النصف الثاني من هذا القرن يُفتتح بتشريد شعبنا الفلسطيني من أرضه لتوطين الخزر المتهودين فيها، وأن الأغراب البيض يمعنون في ظل

النظـام الأميركـي العـالمي فـي استعباد الملـونين فـي جنـوب أفريقيا، وأن الأميركـان يتسببون بحـروب استعمارية فـي أيام "السـلم" تـذهب بـأرواح ملايـين النـاس، وأن مـؤامرات المخـابرات المركزيـة (السـي آي إيـه) لا تتوقـف أبـداً للنكايـة بالشعوب الضعيفة وتمزيق أوطانها كما هو حاصل حالياً في لبنـان، وأن الملايـين مـن بنـي الإنسـان فـي أفريقيـا وآسـيا يسقطون صـرعى بسبب الجـوع، وأن الرأسمالية الاحتكاريـة تستأصل الحياة على وجه الأرض بإبادة الغابات ونشر نفاياتها فـي البحـار وفـي بـلاد المتخلفـين المقهـورين، إلـخ... إن الرأسـمالية الاحتكاريـة صـعّدت فـي مرحلتهـا القائمـة حاليـاً ميزانياتها العسكرية من مئات ملايين الدولارات إلى ألـوف المليارات لتوفير الأرباح الأسطورية للرأسماليين الاحتكـاريين الذين لا يشبعون أبداً من تكديس الأموال وتبديدها في مبـاذلهم. فالأميركان مثلاً يوافقون حالياً علـى إزالـة الصـواريخ القديمـة فـي الوقـت الـذي يسـتمرون فيـه ببحـوثهم التـي تكلـف ألـوف مليـارات الـدولارات لتطـوير أسـلحة أخـرى أشـد نكايـة وفتكـاً بالحيـاة مـن تلـك التـي قبلـوا بإزالتهـا، وذلـك ليفتتحـوا ميـادين

جديدة للحروب المدمّرة التي أسموها حروب النجوم. فكوارث الرأسمالية باختصار، وليس أزماتها فحسب، لا تنتهي أبداً ولا بد من إنهاء هذا النظام لإنهائها.

بناء الاستعمار الجديد

إن مهندس الاستعمار الجديد هو فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأميركية فيما بين عامي 1933 و 1945. ففي أعقاب لقاءات تمت بينه وبين رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل، على بارجة تمخر المحيط الأطلسي، صدر في الرابع عشر من آب عام 1941 عنهما إعلان يبيّنان فيه الأسس التي يجب أن يقوم عليها عالم ما بعد الحرب التي كانت قائمة حينذاك. ومن الطبيعي أن يتضمن هذا الإعلان في مثل تلك الظروف وعوداً مطاطة غامضة، ولكن مجيء تشرشل رئيس وزراء بريطانيا التي ما كانت الشمس تغرب عن مستعمراتها حينذاك والتي كان لها قبل تلك الحرب الكلمة الفصل في الشؤون العالمية، نقول إن مجيء تشرشل ليلبي دعوة روزفلت للبحث عن أسس للعالم كان يعني، بحسب أهداف هذا الأخير ومفهومه حينذاك، اعترافاً من الأول بأن الأسس الاستعمارية القديمة التي كان يرتكز عليها استعمار دولته أصبحت غير صالحة ويجب تجديدها،

وإن كان الإعلان المذكور يتوجه في الظاهر بالمعارضة ضد ممارسات النازية التي لا تختلف في أهدافها وجوهرها عن ممارسات المستعمرين الآخرين إلا بحماقة أصحابها واستعجالهم للأمور. وكان تشرشل في وضع لا يسمح له أبداً في تلك الأيام بإبداء أي تحفظ تجاه نيّات وإرادة الولايات المتحدة الأميركية، وكان لا بد له، وهو واقف وحده أمام الجحافل النازية التي سحقت حلفاءه في البر الأوروبي، من أن يوافق على إعادة النظر في الأسس التي تقوم عليها العلاقات العالمية، وخاصة منها ضمناً العلاقات التي تقوم عليها إمبراطورية دولته الاستعمارية بالذات. وبعد هذا الإعلان في المحيط الأطلسي ما كان روزفلت ينقطع عن إبراز نفسه كوصي على العالم وخاصة منه الدول الاستعمارية الأوروبية. فأعلن الترتيبات الجديدة في مساعدة الحلفاء قبل دخول دولته الحرب إلى جانبهم، أعلن "النيوديل" الشهير، وجعل من بلاده الامتداد الستراتيجي للصراع ضد النازية.

وعندما وضعت الحرب أوزارها وسحقت النازية بعد أن أصبحت كل أوروبا أطلالاً وخرائب، بدأت الولايات المتحدة

في تنفيذ الشق العملي من مخططها وهو كما أشرنا أعلاه: إقامة الإمبراطورية الرأسمالية الاحتكارية العالمية المتعددة الرؤوس بزعامتها. وشكل هذه الإمبراطورية ينطبق على شكل الشركة الرأسمالية المساهمة: تشكل دول العالم منظومة دول، أمماً متحدة، يكون فيها نصيب كل دولة من الاستقلال بجوهره الحقيقي بمقدار تقدمها المادي وقوتها. ولضمان هيمنة الكبار على تلك الشركة الدولية، لضمان تفرد أميركا على الأخص بالزعامة، كتفرد أكبر مساهم بأكبر نصيب من منافع الشركة العادية، وضعت الاحتكارية الأميركية نظاماً للعالم هو نظام الأمم المتحدة القائم حالياً على كل ما خلفه الاستعمار القديم برأسماليته الاحتكارية من تخلف في الأحوال الإنسانية المادية والروحية، ومن تحكم الأقوياء بالضعفاء واستعبادهم في المجالين الاجتماعي المحلي والدولي، وذلك تحت الستار الخادع لما سموه الأمم المتحدة. فهذا النظام مثلاً أقام مؤسسة الأمم المتحدة حيث تجلس الدول المستضعفة إلى جانب الدول القوية على قدم "المساواة الطوباوية" في الجمعية العامة، ولكن تنفيذ كل قرار إجرائي يعود إلى مجلس الأمن الذي

يتمتع فيه المستعمرون بحق النقض (الفيتو)، الأمر الذي يشبه تماماً ما يجري في الشركات الاحتكارية حيث يتمتع صاحب السهم والسهمين "بلقب شريك" للاحتكاري المساهم الكبير الذي يتمتع عملياً بإدارة الشركة وتحويل منافعها إلى خزائنه. فمجلس الأمن في هذه الأمم المتحدة هو الذي يحمي مثلاً في هذه المؤسسة "قانونية" كل عدوان يرتكبه المستعمرون وأُجراؤهم ضد المستضعفين، وذلك بحق النقض الذي يمتلكه أولئك العدوانيون. فأميركا مثلاً شنّت أكثر من خمسة وعشرين حرباً في ظل الأمم المتحدة، كما قام الكيان الصهيوني تحت مظلتها بمئات العمليات العدوانية على أمتنا، دون أن يستطيع كل "أولئك الشركاء" في الأمم المتحدة، وبينهم نسبة كبيرة من العرب، أن يحصلوا على قرار واحد يشجب تلك الحروب وهذه الأعمال العدوانية المحمية كلها بالفيتو الأميركي.

ولكي يتم بناء الاستعمار الحديث ببناء إمبراطوريته العالمية الموحدة كان لا بد من هدم الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة المتناحرة وتكنيس أنقاضها فلا يبقى لها

أي أثر. فتلك الإمبراطوريات كان لها وهي تقود النظام الرأسمالي الاحتكاري شكل الإقطاعيات عندما كانت تذهب الواحدة منها إلى العالم لتقتطع منه مستعمرات تخضعها لقوانينها فقط فتتعارض مع مثيلاتها الأخرى. فكان لذلك بقاؤها بهذا الشكل يعرقل ذلك المشروع الأميركي ببناء الإمبراطورية العالمية الموحدة بقيادة جماعية رأسمالية احتكارية تتزعمها الولايات المتحدة الأميركية. وكان سعي الاحتكارية الأميركية منصبّاً بشكل أساسي على الإجراءات التالية لتحقيق مشروعها الآنف الذكر:

1- توحيد الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة بنظام عالمي استعماري واحد متعدد الأطراف (الرؤوس) بزعامة الولايات المتحدة الأميركية، وذلك بإقامة الأحلاف على اختلافها وإقامة مجالسها ومؤسساتها وتفرعاتها.

2- العمل على إقامة ومساندة قوى في بلاد العالم الثالث تشكل في كل بلد من هذه البلاد امتداداً سياسياً واقتصادياً وعسكرياً لما يقابلها من مؤسسات النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي، وتقوم مقام أجهزة احتلال وإدارة

المستعمرات القديمة. أي باختصار تقوم بلاد العالم الثالث باحتلال نفسها بنفسها لحساب المستعمرين.

3- بناء جهاز قمع عالمي يقوم على مختلف القوى العسكرية للبلاد الرأسمالية الاحتكارية المتقدمة مع نشر القواعد العسكرية، أينما يلزم من العالم الرأسمالي وحيثما يتطلب الأمر، وبناء جهاز عالمي للمخابرات والتآمر والفساد.

4- محاصرة المعسكر الاشتراكي (لمنع عدواه من أن تنتشر في العالم الثالث) والعمل على تعميق الانقسامات فيما بين أطرافه، وتشجيع مختلف أشكال التفسخ والانحلال فيه بالاستعانة بشكل أساسي بالعناصر الصهيونية، وانتهاز كل فرصة لإعادة ما يمكن الإعادة منه إلى الارتباط بالنظام الرأسمالي الاحتكاري بأي شكل من الأشكال، حتى ولو "بنظامه الاشتراكي" المتقوقع ضمن حدود بلده.

وكان النظام الرأسمالي العالمي يهتز من أسسه بشدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية:

- الحركات الوطنية تعصف به في كل أرجاء العالم الواقع تحت شبكته؛

- خرج الاتحاد السوفياتي من الحرب وهو يملك أعظم قوة برية عرفها التاريخ، وقد أحاط به عدد من الدول الاشتراكية الأخرى التي شكّل معها معسكراً واسعاً قوياً ينافس النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي منافسة شديدة خطرة؛

- كانت ثورة الصين، ذلك البلد الذي يشكل ربع العالم بتعداد سكانه، تسير بخطى ثابتة نحو الانتصار الحاسم على القوى الرجعية هناك؛

- خرجت الدول الاستعمارية كلها، عدا أميركا، من الحرب محطمة: باقتصادها ومجتمعاتها وجيوشها. وقد انتشر العداء لأنظمتها انتشاراً واسعاً بين جماهير شعوبها، فأخذت الاحزاب الشيوعية والاشتراكية مكان الصدارة مثلاً بين أحزاب دول أوروبا الغربية.

وقد كانت خطة الولايات المتحدة الأميركية تقوم على الخطوط العامة التالية:

أولاً: **<u>في أوروبا</u>**: نفذّت أميركا هنا برامج مساعدات كبيرة، أو بالأحرى برامج إعمار واسعة، تجعل من اقتصاد تلك البلاد، بمعامله وشركاته وأسواقه تابعاً لها تقتسم

احتكاراتها منافعه، وكان من أهم وأشهر تلك المساعدات "برنامج مارشال" لأوروبا.

ثانياً: **في اليابان**: كانت أميركا قد احتلت اليابان عند استسلامها في أعقاب الحرب العالمية الثانية وعينت لها الجنرال ماك آرثر مفوضاً مطلق الصلاحية هناك، فغدت هذه البلاد مستعمرة أميركية طوال عقدين من الزمن، ثم تحولت إلى رأس بين رؤوس النظام الاستعماري العالمي.

ثالثاً: **في المستعمرات**: ما كان باستطاعة الأميركان، لتحقيق غايتهم في صهر الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة بإمبراطورية عالمية واحدة بزعامتهم، أن يتبعوا طريق العنف، فيقوموا مثلاً مباشرة وعلناً بقسر المستعمرين القدماء ليتخلوا عن أساليبهم البالية، فمثل هذا الطريق كان لا بدّ من أن يؤدي إلى أحد الأمور التالية المناقضة للأهداف الأميركية الاستعمارية:

- العودة إلى الأشكال القديمة للاستعمار في حالة تغلّب أميركا على منافسيها المستعمرين القدماء وعلى

الحركات الوطنية في العالم وخضوع هؤلاء جميعاً لسلطتها بقوة الاحتلال المباشر.

- قيام استعمار جديد لا تكون أميركا زعيمة له، في حالة فشل هذه الأخيرة وانهزامها أمام المستعمرين القدماء وكل العالم الذي تهاجمه، مع عجز حركات التحرر في العالم عن الاستفادة من ذلك الظرف الملائم للقضاء على النظام الاستعماري العالمي برمّته.

- انهيار النظام الرأسمالي الاحتكاري برمّته أمام الحركة العامة للتحرر والثورات الكبرى المشتعلة هنا وهناك على الأرض، في ظرف اقتتال المستعمرين فيما بينهم، وبمواجهة المعسكر الاشتراكي القوي.

كانت أميركا في واقع الحال بين أمرين متعارضين: كانت من جهة بحاجة إلى المستعمرين القدماء لضمهم إلى نظامها الجديد، إلى شركتها العالمية، ليقفوا معها في وجه المعسكر الاشتراكي، وضد الحركة العاصفة للتحرر التي كانت تهب في كل أنحاء الأرض. وكانت من جهة ثانية لا تتمكن من أن تقف "بإخلاص" إلى جانب أولئك المستعمرين

القدماء لتساعدهم على البقاء في مستعمراتهم، وإن كانت أحياناً تتظاهر بأنها تفعل ذلك، بل وإن قامت أيضاً في بعض الحالات بإمدادهم بالمال والسلاح لمساعدتهم على قمع ثورة من الثورات، كما فعلت مثلاً عندما ساعدت الفرنسيين ضد ثورتي الفييتنام والجزائر. ولكن هذا الأمر الأخير كان يتم بقصد فتح الطريق أمام تدخلها لتوجيه الأحداث في الاتجاهات الملائمة لمخططاتها. فقد كانت تريد، كما أشرنا أعلاه، أن تبلغ المستعمرات مرحلة الاستقلال السياسي مع بقائها في النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي بالشكل الموصوف آنفاً. كما أرادت إلى جانب هذا أن تقوِّض كل نفوذ مستقل لأي من المستعمرين القدماء في مستعمراته السابقة، لا سيما عندما تكون هذه المستعمرات غنية بالمواد الأولية الثمينة كالبترول مثلاً، وتكون ذات موقع ستراتيجي هام: كانت الولايات المتحدة الأميركية توجه سياستها العالمية لاستبدال كل نفوذ استعماري فردي بالنفوذ الجماعي لكل المستعمرين، ولكن تحت إشرافها وبزعامتها، بنفوذ النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي الموحد بزعامتها.

وبناءً على ما تقدم، نجد أن الولايات المتحدة الأميركية اتبعت سياسة مزدوجة لتنفيذ مخططها الاستعماري ببناء إمبراطوريتها العالمية:

- التظاهر بالحياد في الصراع الذي قام بين حركات التحرر في العالم وبين المستعمرين القدماء، مع التسلل إلى الحركات المذكورة بمختلف الأشكال والوسائل. وغايتها من هذا التسلل كانت دوماً إجهاض تلك الحركات بعد أن تستفيد منها في القضاء على الشكل القديم للاستعمار، وتدمير كل نفوذ مستقل لدوله في مستعمراتها ومحمياتها القديمة ثم استبداله بالشكل الجديد له: إملاء الفراغ، كما أعلنت مثلاً أميركا في أعقاب حرب السويس عام 1956. وإن خير مثال على هذا الأمر كان تسلل أميركا بالسادات وأعوانه وتياره الانتهازي إلى الحركة الوطنية المصرية التي كافحت الاستعمار القديم والرجعيات المرتبطة به، ثم انتهت بنظام ذلك العميل.

- عندما كانت ترى أن حركة التحرر جدية وتهدف إلى القطع مع الشبكة الرأسمالية الاحتكارية

العالميـة(أو الإضـرار بهذه الشـبكة ضـرراً بليغـاً) فإنهـا كانـت تحـالف المسـتعمرين القـدماء، مـع كـل مـا خلفـوه مـن أذنـاب وأعـوان، وتحـالف كـل الانتهـازيين والـدجالين، وتسـتعمل مختلف أنواع الخونة المتسترين والظاهرين، للقضاء على تلك الحركـة. ونجـد مثـال هذا الأمـر فـي تعـاون أميركـا وإنجلتـرة لإسقاط حركة مصدّق في إيران، ثم حلول الأولى مكان الثانيـة في النفوذ هناك.

أمثلة على النشاط الاستعماري الأميركي

إن الولايات المتحدة الأميركية استفادت، عندما أخذت في بناء إمبراطوريتها العالمية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، من الأوضاع الموروثة السائدة في مختلف أقطار النظام الرأسمالي الاحتكاري، المتقدمة منها والمتخلفة. فعملت على إقامة جهازها العالمي المعقد القائم على الأحلاف، والشبكة العالمية للقواعد العسكرية، وشبكات التجسس والتخريب الممتدة في كل بلدان العالم الرأسمالي، وعلى الأخص في المستعمرات وأشباه المستعمرات، فنظمت هناك جهازها، وأقامت اتصالاتها بكل الجهات المفيدة لتنفيذ مخططاتها. وفي أثناء تطور الأحداث في مختلف اتجاهاتها لم تترك هذه الدولة الاستعمارية وسيلة لتحويل مجريات الأمور في اتجاه مصلحتها: تآمرت، وشجعت الفساد والخيانة، وهددت، واعتدت إلخ...

- كان خداع وإفساد بعض العسكريين وبعض الفئات المثقفة في المجتمعات المتخلفة من أنجع الوسائل التي

استخدمتها الولايات المتحدة الأميركية للتخريب في هذه المجتمعات (التي تضيق فيها مجالات العمل أمام المثقفين لتخلف اقتصادها وقصوره عن استيعاب أعداد كبيرة منهم، وضيق آفاقه أمام طموحات بعضهم، فيسهل لذلك نشر الفساد بينهم). ففي الخمسينات كثيراً ما انتشرت أخبار فتن أثارتها المخابرات الأميركية في مختلف أنحاء العالم المتخلف بقيادة فئات كانوا يسمونها "الخريجين"، أي أصحاب الشهادات الجامعية، أو الإنتلجنسيا في بعض الأحيان. ومن البديهي أن يكون هذا التعميم الذي تستّر وراءه المستعمرون وأذنابهم كاذباً، لأن جماهير الجامعيين والمثقفين في البلاد المتخلفة تبقى مهما اشتد الضيق بأفرادها في طلائع التقدم، وإن سقطت بعض القلة من فئاتها في حبائل المستعمرين وإغراءاتهم. ولقد بدأت مثلاً المعارضة ضد لومومبا، بطل استقلال الكونغو، بفئة خائنة تسترت بيافطة الخريجين، وذلك عندما اتجهت الثورة هناك نحو القطع مع النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي واستغلال ثروات البلد، التي يأتي في مقدمتها اليورانيوم والنحاس، لصالح أهلها. وانتهت المأساة كما هو

معـروف باستشـهاد لومومبـا وحلـول الاحتكـاريين الأميركـان مكان الاحتكاريين البلجيكيين في استثمار المنـاجم الغنيـة هنـاك عندما أعادت المخابرات المركزية الأميركية هذا البلد ليرتبط بشـبكة الاسـتعمار الجديـد. وفـي دمشـق "تبـرع" القنصـل الأميركي في عام 1955 باستئجار بيت في شارع أبي رمانـة ليكـون ناديـاً للخـريجين. واسـتغلت أجهـزة التخريـب الجامعـة الأميركية فـي بيروت، الجامعـة التـي لا ننكـر خدماتها الجليلـة التي قدمتها لوطننا العربـي بتخريجها عدداً كبيراً من علمائنـا فـي مختلـف الاختصاصـات، نقـول إن المخـابرات المركزيـة استغلت هذه المؤسسة المحترمة لتصدّر منها بعض الحركـات "القوميـة" التـي سـببت الكـوارث الفاجعـة للحركـة الوطنيـة العربيــة الكبـرى للخـلاص نهائيـاً مـن شـبكة الرأسـمالية الاحتكارية العالمية وتحقيق دولتنا العربية الاشتراكية الكبرى. فبشرت "بإنسانية" الضباع الأميركان و "عدائهم للاستعمار"، وأدخلـت الأوهـام فـي بعـض العقـول بجـدوى التحـالف معهـم وتلقـي "مسـاعداتهم" الاقتصـادية، ورفعـت الشـعار السـخيف المحـزن "بنهايـة المعركـة مـع الاسـتعمار"، علـى اعتبـار أن

المستعمرين القدماء الإنجليز والفرنسيين منوا بهزائم ساحقة في منطقتنا وانهار نفوذهم: بهزيمتهم في السويس، وقيام الوحدة السورية المصرية، وتصاعد ثورة الجزائر، وانهيار حكمهم في العراق بثورة الرابع عشر من تموز. ولكن الأميركان ما تأخروا عن تأكيد هويتهم بأنهم يمثلون أشأم عبودية عرفها الإنسان طوال تاريخه، فتآمروا وارتكبوا الجرائم وأخلّوا بأمننا وبذلوا كل ما باستطاعتهم لترسيخ الكيان الصهيوني في قلب وطننا بهدف بناء ذراع لهم هنا يحرس منابع ثرواتنا التي ينهبونها.

- حارب الأميركان كل تنمية لاقتصاد المستعمرات القديمة وأشباه المستعمرات تضعف من ارتباط هذه البلاد المتخلفة بالشبكة الرأسمالية الاحتكارية العالمية وتسد الفجوة القائمة بينها وبين البلاد المتقدمة. فكانوا يعملون على عرقلة مشاريع تكرير النفط مثلاً وتصنيعه، وعلى تأخير بناء السدود العالية للري وتوليد الكهرباء، ويقاومون بشراسة بناء صناعة ثقيلة تعزز الاستقلال الاقتصادي: أخذ مثلاً مشروعا بناء مصفاة النفط في حمص وبناء سد الفرات في

الطبقة، في أواسط الخمسينات شكل صراع سياسي حاد خاضته القوى الوطنية ضد عملاء المخابرات المركزية الأميركية وضد الشركات الرأسمالية الاحتكارية التي كانت تتقدم بعروض غير جدية، وتدس الدسائس، وتقدم الرشاوى، بهدف تأخير البدء بإنجاز هذين المشروعين الضخمين أطول مدة ممكنة، ثم القضاء على فكرة تنفيذهما من أساسها عندما تسنح الفرصة الملائمة. وقد تمكنت سورية في النتيجة من بناء مصفاتها، ولكن الظروف واتت المستعمرين من جهة بناء السد في الطبقة فتأخر تنفيذه عقداً من السنين. ثم إن أميركا عارضت بشراسة بناء مجمع للفولاذ في الباكستان، على الرغم من أن هذه الدولة سايرت دوماً السياسة الأميركية ومشت في ركابها.

- إن ما يسمونه "المساعدات" الأميركية كالنقطة الرابعة مثلاً ومشروع مارشال وغيره يشكل نموذج الاحتيال الرأسمالي الاحتكاري لاقتناص ثروات الغير وتحميل الضحايا أعباء كلفة المشاريع المعدة لقهرهم ونهب بلادهم. فقد حاول الأميركيون مثلاً إقناع بلاد المشرق العربي بفتح طريق

أُتوستراد يصل الخليج العربي بمنطقة الجزيرة السورية حيث يتفرع منه فرعان أحدهما يذهب إلى الاسكندرون ليتصل هناك بالأُتوستراد الأميركي الذاهب إلى حدود الاتحاد السوفياتي في القفقاس والآخر يذهب إلى جونية في لبنان. فتكون الغاية من هذا المشروع إذن بترولية عسكرية لخدمة أغراض الولايات المتحدة الأميركية. واجتمع مجلس اقتصادي عربي في القاهرة عام 1953 لدراسة هذا المشروع، وكانت سورية حاضرة هذا المجلس. ويتلخص العرض الأميركي بدفع مائتي مليون دولار من أصل ستمائة مليون دولار مجموع تكاليف المشروع، على أن تدفع الدول العربية المعنية باقي المبلغ، وأن يكون للأميركان الإشراف الفني للإنشاء، وأن تُشترى جميع المعدات اللازمة للعمل من أميركا، وتقع صيانة الطريق على الدول العربية. ونجد في النتيجة أن هذه "المساعدة" الأميركية وأمثالها التي تأتي من خزينة الدولة (الممولة بالضرائب التي يدفعها الشعب الأميركي) تعود إلى خزائن الاحتكاريين الأميركيين مع أضعافها من المال الذي تدفعه شعوب المقهورين. وهذا مع العلم أن معظم فوائد

المشاريع المنجزة بها تعود أيضاً إلى أولئك الاحتكاريين في كل الحالات. وليس هذا فحسب، فعلى المقهورين أن يدفعوا تكاليف صيانة تلك المشاريع: إن الأُتوستراد المذكور كان في ذلك الزمان، قبل تأميم آبار نفط الخليج، لا يفيد إلا للأغراض العسكرية ولتنقّل شاحنات النفط الثقيلة عليه، فهو يمر عبر الصحاري التي يمكن أن تنتقل فيها السيارات العادية بسهولة دون الحاجة إلى أُتوسترادات.

- صرّح نوري السعيد في مجلس النواب العراقي في عام 1957 بما يلي: "..لبناء المطارات اللازمة لحلفائنا وفتح الطرق الاستراتيجية وبناء القواعد العسكرية، اضطررت (أي اضطر نوري السعيد) لأن آخذ جزءاً من الأموال المخصصة لمصلحة الإعمار، وذلك لأن ما ستدفعه أميركا من المساعدات، لقاء قبولنا مبدأ أيزنهور، لا يكفي لهذه الأعمال...". انتهى تصريح نوري السعيد. نجد إذن إنجاز مشاريع المستعمرين الأميركان العسكرية تتبدى على الإعمار الوطني.

هذه نبذة بسيطة عن الاستعمار الجديد الذي أطل بوجهه الكالح على العالم في أعقاب الحرب العالمية الثانية. "فمساعدات" هذا الاستعمار وقروضه لا تُعرض من قبله وإنما تُفرض فرضاً على الأمم المتخلفة بالتهديد والوعيد وقلب الحكومات التي تعارضها. ولكن المتخلف يرهن اقتصاده برمته لسداد فوائد هذه القروض والقيام بأعباء مشاريع تلك "المساعدات". وقد وجدت سورية نفسها وجهاً لوجه أمام هذا الاستعمار الجديد عندما انعتقت من شباك الاستعمار القديم في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

الفصل الثاني

كفاح سورية من أجل الجلاء

تزوير تاريخ أمتنا العربية

قلنا في الفصل السابق من هذه الدراسة إن الاستعمار الجديد الذي قام في أعقاب الحرب العالمية الثانية بزعامة الولايات المتحدة الأميركية عمل على إقامة ومساندة قوى في العالم المتخلف تشكل في كل بلد فيه امتداداً سياسياً واقتصادياً وأيديولوجياً وعسكرياً لما يقابلها من مؤسسات النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي، وتقوم مقام أجهزة احتلال وإدارة المستعمرات القديمة. أي باختصار تقوم بلاد العالم الثالث باحتلال نفسها بنفسها لحساب المستعمرين. وفي ظل هذا النظام العالمي للاستعمار الجديد، في ظل العصر العبودي الأميركي، وجدت الفردية والديكتاتورية في دول العالم الثالث المناخ الملائم. فللاستعمار الأميركي تجربة طويلة في أميركا اللاتينية عندما حلّ مكان المستعمرين الأوروبيين في هذه

البلاد بعد أن طردهم منها. فكان يستعمرها بواسطة ديكتاتوريين من أهلها يؤمنون له ارتباطها بنظامه دون الحاجة إلى تكبد أعباء احتلالها عسكرياً: قهر الديكتاتور وزبانيته وعسكره المحلي كل هذا يقوم مقام الاحتلال بجيوش المستعمر. وفي مثل هذا الظرف يكون من البديهي أن تتعارض الديمقراطية بشكل مطلق بأبسط وأدنى مظاهرها، بله مظاهرها العليا المعقدة الكاملة، مع العلاقة بذلك المستعمر ومع ممارساته في قهر ونهب البلد الضحية. فالقهر والهوان يفرضان بالبداهة فرضاً على الناس ولا يرضى بهما أحد عن طيب خاطر. وبعد قيام العصر الأميركي العالمي وجدنا تلك الظاهرة اللاتينية في التبعية للنظام الرأسمالي الاحتكاري تنتشر في العالم الثالث فلا يكاد ينجو منها قطر من أقطاره. ثم إن لهذه الوثنية كهنتها ومؤسساتها التي تتشعب في مجتمعات هذا العالم وتعمل على نشر الكذب والانحراف وكل أنواع الضلال والفساد بكل الوسائل المتاحة التي تقع تكاليفها على عاتق جماهير المقهورين. ونجد في النتيجة أن العميل يصور نفسه بطلاً، ويبالغ في هذا الأمر إلى أن يصل إلى تأليه ذاته.

وليس من العسير أبداً رؤية وسماع وقراءة أخبار هؤلاء المتألهين في وسائل إعلام هذا العصر: في الكتب والجرائد والنشرات والإذاعات وغيره. ففي عالمنا العربي مثلاً من سبّب وأسرته أفدح الكوارث لأمتنا، وهو مع ذلك لا "يتواضع" بإذاعاته وبما يجمعه من حوله من ألوف المأجورين المصفقين المهللين وما يملأ صدره من نياشين عددها بعدد المواقع التي سلمها للعدو فيصور نفسه بصورة جديرة بالأبطال الحقيقيين. أما الآخر الذي لا ينقطع عن الدعوة لجمع شمل المفرطين بحقوق أوطاننا فيقلب شعار المجاهدين الأبرار "بالاعتصام بحبل الله" إلى الاعتصام بحبل التسليم والاستخذاء للمستعمرين ويبذل الدولارات بلا حساب لتهديم الحركات الوطنية في عالمنا العربي وإجهاض ثوراته ضد العدو الأميركي فإنه يتخذ لقب "خادم الحرمين الشريفين"، اللقب الذي حمله أبطال أمتنا من أمثال صلاح الدين. ولا حاجة بنا إلى الاسترسال في ضرب الأمثلة لنأتي بسير هؤلاء المستكبرين الذين ابتليت بهم وبهزائمهم أمتنا في هذا العصر.

إننا نتشرف بالانتساب إلى هذه الأمة التي كرست وحدة روافدها وأقامت دار الإسلام على إلغاء الاستكبار على الناس فرفعت عالياً شعار "الله أكبر" فكان آخر ما ينطق به شهداؤها عندما كانوا يجاهدون في سبيل تحرير الإنسان من ربقة الطغاة. فهذا الشعار يعني بوضوح أن الكبر لله وحده عندما كان المؤمنون المجاهدون يقذفونه في وجه طغاة ومستكبري الأمم. فالمغيرة بن شعبة مثلاً قال لرستم قائد الجيش الفارسي في القادسية عندما أتاه كسفير إليه لسعد بي أبي وقاص قبل نشوب القتال ليدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، كما كانت هي العادة: "إننا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه. فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى. وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض. اليوم علمت أنكم مغلوبون لأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم. وإن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول". وفي قرآننا نداء "ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً"، وفيه أيضاً الصرخة المدوية ضد الطغاة ولتحرير الناس: "اذهب

إلـى فرعـون إنـه طغـى!..". فـرفض الاسـتكبار والديكتاتوريـة والفردية ليس تقليداً عندنا فحسب بل إنه الإيمـان المتأصـل فـي أسـاس وجودنـا يحركنـا فـي أيـام نهوضـنا وممارسـتنا وظائفنـا الطبيعية بين الأمم للعمل علـى تحريـر أنفسنا وتحريـر غيرنـا من كل طغيان واستكبار. وما قامت جاهلية فينا طوال تاريخنـا إلا عنـدما يستشـري فينـا حكـم الطغـاة وتعـمّ الفرديـة بـين ظهرانينـا. ولقـد كـان وسـام نبـي أمتنـا وهـو فـي أوج انتصـاره العظـيم عنـد دخولـه مكـة انحنـاءه تواضـعاً حتـى كـادت جبهتـه الشـريفة تمس الرحـل، الأمـر الـذي ينـاقض تمامـاً مظهـر ذلـك المهـرول فـي مواكـب الاستسـلام للأعـداء فـي جاهليتنـا المعاصـرة وقـد تـدلت علـى جسـمه تخشـخش نياشـينه وزينتـه الفارغة.

إن الرجعيـة علـى الـرغم مـن تمرسـها طـويلاً فـي خدمـة المسـتعمرين الجـدد فتـؤدي لهـم خـدمات ضـخمة للنكايـة بأمتنـا تبقى مفضـوحة فلا تتمكن من القيام بوظيفتها الخيانية هذه علـى الوجـه التـام الـذي يريـده هـؤلاء المسـتعمرون إلا بمسـاعدة الانتهازيـة وبالاسـتفادة مـن الأخطـاء التـي ترتكبهـا الحركـة

الوطنية العربية ومن الأوهام المنتشرة في هذه الحركة. وقد سبق أن قلنا في الفصل السابق من هذه الدراسة إن المستعمرين الجدد تسللوا في الحركة الوطنية العربية بعملائهم كالسادات وخليفته المبارك اللذين قادا تياراً من الانتهازيين المرتزقة وساندهما نفر من الجواسيس والكهنة المرتبطين بوكالة المخابرات المركزية الأميركية. وقد دفع هذا التيار بقسم هام من الحركة الوطنية العربية إلى سلوك سياسة فردية ديكتاتورية أدت، بمساعدة العملاء الآخرين المندسين في الفئات الوطنية الأخرى في المنطقة العربية، وبالاستفادة من أخطاء هذه الفئات، إلى عزل ذلك القسم الوطني الهام، في "سجن" فرديته، أولاً ثم إلى افتعال صراعات بينه وبين تلك الفئات الوطنية الأخرى أنست الجميع خطر الاستعمار الجديد الذي عمل في ظل هذه الظروف على توطيد مواقعه في عالمنا العربي: ما كانت هنالك دراسة جدية تميز هذا الاستعمار الجديد من الاستعمار القديم وتبرز واقع الظرف العالمي الجديد على حقيقته. وانتهى الأمر إلى إجهاض الزخم الجماهيري الموجه ضد المستعمرين جميعاً

وفـي مقدمتهم زعيمـتهم الولايـات المتحـدة الأميركيـة وإلـى أن يستتشـري حكـم العمـلاء والانتهـازيين فـي مختلـف أنظمتنـا العربية، هؤلاء العمـلاء الذين نـراهم حالياً يتصـدرون مسيرة الاستسلام للعدو الأميركـي الـذي يـدفعهم بـلا توقف إلـى مزيـد مـن التنـازلات لتوطيـد وترسـيخ أسـس مرتكزاتـه فـي مختلـف أرجاء وطنننا العربي وفـي مقدمتهـا أسـس قاعدتـه الاسـتعمارية القائمة في فلسطين على شكل الكيان الصهيوني.

ولقـد وجـدنا أولئـك الكهنـة المـرتبطين بالمخـابرات المركزية الأميركيـة يبذلون كل جهد لتشجيع الاتجـاه الفـردي وتأليـه بعض قـادة الحركـة الوطنيـة بهذا المقدار أو ذاك علـى حسب ظـروف ومواقـع أولئك القـادة. وغايـة هـذه المخـابرات بداهة من هذا الأمر عزل هؤلاء القـادة عن الجمـاهير وتغييب الـرأي العـام الحقيقـي عـنهم وإحـاطتهم بعملائهـم وتـوجيههم بالتـالي فـي اتجـاه تحقيـق أغـراض المسـتعمرين أو إسـقاطهم بطريقـة مـا عنـدما لا يسـتجيبون للعمـل علـى تحقيـق هـذه الأغـراض. وقـد توصـلت المخـابرات المركزيـة الأميركيـة بمسـاعدة الكهنـة المذكورين إلـى إغـلاق سـاحات الصـراع مع

الأعداء المستعمرين في وجه الجماهير وحصر عمل فئات محدودة منها في المسيرات "المبرمجة المقيدة" للتصفيق وأداء "فروض" الولاء والطاعة الوثنية للقادة. وكذلك اتجه الإعلام وبحوثه على اختلاف درجاتها، تحت إشراف أولئك الكهنة نحو العمل على فصل الحركة الوطنية عن جذورها التاريخية القريبة والبعيدة. فالقائد عبد الناصر مع حركته مثلاً لا علاقة له، في مزاعم الكهنة المذكورين، بما سبق من حركات وطنية مصرية. وقد بلغ الأمر ببعضهم إلى إنكار الأدوار الإنسانية الكبرى والحاسمة التي اضطلع بها القطر المصري وقدمت في سبيل أهدافها جماهير هذا القطر أغلى التضحيات وإلى ربط الناصرية مباشرة بالفرعونية فيقول بعضهم كذباً إن عبد الناصر هو أول حاكم لمصر من أبنائها بعد فراغ دام ألوف السنين منذ عهد الفراعنة. فتفاعلات هذا القطر طوال تاريخه مع بقية الأقطار العربية، التفاعلات التي جعلت منه ومن هذه الأقطار روافد كونت أمتنا العربية، تشكل فراغاً في مفهوم أولئك الكهنة ومفهوم من اتبعهم من الجهلة الحمقى الفاشيين الذين أنعم عليهم المستعمرون والصهاينة مؤخراً بجائزة نوبل.

والواضح جيداً أن الهدف الأول لمثل هذا الاتجاه هو عزل القطر المصري وشعبه الذي يشكل أهم رافد في المجرى العظيم لنشوء وارتقاء أمتنا وتكونها التاريخي عن بقية الوطن العربي، الذي بدوره تُقَطَّعُ أوصاله أيضاً بأفعال مشابهة يقوم بها المستعمرون وأجراؤهم. وقامت في ذات الوقت عمليات تشويه وإنكار وتناسي لثورات جماهير أمتنا في مختلف أقطار وطننا العربي. فانتفاضات الشعب المصري وثوراته المتلاحقة من عرابي حتى ثورة الطلبة في عام 1946 لإسقاط اتفاقية صدقي بيفان الاستعمارية، حيث شاهدت أنا بنفسي المقاومة البطولية لجماهير الطلبة على جسر الجامعة في القاهرة وسقوط أكثر من عشرين شهيداً منهم إلى جانب مئات الجرحى، وحتى المقاومة المسلحة للشعب المصري ضد المحتلين الإنجليز في القناة، كل هذه التضحيات الجسيمة وغيرها للشعب هناك ألقيت في ظلال التمجيد المرائي للفرد بكتابات وإعلام أولئك الكهنة. وكذلك طمست ثورات شعبنا المجيدة التي لم تنقطع أبداً ضد الغزاة المستعمرين في كل أقطار وطننا العربي بدون استثناء. فسورية مثلاً، التي لم

تتوقف ثوراتها وانتفاضاتها ضد المحتلين الفرنسيين طوال ربع قرن حتى حققت جماهيرها جلاء المستعمرين عن أراضيها ثم واجهت الاستعمار الجديد وأحبطت مؤامراته الواحدة تلو الأخرى وتوجت كل انتصاراتها هذه ضد قدماء المستعمرين والجدد منهم بتحقيق حلم العرب والإسلام بالوحدة مع مصر عام 1957، سورية هذه صُوِّرت بعد قيام الوحدة من قبل أولئك الكهنة ذاتهم بأنها بلد شعب منقسم على نفسه كانت تحكمه بزعم هؤلاء الكاذبين عصابات متنافرة دفعتها عداواتها لبعضها بعضاً إلى الركض إلى الوحدة!...

ونضرب مثلاً لأولئك الكهنة، الذين تستخدمهم دوماً المخابرات المركزية الأميركية لتزوير التاريخ ونشر الأوهام المضللة، بكاتب مستهتر بلغ استخفافه بعقول الناس مبلغ الاعتراف بعمالته لهذه المخابرات الأميركية صراحة وضمناً بأشكال مختلفة في كتاباته التي يزور بها التاريخ. فهذا الكاتب الذي زرعته المخابرات المركزية في الإعلام المصري الوطني بعد ثورة 23 يوليو بدأ حياته الصحفية كمراسل صحفي في الحملة الاستعمارية الأميركية بقيادة الجنرال ماك

آرثر ضد الشعب الكوري في مطلع الخمسينات من هذا القرن. ومن اعترافاته أنه كتب مرة أن المخابرات المركزية الأميركية "أكرمته" بأن جعلته وكيلاً في منطقة الشرق الأوسط لمجلة ريدرز دايجست الشهيرة التي تنفث بها هذه المخابرات سمومها الفكرية في مختلف أنحاء العالم. وروى مرة أخرى حكاية مفادها أنه عندما كان مراسلاً صحافياً في الوفد الذي رافق زعيم الاتحاد السوفياتي حينذاك نيكيتا خروتشوف من موسكو إلى أسوان للاحتفال بافتتاح السد العالي هناك ناداه مرة خروتشوف في أثناء الرحلة وقال له: "..تعال أُسمعك خبراً هاماً يكسبك مالاً وفيراً إذا ما نقلته إلى أصدقائك..". وكان الزعيم السوفياتي الذي اشتهر بنكاته الهادفة يقصد المخابرات المركزية الأميركية بكلمة "أصدقائك" هذه. وقد اعتاد هذا الكاتب تصوير نفسه بأنه من خاصة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وذلك ليعطي وزناً لحكاياته الكاذبة وليوفر لنفسه حماية أدبية بالسيرة الوطنية للرئيس، مع أنه كان كثيراً ما يقوم بأداء خدمات مفضوحة للمخابرات الأميركية بدسّ أخبار ملفقة في الصحيفة التي كان

يرأس تحريرها. وفي مرة من المرات عاقبه المرحوم عبد الناصر بطرده من وظيفته هذه فما كان منه إلا أن ذهب ليلاً من القاهرة إلى الاسكندرية، حيث كان الرئيس يصطاف هناك عام 1958، وارتمى باكياً على قدميه طالباً العفو... إنه النموذج لأولئك العملاء الذين توكل إليهم مخابرات أميركا تخريب صفوفنا بالدسائس والكذب. وفي هذه الأيام التي تستعد فيها الإنسانية لدخول عصر القرن الواحد والعشرين والتي بلغت فيها الإمبراطورية الأميركية العالمية أوجها تعمل الرجعية الأميركية على ترسيخ أسس نظامها العالمي مادياً وأيديولوجياً، فدفعت في منطقتنا العربية، كما فعل الإنجليز في الماضي عندما دعوا إلى تأسيس الجامعة العربية بمعزل عن الجماهير العربية، إلى إقامة تجمعات إقليمية غايتها إجهاض الوحدة العربية الحقيقية التي هي ثورة إنسانية كبرى لا بد من أن تؤدي إلى تقويض تلك الإمبراطورية الأميركية وبالتالي إلى نهاية الطور الرأسمالي العبودي. وفي ذات الوقت يقوم عملاؤها بتصفية نهائية لحركة تحرير فلسطين بقيادة عرفات، هذه الحركة التي لم تعد حركة تحرير لفلسطين (فتح) بعد أن

أعلن قادتها تخليهم عن التحرير وقبلوا أن يعملوا على إقامة كيان هزيل يكون "عزقة" تصل إسرائيل بالأردن وبالتجمع الذي انتمى إليه مؤخراً هذا القطر العربي. ونجد في ذات الوقت قيام الندوات الفكرية المشبوهة إلى جانب بحوث الانحرافات المختلفة وتغطية طبيعة وهوية الاستعمار الأميركي. ويدلي كاتبنا الآنف الذكر بدلوه حالياً فيطلع علينا بسلسلة مقالات ينشرها هنا وهناك في عالمنا العربي يتناول فيها أحداث المنطقة في الخمسينات من هذا القرن. فإلى جانب "تفتيت" تاريخ أمتنا المعاصر ثم إعادة تركيب "نتفه" على هواه، حيث يحرف الكلم عن مواضعه، يدسّ هذا الكاتب في هذا التركيب أخباره الكاذبة وتصوراته السامة، ويعطينا في النتيجة صورة تغيب فيها جماهير أمتنا عن مسرح الأحداث وتغدو مجرد ألعوبة تسيّرها قبضة من الأفراد بحسب هذه الصورة المزورة. فالظروف والدوافع في هذا الاتجاه أو ذاك ليست بحسب مزاعم هذا الكاتب من حصيلة الأوضاع المادية للجماهير وإنما من صنع أولئك الأفراد وكأنهم آلهة السماء. فالناس نتيجة لهذا الرأي، الناس الذين طالما حلموا مع

محيطهم العربي بالخلاص من شتات الجاهلية إلى توحيد الشمل في دولة واحدة تضم كل الأقطار العربية، هؤلاء الناس الذين لبّوا نداء التاريخ وقاموا بما يجب عليهم أن يقوموا به في ظروف حققتها جماهير أمتهم بثمن باهظ من التضحيات المريرة الجسيمة طوال عصور مديدة من الجهاد في سبيل الإعداد لبلوغ الهدف في الخلاص، بحاجة إلى من يعلمهم بأنهم عرب ليقوموا بما قاموا به وينفّذوا ما أوكلت إليهم تنفيذه طبيعة الأشياء فأدوا وظيفتهم الموكلة إليهم في وسط جماهيرهم المجاهدة!...

جلاء المستعمرين عن سورية

لم يستكن أبداً الشعب السوري للاحتلال الأجنبي من ميسلون عندما استشهد البطل قائد الجيش السوري يوسف العظمة حتى جلاء المستعمرين في السابع عشر من نيسان عام 1946. فثوراته وانتفاضاته لم تتوقف أبداً من ثورة هنانو في الشمال إلى ثورة صالح العلي في الغرب، إلى

الثورة الكبرى العامة فالانتفاضات التي لم تهدأ أبداً حتى جلاء المستعمر.

وكان المستعمرون الفرنسيون الذين أُجبروا على عقد معاهدة إلغاء الانتداب والاعتراف باستقلال سورية عام 1936 ثم نكلوا عن التصديق على هذه المعاهدة قد عادوا بقيادة ديغول ليلقوا تحت ضغط ظروف الحرب العالمية الثانية من طائراتهم على المدن السورية الرئيسية مناشير يعترفون بها باستقلال سورية، وذلك عشية مجيئهم مع الإنجليز في الثامن من حزيران عام 1941 لطرد السلطات الفيشية التي كانت قائمة فيها. ثم جاء ديغول بذاته إلى سورية وأكد اعتراف دولته باستقلال سورية وإلغاء الانتداب الفرنسي عليها بخطاب ألقاه في الجامعة السورية في دمشق في 29 تموز عام 1941. ولكن السلطات الديغولية بعد اعترافها هذا باستقلال سورية قامت بتعيين حكومة عميلة ونصّبت الشيخ تاج الدين الحسيني رئيساً للجمهورية الأمر الذي يتنافى مع هذا الاعتراف. واستمرت مقاومة الشعب السوري لهذا الحكم المباشر الأجنبي من خلال حكومات عميلة إلى أن اضطر

الفرنسيون في آخر الأمر إلى استدعاء المرحوم عطا الأيوبي لتشكيل حكومة مؤقتة في 25 آذار 1943 وإجراء انتخابات نيابية. وفازت القوائم الوطنية بأكثرية ساحقة وتم انتخاب المرحوم شكري القوتلي أبي الجلاء عن أرض الوطن رئيساً للجمهورية في 17 آب 1943. وطلبت الحكومة الوطنية برئاسة المرحوم سعد الله الجابري من الدول الأجنبية الاعتراف بسورية كدولة مستقلة، فاستجاب لها عدد من الدول من بينها الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية والصين وغيرها من الدول. وأعلنت سورية الحرب في 26 شباط 1945 على دول المحور لتكون عضواً في الأمم المتحدة. وبناءً على هذا الأمر وُجِّهت إلى سورية الدعوة لحضور المؤتمر التأسيسي لهذه الهيئة الدولية في سان فرنسيسكو في ذات الشهر المذكور. وكانت سلطات الاحتلال الفرنسي تنظر إلى هذه الأمور بعين الغضب وتتحين الفرص لتوجيه ضربة إلى مظاهر هذا الاستقلال وإعادة سورية إلى شبكة الاستعمار. ففي الرابع ثم السابع عشر من أيار عام 1945 نزلت في ميناء بيروت قوات مشاة فرنسية تتألف على

التـوالي مـن كتيبـة ولـواء، وذلـك لتعزيـز القـوات الفرنسـية المتواجدة حينذاك فـي سورية استعداداً لشـن العدوان الكبيـر. وقد قدمت الحكومتان السورية واللبنانية احتجاجاً شديد اللهجـة إلى المفوض السامي الجنرال بينيه على هذا التصـرف المـاس باستقلال هذين القطرين العربيين.

وكان الجيش السوري يشكل مع الجيش اللبناني ما يسمى "القطعات الخاصة" التي كانت جزءاً من المصالح المشتركة بين سورية ولبنان. وتضم هذه المصالح الجمارك وحصر الدخان (الريجي) وتشرف عليها وتديرها مباشرة سلطات الانتداب الفرنسي. وكانت وارداتها المالية تغطي تكاليف إدارات الانتداب ورواتب موظفيها ومصاريف الجيشين السوري واللبناني. وقد تشكلت، منذ أواسط الثلاثينات من هذا القرن، في هذين الجيشين خلايا الضباط القوميين العرب بهدف العمل على دعم الحكم الوطني في القطرين الشقيقين وتحقيق جلاء المستعمرين عن أراضيهما مع العمل في سبيل تحقيق الوحدة العربية. وكانت الخلايا تضم كثيرين من الضباط والعسكريين نذكر منهم على سبيل المثال مأمون

البيطار وأديب الشيشكلي ومحمد صفا وصلاح الشيشكلي وسرّي الربّاط وابراهيم أتاسي وفتحي أتاسي وصبحي العقيلي وصلاح البزري وعفيف البزري وغيرهم. وكانت الروح الوطنية تتأجج بشكل عام في صدور أولئك العسكريين المنتسبين للجيشين المذكورين. وقد تجلّت هذه الروح بحادث وقع أثناء الاحتفالات بتخريج دورة ضباط عام 1944 من الكلية العسكرية في حمص في أواسط شهر تموز، وهذه كانت دورة المرحوم أمين النفوري. وقد ظهر بجلاء في هذا الحادث أن ولاء العسكريين السوريين واللبنانيين كان لحكومتيهم الوطنيتين وليس لقيادتهم الفرنسية. فقد كان في مقدمة المدعوين، لأول مرة في تاريخ هذه الكلية، وزير الدفاع السوري المرحوم جميل مردم وكان إلى جانبه القائد العام الفرنسي لجيوش الشرق. وعندما وصل الوزير السوري إلى مدخل الكلية وشاهده العسكريون السوريون واللبنانيون، وهم: أطقم الكلية وتلاميذها وخريجوها وضباط موقع حمص ودورة طبوغرافيا تتألف من نحو عشرين ضابطاً سورياً ولبنانياً كنت أنا واحداً منهم كما كان منهم أيضاً المرحوم الشهيد جان نجيم

الذي تسنّم قيادة الجيش اللبناني فاغتالته المخابرات المركزية الأميركية بحادث يشبه حادث اغتيال المرحوم الشهيد رشيد كرامة ليأتي إلى قيادة الجيش خلفاً له اسكندر غانم الذي كان متقاعداً يعمل في مكتب الملحق العسكري الأميركي والذي اغتال مكتبه الثاني المرحوم الشهيد معروف سعد وفجّر الأوضاع في لبنان وفجّر معها الجيش اللبناني، نقول إنه عندما ترجل الوزير جميل مردم من سيارته عند مدخل باحة الكلية وبدأ عزف النشيد السوري له لم يتمالك العسكريون العرب، ضباطاً وتلاميذ ضباط ورقباء وجنوداً، أنفسهم واستبد بهم الشوق العارم للحرية فتركوا صفوفهم التي انتظموا فيها للاستقبال الرسمي لضيفهم الكبير وهرعوا راكضين من كل حدب وصوب نحوه ليحملوه على الأكتاف ويهتفوا له ويدوروا به في باحة الكلية أمام جنرالات الفرنسيين وضباطهم الذين تجمدوا هنا وهناك في زوايا الباحة وقد شلت المفاجأة تفكيرهم وعقدت ألسنتهم. ثم استمر الاحتفال على شكل مظاهرة وطنية بلغ فيها الحماس أقصاه، وقد انسحب منه الفرنسيون وتركونا نحن العرب نتمه فكان فاتحة احتفالات الجلاء المجيد عن

أرض الوطن. لذلك قال السفاح الجنرال أوليفا روجيه في تعميمه رقم 24 ب على الضباط والجنود الفرنسيين عشية ارتكابه مذبحة 29 أيار عام 1945 في دمشق: "إن العسكريين العرب في جيش الوحدات الخاصة لا يمكن الاطمئنان إليهم وانحيازهم لحكومتهم الوطنية أمر منتظر..".

وسوَّف الفرنسيون تسليم قطعات الجيش السوري إلى الحكومة الوطنية وماطلوا في الجلاء عن أرض الوطن بعد أن وضعت الحرب أوزارها في الثامن من أيار عام 1945 وانقطعت كل حجة لاستمرار وجودهم العسكري. وكانت تدور محادثات عقيمة بين الحكومتين السورية واللبنانية من جهة وبين الفرنسيين من جهة أخرى حول إعادة تلك القطعات العسكرية إلى حكومتيهما الوطنيتين وتنفيذ الجلاء. وفي السابع عشر من أيار عام 1945 أعلن المفوض السامي الفرنسي الجنرال بينه للرئيس شكري القوتلي بحضور وزير الخارجية جميل مردم أن فرانسة مستعدة للقيام بإعادة الجيشين السوري واللبناني إلى حكومتيهما لقاء معاهدة تمنحها قواعد عسكرية، برية وبحرية، في كل من الدولتين العربيتين وتبقي لها قيادة

الجيشين المذكورين. وأكد هذا الجنرال عرضه هذا خطياً لكل من حكومتي سورية ولبنان بتاريخ 18 أيار عام 1945. واجتمع لذلك في 19 أيار عام 1945 مندوبو الحكومتين العربيتين في شتورة واستعرضوا الموقف ثم قرروا في النتيجة قطع تلك المفاوضات العقيمة مع الجانب الفرنسي. وقد أُبلغت السلطات الفرنسية بهذا القرار في العشرين من الشهر المذكور، كما أُبلغت به الحكومات العربية وحكومات الدول الأخرى. وكان الفرنسيون في الواقع يعدّون العدة للانقضاض على استقلال الدولتين العربيتين، سورية ولبنان، وتحطيمه وإعادة حكمهم المباشر فيهما. وما كان من باب الصدف أن مجيء الجنرال بينيه إلى الرئيس القوتلي ليقدم مقترحاته الآنفة الذكر على شكل إنذار وقع في السابع عشر من أيار في ذات اليوم الذي تم فيه إنزال اللواء الفرنسي الذي ذكرناه أعلاه في ميناء بيروت لتعزيز قوات الاحتلال الفرنسي. وفي 23 أيار صدرت تعليمات الجنرال أوليفا روجيه بتفاصيل حركة العدوان الفرنسي على العاصمة السورية دمشق، كما صدر في 26 منه بلاغ آخر ينهيه هذا الجنرال السفاح بالعبارة

التالية "..أطلب من العسكريين الفرنسيين الصبر بضعة أيام، وقد لا يتجاوز صبرهم بضع ساعات وعند ذلك نشرع بالمجزرة الكبرى، وليكن كل واحد منكم مستعداً وسنصفي الحساب كله بضربة واحدة..".

ووجه الجنرال أوليفا روجيه إنذاره إلى رئيس المجلس النيابي سعد الله الجابري وفيه بالإضافة إلى التهديد والوعيد "أمراً" بأن تقوم شرطة البرلمان بتحية العلم الفرنسي عند إنزاله في الساعة الخامسة عن سارية المندوبية الفرنسية الواقعة في مواجهة البرلمان في العدوة الأخرى من الشارع. وكان مقرراً أن تعقد في تلك الساعة جلسة لنواب الأمة. فرفض الجابري إنذار السفاح الفرنسي، وأبلغ النواب إلغاء جلسة الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم، كما أمر شرطة المجلس أن لا تشترك باحتفال إنزال علم الأجنبي المحتل لأرض الوطن. وكان ذلك السفاح المستعمر قد اختار ذلك اليوم وتلك الساعة للقيام بذبح نواب الأمة عند عقد جلستهم المقررة فيها. ففي الساعة الخامسة والنصف من مساء ذلك اليوم التاسع والعشرين من شهر أيار عام 1945 انصبت

نيران المدفعية والرشاشات على البرلمان السوري. ثم تقدمت المشاة الفرنسية واحتلت مبناه بعد مقاومة باسلة من رجال الشرطة السورية حرسه الذين ما كان عددهم يتجاوز الثلاثين ولا يملكون من الأسلحة سوى مسدساتهم وبضع بنادق. وقام المتوحشون البرابرة بمجزرة رهيبة ذبحوا فيها أولئك الأبطال ومثّلوا بهم بتقطيع أوصالهم بالبلطات، ثم نهبوا ما يمكن نهبه وحطموا ما لا يحمل وتركوه قاعاً صفصفاً بعد أن كان تحفة من روائع اليد الدمشقية في العمار وفن التزيين. وكان المستعمرون في أثناء ذلك ينفذون خطة السفاح أوليفا روجيه في احتلال بعض المواقع في دمشق وقصف الأحياء السكنية الآمنة بالمدفعية وقنابل الطائرات وقتل المارة الآمنين في الشوارع العامة وهدم وإحراق الدوائر الرسمية. ولكن المقاومة الشعبية قامت بالرد الفوري والعفوي على أولئك البرابرة الهمج ومنعتهم من استباحة المدينة وحصرتهم في ثكناتهم وفي بعض الأحياء التي اعتادوا ارتيادها وسكناها. ودامت المعركة طوال ليل ونهار الثلاثين من أيار وامتدت إلى ما بعد ظهر الواحد والثلاثين منه. وكانت المقاومة قد

عمّت البلاد السورية منذ العشرينات من أيار. فاندلعت ثورة حماة في السابع والعشرين من أيار وكبّدت الفرنسيين خسائر فادحة وأوقعت الهزيمة بحملاتهم وتمكنت من الاستيلاء على بطارية مدفعية ذاتية الحركة من عيار 75 مم أميركية الصنع إلى جانب غنائم أخرى كبيرة من الأسلحة والمعدات وإبادة عدد كبير من المعتدين المستعمرين. وكانت فائدة هذه البطارية كبيرة جداً لنا في مقاومتنا للصهاينة في جيش الإنقاذ عام 1948 لا سيما في معارك باب الواد عند حصار القدس اليهودية ومعركة اللطرون عندما سحقنا بها هجوماً للصهاينة وملأنا سهل عمواس بجثثهم. وتمكنت المقاومة في حلب من حصر الفرنسيين في ثكناتهم وتحرير المدينة. وطُرِد المستعمرون من أقضية حلب والجزيرة ومن مدينة دير الزور. وحرر ثوار جبل العرب جبلهم واحتلوا ثكنات المستعمرين ورفعوا عليها العلم السوري. كذلك حرر الثوار درعا وإزرع وطردوا المستعمرين من محافظة حوران. وجلا الفرنسيون عن حمص تحت ضغط المقاومة كما طردوا من الساحل السوري. وقد سقط خلال نصف شهر، من عشرين

أيـار حتـى الخـامس مـن حزيـران، نحـو 620 شـهيداً مـن المقاومة السورية إلى جانب ألفين ومائة جريح.

وكانت السلطات الفرنسية في التاسع عشر من أيار قد اعتقلتني أنا وشقيقي صلاح الدين البزري في مدينة حمص حيث كنت ضابطاً في كتيبة مدفعية وكان شقيقي مدير مكتب الموقع للهندسة، ونقلنا إلى السجن العسكري في بيروت الـ (D.T.L) حيث التقينا برفيقنا الضابط سرّي الربّاط الذي أوقف في بيروت. ولم تطل إقامتي كثيراً في هذا السجن فقد تمكنت في الساعة الثانية من بعد منتصف ليلة الخامس من حزيران من الفرار منه والالتحاق بالحكومة الوطنية في دمشق. وقد صادفت أثناء فراري وابتعادي عن السجن شيخين، رجل وامرأته، يتسامران على باب خان يخصهما، وطلبت مساعدتهما فلبيا طلبي في الحال وقالت لي تلك الأم العربية المسنة، وهي تلوّح بعصاها: "تعال يا بني، إن فرانسة كلها لن تستطيع أن تأخذك مني!..". وقادني هذان الشيخان الطيبان، وهما من آل العيتاني الكرام، إلى بيت في المنطقة قضيت فيه بقية الليل، وفي اليوم الثاني خرجت بحماية شابين

بطلين من العائلة الكريمة المذكورة رافقاني بسيارتهما من بيروت إلى بيت والدي في دمشق.

وكانت السلطات الانجليزية قد تدخلت وأعادت القوات الفرنسية إلى ثكناتها وحاصرتها فيها. وتألفت لجان للعمل على تشجيع وتسهيل انسحاب العسكريين السوريين، والعسكريين العرب والمسلمين كالجزائريين والأفارقة، من مختلف القطعات الباقية بقيادة فرنسية والتحاقهم بالسلطات الوطنية السورية. وقد عمل في هذه اللجان في البدء العسكريون السوريون واللبنانيون الذين سبقوا زملاءهم بالالتحاق بالسلطات الوطنية السورية، وبعض الشخصيات المدنية كالنائبين في البرلمان السوري الأستاذ أكرم الحوراني والأستاذ عبد الرحمن الهنيدي والأستاذ صلاح البيطار وغيرهم. وكان عدد هذه اللجان يزداد بما كان ينضم إليها من العسكريين الملتحقين بالسلطات الوطنية كل يوم. الأمر الذي أضعف قبضة المستعمرين الفرنسيين وجعلهم يدركون عدم جدوى إصرارهم على عدم تلبية تسليم ما بقي من القطعات الخاصة، لا سيما أسلحة ومعدات هذه القطعات، لأن

عسكرييها كانوا يلتحقون بالسلطات الوطنية في دمشق كل يوم مع عدد غير قليل من العرب المغاربة والمسلمين الأفارقة، بحيث لم يبقَ منهم كثير في صفوف أولئك المستعمرين. وبالفعل أذعنت السلطات الفرنسية لطلب الحكومتين العربيتين، سورية ولبنان، وتم تسليم بقايا القطعات الخاصة في صيف عام 1945، وبقيت مسألة الجلاء الأجنبي عن أراضي هذين القطرين العربيين.

وكانت بريطانيا تراقب ما يجري في سورية ولبنان، طوال وجودها أثناء الحرب إلى جانب الفرنسيين كسلطة احتلال أخرى في هذين البلدين العربيين، وتحاول توجيه الأحداث في اتجاه يعزز وجودها في المنطقة العربية المشرقية: في أقطار مصر والأردن والعراق والخليج وعمان وعدن التي كان لها فيها قواعد عسكرية واجتماعية قوية. كانت تعمل على الحلول مكان الفرنسيين في سورية ولبنان استعداداً لمواجهة المسيرة الأميركية حينذاك نحو هذه المنطقة بمزيد من القواعد والأنصار. فالأميركان، كما مر معنا في الفصل السابق، كانوا في تلك الأثناء جادين في عملية بناء

إمبراطوريتهم العالمية، وكانت الصهيونية قد انحازت إليهم بشكل حاسم بعد انهيار النازية في أوروبا التي أصابها الدمار الشامل بنتيجة الحرب. فكانت بريطانيا إذن في ظل هذه الظروف تحاول تعزيز مواقعها الاستعمارية في عالم هذا الاستعمار الجديد إلى جانب بُناته الأميركان، لا سيما في منطقة النفط الشرق أوسطية وعلى طريق مناطق الثروات الأسطورية حول المحيط الهندي وفي الشرق الأقصى. يقول ديغول في مذكراته: "..غير أن بريطانيا كانت تسعى إلى فرض زعامتها على الشرق الأوسط بأكمله دون الالتفات إلى الوجود الفرنسي فيه، بحيث كانت تعمل في الخفاء حيناً لبسط سيطرتها على سورية ولبنان، وفي الجهر حيناً آخر...". انتهى قول ديغول. كانت إذن السلطات البريطانية شريكة الديغوليين في احتلال دولتي المشرق العربي سورية ولبنان تشجع كل ما يسيء إلى الوجود الفرنسي فيهما في حدود مصالحها الاستعمارية. كانت مثلاً تؤيد إلغاء الانتداب الفرنسي وجلاء جيوش فرانسة عن هذين القطرين لتسهيل ضم سورية إلى العراق أو الأردن حيث يحكم هذين القطرين

العربيين نظامان أنشأتهما مدرسة الجاسوس البريطاني الشهير لورنس، مع إقامة حكم موال لبريطانيا والصهيونية في لبنان. وسنعود بالتفصيل إلى هذا الأمر في دراستنا هذه. وهنا نقول إنه بعد أن جرت الانتخابات النيابية في شهر تموز عام 1943 وفاز فيها الوطنيون تشكلت حكومتان عربيتان وطنيتان في كل من دمشق وبيروت. وقد قلنا أعلاه إن شكري القوتلي انتخب رئيساً للجمهورية السورية بنتيجة تلك الانتخابات. أما في لبنان فقد تم انتخاب بشارة الخوري رئيساً للجمهورية وعيّن رياض الصلح رئيساً للوزراء وحميد فرنجية وزيراً للخارجية ومجيد أرسلان وزيراً للدفاع. وفي شهر تشرين الثاني من العام المذكور طرحت الحكومة اللبنانية قانوناً تلغي فيه كل الامتيازات الاستعمارية للسلطات الفرنسية بدون عقد أية معاهدة مع هذه السلطات. فجن جنون الفرنسيين وقام هيلُّو المفوض السامي الفرنسي باعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء وزجّ بهم في قلعة راشيا. ولكن وزير الدفاع الأمير مجيد أرسلان تمكن من الإفلات والذهاب إلى الجبل حيث أعلن استمرار الحكم

الوطني والثورة على الفرنسيين ومقاومتهم. فسارع تشرشل عندئذ أمام الغليان العام في كل العالم العربي وأمام الاستنكار العالمي لهذا العمل الفظيع الذي قامت به سلطات فرنسية ما زالت بلادها هي بالذات تئن تحت ربقة الاحتلال الأجنبي وهي تسعى وتستجدي الرأي العام العالمي لمساعدتها للخلاص والتحرر، نقول سارع تشرشل في هذه الظروف إلى إنذار الفرنسيين بإعادة الأوضاع في لبنان إلى ما كانت عليه خلال ثمانية وأربعين ساعة تنتهي في الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني. وتكرر ذات الشيء بعد ظهر الحادي والثلاثين من شهر أيار عام 1945 عندما أنذر البريطانيون الفرنسيين وأمروهم بسحب قواتهم من الشارع السوري إلى ثكناتهم ومعسكراتهم. ولكن الإنجليز بعد تطور الأحداث إلى الحد الذي وصل فيه الوضع الفرنسي في القطرين العربيين إلى أدنى درك من الضعف والخذلان عادوا وأبرموا مع فرانسة في شهر حزيران عام 1945 اتفاقية بيدو - بيفان، وزيري خارجية البلدين المستعمرين، وهي تنص على الجلاء التدريجي وإبقاء قوات احتلال تضمن سلامة المصالح

المزعومة في كل من سورية ولبنان. واتبعت، من ثم، الحكومتان الاستعماريتان خطة التسويف والتأجيل في تلبية طلب الجلاء عن أراضي القطرين الشقيقين. وكانت كل دولة من هاتين الدولتين المستعمرتين كثيراً ما تلقي مسؤولية عدم تلبية طلب الجلاء على الأخرى فتقول مثلاً الواحدة: "لتجلُ الأخرى كي أقوم أنا بدوري بالجلاء!..". وأخيراً تقدمت الدولتان العربيتان بشكوى إلى الأمم المتحدة ضد الدولتين الاستعماريتين ونوقشت القضية في مجلس الأمن حيث طالب الاتحاد السوفياتي بالجلاء الفوري للجيوش الأجنبية عن أراضي الدولتين العربيتين العضوين المؤسسين لتلك المؤسسة الدولية العالمية فلا يجوز تواجد جيوش أجنبية على أراضيهما دون إذن منهما، ثم استعمل المندوب السوفياتي فيشنسكي حق النقض في 18 شباط 1946 ضد قرار أميركي يسوِّف أيضاً في عملية الجلاء ويجعلها رهينة مفاوضات تطول وتطول. عند هذا الحد وجد المستعمرون الإنجليز والفرنسيون أن بقاء جيوشهم في سورية ولبنان مستحيل في ظل الأوضاع العالمية الجديدة وأمام استمرار المقاومة الشديدة لجماهير هذين البلدين

وواقع أن الجلاء الفرنسي عن سورية كان من الناحية العملية قد تمّ بمعظمه بحيث لم يعد لهؤلاء المستعمرين حينذاك سوى وجود عسكري ضعيف جداً في هذا البلد العربي نتيجة ثورة أهله المشار إليها أعلاه، نقول عند هذا الواقع لم يجد المستعمرون بداً من تنفيذ الجلاء. فكان أن غادر آخر عسكري مستعمر سورية في الساعة التاسعة من الخامس عشر من نيسان عام 1946، وتبع هذا جلاء المستعمرين عن لبنان أيضاً.

الفصل الثالث

على طريق التحرر

المجتمع السوري بعد الجلاء

كان عدد سكان القطر السوري عندما جلت الجيوش الأجنبية عن أراضيه في عام 1946 نحو أربعة ملايين نسمة. وكان اقتصاده متعدد الفروع يقوم على الزراعة والتجارة والتوسط والحرفة والصناعة الناشئة والسياحة وبعض المداخيل الأخرى التي منها مثلاً ما يحوله المهاجرون والعاملون خارج حدود القطر من أموال إلى ذويهم.

وتقول بعض الإحصائيات إن الزراعة كانت تعطي نحو 50% من الدخل القومي في الوقت الذي يعيش فيه نحو 75% من السكان من الأعمال المتعلقة بالزراعة بشكل مباشر بينما كانت تشكل الصادرات الزراعية الخام والمصنعة نحو 85% من الصادرات التي توفر بصورة أساسية ما كان يحتاجه القطر من العملات الأجنبية. وتبين هذه الصورة

بسهولة شدة الحيف اللاحق حينذاك بالفلاحين وبالفئات الأخرى المساعدة في القطاع الزراعي عند توزيع الدخل القومي على مختلف فئات السكان: إن 50% من الدخل القومي يوزع على 75% من السكان، وفيهم الفلاحون ومساعدوهم في الإنتاج الزراعي كحرفيي القرى أو المرتبطين بالقرى وأمثالهم، بينما يوزع النصف الآخر من الدخل القومي على ما بقي من سكان القطر الذي يشكل ربع السكان. فإذا قلنا أن هناك الإقطاعيين وكبار التجار والمرابين الذين يحصلون على الحصص الكبيرة في توزيع الدخل، وأن هناك أيضاً الرأسماليين الاحتكاريين الأجانب المشترين لمنتوجاتنا الزراعية بالرخص والبائعين لمنتوجاتهم المصنّعة بالغلاء نجد أن حصص المنتجين الكادحين الزراعيين كانت ضئيلة جداً بالمقياسين المحلي والعالمي. ونجد من جهة ثانية، بحسب الإحصاء الآنف الذكر، أن النشاط الاقتصادي الآخر الذي يعطي النصف الباقي للدخل القومي لا يجلب من العملات الأجنبية سوى نسبة 15%، أي ما يزيد قليلاً على سدس ما يجلبه الإنتاج الزراعي. فيكون إذن في هذه الحالة

معظم ثقل علاقات قطرنا غير المتكافئة مع النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي يقع أيضاً على عاتق الكادحين في القطاع الزراعي وفي القطاعات الأخرى المتممة. ولكن القطر السوري مع هذا، من الناحية المعاشية، كان يبدو أفضل بكثير من معظم الأقطار العربية الأخرى ومن أقطار العالم المتخلف الذي كان يرزح حينذاك تحت ثقل الاستعمار القديم. فمشاهد البؤس والشقاء التي كانت تقوم في بعض أقطار العالم المتخلف، كأقطار أميركا اللاتينية مثلاً والهند ومصر، ما وجدت على الإطلاق في سورية: كان الفلاح السوري على العموم يجد دوماً ما يقوم بأوده في قريته، وبالتالي كانت الهجرة الريفية إلى المدن في قطرنا محدودة حينذاك. أما الحد الأدنى لدخل الفرد في المدن فكان على العموم يتجاوز ضعف أو ثلاثة أضعاف مثيله في مصر مثلاً. وقد شهد قطرنا السوري نهضة صناعية كبيرة وسريعة قامت على مواردنا الخاصة وبرؤوس أموال سورية صرف ودون أية مساعدة أجنبية أو عربية في الفترة المنقضية بين الاستقلال والوحدة السورية المصرية. فعدد العمال مثلاً ارتفع خلال عقد ونصف

من الزمن من بضعة آلاف إلى أكثر من مائة ألف عامل يعملون في الصناعة الخفيفة الحديثة وفي صناعة إنتاج مواد البناء، بالإضافة إلى أكثر من ربع مليون شغّيل في قطاع النقل والتجارة والتوزيع، وبالإضافة إلى أكثر من أربعين ألف حرفي في مختلف الورشات والحرف السورية المتنوعة ذات الشهرة العالمية.

إن سورية، ككل قطر عربي آخر، بلد من العالم الثالث يقع تحت قهر النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي. وقد مرّ معنا فيما سبق من هذه الدراسة بعض خواص هذا النظام الاستعماري العالمي الذي يمر حالياً، منذ ثورة أكتوبر وقيام الاتحاد السوفياتي، بمرحلة الزوال ليحل مكانه نظام لطور أعلى من أطوار الجملة الإنسانية. فمن البديهي إذن أن يكون للنظام خواص وأن تكون الخاصة الأساسية للنظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي متجلية بقهر المتقدم المستعمر للبلد المتخلف. وعندما تنتفي هذه الخاصة فيزول الاستعمار من الدنيا فإن هذا النظام يزول بداهة ويحل محله ذلك النظام للطور الأعلى. ونجد في آخر الأمر أن تخلّص قطر من

التخلف في جملة المجتمعات الإنسانية الحالية لا بد من أن يكون بالتخلص من النظام الرأسمالي الاحتكاري الذي يفرض خاصته الآنفة الذكر فيديم تخلف المتخلفين لصالح المستعمرين. فتقدم المتخلف في إطار هذا النظام يبقى لذلك محدوداً وتبقى ارتباطات هذا المتخلف بمستعمريه قائمة إن لم تتفاقم. فسورية مثلاً بعد أن تخلصت من الاحتلال الأجنبي تقدمت اقتصادياً بعض الشيء، ولكنها بقيت منخرطة في النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي وبقي شعبها في أغلال الاستعمار الجديد كما بقي اقتصادها متخلفاً رهن النظام العالمي لهذا الاستعمار . وهنالك أيضاً العديد من المشاكل الأخرى يسببها هذا النظام العالمي للمتخلف، مشاكل يرتبط بعضها ببعضها الآخر فلا يمكن مواجهة الواحدة منها دون أن تعترض الأخريات، ونجد في نهاية الأمر أنه لا بد من أن يتحرر المتخلف من النظام العالمي المذكور ليتخلص من مشاكله التي منها تخلفه الاقتصادي والاجتماعي. فالاستعمار مثلاً مزّق الأمة العربية بعد أن هدم دار الإسلام وجعل منها أقطاراً عديدة متخلفة متنافرة، وسلب قطراً من أقطار وطننا

هو القطر الفلسطيني وأقام عليه قاعدته التي تشكل الكيان الصهيوني. فهذه المشاكل وغيرها مترابطة ولا يمكن الخلاص منها نهائياً إلا بالتحرر من نظام المستعمرين.

وسورية جزء من المنطقة الحضارية المؤلفة من وادي النيل ومن الإهليلج الخصيب الذي يحيط بالصحارى العربية ما بين المحيط الهندي جنوباً وجبال طوروس وكردستان شمالاً وبين الأبيض المتوسط غرباً والهضبة الإيرانية شرقاً. وهذه منطقة أقدم وأعرق الحضارات الإنسانية ومنطلق ثورات التوحيد لتحرير الإنسان من كل عبودية وقهر. وهي مفتاح الطرق إلى ثروات العالم الأسطورية، فهي لذلك موضع أطماع كل طامع بنهب تلك الثروات في أقطار آسيا وأفريقيا. وقد حمل أهلها دوماً رسالة الدعوة إلى تعاون بني الإنسان وتكاملهم وتكافلهم بشتى ثوراتهم التوحيدية ليقوموا على الوجه الأكمل بوظيفتهم الإنسانية التي أهّلهم لها موقعها المتوسط من أوطان العالم وليردوا الطامعين بحرمانهم من هذه الوظيفة بانتحالها أو تعطيلها. فالصليبيات التي منها حالياً إقامة الكيان الصهيوني في فلسطين ليست إلا لتثبيت أقدام أولئك الطامعين

في منطقتنا لينفذوا منها إلى مناطق الثروات الأسطورية المحيطة بالبحر الهندي وفي شرقي آسيا. وكذلك كانت إسرائيل محرساً يراقب للمستعمرين منطقة الاحتياطي العالمي للنفط محرك الحضارة المعاصرة. ثم إن تفتيت الوطن العربي يشكل سبباً أساسياً في تخلف أقطاره ووقوعها جميعها في شباك النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي القائم حالياً بشكله الجديد بزعامة الولايات المتحدة الأميركية، الشكل الذي أتينا على وصفه فيما سبق من هذه الدراسة. فخلاص سورية إذن من تخلفها ليس مسألة اقتصادية فحسب وإنما هو أيضاً مسألة قومية تاريخية تتضمن عدداً من الجوانب لا بدّ لتحقيقه من حلها جميعها وفي مقدمتها جانب تمزق أمتنا. ولكن وحدة الوطن العربي وخلاص هذا الوطن من نظام الإمبراطورية الأميركية العالمية يشكلان بداهة ضربة مميتة توجه إلى قلب هذه الإمبراطورية القائم في منطقة هذا الوطن، وبالتالي يشكلان نهاية مرحلة انتقال الجملة الإنسانية لتبلغ هذه الجملة عتبة الطور الأعلى المقبل بعد اندثار الطور العبودي الرأسمالي.

التيارات الوطنية في الأقطار العربية

قلنا إن المستعمرين الأوروبيين مزقوا شمل أمتنا وجعلوا من وطنها أقطاراً متنافرة ومتخلفة اجتماعيا. وقد بسطوا عليها شبكة علاقاتهم الرأسمالية الظالمة التي لا تنفك عن العمل في كل الفرص لزيادة ذلك التمزق ولتعميق التخلف فيها. فالقضية الأساسية أمام الحركات الوطنية العربية تتلخص إذن بالخلاص من هذه الشبكة، بالخلاص من النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي. وقلنا أعلاه إن هذا الأمر يعني قيام الدولة العربية الاشتراكية الكبرى التي تضم كل أقطار أمتنا، ويعني أيضاً بالضرورة ضرب الرأسمالية الاحتكارية العالمية في قلبها القائم في الوطن العربي، أي الوصول بالجملة الإنسانية إلى عتبة طورها الأعلى وإزالة العبودية الرأسمالية فيها. ولكن كيف نصل إلى هذه الغاية وعلى أي طريق؟.. إن كفاح أمتنا في مختلف أقطارها ضد المستعمرين القدماء والجدد هو في جوهره كفاح من أجل الخلاص من نظام القهر العالمي وليس هنالك من معنى آخر لهذا الكفاح: من غير المعقول أن نكافح لنبقى محكومين بنظام القهر الاستعماري، كما أنه

كثوار على الظلم لا يمكن أن نسعى للتقدم من أجل الوصول إلى أن نصبح شركاء لقاهري الإنسان وناهبي ثرواته الرأسماليين الاحتكاريين، وهذا على كل حال أمر غير متيسر لنا ونحن محكومين بحالة التخلف التي وضعنا فيها المستعمرون. فلننظر إذن عن قرب إلى مختلف أشكال الكفاح الذي مارسه قطرنا السوري، فهذه الأشكال لا تتغير كثيراً عندما ننتقل إلى أقطار عربية أخرى. ولننظر أيضاً إلى مختلف مذاهبنا التي دفعتنا في هذا القطر لنعمل على الخلاص من قهر المستعمرين. ويجب أن لا يغرب عن بالنا عند الكلام عن طبقات المجتمعات المتخلفة أن جميع فئات هذه المجتمعات هي على العموم فئات مقهورة يستغلها المستعمرون ميسورة كانت هذه الفئات أم فقيرة. فالتاجر أو البرجوازي هنا لا يشبه نظيره في البلاد المتقدمة، فهو لا يتعدى كونه وكيلاً لمصالحه الاستعمارية في بلده المتخلف، وهو جوهرياً بهده الصفة يتميز عن متوسطي الحال وعن الفقراء من مواطنيه.

أولاً- الإقطاع والبورجوازية:

قلنــا أعــلاه إن دخــل الإنتــاج الزراعــي فــي الاقتصــاد السـوري كـان يشـكل فـي أعقـاب الجـلاء نسـبة 50% مـن مجموع الدخل القومي الذي هو ما يبقى للبلد بعد ضياع قسم كبيـر مـن قـيم الإنتـاج بنتيجـة النهـب الرأسـمالي الاحتكـاري الاسـتعماري. وقلنـا أيضـاً إن هـذا الـدخل يـذهب بمعظمـه إلـى خزائن الإقطاعيين وشركائهم من كبار التجار والوسطاء، فلا يبقـى للكـادحين الفقـراء ومتوسـطي الحـال والمُتَعَيِّشَـة سـوى نصيب ضئيل. فقبل الإصلاح الزراعي مثلاً بلغت الملكيات الإقطاعية التي تزيد على مائة هكتـار نسبة تقدر بنحو 50% من الأراضي المستثمرة. وكان الأغنياء من الفلاحين الذين لا يمثّلون أكثر من 6% من سكان الريف، بحسب الإحصاءات عند صدور قانون الإصلاح الزراعي عام 1958، يملكون 35% من مجموع الأراضـي الزراعيـة المستثمرة. أمـا كبـار التجـار فـي المـدن الرئيسـية السـورية، وخاصـة منهـا مـدينتي دمشق وحلب، فقد كان باستطاعتهم تأسيس صناعات حديثة كبيرة بأموالهم الخاصة وأموال المساهمين الآخرين ودون أية مسـاهمة أجنبيـة أيـام الحـرب العالميـة الثانيـة وفـي أعقابهـا.

فقامت مثلاً في دمشق الشركة الخماسية لإنتاج أنواع النسيج وشركة الإسمنت وقبلها في حلب معامل الغزل والنسيج ومعامل حلج الأقطان وغير هذا من المشاريع الصناعية الحديثة. وقد قلنا أعلاه إن قطرنا السوري حقق بعض التقدم في اقتصاده بعد الجلاء، ولكن الإقطاع والبورجوازية الوطنية على اختلاف أشكالها الصناعية والتجارية والعقارية، هذه الطبقة، كانت تؤمن بأن جلاء الأجنبي عن أرض الوطن يكفي لحل جميع مشاكل العرب في الوقت الذي كانت تفتقر هي فيه إلى العقيدة الصحيحة لبناء ستراتيجية توصلها إلى تحقيق البدء بالثورة العربية الكبرى للخلاص من شبكة المستعمرين.

وقد ردد الرئيس شكري القوتلي الذي مثّل أفضل تمثيل هذه الطبقة في كل الخطب والكلمات التي كان يلقيها في شتى المناسبات المعاني التالية التي أتت في خطاب له يوم عيد الجلاء عام 1956: "..إننا نحمل أعباء رسالة قومية في هذا العالم، هي في الصميم رسالة إنسانية، مبعثها كل ما في ضمير هذا الشرق من أسمى مبادئ الدين القويم، والخلق النبيل. وليس في ديننا أو أخلاقنا أو تقاليدنا إلا كل دعوة إلى

الخير والتسامح وعدم التفاضل بين الناس إلا بما يقدّمون بين أيدي ربهم من حسنات. ونحن العرب إنما نؤمن بحق تقرير المصير لجميع الشعوب الطامحة إلى حياة الكرامة والحرية. ونؤمن بأن لا سبيل إلى سلام عادل في الأرض إلا إذا احترم الأقوياء هذا المبدأ الإنساني الرفيع. فصراعنا مع قوى البغي والعدوان أينما كان هو صراع قومي وإنساني معاً. وكفاحنا ضد الصهيونية الباغية على الأخص ليس إلا جزءاً من هذه الرسالة أيضاً. إنما الصهيونية فتنة مدمرة ودعوة إلى الحرب الشريرة والوثنية الضالة ضد كل مبادئ الدين والأخلاق. وما فلسطين العربية المغتصبة سوى حرم المقدسات وأرض الخير والرفق والسلام. ومن أجدر من العرب بحفظها ورعايتها تحقيقاً لأسمى مبادئ الحق والسلام..". ولقد كان الرئيس القوتلي يعبر على الدوام عن الإرادة التي لا تتزعزع للشعب السوري بأن يُستكمل الجلاء بالوحدة الشاملة لأمته على كامل أرض وطنها بعد القضاء على كل علاقة استعمارية عندما كان يردد المعاني الآنفة الذكر في كل خطبه وكلماته. ولكننا

نعود ونقول مرة أخرى إن تحقيق هذا الأمر هو بحد ذاته ثورة إنسانية كبرى لها دعوتها وطريقها وجهادها.

فالأقوياء الذين ورد ذكرهم في الكلمة السابقة هم المستعمرون ومن المستحيل أن يحترم هؤلاء حقوق الأمم دون قسرهم وكسر شوكتهم وإزالة نظامهم العالمي المبني على استعباد الإنسان. وفي الواقع، إن الطبقة التي حكمت سورية بعد الجلاء، وهي طبقة الإقطاع والبورجوازية التي قادت بلا منازع جهاد الشعب السوري ضد المستعمر الغاصب طوال مدة الانتداب تحت أعلام الكتلة الوطنية، بدت حينذاك "مرتاحة ومقتنعة إلى درجة الشعور بالاكتفاء" بما حصل من استقلال سياسي لوطنها السوري. لقد شعرت بأنها أصبحت في موقع "السيادة" على هذا الوطن بدلاً من المستعمر الذي جلا، وبأن بإمكانها تحسين موقع "إقطاعها" هذا في جملة النظام العالمي. ولكن المستعمرين لم يتركوا لها هذا "الحلم الجميل" تنعم به طويلاً. فالتغيرات التي خلفتها الحرب العالمية الثانية أخذت تعصف بالكيانات الاستعمارية القديمة. وكانت الولايات المتحدة الأميركية تعمل، كما مرّ

معنا في فصل سابق، على صياغة الاستعمار الجديد ببناء إمبراطوريتها العالمية في الوقت الذي كانت فيه الاحتكارية البريطانية تسعى إلى بناء وتوطيد كيان لها في النظام العالمي الجديد إلى جانب الأميركان الزعماء الجدد للاستعمار في العالم. وكان الهجوم الصهيوني على القطر الفلسطيني قد بلغ أقصى درجات الشدة ولكن في هذه المرة بالشكل الأميركي، بدلاً من الشكل الإنجليزي الذي قام في فترة ما بين الحربين العالميتين، وذلك لإقامة قاعدة الاستعمار الجديد في قلب وطننا العربي بدولة إسرائيل. واشتد الغليان الثوري وعمّ في كل الأقطار العربية من المحيط إلى الخليج. وما كانت تلك الطبقة الحاكمة في سورية ممالئة للمستعمرين ومستسلمة لمخططاتهم، بل إنها وقفت على العموم في صف مقاومة مشاريعهم. فهي على كل حال قد نبتت في تربة إنسان هذه المنطقة ذي الماضي العريق بالحضارات وبالصراع مع الصليبيات العدوانية الطامعة. وقد قلنا إنها قادت الجهاد من أجل جلاء المستعمر عن أرض الوطن. وما كانت الفئات المفرّطة بحقوق الوطن بينها والمحالفة للمستعمرين إلا قلّة

ضئيلة منبوذة لا حول لها ولا طول حتى في أيام الاحتلال الأجنبي. ولكنها كانت غارقة في عمايات الجهل والجاهلية، وكانت قد جمّدت بوثنيتها مُثُلَ أمتها التاريخية الثورية وجعلت منها مجرد ذكريات "مقدسة" للاجترار كذكريات النبلاء المفلسين. أما المقاومة لمشاريع المستعمرين فما كانت تمس نظامهم العالمي واقتصرت على محاولات إصلاح ما يسببوه لقطرنا من أذى دون العمل الجدّي للخروج من عالمهم العبودي بالعمل على اقتلاع هذا النظام من أرض الوطن. فقيام القاعدة الصهيونية في فلسطين مثلاً كانت، وما تزال، في ظنهم حدث يهودي منفصل عن البنية العالمية الاستعمارية، والتخلف هو أمر يمكن تلافيه "بالشطارة" وتقليد "حذق" المتقدمين فهو ليس نتيجة لعبودية نظام هؤلاء "المتقدمين" في العالم، ليس الظاهرة الطبيعية الضرورية لهذا النظام العبودي بحسب هذا الظن. بل إن بريق الأمل الخلّب باكتشاف روح العدل والإنصاف في المستعمرين كان، وما يزال، الهادي لتصرفات هذه الطبقة. وقد عبر الرئيس القوتلي عن هذا الأمر بكل وضوح بعبارته التالية التي وردت أعلاه بخطابه بعيد

الجلاء عام 1956: "..ونؤمن بأن لا سبيل إلى سلام عادل في الأرض إلا إذا احترم الأقوياء هذا المبدأ الإنساني الرفيع (مبدأ حق تقرير المصير لجميع الشعوب الطامحة إلى حياة الكرامة والحرية)...". مع العلم أن هؤلاء "الأقوياء" هم الذين لا ينفكون عن تعذيب الإنسانية بعدوانيتهم وشرهم منذ ابتلاء أميركا اللاتينية بهم، ومنذ إبادتهم للهنود الحمر، حتى يومنا هذا. وهم الذين أبادوا مئات ألوف الأنفس بقنابلهم الذرية لمجرد تجريب هذا السلاح في الإنسان وتجمعاته وممتلكاته دون أية ضرورة عسكرية.

ولم ترَ الطبقة الحاكمة في سورية واقع عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية على حقيقته لتحيي ما تجتره من ذكريات الأجداد العظام، الذكريات التي يعبّر عنها نشيدها الوطني. لم تعمل على إحياء هذا الماضي بوعي العالم الموضوعي وروح المؤمن المصمم كما فعل أولئك الأجداد العظام في عصورهم، أو كما فعلت هي بالذات عندما قادت مقاومة احتلال المستعمر لأرض الوطن. لم ترَ نشوء الاستعمار الجديد من بين أنقاض الاستعمار القديم، بل إنها

تغاضت عنه إن لم نقل أنها ساعدته في تمكين جذوره في أوطانها فأضاعت تلك الفرصة الذهبية لخنقه في مهده قبل أن يستفحل شره وتترسخ أسسه ويتوطد بناؤه بتمام بناء إمبراطوريته الجديدة المتعددة الرؤوس بزعامة أكبرها الذي هو الولايات المتحدة الأميركية. مع أن رياح الاستقلال السياسي التي هبت في أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت مؤاتية بشكل جيد جداً كي تقوم هذه الطبقة بدعوة جدية ومخلصة تؤول إلى توحيد أقطار أمتنا العربية، أو توحيد معظمها، تحت راية ترتكز على مفاهيم تقدمية عصرية: كانت رجعيات العرب وانتهازيوهم يشكلون السد الأول والأقوى في طريق الوحدة.

ولننظر عن قرب إلى مسألة الوحدة العربية. فمن البديهي أن هذه المسألة تقوم على أن هناك أمة عربية نشأت وارتقت عبر تاريخ طويل شمل أطواراً إنسانية بكاملها بتفاعل مختلف فروعها في مجمل أرض وطنها المعروف جغرافياً. وهذا ينفي بطبيعة الحال ما تطرحه بعض العقائد الشوهاء كالتي تعيد مثلاً فضل نشوء هذه الأمة إلى فرع واحد من فروعها

الذي خرج حصراً من الجزيرة العربية نتيجة صدف تاريخية لينتشر في أرجاء الوطن المذكور و "يُعَرِّبَ" و "يدمج" في كيانه مختلف الفروع الأخرى التي تبدو في النتيجة بحسب هذه النظرة الخاطئة فروعاً غريبة طارئة على العروبة. والواقع أن نتاج تفاعل كل هذه الفروع بدون استثناء وعلى مدى تاريخ كاف أكسبها جميعها صفة العروبة بالتساوي وجعل منها كائناً مادياً واحداً هو الأمة العربية. أما اللغة الواحدة فهي التعبير عن أن هذا الكائن موجود قائم حي. وعلى هذا الأساس، أساس التاريخ المشترك المتشابك بالتفاعلات لمختلف فروع الأمة في نشوئها وارتقائها، تقوم مختلف الظواهر الأخرى للأمة في كل ظرف من ظروف جملة المجتمعات الإنسانية: في ظروف عبودية النظام الرأسمالي لجملة المجتمعات الإنسانية تكون الأمة العربية مثلاً غير موحدة ومتخلفة مادياً وروحياً ولكنها مع ذلك تكون في تميّز يوحدها بين الأمم الأخرى بخواصها المشتركة بنتيجة نشوئها وارتقائها: إن إنسان كل الأقطار العربية مثلاً له ذات النفسية المكوَّنة عبر العملية الواحدة لنشوء أمته وارتقائها

ولـه ذات الطموحـات التـي يـأتي فـي مقـدمتها الخـلاص مـن التمزق والتشـرذم وتحقيق وحدة هذه الأمـة إلـى جانـب لسـان واحد يعبّر به بلغة قرآنه عن عالمه الروحي الواحد. لذلك فإن توحيد أمتنا العربية وخلاصها من التخلف في هذا العصر هو بالضـرورة ثـورة واحـدة للخـلاص مـن النظـام الرأسـمالي الاحتكاري العالمي. فهذا النظام لا يوحد ما مزقه من الأمم إلا بالعبودية والتخلف الاجتماعي تماماً كما وحد العرب مثلاً في جامعتهم العربية وجاهليتهم المعاصرة، أو كمـا دفعهم مؤخراً إلـى تجمعـاتهم التـي بـرزت فـي الشـمال الأفريقـي والمشـرق العربـي والخليج العربـي، التجمعـات التـي يـراد بهـا إجهـاض الكفاح العربـي فـي فلسطين الـذي هـو أيضـاً فـي جـوهره كفـاح أمتنـا مـن أجـل الخـلاص مـن قهـر نظـام المسـتعمرين العـالمي والوصول إلـى توحيد أمتنـا. ونختصـر ونقول إن توحيد أمتنـا هو زحف ثوري يهدم ويجرف في طريقه الحـواجز والسـدود ويقتلـع التخلـف وكـل مرتكـزات النظـام العبـودي الرأسـمالي المتجلّـي بمختلـف الأنظمـة الرجعيـة والانتهازيـة ومختلـف

قواعده التي تأتي إسرائيل في مقدمتها ليقوم جسم الأمة حياً على كامل أرض وطنها.

وقد انقسمت طبقة الإقطاع والبورجوازية السورية حول مسألة الوحدة وانقسمت معها الكتلة الوطنية التي قادت النضال ضد الاحتلال الأجنبي إلى حزبين: الحزب الوطني وحزب الشعب، وبينهما المستقلين. فحزب الشعب الذي قام رسمياً في 1948/8/15 بنتيجة مؤتمر انعقد في فالوغا كان ميّالاً إلى الوحدة مع العراق الذي كان يقوم فيه العرش الهاشمي وتحكمه مدرسة أسسها رجل المخابرات البريطانية الشهير لورانس. والدافع إلى هذا الاتجاه في هذا الحزب قام على أسباب اقتصادية وعقائدية. فحلب مركز ثقل حزب الشعب مدينة صناعية تزدهر تجارتها مع تحسن الأحوال الاقتصادية للشمال السوري كله بفتح أسواق العراق: كانت حلب في السلطنة العثمانية ولاية هامة تمتد علاقاتها التجارية في أعماق الأناضول والعراق وإيران وتصل إلى الهند براً. وبعد انهيار السلطنة العثمانية واقتسام الأراضي العربية بين المستعمرين، حيث كان العراق والأردن وفلسطين من نصيب

الإنجليز وكان لبنان وسورية من نصيب الفرنسيين، تقلصت العلاقات الاقتصادية الآنفة الذكر لحلب وكادت تقتصر على الشمال السوري. وما كان في أيام الانتداب الفرنسي لسورية منفذ على البحر إلا من خلال ميناء بيروت القريب من دمشق. أما ميناء مدينة اللاذقية القريب من حلب فما كان موجوداً عند جلاء الفرنسيين عن سورية. ونجد من جهة أخرى الدافع العقائدي لحزب الشعب للسعي إلى إقامة الوحدة مع العراق فيما كان يردده في كل المناسبات المرحوم هاشم الأتاسي، رئيس الكتلة الوطنية طوال عهد الانتداب والأب الروحي لحزب الشعب، من أقوال مفادها أن: "في عنقه بيعة للبيت الهاشمي". وكان بقوله هذا يشير إلى يوم الثامن من آذار عام 1920 عندما نادى المؤتمر السوري برئاسته باستقلال سورية الطبيعية، من مصر حتى جبال طوروس ومن البحر حتى العراق، وبفيصل بن الحسين ملكاً عليها: لقد غدا الثامن من آذار واحداً من أعيادنا الوطنية بعد جلاء الأجنبي عن أرض الوطن. وكان أيضاً لدعوة الوحدة مع العراق صدى مستحباً في نفوس الجماهير السورية أيام الاحتلال الفرنسي.

فالعراق كان قد نال استقلالاً حينذاك بموجب معاهدة تبقي النفوذ البريطاني فيه بينما كان الفرنسيون يصرون على إطالة عمر انتدابهم على سورية بكل الوسائل التي منها نكولهم عن تصديق معاهدة عام 1936 التي أبرمتها الكتلة الوطنية معهم والتي تُبقي لهم نفوذاً في سورية كشبيهه الإنجليزي في العراق. فكانت الجماهير السورية لذلك تجد في الوحدة مع العراق خلاصاً من الانتداب الفرنسي وكسباً لوحدة مع قطر شقيق وإن شاب هذه الوحدة ذلك النفوذ للمستعمر البريطاني. إلا أن علينا هنا التأكيد مرة أخرى على أن توحيد الأقطار العربية بهذا الشكل وفي مثل تلك الظروف لا يشكل إن تم سوى تحصيل حاصل لا يغير شيئاً من واقع العدوان الاستعماري على أمتنا الذي جعلها في علاقات نظام الرأسماليين العالمي سجينة قفصهم: إن الأمة العربية، وكل أمة مزقها الاستعمار، تكون، ما دامت تكافح من أجل البقاء، موجودة، وتمزقها بالنظام الاستعماري ما هو إلا ظاهرة سطحية عابرة لوجودها الرسمي، ولكنها تبقى كائناً مادياً واحداً نشأ وارتقى عبر التاريخ. فالأمة الحية بكفاحها تشغل

بحياتها هذه أرض وطنها بكل أقطاره فتوحد هذه الأقطار بوجودها فيها من فوق كل الحدود والسدود التي أقامها الاستعمار في ظروف عابرة، كما لا تشكل أنظمتها الرجعية والانتهازية المتناقضة المتعارضة سوى زبد وبثور على السطح. فهي ما دامت معطلة الإرادة بتبعيتها لنظام المستعمرين العالمي ومحرومة في هذا النظام من العلاقات الداخلية والخارجية للأمم الحرة تكون مبتلاة بأمراض المستنقع الرأسمالي التي منها هذه الأنظمة البثور التي حكامها لا يَعْدُونَ كونهم "وقّافين" على مصالح المستعمرين. وفي هذه الصورة للواقع، وما دامت الأمة في قفص المستعمرين، فإن كل سعي إلى تشكيلة لا تخرجنا من هذا القفص أو لا تقرّبنا على الأقل من الخروج منه يكون سعياً باطلاً لا نفع فيه. فالمسألة تبقى إذن مسألة الخلاص والتحرر من نظام المستعمرين العالمي، مسألة الثورة على هذا النظام لإزالته والوصول بجملة المجتمعات الإنسانية إلى عتبة الطور الأعلى.

وكان إلى جانب التيار الوحدوي الخُلَّبي الآنف الذكر تيار آخر يقوم في صفوف طبقة الإقطاع والبورجوازية السورية الحاكمة ويعارض بشدة الهاشميين ومن ورائهم الإنجليز. وكانت الأسرة العلوية الحاكمة في مصر حينذاك مع الأسرة السعودية تساند هذا التيار الأخير بكل ما في استطاعتها. فالقطران السوري والمصري شكّلا دوماً الركيزتين المتكاملتين للاتصال الاقتصادي الآسيوي الأفريقي. وكانت الوحدة السورية العراقية، وحدة الهلال الخصيب، تخيف السعوديين الذين يرون فيها تفاقماً خطراً لنفوذ الأسرة الهاشمية في المشرق العربي، سيما وأن هذه الأسرة كانت تحكم الحجاز ولها أطماع في بناء عرش هاشمي على كل منطقة الإهليلج الخصيب الذي يحيط بسورية الطبيعية وما بين النهرين والجزيرة العربية. وكانت البورجوازية الدمشقية بغالبيتها تحبذ التقارب مع مصر والسعودية بقوة وتجد في هذين القطرين سوقاً واسعاً لتجارتها بالإضافة إلى أن لها ارتباطات تاريخية اقتصادية واجتماعية بهما: إن مدخل طريق التوابل الذاهب إلى مناطق الثروات

الأسطورية في المحيط الهندي وشرقي آسيا عبر الجزيرة العربية يقوم في سورية ومصر، بينما يقوم مدخل الطريق الأسطوري الآخر طريق الحرير الذاهب إلى الصين وتفرعاتها في شرقي آسيا عبر إيران وأواسط آسيا في سورية والعراق. وقد نشأت أمتنا العربية وارتقت في خضم الدفاع عن وظيفتها في حفظ مفتاح هذين الطريقين وسدانتهما ضد الطامعين الأغراب وخدمهم المحليين، ضد الرأسماليين الصهاينة حالياً وخدمهم من الأنظمة العربية. وكان الحزب الوطني السوري يمثِّل التيار الثاني الآنف الذكر، كما كان الرئيس شكري القوتلي الأب الروحي لهذا الحزب.

وكان من الواضح أن مثل هذه التيارات التي رفعت شعارات متعارضة لوحدة أمة عربية واحدة كانت تغفل عن عمد أوعن جهل مغزى وأخطار الدفع الاستعماري في هذا الاتجاه أو ذاك في هذه القضية: كان الإنجليز وراء التيار الهاشمي لتعزيز مواقعهم في نظام الاستعمار العالمي، بينما ساند الفرنسيون السعوديين والمصريين ضد الهاشميين ليحتفظوا بمواقع لهم في سورية ولبنان، أما الأميركيون فكانوا

يعملون على اقتلاع الاستعمارين الإنجليزي والفرنسي من المنطقة لبناء استعمارهم الجديد العالمي فيها. وكانت البورجوازية مع الإقطاع تتعامى على الأخص عن أن النظام الاستعماري العالمي بكل أوجهه القديمة والجديدة لا يسمح إلا بمزيد من تخلف وتمزق الأمم، فلا تتخذ لذلك الموقف القومي اللازم في هذه القضية من هذا النظام، وإنما كانت وما تزال تنشط وهي منخرطة تماماً فيه، فكانت شعاراتها الوحدوية ومساعيها لتحقيق هذه الشعارات لا تخرج عملياً عن محاولات السير في الطريق الذي يؤمّن مصالحها الضيقة والمحدودة والتافهة نسبياً مع مصالح المستعمرين.

ثانياً: العقائديون:

إن علينا التزاماً بالواقع وحقيقته أن نؤكد على أمور إيجابية في إنسان مجتمعنا العربي. فنقول إن هذا الإنسان بمختلف مواقعه الطبقية سليل حضارات يطول إحصاؤها والكشف عن خواصها. ولكن بإمكاننا أن نشير إلى أن هذه الحضارات بتجاربها المُرّة والحلوة التي تكررت طوال عصور عديدة مديدة جعلت من مجتمعها التربة الصالحة

لنشوء وارتقاء العقائد الإنسانية السمحة التي كانت تُجْمِلُها وتعبّر عنها، في مختلف أطوار مسيرة تقدم إنسان تلك الحضارات، ثورات التوحيد الداعية دوماً إلى الأخذ بكل أسباب التقدم الروحي والمادي في إطار أخوّة بني البشر وتعاونهم وتكاملهم وتكافلهم. وهنا يجب علينا أن نفصل بين ما ينشأ ويستفحل على تلك العقائد الثورية بمرور الزمن من وثنيات تحرف أصحابها عنها وبين أصولها، وأن ننتبه إلى أن لكل عقيدة زمانها وظروفها وإن كان لها دوماً محتوى واحداً هو تقدم الإنسان في الإطار الآنف الذكر لأُخوّته. أي باختصار: إن إنساننا العربي ثار على العبودية دوماً وهو يستنير بعقيدة تناسب ظروفه الموضوعية وتشكل بالضرورة آخر درجة على سلم ارتقاء عقائد ثوراته في سلسلة حضاراته التاريخية. فلننظر إذن فيما يلي إلى مقدار استجابة التيارات العقائدية الأساسية التي كانت تقوم في سورية، بعد جلاء المستعمر عنها، لهذه القاعدة. ولكن لنقل سلفاً إن جميع هذه التيارات العقائدية كانت معقدة بشكل أو بآخر ببريق الحضارة العبودية الرأسمالية، وكان لثقافة هذه الحضارة تأثير كبير في

تشويه رؤيتها الصحيحة للكون "فتستعير أصالتها" في كثير من الأحيان من دروس جامعاتها وبحوث مستشرقيها كهنة عبوديتها المرسلين إلينا. ثم إننا هنا لا نعرض بشكل خاص كل عقيدة من العقائد المشار إليها آنفاً بتفاصيلها فهي لها باحثوها المختصون وبحوثها التي يمكن الرجوع إليها، وإنما سنكتفي منها بما يفيد بحثنا الحالي.

جماعة الأخوان المسلمين

يمكن القول أن الإسلام مرّ بثلاثة عصور يتميز كل عصر منها بداهة بظروفه الموضوعية:

العصر الأول: عصر البناء العقائدي والمادي للطور الإسلامي العالمي ودار الإسلام، العصر الذي قام فيه طور الحرفة الحرة والتجارة العالمية النشطة بعد زوال طور الرق. وفي هذا العصر الذي امتد بصورة عامة فشمل أزمنة الدعوة والخلافتين الراشدية والأموية برزت الأمة الإسلامية ككيان بشري يضم العديد من الأجناس المترابطة بعقيدة الإسلام كما يحتوي على أجناس أخرى تلتزم بالنظام الإسلامي دون

الالتزام بالعقيدة الإسلامية. وظهر في هذه الأمة بطبيعة الحال كثير من الشيع والفئات الاجتماعية المتناقضة والمتعارضة مادياً وفكرياً بنتيجة تكوّنها. ولكن الجهاد من أجل نشر العقيدة الإسلامية وتحرير البشر من الوثنيات كان الفرض الأول على المؤمن بهذه العقيدة فيؤديه الجميع بدون استثناء، كل بما يناسب ظروفه الخاصة، بالعمل على هدم أنظمة العبودية وبالسعي إلى إقامة أقرب نظام ممكن مادياً إلى جوهر العقيدة الإسلامية وذلك بحسب اجتهاد كل فئة من الفئات الإسلامية: لم تَدْعُ أي من الفئات المتعارضة المتناقضة حينذاك إلى نبذ الإسلام وبناء عقيدة أخرى تخالفه وتعاديه بل كان الجميع يسعون باسم الإسلام إلى أهدافهم الاجتماعية السياسية و غير السياسية فلا مجال إذن لأي فرقة من تلك الفرق الإسلامية أن "تحتكر" عنوان الإسلام في دعوتها ما دام الجميع يحتجون بجوهر الإسلام، يحتجون لتعزيز دعوتهم وكفاحهم بجوهر الإسلام. وانتهى الأمر في النتيجة إلى أن جهاد المسلمين نقل العالم إلى الطور الإسلامي الآنف الذكر بإقامة دار الإسلام كعقد وسيط يربط جمل المجتمعات الإنسانية في مناطق

الحضارات العالمية الأولى الثلاث: حضارة البحر الأبيض المتوسط وحضارة الهند وحضارة الصين، ويضع هذه الجمل الثلاث في جملة إنسانية واحدة تشمل كل العالم المعروف حينذاك ويسود فيها النظام الإسلامي العالمي.

العصر الثاني: عصر دار الإسلام الذي شمل كل الأزمنة التالية التي ازدهرت فيها هذه الدار ثم تفسخت سياسياً وفي النهاية تمزقت وانهارت بحملات المستعمرين الأوروبيين الرأسماليين عليها. وفي خضم أحداث هذه الدار الواسعة الشاسعة كانت تقوم الدول وتدول بتنافس مختلف أقوامها فيما بين بعضها بعضاً. وكانت لا تنقطع حروب هذه الدار لترد عنها عوادي مختلف الأعداء وخاصة منهم أقوام أوروبا بقيادة رجعية عبودية وثنية تقودها البابوية التي كانت تحلم دوماً ببعث حكم الروم: إن مغاربة العرب حتى أيامنا هذه يطلقون اسم الروم على كل الأقوام الأوروبية غير المسلمة. وفي بدايات عصر الانحطاط قامت ممالك إسلامية لرد غارات الصليبيين المستشرية على دار الإسلام في الأندلس والمشرق العربي: قام الزنكيون والأيوبيون والمماليك الأتراك

والمرابطون والموحدون إلخ... هنا نجد أن فريضة الجهاد اتجهت نحو العمل بكل الوسائل لترسيخ كيان الأمة الإسلامية روحياً وفكرياً ومادياً. فنجد الرشيد مثلاً قد اشتهر بأنه كان يحج سنة ويغزو سنة أخرى، بينما كان عصر المأمون قمة ازدهار الطور الإسلامي فكرياً ومادياً، وتلاه عصر المعتصم الذي غدا فيه المسلم وكل رعايا نظامه في أمن مطلق، فكانت جيوش الإسلام حينذاك تهرع بجبروتها مثلاً لإغاثة امرأة صاحت "وامعتصماه!..". ثم نجد الجهاد يقوم كما قلنا لرد أولئك الصليبيين الذين يقهرون في المشرق العربي بعد صراع مرير دام قرنين من الزمان، ولكن المسلمين فشلوا في رد الوثنية الصليبية في الأندلس فدالت دولهم هناك. ونجد هنا دعوتين تسترعيان الانتباه بالاتجاه الذي أخذته عقيدة كل منهما: دعوة "المرابطين" التي اتجهت، كما يدل عليه اسمها، إلى رد عادية الصليبية عن مغرب دار الإسلام العربي والأندلسي بالمرابطة والسهر الدائم، ودعوة "الموحدين" التي اتجهت إلى صد تلك الصليبية ذاتها عن المنطقة المذكورة من دار الإسلام برفع شعار التوحيد في وجه الفرق الإسلامية

المتعددة هناك والمتناحرة وفي وجه الشرك الصليبي ووثنية المسلمين الذين تعددت معبوداتهم بتعدد أهوائهم وتضاربها. ومع كل هذا وغيره لم يحاول أحد له أهميته ووزنه أن يجدد الدعوة للإسلام بين المسلمين فلم تقم فرقة مثلاً "تحتكر" لنفسها اسم الإسلام دون الفرق الأخرى، وإن تعددت حينذاك الاجتهادات وتعارضت في الإطار العام للعقيدة الإسلامية التي تمت بجوهرها يوم حجة الوداع للرسول الكريم: كان يحدث مثلاً أن الفرقة الإسلامية الواحدة ترمي منافستها أو منافسيها بالانحراف عن خط الإسلام وحتى بالكفر ولكنها ما كانت تدّعي بأنها هي كل المسلمين وإنما هي تجاهد من أجل المسلمين وعنهم. ونقول باختصار إن الإنسان المسلم الفعال، مع الراضي بالنظام الإسلامي، كان يجاهد، أو يسعى جهده، من أجل الدفاع عن داره القائمة على نظام عالمي ينادي بأُخوّة البشر وتعاونهم وتكاملهم وتكافلهم، ينادي بسلوك الطريق المستقيم المؤدي إلى الخلاص النهائي، روحياً ومادياً، من الاستعلاء والعدوان ومن كل قيد يخلّ بتكافؤ الفرص أمام كل الناس كي ينطلقوا جميعاً في دروب الكفاح من أجل التقدم

والتغلب على سدود الطبيعة وصعوباتها. أي أن هذا الإنسان الفعّال مع مساعديه كان يقف في وجه الردة إلى الوثنية وجحيم الطغيان، كان يقف في وجه الردة التي كانت تعتمل في أوساط الأقوام الهامشية المحيطة بداره، لا سيما منها الأقوام الأوروبية بقيادة البابوية التي تمكنت في النتيجة من فرض نظام العبودية الرأسمالية على الجملة الإنسانية.

العصر الثالث: عصر تمزق دار الإسلام واستعمار أوطانها وخضوع أممها لنظام الرأسمالية وهو العصر الذي نعيش فيه حالياً. وفي هذا العصر، ككل عصر عبودي يكافح فيه الإنسان ليتحرر وينطلق في طريق التقدم الروحي والمادي، نجد أنفسنا كعرب مسلمين عقيدة أو نظاماً، كعرب لهم تاريخ ثوري طويل في الكفاح ضد التعددية الوثنية الممزِّقة للمجتمع الإنساني بأنظمة القوى الغاشمة المتنافرة بطبيعتها وأطماعها، كعرب موحدين في كل الميادين الروحية والمادية، نقول نجد أنفسنا بطبيعة وجودنا امتداداً لذلك الواقع التاريخي الطويل المديد فيكون جوهر حياتنا الحالي إذن الاستمرار في التوجه في هذا الاتجاه الإنساني. ولا بد لأمتنا،

بالتالي، من أن تسعى إلى التخلص من العبودية الرأسمالية لتعود إلى عتبة الطور العالمي الذي يوفر تعاون البشر وتكاملهم وتكافلهم، لا بد لها من أن تحقق ثورة تشكل حلقة جديدة في السلسلة الطويلة لثوراتها التاريخية ضد مختلف الوثنيات المحلية والعالمية.

إن من واجب المسلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكانت إذن الأهداف التي توختها جماعات الأخوان المسلمين في بدايات ظهورها في مختلف البلاد السورية في نهاية الثلاثينات من هذا القرن، وهي التثقيف والتوجيه وتأسيس المدارس الليلية للعمال، من صميم واجبات المسلم. وكذلك كان انتقال هذه الجماعات بعد توحدها في جماعة واحدة للكفاح من أجل تحرير الشعب السوري من ربقة المستعمرين وقهرهم، مع التعاون مع الجماعات الإسلامية الأخرى في العالم من أجل تحرير المسلمين وبعث دارهم المهدومة من أول فرائض الإسلام. ولأداء هذه الفريضة لا بد من تحقيق الأمور التالية:

أ- تحديد هوية العدو وبشكل دقيق لا لبس فيه. فقد كان يكفي في الماضي إطلاق كلمة استعمار لتحديد هوية العدو المتمثل حينذاك بالاستعمار القديم لكثرة ما عانى الناس من هذا الشكل من القهر طوال عصور عديدة فعرفوه، كما كانت تكفي كلمة رأسمالية لتعريف العامل الأوروبي على هذا الأسلوب في الإنتاج لكثرة ما قام من جدل حوله في أوساط هذا العامل. ولكن الاستعمار الجديد الذي أقامته الولايات المتحدة الأميركية في أعقاب الحرب العالمية الثانية هو من التعقيد بحيث يتطلب فهمه وتحديد هويته وعلاقات نظامه المتشابكة كثيراً من البحث والاستقصاء. وهذه مسألة ما تزال حتى يومنا هذا بحاجة إلى المزيد من الاستجلاء أمام القوى التي تتصدى للكفاح ضد هذا الشكل الجديد للقهر العالمي. فالوثنيات وكثير من المفاهيم التي تكونت خلال الكفاح الطويل ضد الاستعمار القديم وتجمدت تشكل حالياً عند المناضلين والثوار حاجزاً يحجب عنهم واقع الحياة ويرميهم في متاهات لا مخرج منها ما دام قائماً في أذهانهم وممارساتهم.

إننا نكرر إذن ونقول إن القوى الوطنية في كل بلد في العالم الثالث مع القوى التقدمية لم تنتبه في أعقاب الحرب العالمية الثانية بشكل كافٍ ومُجْدٍ إلى خطورة الاستعمار الجديد الناشئ الذي أخذ حينذاك يستفحل ويفرض نظامه العالمي بإمبراطوريته المتعددة الرؤوس على كل العالم الرأسمالي بشقيه المتقدم والمتخلف. وكان وما يزال من أبرز الظواهر في هذا الاستعمار الجديد الحركة الصهيونية العالمية وقاعدتها المتمثلة بالكيان الإسرائيلي في فلسطين إلى جانب مرتكزاته الأخرى القائمة بمختلف الأنظمة التابعة. ولكننا نجد أن حركة الأخوان المسلمين في سورية التي حاربت وتحارب الكيان الصهيوني، قاعدة النظام الرأسمالي العالمي في فلسطين، تحالف في كثير من الأوقات الأنظمة العربية التي تشكل امتداداً للنظام العالمي المذكور الذي يقهر أمتنا. إن رسولنا ومعلمنا محمداً عليه السلام دعا خدم الروم والفرس من العرب ليدخلوا في دينه وينفضوا عن كواهلهم أعباء مستعبدي أمتهم ولكنه ما حالفهم أبداً بل حاربهم عندما رفضوا

الاستجابة إلى دعوته، ثم أزال الإسلام ممالكهم الكرتونية ورماها في مزابل التاريخ.

ب- إن عنوان "جماعة الأخوان المسلمين" لا يكفي لتحديد هوية المكافح المجاهد في سبيل تحرير الأمة العربية أو الإسلامية. فهناك مثلاً كثير من المسلمين الذين انقلبوا إلى وثنيين بتجميد عقيدتهم وحشوها بالغيبيات التي ما أنزل الله بها من سلطان. ومنهم من أصبح في خدمة المستعمرين هادمي دار الإسلام فهو يسير تحت أعلامهم وفي ركابهم ضد أمته ودينه فهم لا يصلحون أبداً كجند للإسلام. كما إن هناك كثيراً من المسلمين المخلصين لتاريخهم ومعتقدهم الإسلامي وهم يخالفون "جماعة الأخوان المسلمين" في رؤيتهم للواقع ولا يوافقونهم في كثير من آرائهم. ونجد أن أقرب هوية للمكافح في سبيل التحرير من قهر المستعمرين في هذا العصر هي هوية الموحد الذي بلغ الكمال بالمسلم المجاهد من أجل إزالة كل نظام عبودي في العالم. فيكون مثلاً الصدام ورد العدوان الأميركي المعاصر بكل أشكاله في سورية بالنسبة إلى هذا الموحد جزءاً من الجهاد العالمي في سبيل تقويض الاستعمار

الجديد الذي بنته وتزعمته الولايات المتحدة الأميركية. وعلى المسلم المجاهد عندئذ، أو بالأحرى على جماعة الأخوان المسلمين عندئذ أن يحددوا نصيبهم من الجهاد العالمي المذكور لتتحدد هويتهم وتتعين حدود مهماتهم الجهادية، الأمر الذي لم يحدث أيضاً.

ج- بناءً على ما تقدم، ولأننا لم نرَ حتى يومنا هذا أي محاولة منهجية جدية لاستخلاص جوهر الإسلام الحي من قيود الضرورات العابرة مع الزمان، ومن جمود الوثنيين الغيبيين وألاعيب الانتهازيين الشطار، نجد أنه كان من الطبيعي أن لا يكون لجماعة الأخوان ستراتيجية متماسكة ترسم لهم طريق الخلاص من النظام العبودي الرأسمالي. فالإسلام عندما قامت دعوته مثلاً حدد هويته بعقيدته التي بنى بها نفوس المؤمنين، كما حدد هوية عدوه الأكبر وهو نظام العبودية لاستعلاء الأقوى على الأقل قوة القائم على إباحة استرقاق الإنسان للإنسان مع القائمين عليه: من مشركي قريش وبقية العرب ويهود الجزيرة العربية وبقية موحديها الجامدين الوثنيين إلى قياصرة الروم وأكاسرة الفرس مروراً

بخدمهم من أمثال الغساسنة والمناذرة. وكان هذا التحديد الدقيق للعدو، لعدو الإنسان، منزهاً كلياً عن الغمغمات والجمجمات الشبيهة بكل تلك التي تحاط بها هوية العدو الأميركي في أيامنا هذه. فكان الخط الستراتيجي الإسلامي واضحاً بسيطاً يتلخص بجعل الجزيرة العربية قاعدة الانطلاق لتقويض النظام العالمي العبودي حينذاك بعد تنظيفها من وثنيات المشركين واليهود والموحدين الآخرين الذين جمّدوا عقائدهم الأصلية واقتصروا منها على شعائرها وقشورها فأضاعوا التوحيد بِشِرْكٍ مناسب. وكان الهدف الستراتيجي الأساسي للإسلام لتقويض نظام الرق العالمي حينذاك: توجيه طعنة قاضية في قلب هذا النظام القائم في الإهليلج الخصيب المحيط بالجزيرة العربية ووادي الرافدين وسورية وفي وادي النيل. هذا القلب الذي تنازعه الروم والفرس خلال قرون عديدة لاحتكار لبنه وعسله والذي ما يزال حتى يومنا هذا يشكل بموقعه وثرواته والثروات المارة به والواردة إليه المضخة الأساسية التي تدفع في عروق الإمبراطورية الأميركية العالمية العبودية دماء الحياة، فهو إذن ما يزال

الهدف الستراتيجي الأول لكل ثورة عالمية، الأمر الذي لا يتضح أبداً في كتابات الأخوان، كما لا يتضح أيضاً في كتابات وأهداف الحركات العقائدية الأخرى في سورية.

ونجد باختصار أن العقائديين في العالم الثالث، في أحزابهم وأهدافهم، ومنهم الأخوان المسلمون، كانوا عملياً لا يعطون الانتباه الكافي إلى التناقض القائم بين "الظن" الخادع بأن أمم الجملة الإنسانية، وخاصة منها أمم العالم الثالث، تتمتع باستقلال مطلق وبين الواقع المر الذي هو خضوع هذه الأمم للنظام الرأسمالي الاحتكاري العبودي السائد في الجملة المذكورة والذي يستفيد منه على التوالي أشد الناس قوة فالأقوياء فالأقل قوة إلخ... بحيث نجد أن الضعفاء هم مستعمرات اليوم في الاستعمار الجديد. ونتيجة لهذا تقوم المفارقة التالية في موقف العقائديين المذكورين الذين يسكتون عن انخراط بلدهم في ذلك النظام الاستعماري العالمي في الوقت الذي يظهرون "الانزعاج" و "يحتجون" عندما يقوم الأقوياء بانتهاك "استقلالهم المزعوم" بشكل أو بآخر في ظل العلاقات العبودية للنظام المذكور. والصحيح بداهة، والأجدر

بهؤلاء العقائديين أن يمارسوا الثورة على هذا النظام العالمي لاقتلاعه من جذوره وإزالته نهائياً من الوجود وليس الدعوة فقط إلى الاحتماء من "صفعاته" أو السعي، غير المجدي للمقهور على كل حال، إلى مشاركة الأقوياء فيه، إلى توجيه "الصفعات" إلى الآخرين. إلا أن هناك ثواراً مسلمين ينعتون بالأصوليين، وهناك أخوتهم الناصريين في مصر، والمجاهدين عرب فلسطين، داخل فلسطين وحولها في القواعد، والمجاهدين اللبنانيين الصابرين، وغيرهم في كل أرجاء الوطن العربي، كل هؤلاء يبذلون الدم بسخاء في ميادين مقاومة الخيانة وقتال الأعداء الأميركان والصهاينة والمتأمركين والمتصهينين: يحاصرون الكيان الصهيوني بقواعدهم، ويقضّون مضاجع الأعداء بانتفاضتهم البطولية في القطر المحتل، ويقاومون امتداد الخيانة الساداتية في مصر بعد أن أبادوا صاحبها السادات، ويقاتلون الصهاينة والمتصهينين في لبنان، ويكافحون ويناضلون هنا وهناك في كل أرجاء الوطن، اليوم وغداً كما في الأمس وقبله، نقول إن

كل هؤلاء يجاهدون ويبذلون دماءهم كما أمر به الإسلام فهم لذلك أقرب الناس إلى روح الإسلام وجوهره.

إن الأخوان المسلمين كانوا دوماً، ولعلهم لا يزالون، من الأعداء الألدّاء للاشتراكية العلمية فيكفّرون معتنقيها في الوقت الذي يبدون فيه "التسامح" و "المودّة" للغربيين المستعمرين. فكانوا في الخمسينات من هذا القرن على عداء شديد مع البعثيين والشيوعيين. يقول مثلاً الأستاذ عدنان سعد الدين، وهو من قادة الأخوان، في حديث صحفي للوطن العربي (عدد 1988/5/27): "قامت حركة الأخوان في حماة في أواخر الثلاثينات، ويقول البعض في عام 1939 بقيادة من الشباب المثقف والتجار في المدينة. وكانت تمثل كل القطاعات من بورجوازيين وممن يسمون بالإقطاع والطلاب والعلماء والفقراء. ولم تكن تمثل شريحة اقتصادية وهذه كانت من الحجج التي نواجه بها الشيوعيين لنسفّه بها التحليل الماركسي للرأسمالية والديالكتيك والصراع الطبقي...".

الحزب السوري القومي

انطلق أنطوان سعادة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي في دعوته من عقيدة وضعها هو أولاً ثم بشّر بها وناضل واستشهد في سبيلها. ولعله كان هو وحسن البنّا مؤسس جماعة الأخوان المسلمين أول من جاهد واستشهد في هذا العصر من أمتنا العربية في سبيل الدعوة إلى عقيدة محددة متكاملة متفردة. فقد انطلق في دعوته من تحديد الهوية السورية القومية فقال: "..من نحن؟ وكان هذا السؤال الذي شغل فكري من أول بداية تفكيري الاجتماعى القومي..". وفي النتيجة قامت عقيدة الحزب على شعار "سورية للسوريين، والسوريون أمة تامة". وحدد سعادة الهدف الروحي لحركته فقال إنه " "بناء الإرادة العامة للأمة السورية التي تدفع إلى السعي نحو تحقيق الحرية بالالتزام بالنظام وتوفير القوة والقيام بالواجب". وقال: "إن هناك ارتباطاً عضوياً بين الأمة السورية وحدودها الجغرافية الوطنية، كما إن هناك وحدة عضوية للمجتمع السوري حصلت بنتيجة تفاعل تاريخي طويل للبشر في البوتقة الجغرافية السورية". وقال أيضاً في بحث بعنوان المبادئ: "إن الأحوال المشتركة للكنعانيين

والآراميـين والآشـوريين والعمـوريين والميتـانيين والأكـاديين الذين يشكل واقع وجودهم وامتزاجهم حقيقـة تاريخيـة وعلميـة لا تنـازع تجعـل مـنهم الأسـاس العضـوي التـاريخي والثقـافي بينمـا تشـكل منـاطق الهـلال الخصـيب، أي سـورية الطبيعيـة، الأسـاس الجغرافـي والزراعـي والاقتصـادي والسـتراتيجي لوحدة سورية". ويشـرح سـامي الخـوري، وهـو سـوري قـومي قيادي، أفكار سـعادة فـي رد لـه علـى سـاطع الحصـري فيقـول: "لقد قُسمت الأرض، إثـر تغيـرات جيولوجيـة معينـة حـدثت مـا قبل التاريخ، إلى عدد من المناطق الجغرافية المتمايزة سـكنتها طوائف متمايزة مستقلة جغرافياً عن بعضـها بعضـاً. وبمـرور الزمن أصبحت علاقة الإنسان بالأرض لا مجرد إعمار ولكن تفـاعلاً مـع البيئـة الطبيعيـة: بـدأ الإنسـان بتـرك آثـاره علـى الطبيعة وكذلك بدأت هي بتكييفه. فكل منطقـة جغرافيـة (علـى الكرة الأرضية) كان لها ملامح مميزة، وقد حـدث أن التفاعـل بين الإنسـان والطبيعـة الـذي تـم فـي كـل منطقـة قد اختلـف مـن طائفـة إلـى أخـرى، وقـد زادت الحضـارات المختلفـة مـن حـدة الاختلافات الآنفة الذكر، وفي النتيجة نمت ملامح خاصـة لكـل

مجتمع. وقد توسعت هذه الملامح الخاصة وتطورت وأصبحت تمثل ما دعاه سعادة روح المجتمع أو الأمة. وتشكلت حدود سياسية على الحدود الطبيعية الجغرافية منعت سكان كل منطقة من التوسع وبهذا رسمت أمامهم طريقاً واحدا للحياة فيها، وبهذه الطريقة راحوا يشكلون مجتمعاً واحداً تسوده نفس الروح. وتشكل وحدة الروح القومية هذه مع مظاهرها الثابتة الوحدة الاجتماعية. فالمجتمع في روحه وميزاته يشكل وحدة لا نستطيع معها التمييز بين العنصر البشري الذي هو قوام البنية وبين الأرض التي هي القاعدة التي استقرت عليها هذه البنية". انتهت أقوال سامي الخوري.

وواضح أن أنطوان سعادة تأثر كثيراً في بناء عقيدته القومية السورية وإقامة تنظيمات حزبه شبه العسكرية بالعقائد النازية التي كان لها رواج كبير في عالم المستعمرات في الثلاثينات من هذا القرن، وذلك بسبب الكره الذي كانت تكنّه الشعوب المقهورة للاستعمار القديم الذي كانت النازية حينذاك تحاول هدمه لبناء استعمارها الخاص بها. ولكنه، أي سعادة، كان في عقيدته المذكورة يستند على وقائع تاريخية

وموضـوعية لا جـدال فـي صـحتها وهـي أن أقـوام الهـلال الخصيب بنـت الحضـارات الأولـى للإنسـان وأن هذه الأقـوام تفاعلت فيما بين بعضها بعضاً خلال حقب تاريخية طويلة. أما النـازيون الذين ادعوا بتفوق عرقهم فقد افتقروا فـي دعواهم هذه إلى ما يشبه تـاريخ الهلال الخصيب عندما كان أجدادهم أصول عرقهم يهيمون في غابات أوروبا وصحاريها الجليديـة وهم في درك عميق من الانحطاط والتخلف. ومن البديهي أن يؤثر الإنسـان فـي بيئتـه وأن يتـأثر بهـا وأن تتفاعـل أقوامـه فـي بوتقتها لتتم تكوين مجتمعه فيها، إلا أن أيـة حدود جغرافيـة مـا كانـت تمنـع أيضـاً تفاعـل أقـوام تعـيش فـي منـاطق جغرافيـة مختلفة فيما بين بعضها بعضاً. فـالهجرات الكبـرى كانـت تقـوم فتنتقل أقوام برمتها من أقاصـي الأرض إلـى أقاصيها، كما فعل المغول مثلاً عندما انتقلوا من حدود الصين إلى أوروبـا غربـي آسـيا، وكمـا فعـل الأتـراك بهجـراتهم مـن أواسـط آسـيا إلــى غربيها. وكانـت القبـائل العربيـة تـدور فـي الإهليلج الخصيب، من وديان وواحات الجزيرة العربية إلى سهول وجبال سـوريـة والرافدين ووادي النيل، وأتـى الفتح الإسـلامي فتحركت أقوام

برمتها، عربية وأعجمية، عبر دار الإسلام الممتدة من الصين إلى اللوار ومن القفقاس إلى أواسط أفريقيا، وتفاعلت فيما بين بعضها بعضاً. لقد كان هذا، على عكس ما أكده الأستاذ الخوري بكلمته الآنفة الذكر التي شرح بها أسس العقيدة السورية القومية، دأب وديدن البشر طوال تاريخهم. ثم إن السورية القومية فصلت تعسفياً حضارات الهلال الخصيب عن جسمها الحضاري العام الذي قام في الإهليلج الخصيب ووادي النيل، الذي قام بها وبحضارات الحجاز واليمن وحضر موت وعمان والخليج ومصر، وأهملت نشوء هذه الحضارات وارتقاءها في ذات الأقوام التي شكلت مختلف روافد الأمة العربية بتفاعلها الحضاري عبر تاريخ طويل.

وعلينا أن نستلفت الانتباه إلى أمر على غاية من الأهمية وهو ما نردده باستمرار فنعيد القول بأن دعوات التوحيد التي قامت في حضارات الإهليلج ووادي النيل تشكل سلسلة واحدة مترابطة الحلقات ومتكاملة لثورات اجتماعية كبرى ضد الوثنية وهي لا تنفصل أبداً عن مجمل العملية التاريخية الواسعة الطويلة التي تكونت بها أمتنا العربية بنشوئها

وارتقائها. فهذه الدعوات ليست ضد القومية كما جاء في العقيدة السورية القومية وهي على العكس من هذا في أساس نشوء وتقدم القومية العربية نحو تكامل أبعادها وتجسدها بأمتنا، في الوقت الذي حطمت وثنيات الانحراف عنها سلسلتها التاريخية المتصلة ودعت إلى تمزيق أمتنا: الجمود والتعصب أنسى أتباع مختلف دعوات التوحيد أن عقائدهم ما هي جميعها إلا رفض واحد للاستعلاء وقهر الإنسان في إطار أمتهم أولاً ثم في الجملة الإنسانية.

إن جملة المجتمعات الإنسانية العالمية كائن مادي تكون عبر عملية تاريخية قامت بنتيجتها مختلف الأمم كأعضاء له. لذلك كان، بالبداهة، دوماً لهذه الجملة نظامها العام الواحد الذي اختلف من طور إنساني إلى آخر: في زمان واحد تكون الجملة في طور واحد يسود فيه نظام عالمي واحد هو نظام أكثر أممها تقدماً مادياً فلا تقبل أكثر من هذا النظام إلا في مراحل انتقالها من طور له نظامه العام المناسب له إلى الطور الأعلى الذي له أيضاً نظامه المناسب الواحد الذي تخضع له جميع الأمم. ونجد في النتيجة أن خلاص أمة

وتحررها من نظام عالمي عبودي مثلاً، كالخلاص من النظام الرأسمالي واستعماره، لا يكون إلا في نهاية مرحلة انتقال الجملة الإنسانية من نظامها المذكور إلى النظام الأعلى مادياً وهو في مثالنا هنا، نظام الاشتراكية المنتصرة عالميا. وهذا أمر لم تلحظه العقيدة القومية السورية فكان أتباعها في الخمسينات من هذا القرن في عداء شديد في سورية مع حزبين تبنيا العقيدة الاشتراكية هما الحزب الشيوعي وحزب البعث الذي كانت عقيدته تنادي بالوحدة العربية بالإضافة إلى السعي لتحقيق الاشتراكية.

حزب البعث العربي

في النصف الثاني من ثلاثينات هذا القرن واجهت الحركة الوطنية العربية نكسات سببت خيبات أمل كبيرة في جماهير أمتنا. فالأنظمة العربية مثلاً تدخلت قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية لإجهاض الثورة في فلسطين لصالح بريطانيا، تماماً كما نشاهده الآن من محاولات لإجهاض الجهاد في الساحة الفلسطينية، في الداخل والخارج، لصالح

أميركـا والصــهيونية. ولـم تنـل حينـذاك المعاهـدة السـورية الفرنسية التصديق النهائي من قبل فرانسة وبقيت سورية مقيدة باسـتعمار هـذه الدولـة تحـت اسـم الانتـداب، وانتُـزِع لـواء الاسكندرون من سورية وأُعطي إلى تركيا كي يكسب الحلفاء ولاء الأتراك لهم في عدائهم لألمانيا. وفشلت سياسة "التفاهم النزيه" التي نادى بها المرحوم جميل مردم أحد زعماء الكتلة الوطنية التي قلنا أعلاه أنها كانت حينذاك تقود مقاومة الشعب السـوري ضـد الاحـتلال الفرنسـي فاسـتقال رئيسـها المرحـوم هاشم الأتاسي من منصب رئيس الجمهورية، وقام المفوض السامي الفرنسي بحل البرلمان وتعيين حكومة المديرين. وكان من نتيجة هذه الظروف وأشباهها أن فقدت الأنظمة والقيادات السياسية التقليدية العربية نفوذها بين الشباب المثقف وامتدت خيبات الأمل إلى الجماهير في مختلف طبقاتها الاجتماعية. وبرز تيار ثوري قوي واسع بين الخريجين وطلاب الثانويات والجامعة السورية الذين ما كانت تهدأ لهم حال ولا يقر لهم قـرار: فيضـربون ويتظـاهرون ويصـطدمون بالمسـتعمرين وتغلق مدارسهم ومعاهدهم هنا وهناك في قطرهم السوري،

ويجتمعون فيما لا يحصى من الحلقات في المنتديات والمقاهي والبيوت والمنتزهات والشوارع في كل بلد وقرية من سورية. نقول برز تيار ثوري قوي واسع بين أولئك الشباب المثقفين القلقين يبحث ويُنْضِج بديلاً لعصبة العمل القومي التي أخذت حينذاك بالتفسخ والتلاشي.

وكانت حينذاك الهجمة الإعلامية النازية على المستعمرين القدماء قد بلغت ذروتها من الشدة. وقد قلنا إن دعايتهم هذه ما كان لها صدى سيئ في نفوس جماهير أمتنا في الوقت الذي كنا فيه نذوق ألوان العذاب من أولئك المستعمرين. فكانت عواطف الناس تتراوح بين الشماتة بهم والأمل بما كان يطرحه أولئك النازيون من وعود (وإن كانت كاذبة على كل حال فالغريق لا يخشى البلل). واندلعت الحرب العالمية الثانية وتمنى الناس عندنا أن يُهزم فيها الإنجليز والفرنسيون لا حباً بالنازية وإنما كرهاً بهم. واشتعلت ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق فارتد عليها الإنجليز بمساعدة عسكر أمير الأردن عبد الله بن الحسين وسحقوها. وكان أن هب الشعب السوري يؤيدها ويشكل اللجان لتنظيم العون

المادي لها وقد هرع كثير من الشباب السوري للالتحاق بها، ولكنها لم تدم طويلاً، الأمر الذي زاد في شعور الإحباط واليأس من الظروف والأنظمة العربية القائمة التي تمزق الوطن بتعددها وخنوعها للمستعمرين. وبرزت لذلك ضرورة العمل على توحيد الكفاح في كل أقطار الوطن العربي لتوحيد أمتنا بالتالي وبعث كيانها.

إن من المفيد هنا التأكيد على أهمية ظهور ذلك التيار من الشباب المثقف الذي ينتمي معظم أفراده إلى الفئات المتوسطة الحال التي فيها الكثير ممن يميل وضعه المعاشي إلى العسر وفيها أيضاً أبناء التجار الميسورين الذين لا يسلمون بزعامة الإقطاعيين الزراعيين. وقد كان للاتجاه القومي العربي في هذا التيار النصيب الأكبر الحاسم إلى جانب الاتجاه الديني المتمثل بجماعة الأخوان المسلمين، والاتجاه المتمثل بالسوريين القوميين. ومن الأهمية بمكان كبير التذكير بأن أصحاب الاتجاه القومي العربي كانوا منذ نهايات الثورة السورية الكبرى المسلحة وانتقال الحركة الوطنية إلى الكفاح بمختلف أشكال العصيان غير المسلح كالإضرابات

والمظاهرات التي كانت تقوم في شتى المناسبات يشكلون مع الشباب المرتبط اجتماعياً بزعامات الكتلة الوطنية المحرك الأساسي لأنواع العصيان غير المسلح: كانت المظاهرات تنطلق على العموم من مدارس التجهيز. ثم أخذ الاتجاه القومي العربي يتميز من الاتجاه الكتلوي الوطني السوري في منتصف الثلاثينات من هذا القرن فظهرت حينذاك حركة عصبة العمل القومي التي جسدت طموح الخروج من العزلة القطرية إلى توحيد حركات التحرر في كل أرجاء الوطن العربي وبعث كيان الأمة العربية على كامل أرض هذا الوطن.

إن فكر القومية وبعث كيان الأمة العربية ما كان أبداً بفضل حزب أو فئة محدودة من العرب. فالشعور القومي قد يكون قد نشأ ونمى في الأوساط العربية مع نشوء وتقدم الإسلام كرد فعل على مواقف أولئك الأعاجم الرجعيين الذين قوض العرب بثورتهم الإسلامية العظمى ملك ذويهم العبودي وحرموهم من امتيازاتهم ومنافعهم الأنانية واستعلائهم على أبناء جنسهم في دولهم البائدة والذين كان العرب المتعصبون

يسمونهم مع "كل من غضبوا عليهم أو من سبب لهم الضيق بشكل من الأشكال" بالشعوبيين. وتطور هذا الفكر القومي بضياع الملك من الأسر العربية العريقة وانتقاله في دار الإسلام إلى غير العرب فأخذ أشكال الصراع السياسي. وفي عهد أسرة محمد علي باشا (الألبانية اليونانية) التي حكمت مصر جرت محاولة لإقامة إمبراطورية عربية في المشرق العربي مبدئياً على أنقاض السلطنة العثمانية التركية. ثم أتى الشريف حسين بن علي ونادى باستعادة الخلافة إلى العرب في المشرق العربي أيضاً وحالف المستعمرين وحارب في صفوفهم الأتراك العثمانيين طمعاً في تحقيق هذه الغاية. ثم تطورت هذه الفكرة وأخذت كل أبعادها ومعانيها بدراسات الرواد المعاصرين للنهضة العربية في المشرق العربي وخاصة في سورية الطبيعية ومصر. وبعد استكمال عملية تقسيم الوطن العربي واحتلال أجزائه واستعبادها من قبل المستعمرين أصبحت القومية العربية عقيدة لكل وطني صادق يكافح من أجل الحرية. وقد أخذ هذا الكفاح في البدء الوجه القطري في كل قطر من أقطاره، ولكن الوجه القومي كان

دوماً يشكل المطلب المثالي لأولئك المكافحين وإن كانت تقوم بعض الاتجاهات الضيقة في تلك الحركات الوطنية كالفرعونية المصرية مثلاً والسورية القومية. وكان الإسلام عند القوميين العرب مصدر اعتزاز بإعلائه شأن أمتهم عندما أقام دار الإسلام التي سادت الدنيا بنظامها، كما كانت الأمة العربية عند المتدينين المسلمين أمة خصها الله بنشر رسالته في العالم فبها عندهم يبدأ تحرير المسلمين قاطبة من القهر الاستعماري. والخلاصة، إن عقيدة حزب البعث من يوم ظهوره حتى أيامنا هذه لم تضف شيئاً على ما كانت تدين به جماهير أولئك المثقفين وتدركه بوعيها الطبيعي أو بنتيجة اطلاعها على الإنجازات الفكرية الإنسانية الأوروبية: كانت مساهمة مؤسسي حزب البعث تقتصر عملياً على تنظيم جماهير المثقفين والمناضلين وحشدهم في صفوف الحزب حول عقائد منتشرة سلفاً تشكل عند هذه الجماعات رأياً عاماً بكل ما في الآراء العامة من تناقضات وغيبيات إلى جانب الأصالة. فتاريخ أمتنا كان معروفاً بشكل جيد ليس من قبل المثقفين وطلاب المدارس فحسب وإنما أيضاً من قبل العوام

الذين كانوا يتلقون أخبار أجدادهم في حلقات الدروس الدينية المنعقدة في المساجد. وبحوث الإنسانيين من أمثال أندريه جيد ورومان رولاند ونيتشه وغيرهم التي عزا الكتاب الأوروبيون إلى خرّيجَي السوربون الأستاذين ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار شرف نقلها والتأثر بها في بناء العقيدة البعثية، وقد جاراهم في هذا الرأي بعض الكتاب العرب في دراساتهم حول نشأة وتطور الحزب المذكور، نقول إذن إن بحوث الغرب الإنسانية، كانت معروفة جيداً من قبل المثقفين العرب السوريين وغير السوريين بالاطلاع على ترجماتها أو بقراءتها مباشرة بلغتها الأصلية دون لزوم الذهاب إلى باريز والانتساب إلى السوربون.

كان على مؤسسي البعث الذين رفعوا شعار توحيد الأمة العربية لتنجز رسالتها الخالدة: "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة"، أن يعملوا على ترسيخ عقيدة تتضح فيها تماماً خواص عالمنا الحالي التي تحدد بدقة هوية الثورة العربية وهوية العدو في النظام الرأسمالي العالمي. كان عليهم أن ينتبهوا إلى تطور الاستعمار العالمي من شكله القديم الذي كان يقوم قبل

الحرب العالمية الثانية إلى الشكل الجديد الذي أقامته الولايات المتحدة الأميركية في أعقاب هذه الحرب، وذلك لرسم طريق الخلاص إلى تحقيق أهداف الشعار الآنف الذكر. ورسالة أمتنا الخالدة هي تحديداً ثورة تضرب الاستعمار العالمي الجديد، المتجسد بالإمبراطورية المتعددة الرؤوس والموحدة بقيادة الاحتكارية الأميركية، في قلبه الذي هو الوطن العربي الذي تنطلق منه طرق المواصلات إلى كنوز العالم القديم والذي يكمن فيه احتياطي النفط محرك الحضارة المعاصرة. ولا تكمن هذه الرسالة الخالدة، كما يظن البعض، في قيام دولة عربية "ذات سمعة حسنة بنظر البشر" وهي منخرطة في النظام الرأسمالي الاحتكاري. لأن المنخرط في هذا النظام لا بد من أن يكون ظالماً أو مظلوماً فيفقد احترام البشر في الحالتين. وهذا الأمر ما كان واضحاً في عقيدة البعث فكان خلود الرسالة في تصورات جماهير البعث شعاراً ملحمياً مثيراً للخيال والحماس وينسحب على التاريخ المجيد لأمتنا أكثر منه شعاراً واقعياً يُطْلَبُ تحقيقه في الواقع بكل تصميم وعزم لخلاص الإنسان. إذ لا بد من القضاء على ذلك النظام

العبودي الذي يقهر البشر ويهدد الحياة على الأرض بالفناء والذي هو النظام الرأسمالي الاحتكاري. ولن يتم هذا الأمر إلا بقيام الأمة العربية الموحدة الحرة في قلب عالم إسلامي حر ينفي عبودية الإنسان بشكل مطلق. وقد ضاعت فرصة ثمينة جداً على أمتنا وعلى الإنسانية في تلك الفترة الحرجة التي انتقلت فيها قيادة الاستعمار من الأوروبيين إلى الأميركيين في أعقاب الحرب العالمية الثانية. في تلك الفترة كانت قيادة البعث، التي لا يشك في عدائها للمستعمرين وللمتآمرين على سلامة وأمن الوطن، تمارس البرلمانية الغربية الخادعة، برلمانية المرابين الرأسماليين المخدرة، لتحقيق مضمون الشعار الثوري المار ذكره أعلاه، بدلاً من ممارسة الكفاح المسلح لتكنيس بقايا الاستعمار القديم ومنع قيام الاستعمار الجديد في الوطن العربي. ولكن البعث يبقى أبداً هدف الثورة العربية.

الحزب الشيوعي

إن الإنسان كما نقول ونردد على الدوام يقوم في كائن مادي كلي هو جملة المجتمعات الإنسانية التي تنتقل من طور إلى طور بتقدمها وتكاملها. وهي في كل طور يحكمها نظام عالمي واحد مناسب يستوعب كل علاقاتها الأخرى المتقدمة منها والمتخلفة لصالح نظام المجتمع الأكثر تقدماً مادياً فيها. ولا بد للانتقال من طور إلى الطور الأعلى في هذه الجملة من مرحلة انتقال يُحَطَّمُ فيها نظامها العالمي في منطقة منها لتبرز في هذه المنطقة بوادر النظام المقبل. ومما لا ريب فيه أن ثورة أكتوبر في روسيا القيصرية كانت الفاتحة لمرحلة انتقال الجملة الإنسانية المعاصرة من الطور الذي يسود فيه النظام الرأسمالي بشكل مطلق عالمياً إلى الطور الذي سيسود فيه النظام الاشتراكي بشكل مطلق. وقد قام في مرحلة الانتقال هذه، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، معسكر اشتراكي قوي يقف نداً للمعسكر الرأسمالي. ولكن معظم العالم بقي في أصفاد العبودية الرأسمالية ولا سيما منه ذلك الذي يطلقون عليه اسم العالم الثالث، وهذا أمر طبيعي لأن الانتقال إلى الطور الأعلى لم يتم بعد. ومن الطبيعي أيضاً أن لا تتكامل

في هذه المرحلة الانتقالية أبعاد الاشتراكية في أي بلد في الجملة الإنسانية ما دامت الرأسمالية قائمة بقوتها التي تهدد عالم الأحياء بالزوال. ففي هذا الظرف العالمي أصبحت الحرب بين المعسكرين: الرأسمالي من جهة والاشتراكي من جهة أخرى، مستحيلة ما لم يغامر الإنسان بوجود الحياة على الأرض. ولكن ثورة تحرر الإنسان من النظام الرأسمالي الاحتكاري وإزالة هذا النظام بالتالي أصبحت ضرورة ملحة لإبعاد هذا التهديد بالفناء نهائياً. والثورة يقوم بها بداهة المقهورون لا سيما منهم أمم العالم الثالث وليس أولئك الذين تحرروا وأقاموا نظم الاشتراكية. وهذا صراع لا يجسر فيه الرأسماليون الاحتكاريون على استخدام الأسلحة النووية ما دام المعسكر الاشتراكي قائماً لردعهم: إن الرأسماليين معرضون أكثر من غيرهم للفناء النووي فلا يجسرون على البدء بإطلاق السلاح النووي في أي حال من الحالات وفي أي حرب من حروبهم الاستعمارية إلا إذا ضمنوا انعدام الردع، الأمر المستحيل إذ لا شيء يوقف الحرب النووية إذا انفلت السلاح النووي من عقاله في أي ظرف من الظروف.

كان الحزب الشيوعي السوري الحزب الطليعي لنشر أفكار الاشتراكية العلمية. وقد سقط منه العديد من الشهداء في سبيل العقيدة الماركسية اللينينية وفي سبيل تحرير الإنسان. وقد لوحق أعضاء هذا الحزب وشُرّدوا وسُجنوا وعُذّبوا سنين طويلة في سبيل تلك الأهداف: قال الأستاذان ميشيل عفلق وصلاح البيطار في بيان لهما حول "القومية العربية وموقفها من الشيوعية" في حزيران 1944: "كان شباب الحزب الشيوعي يعلنون عن فكرتهم ويهاجمون الاستعمار ويتعرضون لاضطهاده بجرأة تستحق الإعجاب..". إلا أنه كان على الشيوعيين السوريين مع ذلك أن يوصلوا هذه الحلقة من جهادهم بالسلسلة الطويلة لحلقات الجهاد من أجل تحرير الإنسان الذي مارسته الأمة العربية طوال نشوء وارتقاء كيانها عبر ألوف السنين. ونجد بالتالي أنه كان عليهم الاستفادة من الاشتراكية العلمية لبناء عقيدة لثورة عربية تحرر الوطن العربي وتوجه الضربة القاضية للنظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي الذي يقع قلبه في هذا الوطن. ولكنهم ما يزالون، كأكثرية الشيوعيين في العالم، ممتنعين عن

تمييز اشتراكية الطور الإنساني المقبل، المطلقة السيطرة عالمياً التي لم تقع بعد، من اشتراكية مرحلة الانتقال المتمثلة باشتراكية الاتحاد السوفياتي الحالية. فالماركسية اللينينية هي عقيدة ثورة البدء بمرحلة الانتقال، ولا يجوز التجمد عندها، ولا بد إذن من عقيدة أكثر جدة لثورة أخرى تنهي هذه المرحلة وتنقل العالم إلى عتبة الطور المقبل الأعلى.

الفصل الرابع

باكورة الاستقلال

طموحات قومية وأطماع استعمارية

مرّ معنا فيما سبق من هذا البحث أن فكر القومية وبعث كيان الأمة العربية ما كان أبداً في سورية بفضل حزب أو فئة محدودة من الناس. فالوعي القومي نشأ في الأوساط العربية منذ زمن طويل، ربما منذ أن تنافس العرب والعجم على الحكم في دار الإسلام. وأشرنا إلى أن الجماهير السورية، وخاصة منها جماهير المثقفين، كانت بعد الانتصار على الأجنبي المستعمر وإجباره على الجلاء عن أرض الوطن ممتلئة حماسة وإرادة لتحقيق كل تقدم ممكن في هذا القطر. وكان ذلك، كما هو معلوم، في نهاية الحرب العالمية الثانية

وفـي ظـروف محليـة وعالميـة يتجـدد فيهـا بنـاء العـالم فتقـوم التغيرات الهائلة في كل مكان على الكرة الأرضية. وقد دارت حينذاك الطموحات الوطنية حول محورين رئيسيين:

الأول: تعزيز استقلال سورية بالعمل على تحديث بناء مختلف مؤسساتها الوطنية لتلحق بركب التقدم؛

الثـاني: الكفـاح مـن أجـل تحقيـق الأهـداف القوميـة بإنقـاذ فلسطين وتحقيق الوحدة العربية.

ولكن مسألة فلسطين كانت بالنسبة إلى الجماهير السورية من كل الاتجاهات الوطنية تأخذ مكان الصدارة وتدفع الجميع إلى الكفاح من أجل تحقيق شعار: "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة" مع الصهاينة.

ونجد فـي النتيجـة أن الجمـاهير السـورية بطموحاتهـا هـذه وجـدت نفسـها عنـد تحقـق جـلاء المسـتعمر عـن أرض الـوطن وجهـاً لوجـه أمـام العبوديـة الرأسـمالية العالميـة التـي كانـت حينذاك في سبيلها للتحول إلى الشكل الأميركي الجديد: وحـدة الوطن العربي بعد إنقاذ فلسطين من براثن الصـهاينة وتحـديث مؤسســات أي جـزء مـن هـذا الـوطن ليـتخلص مـن التبعيـة

الاستعمارية في معاشه هي ثورة إنسانية كبرى تعارض تماماً مخطط الأميركان حينذاك عندما كانوا منهمكين في بناء إمبراطوريتهم العالمية وتزيل أيضاً الاستعمارين البريطاني والفرنسي من الوجود. لذلك أخذت الهجمة الاستعمارية في تلك الظروف على المشرق العربي أقصى جديتها وشدتها، وعلى الأخص في اتجاه سورية ولبنان بلدي العالم الثالث اللذين انطلقا وتحررا حينذاك من كل ارتباط قانوني: بمعاهدة مثلاً أو قاعدة، بأي طرف استعماري في العالم وأصبح قرار توجيه سياستهما أمراً داخلياً صرفاً تتخذه السلطات القائمة في كل منهما. وقام المستعمرون أيضاً بالتعجيل ببناء الكيان الصهيوني في فلسطين ليكون قاعدة يعملون منها على إيقاف وتعطيل المسيرة العربية في اتجاه تحقيق أهدافها القومية. ولنجمل الوضع العام في سورية الطبيعية في الفترة المنقضية بين جلاء المستعمرين الفرنسيين عن لبنان وسورية وبين وقوع أول انقلاب عسكري في القطر العربي الأخير بإعطاء الصورة التالية:

- تمتعت الجماهير في حدود الأحوال المادية التي خلّفها المستعمرون، في مجتمعي سورية ولبنان، بأجواء ضعف التأثير الاستعماري بسبب انعدام الارتباط القانوني بقدماء المستعمرين الذين أنهكتهم الحرب العالمية الثانية وتأخر قيام الاستعمار الجديد بنظامه العالمي. فنتج عن هذا الوضع، في هذه المنطقة من العالم، نوع من الشذوذ (العابر على كل حال) في النظام العالمي الذي كانت تعمل الولايات المتحدة الأميركية على تحويل علاقاته الاستعمارية القديمة إلى علاقات استعمارية جديدة كنا وصفناها فيما مضى من هذا البحث. ثم إن الديكتاتورية لا بد لها من سند استعماري لتقوم في بلد من العالم الثالث كسورية ولبنان الأمر الذي لم يقع في تلك الظروف التي كان فيها جلاء المستعمرين القدامى جديداً وكان نتيجة لجهاد قامت به كل الفئات الوطنية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار فلم يكن باستطاعة أحد في تلك الأجواء أن يمد يده إلى المستعمرين كي يساعدوه في الاستيلاء على الحكم كما حدث عام 1949 عندما استفاد حسني الزعيم من ظروف الهزيمة في فلسطين وظروف

إساءات الحكم الوطني البورجوازي. لكل هذا وأشباهه قام في القطرين العربيين المذكورين ذلك الوضع غير المنسجم مع النظام الرأسمالي العالمي المضعضع حينذاك فتمتعت لذلك جماهير هذين البلدين في تلك الفترة، سيما في أولها، بحرية قلما يشاهد مثلها حتى فيما يسمونه البلاد العريقة بالديمقراطية الرأسمالية المتقدمة. فقام لذلك صراع متكافئ، على العموم، بين القوى الاجتماعية اليمينية من جهة والقوى اليسارية من جهة أخرى، وكان ذلك طالما بقي كل طرف من هذين الطرفين لا يخلّ بقانون "اللعبة" فيقوم بعملية "غدر" غير ضرورية ومؤذية في ذات الوقت.

- بعدما جلت جيوش المستعمرين عن سورية ولبنان قامت بريطانيا بإجراء تعديل ظاهري لا يغير شيئاً من علاقاتها الاستعمارية بالقطرين الأردني والعراقي: أُبرمت معاهدة استقلال الأردن عام 1946 وتعديلها عام 1948، وتعديلاً لمعاهدة 1930 مع العراق دعي بمعاهدة صالح جبر ـ بيفان. وكان هذا الإجراء البريطاني لتسهيل المشاريع الاستعمارية لهذه الدولة في المنطقة كإقامة وحدة بين سورية

والأردن مثلاً أو بين سورية والعراق، فلا يعترض الوطنيون في سورية على مثل هذه الوحدة بسبب علاقة الأردن أو العراق ببريطانيا. والواقع كان كل من الأردن والعراق محكوماً من قبل مدرسة سياسية أسسها عميل المخابرات البريطانية الشهير لورانس، وكانت بريطانيا تعتمد على هذه المدرسة في رعاية وحفظ علاقاتها الاستعمارية في المنطقة، ولم تكن تدري أن تغيرات العصر ستطيح بإمبراطوريتها الاستعمارية في كل العالم لصالح الاستعمار الأميركي.

- انهمك المستعمرون جميعاً، وفي مقدمتهم أميركا وبريطانيا، في إقامة الكيان الصهيوني في فلسطين، وفشلت الحركة الوطنية العربية في منع وقوع هذه الجريمة الإنسانية الشنيعة بحق الشعب الفلسطيني عندما قامت بممارسة عملية التحرير في قفص المستعمرين، وأوكلت قيادة هذه العملية إلى متآمر مع المستعمرين الإنجليز هو عبد الله بن الحسين الذي عمل على تسليم أكثر من نصف ما خصص للعرب بقرار التقسيم إلى الصهاينة ليضم "مؤقتاً" إلى مملكته

الكرتونية بعض "أشلاء" فلسطين ويسمي نفسه ملكاً للأردن بدلاً من شرقي الأردن.

سقوط الإقطاع إثر جلاء المستعمر

كان بذخ أبناء العائلات الإقطاعية وتبديدهم المال عبثاً فيما لا طائل تحته وحماقاتهم وحكايات تهتكهم وأخبار رحلاتهم وارتيادهم أمكنة الفساد بمختلف أنواعه في عواصم القطر والمنطقة وأوروبا وقصص ظلمهم للفلاحين وبقية المستضعفين في المدن وكسل وتخلف شبابهم في المدارس عن رفاقهم أبناء الفئات الاجتماعية الأخرى وكل ما شابه هذه الأمور من علامات التفسخ والانحطاط الاجتماعي يثير في:

- نفوس تجار المدينة الذين يلتجئ إليهم أولئك الإقطاعيون في العادة للاقتراض "على الموسم" من أجل تغطية نفقات بذخهم ومباذلهم، الخوف على أموالهم المستقرضة من أن لا تعاد إليهم بسبب ما قد يقع من عجز في ملاءة أولئك المستقرضين المبذرين، والاحتقار لمثل هذا النمط للحياة الذي لا يؤدي إلا إلى الإفلاس والخراب؛

- ونفوس المتدينين المحافظين المتمسكين بتقاليد الدين المعادية للتهتك والتبذير ومحاكاة الأعداء التاريخيين أهل الغرب في السلوك، وعلى رأس هذه الفئات المنتشرة في كل طبقات المجتمع، يميناً ويساراً، رجال الدين المسلمين، الغضب انتصاراً "للدين والتقاليد"؛

- ونفوس المثقفين الذين يرون في الإقطاع المرض الأساسي للتخلف عن ركب الحضارة وسبباً للتبعية للمستعمرين، الاستنكار انتصاراً لمبادئ التقدم "المناسبة لعقيدة المستنكر وآرائه"؛

- ونفوس الوطنيين من كل الفئات المعادين للمستعمرين والطامحين إلى تحقيق أهداف الأمة في التقدم والوحدة، العداء انتصاراً للمقاومة ضد المستعمرين الذين كانوا على الدوام يجدون المتعاونين "الكبار" لتنفيذ مآربهم بين الإقطاعيين.

ولكن الإقطاعيين كانوا طوال أيام الانتداب، كما أشرنا إليه فيما سبق من هذا البحث، قليلي الأثر على المقاومة ضد المستعمرين، المقاومة التي كانت تقودها بحق البورجوازية

الوطنية وتضم كل فئات الشعب السوري بدون استثناء، إلا نفراً قليلاً معزولاً محتقراً. وقد انتشرت في المدن والقرى مقاومة الإقطاع منذ عهود الانتداب. كان للجماهير، التي طالما جاهدت وضحّت وبذلت ضد المستعمرين الفرنسيين في سورية وهُرِعَتْ لنصرة الأهل ضد الصهاينة والمستعمرين الإنجليز في فلسطين، نقول كان للجماهير كرامتها فما كانت تسمح أبداً لتجاوزات الإقطاعيين بالظهور بدون رد وعقاب. ونذكر مثالاً على هذا الأمر، وهو واحد من أخرى عديدة، الواقعة التالية: في الثلاثينات من هذا القرن نشرت جريدة القبس نقداً لوزير المعارف المرحوم حسني البرازي، وهو إقطاعي حموي كبير، فما كان من هذا الأخير إلا أن أمر بعض زلمه بالاعتداء على الأستاذ نجيب الريّس صاحب الجريدة المذكورة. ولكن أخا الأستاذ نجيب، الأستاذ منير الريّس، وهو مجاهد مشهور أبيّ النفس قوي الجسم، رد حالاً على هذا الاعتداء بأن قام "بتأديب" الوزير البرازي مع مرافقه الشرطي علناً في الشارع على مشهد من الناس..

وكانت من أبرز الحركات الاجتماعية لمقاومة الإقطاع حركة الشباب الحموي، التي كان جلّ أفرادها تلامذة ثانوية حماة في الثلاثينات من هذا القرن. وقد أسعدني الحظ فكنت زميلاً لهم في الثانوية المذكورة، وبقيت دوماً على صلة وطيدة معهم وصداقة حميمة مع الكثيرين منهم. وقد ألجأني تنظيمهم وحماني من ملاحقة الفرنسيين، في أعقاب ثورة رشيد عالي الكيلاني عام 1941، وأوكلوا بي أخاً شهماً مجاهداً يضنّ الدهر بأمثاله في غنى النفس وتفتح الذهن والتفاني في الكفاح من أجل الوطن الشهيد أبا رُمَيْحٍ المدني. لقد كان بيت أبي رُمَيْحٍ غرفتين من طين في أقصى حي الحاضر في حماة. ولكن أريحيته وكرمه بوسع قصور الجنان. ثم نقلني التنظيم المذكور إلى مزرعة يملكها والد صديق لي ورفيق دراسة المرحوم وجيه البرازي. وكان أصل التنظيم المذكور رابطة وطنية فكرية تنازعها اتجاهان سياسيان:

الأول: اتجاه عصبة العمل القومي العربي بتأثير الأستاذ زكي الأرسوزي الذي كان مدرساً في ثانوية حماة؛

الثـــاني: اتجـــاه ســـوري قـــومي تزعمـــه الأســـتاذ أكـــرم الحوراني.

وانقلـب التيـار السـوري القـومي فـي تلـك الرابطـة إلـى الحزب العربي الاشتراكى في نهاية الحرب العالمية الثانيـة ثم انقلب هذا الحزب الذي كان قد امتد بعيداً في الريف السوري وإلى مدن حلب وحمص ودمشق والساحل السوري، ليصبح الشق الآخر من حزب البعث العربي الاشتراكي عند اندماجه بحزب البعث العربي في أوائل الخمسينات من هذا القرن.

وشنّ حزب الشباب بقيادة الأستاذ أكرم الحوراني حرباً لا هوادة فيها على الإقطاع الحموي أولاً ثم علـى الإقطـاع فـي كل القطـر السـوري. وتمكـن مـن تسـجيل نصـر سـاحق علـى الإقطاعيين الحمويين بانتخاب الأستاذ أكرم نائباً عن حماة فـي مجلـس النـواب السـوري عـام 1943، كمـا قـاد المقاومـة البطولية الظافرة في مدينـة حماة في العشر الأخير من شـهر أيار عام 1945. ومما لا ريب فيه أن معركـة القضـاء علـى الإقطـاع السـوري كانـت بـلا منـازع بقيـادة الحـزب العربـي الاشـتراكي أولاً ثـم حـزب البعـث العربـي الاشـتراكي، وذلـك

بطبيعة الحال، عندما وجدت هذه القيادة تلك الاستجابة الموصوفة أعلاه للجماهير بمختلف فئاتها. وانتشرت تقاليد هذا الكفاح وذاع صيتها في كل الوطن العربي وكان أن استفادت الناصرية منه في كفاحها ضد إقطاعيي مصر أولاً ثم في سَنِّ قوانين الإصلاح الزراعي في الجمهورية العربية المتحدة.

إن الأستاذ أكرم الحوراني، الذي كان له أثر كبير في مجريات الأمور السورية في الأربعينات والخمسينات من هذا القرن، من مواليد عام 1912 في عائلة صاهرت الإقطاعيين آل الشيشكلي. وكان يملك بعض الأراضي الزراعية قرب مصياف. وقد أدى كفاحه ضد الإقطاع إلى أن اشتبك شقيقه واصل الحوراني وابن شقيقته غالب الشيشكلي بشجار بالأسلحة النارية في يوم من الأيام فسقط بنتيجته الخال وابن الشقيقة قتيلين معاً. وكان أكرم الطالب في كلية الطب اليسوعية في بيروت في مطلع الثلاثينات من هذا القرن منتسباً إلى الحزب السوري القومي، وكان له صديق يدرس في كلية الهندسة اليسوعية وينتسب أيضاً إلى الحزب

المذكور. وقد وقع الاختيار على هذين الشابين من قبل الحزب لاغتيال متعاون مع المستعمرين الفرنسيين كان يشغل حينذاك منصب رئيس الدولة السورية وهو صبحي بركات. وكانت النتيجة أن استشهد عبد الباسط في تلك المحاولة وفرّ أكرم عائداً إلى حماة دون أن تكشف السلطات دوره فيها. ثم غيّر دراسته فانتسب إلى كلية الحقوق في دمشق وتخرج منها ليعمل محامياً في بلده. وعلى العموم نشأ هذا المناضل الوطني الكبير في بيت كان دوماً في صراع مع الإقطاعيين الأشد قوة ونفوذاً ويلقى النتائج المادية الكارثية لهذا الصراع، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في تكوين نفسية الأستاذ أكرم.

إعادة انتخاب شكري القوتلي لرئاسة الجمهورية

قلنا إن المرحوم الرئيس شكري القوتلي قاد النضال الوطني الكبير الذي حقق جلاء المستعمر الفرنسي عن سورية. فكان هذا الإنجاز الوطني الكبير الحاسم، على ما نعتقد، السبب الأساسي في وقوع هذا القائد في الغرور على الرغم من صفاته الأخرى الإيجابية التي يأتي في مقدمتها الذكاء وحسن التدبير الدمشقيان إلى جانب الوطنية الصادقة والرغبة الأكيدة في العمل من أجل تقدم الوطن ومنعته وعميق إنسانيته وحبه لجماهير شعبه. لذلك أحاط به المنافقون ليجمّدوا الأمور عند إنجاز جلاء المستعمر عن أرض الوطن وعند ذكريات الكفاح المجيد ضد هذا المستعمر ويقيموا وثنية صغيرة تافهة حول هذه الذكريات وذلك الإنجاز وينسبوا إلى الرئيس ما يستحق وما لا يستحق من جلائل الأعمال ومن الصفات ويلقّبوه بلقب "الزعيم الرئيس" الذي كان يردده المذياع مع عبارات التعظيم والتفخيم آناء الليل وأطراف النهار والذي نحت منه لذلك المعارضون الساخرون كلمة "الزعمريس"!. يقول الأستاذ ناظم القدسي وهو يتحدث إلى باتريك سيل في حلب بتاريخ 3 تشرين ثاني عام 1960:

"كان الحزب الوطني يسهب في الحديث عن نجاحاته الماضية (في الكفاح ضد الفرنسيين) وكأنه غير عالم بما أصاب بنية البلد الاجتماعية من تغيّرات. فلقد كان ينشد احتكار الامتياز له لأنه حارب الفرنسيين". انتهى قول القدسي. والواقع إن المقصود من الحزب الوطني بهذه الكلمة هم أولئك الذين التفّوا حول الرئيس القوتلي يحرقون البخور ويتزاحمون في طلب الغنائم من وظائف بدون كفاءة ومنافع مادية بدون استحقاق، أي باختصار أولئك الكهنة لتلك الوثنية المذكورة آنفاً. فقد ابتعد في تلك الظروف القدامى من رفاق السلاح ليأتي أولئك المنافقون وخدم المستعمر بالأمس ويحتلوا المناصب والإدارات. وارتفع بالحق وبالباطل شعار "عفا الله عما مضى والاستقلال يجبّ ما قبله". إلا أنه مع كل هذا بقيت الجماهير تتمتع بحريتها المشار إليها أعلاه، ونشبت معركة سياسية كبرى بين الجمود والانتهاز من جهة وبين التقدم من جهة أخرى سيأتي ذكر تفاصيلها فيما يلي من البحث، وبقي الرئيس القوتلي ذلك الزعيم الذي لا يذهب إلى حد التنكيل بأبناء شعبه وإن ذهبوا في معارضته إلى أقصى الحدود. واختفت في هذه

الظروف القيادة الثورية التي قادت الجماهير ضد المستعمر المحتل، وقام مقامها حكم يبحث عبثاً عن الهدوء في مواجهة مستعمرين وطامعين لا يهدأ لهم حال.

ولقد كانت معركة فلسطين الآتية في أعقاب جلاء المستعمر عن سورية ظاهرة بكل وضوح للعيان وكان بالإمكان، بقيادة ثورية واعية مصممة، أن يلعب هذا القطر العربي دوراً حاسماً في تحقيق أمنية العرب في تحرير فلسطين أولاً ثم في قلب المخططات المجرمة للاستعمار الأميركي الجديد بإزكاء وتحريض المسيرة الوطنية العربية ودفعها في اتجاه بلوغ هدف أمتنا في إقامة دولتنا العربية الكبرى الموحدة في تلك الظروف التي كانت فيها جماهير العالم المظلومة تلتهب حماساً وشوقاً للتحرر من الاستعمار المضعضع المتداعي حينذاك. وكان الفرنسيون يعرضون علينا شراء كل ما كدّسوه في بلدنا طوال أيام الحرب لأغراضهم العسكرية من أسلحة وذخائر، وكانت بكميات هائلة، وكان غرضهم النكاية بغرمائهم ومنافسيهم الإنجليز، ثم توفير نفقات نقل هذه الأثقال الباهظة إلى بلادهم. ولكن

المسؤولين عندنا ردوا ذلك العرض وهم يتظاهرون "بالترفع" الكاذب عن قبوله من أولئك "المستعمرين الأعداء" ونحن بأمسّ الحاجة إلى تلك الأسلحة وذخائرها. ولقد كان لدينا الوقت الكافي لاستيعابها محلياً في سورية أو عربياً عند اللزوم، وفي كل الأحوال، كنا وفرنا على أنفسنا ذلك العجز الذي صرنا إليه بسبب فقدان السلاح والذخيرة يوم المعركة عام 1948 والذي أدى بنا إلى تشكيل لجان تشتري لمجاهدينا بواريد البدو ورصاصهم..

كان إذن، كما أسلفنا، الانتهازيون وأعوان المستعمر بالأمس والعجزة والجهلة يتصدرون المناصب الحساسة ويشكلون سدوداً مانعة أمام كل خطوة تقود إلى الاستعداد لمواجهة المستعمرين والصهاينة بشكل جدي. وأذكر بهذه المناسبة الواقعة التالية التي تصور الحالة التي كنا فيها في أعقاب جلاء المستعمر: فقد عممت قيادة الجيش أمراً لجميع العسكريين تحضّهم فيه على إبلاغها عن العسكريين السوريين الذين تعاونوا مع المستعمرين الفرنسيين أثناء عدوانهم على سورية في شهر أيار عام 1945. وكان هذا الأمر، كما هو

واضح، من باب الدجل بالإضافة إلى هدفه في تمزيق صفوف الجيش بفتح باب إطلاق الاتهامات العشوائية يمنة ويسرة وفي هذا الاتجاه وعكسه: لقد أدى إلى وصول أكداس التقارير بالآلاف إلى القيادة التي غرقت بها وأهملتها بدون أدنى ريب. وقد اهتم النقيب سعيد حبي، رئيس المكتب الثاني في قيادة الجيش حينذاك الذي خرج ذلك الأمر العجيب من مكتبه، بجوابي حول هذا الموضوع حيث قلت: "هناك ضباط تعاونوا مع المستعمرين المعتدين بحماس يفوق حماس الفرنسيين. والقيادة صاحبة هذا الأمر يمكنها معرفتهم بغير هذا الأسلوب إن لم تكن تعرفهم حتى الآن. وإنني سوف لا أبوح بأسمائهم كي لا تزيد هذه القيادة في تكريمهم وتبالغ في الاستفادة من مواهبهم!..". وقد طلب إليّ النقيب حبي سحب هذا الجواب بإصرار فرفضت بإصرار أشد وقلت له إن هذا الجواب يجب أن يبقى في محفوظات مكتبك ليكون شاهداً على أحوال هذه الأيام وبيننا المحاكم إذا شئت. وما كانت الظروف في تلك الأثناء تسمح بإحالتي إلى المحكمة لأن الخاسر في مثل هذه القضية هم أولئك الضباط الذين تعاونوا مع المعتدين

المستعمرين وذلك النفر في القيادة الذي يحميهم في تلك الأجواء الحماسية غير الملائمة لهم.

وكانت مدة مجلس عام 1943 تنتهي في عام 1947. وقد نجحت الجماهير قبل انتخاب المجلس الجديد بفرض تعديل الشكل القديم لعملية الانتخاب وجعله على درجة واحدة بدلاً من درجتين كما فرضه المستعمرون لتكون العملية المذكورة ونتائجها أطوع في أيديهم. ففازت المعارضة المؤلفة من حزب الشعب أساسياً بأكثر من ضعف ما للحزب الوطني من نواب، وهذا الحزب الأخير كان عملياً يعتبر الحزب الحاكم لأبوّة شكري القوتلي الروحية له: فاز حزب الشعب بـ 35 مقعداً مقابل 24 مقعداً للحزب الوطني. يضاف إلى هذا أن الزعماء الكبار للحزب الوطني من أمثال صبري العسلي ولطفي الحفار وأحمد الشرباتي لم يتم انتخابهم إلا في الدورة الثانية التكميلية للانتخابات، وقد جرى في هذه الدورة تزوير فاضح لإنجاحهم. وشجب حزب البعث هذه الانتخابات، التي مهدت إلى انقلاب حسني الزعيم فيما بعد، ببيان نشرته جريدة الحزب في 18 تموز عام 1947 تحت عنوان: "على

الشعب أن يثأر لكرامته فيلغي هذه الانتخابات التي جرت في ظل الحراب والبنادق". وفي هذا المجلس تم تعديل الدستور وألغيت فيه المادة 115 التي تمنع إعادة انتخاب رئيس الجمهورية بعد انتهاء ولايته مباشرة. وفي 17 نيسان 1948 تم التجديد للرئيس القوتلي في أجواء القلق والاستنكار الجماهيري العارم في سورية والعالم العربي لما يحاك من مؤامرات لتضييع فلسطين وتسليمها للصهاينة.

سقوط المرحلة الأولى للاستقلال

لنختصر أحوال النظام في سورية في فترة ما بعد الجلاء إلى انقلاب حسني الزعيم بالصورة التالية: الرئيس شكري القوتلي المغرور المتشبث بالقيادة العليا آملاً بأن يسير بالبلد إلى "شط أمان غامض" يحيط نفسه بأولئك المنافقين والانتهازيين والجهلة ويجعل منهم بتغذية أطماعهم وتصعيد شراهتهم طبقة صمّاء تحجب عن أنظاره واقع العالم. وبدلاً من أن تصعّد قيادة المجتمع السوري من ذلك الشكل الرفيع الذي كان لها أيام الجهاد ضد المحتل الأجنبي إلى شكل أكثر

تقدماً وأرفع رقياً ليجابه أخطاراً أكبر ومهاماً أخطر انحطت به إلى وثنية حمقاء تواجه تغيّراً عالمياً عاصفاً بجمودٍ أعمى. ونحن لا نبالغ عندما نقول أن النهوض الوطني العاصف في مواجهة الاستعمار الأميركي الجديد الذي حدث في سورية في أعقاب سقوط الشيشكلي كان بالإمكان حدوثه بشكل أكثر جدوى وبظروف أفضل في إثر تحقيق النصر العظيم بإجلاء المستعمر عن أرض الوطن، وذلك بتطوير تلك الجبهة الوطنية التي كانت قائمة أيام ذلك الاحتلال إلى الشكل الملائم بدلاً من النكوص بها إلى تلك الوثنية الحمقاء العمياء. لقد كان هناك مثال عالمي قائم يبرهن على إمكان قيام هذا الأمر في تلك الظروف العالمية المؤاتية حينذاك يتجسد بثورة الفييتنام التي تمكنت من إيقاع الهزيمة بكل المستعمرين: بدءاً من اليابانيين وانتهاءً بالأميركان ومروراً بالفرنسيين. وما كانت الفييتنام في وطن فسيح قوي غني كالوطن العربي وإنما أنجزت ما أنجزته بشعبها الصغير المصمم البطل وبقادتها العظام. ثم إن شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية في ظروف تلك الفترة التي نحن بصددها هو ذاته الذي كان

رئيساً للجمهورية يقود الجماهير السورية في الجهاد في سبيل طرد المستعمر المحتل ويقول لمساعديه عندما كان على سرير المرض بين الموت والحياة أثناء الهجوم الوحشي للمستعمرين على البرلمان السوري في التاسع والعشرين من أيار عام 1945: احملوني إلى ساحة المعركة لأواجه هؤلاء المستعمرين الهمج!.. وهو نفسه الذي كان رئيساً للجمهورية عام 1956 وكتب إلى نواب الأمة طالباً إقامة الجبهة الوطنية التي جعلت من سورية حينذاك تلك "الجزيرة الخضراء للحرية" التي طارت وحلّقت شهرتها في كل أنحاء العالم. نعم إن شكري القوتلي قال في رسالة وجهها إلى نواب الأمة في الخامس عشر من شباط عام 1956 ما يلي: "..إن الصهيونية التي رمت في أرضنا المقدسة جرثومة إسرائيل ومن ورائها روافد عالمية شتّى، مصدرها الخوف من انبعاث القوة العربية التي هي قوة حق وخير وحرية وسلام، لن تقوى بطبيعتها على الحياة إلا في مطارح التوسع والامتداد، وليس في طبيعتنا نحن سوى المقاومة الضارية التي لا وصف لها أبلغ من أنها مقاومة موت أو حياة.. في ميدان هذا الكفاح الرهيب

لـن يكـون فـي مواقعنـا أمـام العـدو الغـادر مـواطن للضـعف والخـور والأرض المفتوحـة الثغرات. فـإن أردتـم ـ والشـعب مصـدر هذه الإرادة العليا ـ لـن يقوم فـي مواقعنـا بوجـه العدو سـوى القـوة الصـامدة والإيمـان القـادر والمراكـز المنيعـة العزيزة.. إن إرادة هذا الشعب الذي حَمَّلَكُم إلـى مجلسكم أمانـة النصر قد أبرز في شتى مواقع جهاده أفضـل فضـائل المضـاء والإيمان والاتحاد، فلم يهن وما هانت عليه كرامته ولم ينخذل ومـا تخاذلـت بـالمحن عزائمـه. وكـم تعاقبـت عليـه أحـداث وصـروف وتكالبـت عليـه قـوى محشـودة مـن الشـر والانتقـام فخرج من الشدائد والمكائد مرفوع الجبين معزز الرايـة وقد جابهها بعزمه واتحاده وتعاقد قلوب أبنائه، وكانت فضـائله هذه خير سلاح وأفعل قوة عندما كـان يجاهد الأقويـاء أعزل من السـلاح.. أيهـا الأخـوان الأعـزاء، لقـد دعـوتكم بجماعـاتكم وأحـزابكم إلـى التضـامن والتـآزر والاتحـاد فـي حـب الـوطن واتقـاء شـر أعدائـه وأعـود اليوم لأعلـن هذه الـدعوة علـى مـلأ مـنكم فـي ظـروف دقيقـة يـراد بهـا لنـا مـا لا يتفـق مـع مصـلحة وطننا وكرامتنا، ومـا نحـن لنهـون علـى أنفسـنا وعلـى العروبـة

في مختلف ديارها ومعاقلها لنخضع لما يراد بنا أو ننحرف في مجالات الترويض والإذلال.. إنني أدعو إلى وحدة الصف والعمل القومي والتهادن الحزبي إلى أجل من الآجال لكي يكون بإمكاننا أن نضطلع بمسؤولياتنا ونقف أمام حساب التاريخ غير هيّابين ولا معذَّبي الضمير.. أدعو إلى مجابهة الأيام الشديدة بعدة من الإيمان والاتحاد والعزم هي إلى جانب قوانا وإمكانياتنا فوق قوة الخصم واعتداده بشره واسترساله بفجوره، فليس تطاوله في ساحة البغي كتعالينا في ساحة الحق والاعتداد بقوة إيماننا وعزائمنا.. هذه دعوتي إليكم يا رجال هذا الوطن، وإنني لواضع نفسي في الصفوف الأولى من المواضع التي تريدونها لوطنكم وتبتغونها لأنفسكم دفاعاً عن الحق والحرية والعزة والكرامة". انتهى قول الرئيس شكري القوتلي.

كانت انتخابات عام 1947 فرصة ثمينة للقيادة السياسية السورية لتكوين جبهة ثورية تضم كل الاتجاهات الوطنية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وتتبع سياسة داخلية معقولة تنصف الفلاحين من أولئك الإقطاعيين المتخلفين وتبني

المقاومة الوطنية للتصدي للمستعمرين جميعاً وأعوانهم في المنطقة. وكانت الظروف ملائمة جداً لتحقيق هذا الهدف في أجواء الهجمة الاستعمارية التي بلغت أوجها حينذاك بالمجاهرة العدوّة لسلب فلسطين وتسليمها للصهاينة ونشاط عبد الله بن الحسين العلني في خدمة المستعمرين الإنجليز: كان هذا الحاكم العربي يطرح في تلك الأيام مشاريع يقصد بها إلهاء العرب، وخاصة في سورية، عن قضية فلسطين، وإكمال مخطط المستعمرين فيما يتعلق بهذه القضية، إكمال مخططهم في تقسيم فلسطين المطروح حينذاك. فقام بإثارة مشروع سورية الكبرى على نطاق واسع في كل العالم العربي في ذات الوقت الذي طُرِحَ فيه مشروع تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب. وقد استثنى من هذا المشروع لبنان، الموارنة إن أمكن أو كله إن تعذر ذلك، كما استثنى اليهود في فلسطين. ومن الواضح أن الصعوبات في تنفيذ هذا المشروع تصل إلى الاستحالة في حالة استعجاله ليتحقق حينذاك فوراً، ولكنه يخدم مطامع عبد الله والإنجليز في تهيئة الأفكار للسكوت عن ضم الضفة الغربية للأردن وبالتالي إعطاء

المصداقية للعنوان الجديد للقطر الذي يحكمه عبد الله تحت اسم "المملكة الأردنية الهاشمية"، وكان قبل معاهدة 1946 يُدْعى "إمارة شرقي الأردن". نقول إذن إن ظروف انتخابات عام 1947 السورية كانت توفر فرصة ثمينة لجعل هذا القطر قاعدة لانطلاق الثورة العربية الكبرى الحاسمة بهدف النهوض بالعرب في كل أقطارهم ليحققوا أهدافهم القومية. ولكن نظام القوتلي، أولاً، ثم وضوح الطريق لتحقيق هذه الأهداف، ثانياً، والقيادة الثورية الكفوءة، ثالثاً، كل هذا ما كان مهيّأً بكل أسف مع تلك الظروف الجاهزة عالمياً ومحلياً. فكان همّ الرئيس القوتلي مثلاً قيادة معركة "دون كيشوتية" ضد عبد الله بن الحسين مع إطفاء "حماس" الشباب الوطني، وخاصة في الجيش خشيةً منه على نظامه (على زعامته التي تصاعدت غيرته عليها وخوفه من أن تمس إلى درجة ضيقه وبَرَمِهِ بكل من يتصدى للعمل السياسي: قال مثلاً مخاطباً وفداً من الشباب الجامعي، بينهم الرئيس نور الدين الأتاسي ويوسف زعيّن وابراهيم ماخوس، أتى إليه مرة لتقديم بعض المطالب: ما لكم وللسياسة، لا تضيعوا شبابكم في مثل هذه

الأمور!..). ثم كان ما كان من قيام تلك الطبقة الانتهازية الصمّاء بتزوير ذلك المجلس العاجز الذي وصفته المجلة الهزلية "المضحك المبكي" في عددها رقم 193 بالأقوال التالية لصاحبها المرحوم حبيب كحّالة الذي كان نائباً فيه: "..نظرت حواليّ وكان ما رأيته رجالاً لا يوحّد بينهم شيء، ولا يشتركون في أية مبادئ، ولا يربطهم تنظيم حزبي، وقد وصلوا إلى البرلمان بأساليب خادعة مقنّعة... ولم يزد الأمر عن مسرحية وتمثيل أدوار". انتهى قول المرحوم كحّالة.

ولقد أشرنا أعلاه إلى أن هذا المجلس كان النذير بانقلاب حسني الزعيم. وما كانت الظروف في تلك الأيام لتحتمل إلا واحداً من أمرين متعارضين: مجلس جبهة ثورية تعلن القطر السوري قاعدة انطلاق لتحرير الوطن العربي وتحقيق وحدته مهما غلا الثمن وطال الصبر لأن الهدف المنشود لا يقارن بأي ثمن ولأن خراباً نملك إعماره خير من عمار نسلّمه للعدو؛ أو ذلك المجلس الذي وصفته مجلة المضحك المبكي بالمسرح الهزلي والذي هيأ لسقوط تلك المرحلة الأولى للاستقلال بانقلاب الزعيم. فبعد انكشاف الغبار عن سقوط

الأنظمة العربية وهزيمتها في فلسطين بلغ سخط الجماهير العربية على هذه الأنظمة أوجه. وسار في طليعة الجماهير السورية حزبا العربي الاشتراكي بقيادة النائب أكرم الحوراني والبعث بقيادة عفلق والبيطار. فعُقدت الندوات وقامت المظاهرات الجماهيرية تطالب بمحاكمة المسؤولين عن النكبة في فلسطين. وكان صوت الأستاذ أكرم الحوراني (الناطق بلسان التقدميين والوطنيين حينذاك) يجلجل في البرلمان فيفضح التقصير مرة ويشجب العدوان على الحريات أخرى فلا يترك كبيرة ولا صغيرة من أمور البلد الحساسة إلا أثارها في الوقت الذي كانت فيه الجماهير بغالبيتها الساحقة تتناغم مع صرخاته المدوية. ولكن القيادة الوثنية ردت بما يزيد النيران اشتعالاً. فقام أحد تنظيماتها التافهة المغرقة بالجهل والرجعية بقيادة فيصل العسلي بالتحرش بالشباب التقدمي المعارض وجَرِّهم إلى المشاجرات. وبلغ بهم الأمر إلى أن يقوم أحد أفراد ذلك التنظيم الفاشي باغتيال شاب من آل علّوش ينتمي إلى تنظيم الحوراني على حائط البرلمان وفي وضح النهار. وأعلن وزير الداخلية صبري العسلي القانون

الفاشي رقم 50 الذي يمنع به التظاهر والنقد وغيره. وصدر بحق الأستاذ ميشيل عفلق حكماً بالسجن ستة أشهر لتعرضّه ببيان لشخص وزير الداخلية المذكور. وقبل هذا قام رجال الشرطة في الرابع من آذار عام 1948 بمداهمة قاعة كان المرحوم صلاح الدين البيطار يلقي فيها محاضرة على جمهور من الشباب حول "الدستور والحرية" وأوقفوا العشرات من الحضور. وأصدر حزب البعث في 21 تشرين الأول عام 1948 بياناً بعنوان: "حاكموا الخونة والقتلة والمختلسين قبل أن تحكموا على الأستاذ ميشيل عفلق، مؤامرة وضيعة تحاول تنفيذها الوزارة القائمة". وبلغ الغليان والهياج درجة قامت فيها مناقشة حادة في البرلمان بين الأستاذ أكرم الحوراني ووزير الدفاع أحمد الشرباتي تطورت إلى ملاسنة فاشتباك بالأيدي في الوقت الذي ركض فيه رئيس الوزراء في اتجاه باب الخروج وهو يشتم ويصرخ بصوت قد أبحه الهياج بأنه سيستقيل!.. وكانت قد قامت مظاهرة هائلة في دمشق في التاسع والعشرين من أيار، بمناسبة مرور سنة على صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين. وكان الناس في هذه

المظاهرة يطالبون باستئناف القتال حالاً ضد الصهاينة مغتصبي فلسطين وبمحاسبة المفرّطين في هذه القضية وباستقالة حكومة جميل مردم. وقام رجال الشرطة بإطلاق النار على المتظاهرين فقتلوا أربعة منهم. ثم أُعلنت حالة الطوارئ في كل القطر السوري وأُمر الجيش بالسيطرة على العاصمة "لإعادة النظام". ومُنع حمل السلاح والتجمعات لأكثر من ثلاثة أشخاص وأُمر المواطنون بأن يخلدوا إلى السكينة فلا يغادروا بيوتهم من السادسة مساءً حتى السادسة صباحاً. فكم نحن بهذه الصورة المزرية بعيدين عن تلك الصورة المشرقة المجيدة عندما كانت جماهيرنا تتكتل كالبنيان المرصوص في مواجهة المستعمرين في أيار عام 1945 وعندما كان شرطيّونا يستشهدون في سبيل الدفاع عن ذات الجماهير التي يطلقون عليها الرصاص في أعقاب تلك الهزيمة في فلسطين. فلقد بلغت الوثنية بنذالتها وحرصها الهمجي على احتكار السلطة إلى أدنى مظاهرها وأصغرها واشتد نهمها الحيواني حتى في أتفه المغانم وأحقرها، تلك الصورة المزرية التي قيّدت جماهير شعبنا السوري وجمّدت

فيه إمكان تحويل أرضه إلى قاعدة انطلاق لتحريك وتصعيد الثورة العربية ضد الاستعمار بكل أشكاله القديمة والجديدة وتحقيق تطلعات أمتنا وتطلعات الإنسانية في القضاء المبرم على هذا الاستعمار.

ولنعط فيما يلي مثلاً كان يتكرر حينذاك في سلوك تلك الوثنية الهمجية التي تنبت بداهة حول الديكتاتوريات في كل الأزمنة والعهود: في تلك الأيام التي كان فيها نظام القوتلي يحتضر في دمشق، أخذت غيوم من أوهام حول مؤامرات يدبرها المجاهد العربي فوزي القاوقجي تتكاثف في المخيلات المظلمة لمخابرات الوثنية القوتلية. وكان هدف تلك المؤامرات الموهومة بحسب ما صوّرته هذه المخابرات الإطاحة بنظام دمشق أو بنظام لبنان. وكانت دسائس المستعمرين بطبيعة الحال تغذي مثل هذه الصور الخيالية كي نقوم نحن بالقضاء على تنظيماتنا الجهادية ضدهم بأيدينا. فتفتّق ذهن المرحوم جميل مردم، رئيس الوزراء ووزير الدفاع حينذاك عن خطة غريبة لتبديد شمل جيش الإنقاذ الذي كان يقوده القاوقجي. وما كان هذا الجيش "بحاجة" إلى تبديد

بعد أن تهلهل وانحل بنتيجة القطع المزمن للإمدادات الضرورية من كل الأنواع عنه. وقام المرحوم مردم، وكانت له شهرة بالذكاء غير البنّاء، وبسياسات التفاهم النزيه، بحسب تسميته هو بالذات، مع المستعمرين، بتكليف مهرج من زلمه كي يقوم باستدراج أمين عام الجامعة العربية عبد الرحمن عزّام إلى توقيع أمر يوجه إلى مفتشية جيش الإنقاذ مآله تسريح معظم وحدات هذا الجيش ليصير العمل بعد ذلك على إلحاق ما يبقى منه بقيادة ضابط سوري "مضمون" ومقرّب من الرئيس القوتلي. وذهب ذلك المهرج، كما روى المرحوم المجاهد العقيد محمود الهندي مدير تموين الإنقاذ للقاوقجي بحضوري، إلى أمين الجامعة العربية عبد الرحمن عزام، وكان مريضاً يلازم فراشه، وأخذ يقرأ على مسامعه بريد مفتشية الإنقاذ ويأخذ توقيعه على كل ورقة يقرؤها منه. وتظاهر في أثناء ذلك بقراءة أمر مآله تعزيز جيش الإنقاذ وإمداده بما يحتاجه من أسلحة وذخائر ليتمكن من الاستمرار بالمقاومة في تلك الظروف عندما توقفت الجيوش العربية عن القتال واستعدت للذهاب إلى عقد الهدنة مع الصهاينة، إلا أنه

في الواقع كان محتوى ورقة هذا الأمر يعاكس تماماً ما تظاهر بقراءته، كان المحتوى تسريح معظم قوات الجيش المذكور وإلحاق ما بقي منه بقيادة ذلك الضابط السوري. وكانت فضيحة ضاع رنينها، بطبيعة الحال، في أصداء كارثة فلسطين. وهي تبيّن الدرك الذي انحطت إليه تلك الوثنية، ومقدار استخفافها بالناس وبلاهتها حتى يكاد الإنسان لا يصدق خبرها لولا أن المجاهد العربي الكبير القاوقجي أورده بتفاصيله في مذكراته ولولا أن نقله إليه بحضوري أنا رجل أشهد له بالصدق والوطنية هو المرحوم المجاهد العقيد محمود الهندي.

وسقطت تحت ضغط الجماهير الغاضبة وزارة جميل مردم في مطلع كانون الأول عام 1948. وتعذر على الرئيس شكري القوتلي إنهاء الأزمة الوزارية طوال أسبوعين حتى إنه لجأ إلى منافس له على زعامة البلد، قائد الكتلة الوطنية الأسبق الرئيس هاشم الأتاسي، فاستدعاه وطلب إليه تشكيل حكومة إنقاذ وطني، ولكن الأتاسي فشل في تشكيل الحكومة واعتذر. وفي النهاية استدعى خالد العظم سفير سورية في

باريز الذي كان يكنّ له كرهاً شديداً أيضاً، وكلّفه بإنهاء الأزمة. وقد تمكن العظم من تشكيل آخر وزارة قبل بدء سلسلة الانقلابات العسكرية. وهذا الرئيس الجديد للوزارة بورجوازي إقطاعي من عائلة عريقة تتخطى آل القوتلي بعيداً في أعلى السلم الاجتماعي، بالإضافة إلى أنه، وإن افتقد تلك الشخصية القوية لشكري القوتلي في صفاته، وافتقد ماضيه الوطني وزعامته الجماهيرية، كان يحلم بالوصول إلى منصب رئاسة الجمهورية، فكان لذلك بطبعه يأنف من الانخراط في سلك كهنوت تلك الوثنية المحيطة بالقوتلي، وبالتالي كان ذلك الربّان الغريب في قيادة تلك السفينة الضائعة في خضم الأحداث الجسام حينذاك.

ورأى العظم أن يشكل الوزارة من خارج مجلس النواب من أشخاص يمثّلون التجار والصناعيين، وعلى الأخص الشركة الخماسية ذات السطوة في تلك الأيام. وكان غرضه المباشر من هذه التشكيلة تخطي المجلس النيابي الذي تسيطر عليه معارضة حزب الشعب والشارع الغاضب. أما غرضه البعيد فهو التغلغل في الساحة التي طالما استمدت منها الكتلة

الوطنية القوة المادية في كفاحها من أجل الاستقلال، أيام كان هو خالد العظم كمتفرج بمعزل عن هذا الكفاح، أي الساحة التي هي إقطاع للقوتلي كما هو الظن الشائع حينذاك، وبالتالي كَسْبُ قوة حاسمة في انتخابات الرئاسة المقبلة. فكان هذا السلوك إذن في الجوهر هجوماً إضافياً مبطّناً على "الزعامة المطلقة" للقوتلي: أفقدت الوثنية الرئيس القوتلي جماهير الشارع وهاهو ذا العظم يأتي ليحرف البورجوازية عنه.. واستمر رئيس الوزراء الجديد في سياسة إرضاء القوى الاقتصادية الراغبة في استكمال الانخراط بالسرعة القصوى في النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي، وإرضاء السعودية أيضاً التي يستمد منها القوتلي الدعم الكبير لزعامته، فقام بإبرام اتفاقيتي النقد مع فرانسة وإمرار أنابيب النفط السعودي مع شركة التابلاين الأميركية: السياسة التقليدية للسعودية ترتكز على التحالف مع غرماء الإنجليز الفرنسيين لمعارضة توسع الهاشميين أتباع الإنجليز، وعلى إرضاء الأميركان بالقيام بوظيفة حرس لمصالحهم في المنطقة إلى جانب إسرائيل. وكانت هاتان الاتفاقيتان بمثابة صب الزيت على

النـــار. فقــام حــزب البعــث فــي الرابــع مــن آذار عــام 1949 بإصدار بيان تحت عنوان "مؤامرة الاتفاق مع التابلاين بعد الكارثــة الفلســطينية" وفيــه دعــوة إلــى تصــعيد النضــال ضــد المســتعمرين الأميركـــان الـــذين كـــانوا وراء تلـــك الكارثـــة الفلسـطينية. وشـنّ أكـرم الحـوراني حملـة شـديدة صـادقة فـي البرلمـان علـى الاتفاقيتين. وعمّت المظـاهرات في كل أنحـاء القطر لا سيما في دمشق. وانقلب ذلك الوجه المشرق الذي قاد الجهاد بكفاءة وإخلاص لتحقيق جلاء المستعمر الفرنسي عن أرض الوطن، انقلب بالوثنيـة التـي أحـاط بها نفسه إلـى الوجـه الرجعي الذي تمنت الجماهير وانتظرت ذهابه بفارغ الصبر.

وكان تيار عملاء المستعمرين، وخاصة منهم الأميركان، فـي الوثنيـة القوتليـة، وهـو تيـار قـوي، يحـاول باسـتمرار إذلال الجيش. فأخذ هذا التيار من باكورة تأسيس هذا الجيش الوطني يفتعــل الاحتكـــاك بـــأفراده فـــي الشـــوارع وفـــي المنتزهـــات والملاهـي والحفلات، ويثيـر المشـاجرات بـين أفـراد الشـرطة المدنية وبين الضباط الشباب. وكـان ينعـت رجالـه بـأنهم تربيـة وصـنيعة المسـتعمر الفرنسـي. وقـد هـدأت هـذه الحملـة الظالمـة

في فترة القتال في فلسطين التي قدّم فيها ضباط هذا الجيش أكثر من عُشْرِ تعدادهم شهداء في سبيل الوطن، نقول هدأت حينذاك لتعود بعد إخفاق الأنظمة العربية وهزيمتها في هذه الساحة على أشد وألأم شكل. وكان واضحاً وبديهياً أن جماهير العسكريين كانوا، وما يزالون وسيظلون، جزءاً لا ينفصل عن جماهير وطنهم. وحتى الآن بعد كل تلك السنين الطويلة لا تزال صورة الرفاق الضباط وبقية العسكريين ماثلة في ذهني واضحة وهم يتناقشون في أمور وطنهم ويتتبعون أخبار الجماهير التقدمية ويطربون أيما طرب لكل انتصار تحققه. ولكن المستعمرين كانوا بانتظار الفرص الملائمة لنقل عدوى الوثنية إلى الجيش كمؤسسة وذلك بجعل حماس جماهيره أرضاً لزرع تلك النبتة السامة وهي الوصاية على أمور الوطن من خلال نفر انتهازي يأتمر بأمرهم. وكان حسني الزعيم أول واحد في سلسلة ذلك النفر التي لم تطل كثيراً فقاد ذلك الانقلاب المشؤوم.

الفصل الخامس

الانقلاب العسكري الأول

إحجام القوى التقدمية عن الإمساك بالراية

رأينا في هذه الدراسة أن الوثنية القوتلية وقفت حاجزاً أمام تطور الحركة الوطنية السورية من ذلك الشكل الذي أمكن به تحقيق جلاء المستعمر الفرنسي عن أرض الوطن إلى شكل أعلى يجعل من سورية قاعدة انطلاق للثورة العربية الكبرى ضد النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي لتحقيق أهداف العرب القومية، التي تُجْمَلُ بإقامة الدولة العربية الموحدة على كامل أرض الوطن العربي مع إنقاذ فلسطين من براثن الصهاينة. فالرأسمالية هي التي هدمت دار الإسلام ومزقت الأمة العربية وشتتت شمل أقطارها واستعبدتها. وقد نجحت تلك الوثنية بتيارها الممالئ للمستعمرين، ومن ورائها المستعمرون، في تدمير كل ظرف يحوّل سورية إلى تلك

القاعدة المذكورة: أصبحت الجماهير السورية بكل قواها الوطنية في أواخر عام 1948 ومطلع عام 1949، أي بعد النكبة مباشرة، مقيدة باشتباك معقد مع تلك الوثنية لا يحررها منه لتنطلق لتحقيق تلك القاعدة القومية للجهاد إلا النصر السريع عليها دون أن يُترك مجال للانتهاز والوصولية وقصر النظر في كل الفئات الاجتماعية ولعملاء المستعمرين بشكليهم القديم والجديد للتدخل وزيادة التعطيل والتأخير في المسيرة القومية. ولكن هيهات فالأمور جرت كما أرادته لها الجهات الاستعمارية، بكل أسف. فهذه الجهات كانت قد هيأت عناصرها ووضعتهم في وقت مبكر، بمساعدة الوثنية، في مواقع العمل: في الجيش مثلاً وبين مختلف فئات الحكم والمعارضة، بهدف إجهاض المسيرة الوطنية. فكانت تلك العناصر العميلة، كما مر معنا في هذه الدراسة، تدفع زلمها للتعرض للعسكريين واستفزازهم. كان فيصل العسلي، وهو حينذاك نائب في المجلس النيابي، يحمل على الجيش ويتعرض لقائده حسني الزعيم بالشتم في خطب طويلة كان يلقيها في المجلس وذلك بقصد النيل من الجيش وكسر

معنوياتــه تجــاه التنظيمــات الفاشــية التــي كــان يُعِـدُّها إعـداداً عسكرياً في تلك الأيام للوثوب بها على السلطة في سورية. وكان هناك من جهة أخرى قصور قيادة الحركة الوطنيـة التـي ما كانت تتسلح بعقيدة تبيّن لها بوضوح تام ظروف تلك الأيام وواقعهـا فَضَلَّتِ الطريق الصحيح وسارت في النتيجـة تحت رايـات حسـني الـزعيم فـي انقلابـه علـى الـرغم مـن تفاهتـه وانحطـاط أخلاقـه ممـا جعلـه صـيداً هينـاً للمستعمرين. فقيـادة حـزب البعث مثلاً أيّدتـه، سـاعة انقلابـه، برسـالة وصـفت بهـا عمله "بالحادث العظيم" وقالت بـأن الجيش هو "الأداة الأمينـة التـي نفّذت رغبـة قوميـة وإرادة عامـة" ووضـعت نفسـها مـن الانقــلاب وقائــده موضــع الوصـــي الغيــور "علـــى المســيرة الجديدة" فقامت ترسم لها منهاجاً يقوم على الأسس التالية:

1. تشكيل حكومة مؤقتة حائزة على ثقة الشعب؛

2. تطهير الجهاز الحكومي من جميع صنائع العهد البائد، ومحاكمة المسؤولين عن فضائحه؛

3. تأمين الحريات العامة التي نص عليها الدستور؛

4. إجراء انتخابات حرة في المدة المحددة بالدستور، وعودة الحياة النيابية إلى مجراها الطبيعي.

فكم كانت جدية هذه المطالب لتلك القيادة الوطنية المناضلة، مع حماسها للانقلاب وغيرتها عليه وآمالها الكبيرة فيه، نقول كم كان كل هذا يتعارض تعارضاً ساخراً، مضحكاً مبكياً، مع واقع أَفّاقَيْن خططا لذلك الانقلاب مع عميل داهية للمستعمرين وقاداه!.. والأفّاقان هما نذير فنصه وعديله حسني الزعيم أما العميل فهو الدكتور محسن البرازي منفّذ الإرادة الفرنسية الأميركية، وقد مرّت أخبار هؤلاء في الفصل السابق. أما الأستاذ أكرم الحوراني، فإن أصدقاءه من ضباط الجيش، واستثني منهم نفسي، وعلى رأسهم قريبه أديب الشيشكلي، كانوا في طلائع القوات التي نفّذت الانقلاب وكانوا يظنون بأنهم إنما يفعلون مافعلوه لبناء عهد ينفّذ تطلعاتهم الوطنية والقومية!..

ولكن الأمر ما كان ببساطة ظنون قيادتي البعث والشباب الحوراني ولا بالسهولة السطحية التي هيأتها الوثنية القوتلية للانقلابيين ليرتكبوا جريمتهم. فكان هناك في الجيش يمين يناصر حزب الشعب كما كانت فيه أيضاً جماعات قوية تناصر أفكار السوريين القوميين وتناهض التفكير البعثي العربي وتقف فقط، كما مرّ معنا في هذه الدراسة، عند النضال من أجل وحدة الهلال الخصيب. وكل هذه الاتجاهات تضاف إلى جماهير العسكريين التي كانت تشكل الأكثرية الساحقة وتتضمن وطنيين آخرين يؤمنون فقط بالكفاح ضد المستعمرين. ولا بد هنا من الإشارة إلى فئة قوية من العسكريين وهي فئة الفلسطينيين التي يشكل فيها الضباط نسبة تقرب من 25% من مجمل الضباط الأعوان (الضباط الشباب) في الجيش السوري الذين كانوا حينذاك يشكلون الطبقة الثورية والقوة المحركة الأساسية في جماهير القوات المسلحة. وكانت تلك الفئة الفلسطينية تمتاز بتجانسها المطلق ووحدة تفكيرها وتطلعاتها الوطنية ووعيها السياسي على الأخص الذي تحلّت به بعد الدرس البليغ للنكبة التي حلّت

بأمتنا. ونذكر هنا الدور الكبير الذي اضطلع به الأستاذ أكرم الحوراني في سنّ تشريع في المجلس النيابي السوري باعتبار الفلسطيني على الأرض السورية مواطناً يتمتع بجميع حقوق السوري ويؤدي كل واجباته التي من جملتها واجب خدمة العلم. فكان هذا التشريع في الواقع الرد الأمثل للتجزئة الاستعمارية التي جعلت من سورية الطبيعية أربعة أقطار هي فلسطين والأردن ولبنان وسورية فأعادها التشريع المذكور إلى أصلها الطبيعي الإنساني الموحد.

نقول إذن إن الأمر عند وقوع انقلاب حسني الزعيم ما كان ببساطة ظنون التقدميين العروبيين. فحزب الشعب مثلاً يطمح بشدة إلى فتح الآفاق التجارية أمام اقتصاد معقلهم حلب بإقامة وحدة مع العراق، كما كان لعبد الله بن الحسين ملك الأردن أطماعه المعنونة بشعار "سورية الكبرى"، وكان له أنصاره في بعض الأوساط التجارية والحرفية الدمشقية وبعض الإقطاع في الجنوب السوري. وكان هذان الاتجاهان يناسبان العقيدة السورية القومية، كما إن الوحدة مع العراق من حيث المبدأ لا تتعارض مع العقيدة البعثية. إلا أنه كان

هناك تيار وطني سوري قوي ينتشر في كل الأوساط، من البورجوازية حتى اليسار التقدمي، بما فيه أوساط البعث العربي والشباب الحوراني، يعارض بشدة هذا التيار الهاشمي، بشقيه العراقي والأردني، التيار الذي يأتي من ورائه الاستعمار البريطاني الذي كان يطمح إلى تعزيز مواقعه في المنطقة العربية الآسيوية تجاه الزحف العالمي الطاحم للاستعمار الأميركي الجديد الطامع حينذاك في هدم الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة، بدءاً من المنطقة العربية الآسيوية بشكل خاص، وبناء إمبراطوريته العالمية على أنقاضها. وقد مرّ معنا تفصيل هذا الأمر فيما سبق من هذه الدراسة. وكان يدعم ذلك التيار المعارض للهاشميين، كما هو معلوم ومشهور، نظاما مصر والسعودية، ومن ورائهما بطبيعة الحال المستعمرون الأميركان. وفي مثل هذا الظرف تمكن مؤقتاً تيار انتهازي فرعي صغير أن يجد له في هذا الخضم موجة "صغيرة" تحمله ليقود الانقلاب أولاً لمصلحة الإنجليز ثم لمصلحة الأميركان لينطفئ سريعاً كما سنبينه فيما يلي:

إن حسني الزعيم إنسان تافه لا يستحق الذكر لولا أن صدفة عابرة سمحت له بقيادة الانقلاب الذي نحن بصدده حالياً. وكان قد اتصل بي مرة، عندما كنت أعمل في أركان المفتش العام لجيش الإنقاذ المشير طه الهاشمي، وطلب إلي التوسط له لدى المشير ليعيّنه ضابط ركن في قيادة المجاهد المرحوم فوزي القاوقجي فهزأت منه ورفضت طلبه لعلمي بتفاهته وأخلاقيته المنحطة. وكان أن عُيِّنَ قائداً لموقع دير الزور فوجد فيه النظامان العراقي والأردني أداة مناسبة للتآمر على استقلال سورية فكان عملاؤهما على اتصال دائم به وبعديل له أفّاق طالما تنقّل في خدمة المستعمرين: من الفرنسيين حتى الأميركان مروراً بالإنجليز، وهو نذير فنصه المار ذكره أعلاه. وللإنصاف لا بد من أن نشير هنا إلى أن لهذين التافهين شقيقين يختلفان تماماً عنهما بأخلاقهما ووطنيتهما. فالأستاذ المجاهد المرحوم صلاح الدين الزعيم شقيق حسني الزعيم كان مشهوراً باستقامته وورعه ووطنيته وقضى بها حياته مكافحاً الاستعمار ومسانداً قوى التقدم في سورية والبلاد العربية. أما الأستاذ الأديب المرحوم بشير

فنصــه، شـقيق نـذير فنصـــه، فإنــه علــى عكـس شـقيقه بأخلاقـه وطيبته ووطنيته.

كـان اتصــال الهاشـميين بحسـني الـزعيم عنـدما كـان قائـداً لموقع دير الزور، ووعود هذا الأخير لهم وقبضه، هو وعديله الآنف الذكر، الرشوات منهم أمور ثابتة ومعروفة علـى عكس مــا زعمــه باتريــك سـيل عنــدما زوّر لنــا تاريخــاً علــى هـوى إنجلتـرة أمتـه العريقـة بصـهيونيتها هادمـة دار الإسـلام. ثـم إن حماقـة الوثنيـة القوتليـة التقـت بتفاهـة حسـني الـزعيم فوجـدت الأولـــى فـــي الثانيـــة الأداة المناسـبة لإذلال الجـيش وتطويعـه لإرادتهـا. فأتـت بـه أولاً أيـام تصـاعد المقاومـة الجماهيريـة لهـا كقائـد للشـرطة لـه الوجـه المناسـب لباطلهـا فـي مواجهـة حـق الجماهير الثائرة لكرامتها. ثم لـم تلبـث أن وجـدت الفرصـة فـي تراجـع الجـيش السـوري أمـام تحصـينات "إيـدن" فـي منطقـة طبرية فاستبدلت بـه الـزعيم الكفوء من كل الأوجـه الأخلاقيـة والمهنية عبد الله عطفة الذي ألصقت به زوراً وظلماً مسؤولية تلك الهزيمة. وكان هناك ضابط أمي يقود لـواء مشـاة يتمركـز في قطنا هو المقدم سامي الحنّـاوي. وكـان لهذا الضـابط عديل

أيضـاً لا تقـف مطامعـه عنـد حـد يقبـع فـي الخـارجيـة السـوريـة منتظراً الفرص السانحة هو الأستاذ أسعد طلس. وهذا الأخير كانـت لـه صـلات وثيقـة بالأوسـاط التجاريـة الحلبيـة وبأوسـاط حـزب الشـعب، كمـا كانـت وظيفتـه فـي الخـارجيـة تسـهّل لـه الاتصـال بهاشـميي العـراق وبسـفارات المسـتعمرين الإنجليـز والأميركـان. وأخيـراً، ولـيس آخـراً، كـان هنـاك العقـل المـدبّر للانقلاب بين كل أولئك التافهين والجهلة والمتحرّقين على نـار الوصول وهو الـدكتور محسـن البـرازي الـذي كـان أمينـاً عامـاً للقصـر الجمهـوري ويحظـى بعطـف خـاص مـن قبـل الـرئيس شـكري القـوتلي وبالتـالي بمركـز مرمـوق فـي الوثنيـة القوتليـة، ولكـن لـيس فـي الصـفوف الأولـى منهـا لحداثتـه النسـبية فـي ميادين الشؤون العامة. وكانت له صـلات جيـدة مـع الفرنسـيين والسـعوديين وبالأميركـان عبـر هـؤلاء. وقـد مـرّ معنـا فـي هـذه الدراسة أن وزارة خالد العظم، التـي تشـكلت فـي أعقـاب أزمـة وزاريـة مستعصـية ونهـوض جمـاهيري عـارم ضـد الوثنيـة القوتلية، عقدت اتفاقيتين تُرْضـي بهمـا البورجوازيـة الدمشـقية ومن ورائها أميركا والسعودية وفرانسـة همـا: اتفاقيـة النقـد مـع

فرانسة واتفاقية مرور أنابيب النفط السعودي عبر الأراضي السورية مع شركة التابلاين الأميركية. ورأينا أن التصديق على هاتين الاتفاقيتين من قبل المجلس النيابي السوري كان مستحيلاً في ظروف ما قبل الانقلاب. فتهيأت إذن كل الأجواء والوسائل لوقوع هذا الانقلاب المشؤوم. ونجد أنفسنا هنا أمام أمور يحمل كل منها في ظاهره التناقض والغرابة:

الأول: اتفق الإنجليز والأميركان، وكل من هذين الطرفين المتناقضين له أسبابه الخاصة التي أشرنا إليها أعلاه، على وجوب إزاحة القوتلي ونظامه وإقامة حكم عسكري: الإنجليز يأملون في "زعيم" موال للهاشميين، والأميركان في "زعيم" يصدّق اتفاقيتي خالد العظم الآنفتي الذكر، بالإضافة إلى إدخال سورية في "النادي اللاتيني الأميركي" بتصفية الحركة الوطنية فيها وكل ما يتصل بالحرية والتقدم.

الثاني: إن الذي أثار غضب الجماهير السورية وأعطى سبباً لحركة الانقلاب هو عقد الاتفاقيتين المذكورتين من قبل وزارة خالد العظم، وفي ذات الوقت كان الانقلاب ضرورياً، كما قلنا قبل هنيهة، لإمرارهما والتصديق عليهما.

الثالث: رأينا الحركة الوطنية بكل جديتها في الكفاح من أجل تحقيق أهداف الوطن العليا تسير تحت أعلام تلك الزمرة التي يقودها حسني الزعيم والتي رأينا طرفاً من أوصافها المزرية آنفاً. فنجد البعث يقود مظاهرات التأييد في شوارع دمشق، ونرى قادته، مع قادة حزب الشعب، يملأون مكاتب الأركان العامة وأروقتها.

كنا نرى أديب الشيشكلي يحتل الشرطة المدنية ويقوم بإدارة مؤسستها بكل جدية وغيرة باسم الشباب الحوراني. وقد حاولت عدداً من المرات التكلّم مع الأستاذ أكرم لأسأله عن سبب حماسته لذلك العهد الذي زاد الأمور سوءاً عما كانت عليه أيام الوثنية القوتلية، فكان يتهرب بحجة المشغولية، كما كان في بعض المرات التي كان يقبل فيها الدخول في مناقشة حول هذا الموضوع يتظاهر بأن هناك أموراً وأسراراً لا يصحّ الكشف عنها وينصح بالصبر والأناة!... ولم يطل صبرنا، فبعد أيام قليلة من الانقلاب وجدنا الزعيم يطرد ويلاحق أركان أحزاب الشعب والبعث والشباب الحوراني، ويوقف عدداً منهم ويزجّ بهم في سجن المزة الذي ابتدأ

بالشهرة منذ تلك الأيام. وكان من جملة الموقوفين الأستاذ ميشيل عفلق الذي امتهنت كرامته وأُسيئت معاملته حتى اضطر في النهاية إلى كتابة رسالته الشهيرة إلى حسني الزعيم. وقام هذا الديكتاتور الصغير بتصديق اتفاقيتي النقد مع فرانسة ومدّ أنابيب النفط مع التابلاين.

وكان انقلاب الزعيم إنجليزياً عراقياً أردنياً، ثم ما لبث بمناورة من محسن البرازي، بتأييد من مصر والسعودية، ومن ورائهم الأميركان والفرنسيين، أن انقلب على الهاشميين فراح قائده يطارد مناصريهم كما أشرنا إليه أعلاه. ولعل أفضل رد على إنكار باتريك سيل لتآمر إنجلترة وعملائها حكام العراق والأردن على استقلال سورية هو اعتراف حسني الزعيم الذي نشره باتريك سيل بعد صفحات من إنكاره المذكور في "دراسة للسياسة العربية بعد الحرب، الصراع على سورية" والذي نورده فيما يلي: صرّح الزعيم في 26 نيسان من عام 1949، أي بعد أقل من شهر على انقلابه، لصحيفة الجورنال ديجيبت فقال: "كانت رحلتي إلى القاهرة مفاجأة غير سارة للأردن. فقد اعتقد سادة بغداد وعمّان أنني

أكاد أن أقدّم إليهم تاج سورية على طبق من فضة ولكن خاب فألهم. فالجمهورية السورية لا تريد سورية كبرى ولا هلالاً خصيباً، وسوف نوجه قواتنا ضد هذين المشروعين اللذين أوحى بهما الأجنبي. وقد ركزنا قواتنا على الجبهة الجنوبية لمجابهة الإجراءات العسكرية التي اتخذتها حكومة عمّان. وقررنا تقديم الأشخاص الذين يجرون اتصالات بالحكومة الأردنية أو يسافرون إلى ذلك البلد إلى محكمة عسكرية بجريمة الخيانة العظمى وحكمهم بالإعدام. وقد قررنا استدعاء عشرين ألف مجند جديد ونحن ننتظر أن تصلنا فوراً كميات كبرى من الأسلحة والذخائر والتجهيزات من جميع الأصناف. إن جيشنا البري سيكون قريباً الثاني في الشرق الأوسط يتقدم عليه فقط الجيش التركي. أما سلاحنا الجوي فسوف يتفوق على مجموع ما عند تركيا وإسرائيل من قوات جوية. ولن نصبر على تهديد أو ضغط سواء من العراق أو الأردن أو أي بلد آخر. أما الأردن الذي كان ولا يزال ولاية سورية فسينضم إن عاجلاً أو آجلاً إلى وطنه الأم ويصبح المحافظة العاشرة في الجمهورية السورية". انتهى تصريح الزعيم. ونتساءل

نحن لماذا يعتقد سادة بغداد وعمّان حينذاك بأن حسني الزعيم سيقدّم لهم تاج سورية على طبق من فضة لولا أن سبقوا وقدّموا له سلفاً "طبق الفضة" ليعيده إليهم وعليه التاج المذكور؟!.. وليس لنا أي تعليق على تناقضات هذا التصريح التي تدل بوضوح ما بعده وضوح على ضحالة عقل صاحبه ومبالغاته الداعية إلى السخرية. إلا أن علينا أن نذكر بهذه المناسبة أن قطرنا السوري اضطر في تلك الأيام إلى القبول بالهدنة، وكنت أنا عضواً في مفاوضاتها التي طالت شهوراً وشهوراً، تحت ضغط فقدان الذخائر في مستودعاتنا إلى الدرجة التي لم يبقَ لنا معها ما يكفي منها لقتال خمس دقائق.

نهاية مغامرة الزعيم

قلنا إن حسني الزعيم وزمرته من التافهين الحمقى كانوا لا يصلحون لشيء سوى أن صدفة عابرة في خضم أحداث ما بعد الحرب العالمية الثانية في منطقتنا جعلتهم في رأس حركة ذلك الانقلاب. وفي الواقع ما كان لهم أي رصيد ملموس لا في الجماهير ولا في القوات المسلحة التي كانت تعكس جيداً

في صفوفها مختلف اتجاهات تلك الجماهير. وإذا كان قد "انصبّ" عليهم التأييد من مختلف صفوف المعارضة الوطنية فإن ذلك كان في الواقع موجّهاً ضد الوثنية القوتلية وليس لتأييد تلك القيادة التي ما كانت بطبيعتها لتستطيع الإفادة من تلك الظروف لتبني أسساً وطيدة للفعالية والدوام. فأفق قائدها ما كان يتعدى "بذلة المشير وعصاه والصورة بهما على طوابع البريد!..". أما الاستعمار الجديد الذي كانت تعدّه أميركا للعالم فإنه ما كان قد تَمَرَّسَ بأحوال المنطقة فكان لذلك يتعكَّز على أعداء الإنجليز وأعداء خدمهم وعلى جهل الحركات الوطنية وعماها الحاجب للواقع: كان فاروق ملك مصر مثلاً لا ينسى أبداً دبابات الإنجليز التي أحاطت بقصر عابدين عام 1941 وأجبرته على طرد رئيس الوزراء علي ماهر واستبداله بعدوه مصطفى النحّاس زعيم الوفد، كما كان السعوديون ينافسون الهاشميين خدم الإنجليز في العراق والأردن على زعامة عرب المنطقة الآسيوية. أما القوى الوطنية وأحزابها فإن عقائدها كانت مقصّرة عن رؤية الطريق الصحيح لحشد الجماهير في تيار واحد يتعمق في

أمتنا ويدفع بها إلى مواجهة وردّ الخطر الحقيقي الذي كان في تلك الأيام يطحم ليحتل المواقع اللازمة في مختلف أنحاء العالم، وعلى الأخص في المنطقة العربية الآسيوية، لبناء الاستعمار الجديد، لمواجهة وردّ الاستعمار الأميركي ومنعه من بناء إمبراطوريته العبودية العالمية التي يتعذّب فيها الناس العذاب الذي يعانونه حالياً. نكرر إذن ونقول إن القوى الوطنية قصّرت في استيعاب الواقع الذي كانت تعيشه فما رأت بوادر الجديد التي كانت آخذة في التطور فيه حينذاك وبالتالي ما كان باستطاعتها التكتل فانساقت في طريق التنافس والتناحر فعمل كل فريق منها بمفرده ولأهداف قريبة لا تتعدى الإمساك بالسلطة، وكأن السلطة وليس جماهير الأمة المتكتلة بإيمان واحد ثوري، هي الوسيلة لتحقيق الأهداف القومية. وقد سبق وأشرنا إلى أنه لو اتسع إدراك القوى الوطنية ووعيها في تلك الأيام إلى الدرجة التي وصلت إليها فيما بعد في أعقاب انهيار نظام الشيشكلي لما قام انقلاب الزعيم أصلاً ولو صدف وقام بنتيجة خطأ في الظروف

والأحوال لما ثبت ساعة أمام ذات تلك القوى الوطنية ولكنها الموحدة بعقيدة واعية.

إن الوحدة المتحررة من النظام الرأسمالي الاحتكاري للأمة العربية تشكل ضربة قاضية للاستعمار بنوعيه القديم والجديد. فالفرنسيون مثلاً كانوا في تلك الأيام يُلْحِقون الشمال الأفريقي العربي بإمبراطوريتهم الاستعمارية. أما الإنجليز فإن قلب إمبراطوريتهم الاستعمارية العالمية يقع في الوطن العربي وتحرر هذا الوطن يقضي على هذه الإمبراطورية. وكذلك يكون الحال بالنسبة للإمبراطورية العالمية التي كان المستعمرون الجدد الأميركان منهمكين حينذاك في إقامة أسسها. أما الرجعيتان المصرية والسعودية فإنهما كانتا على الدوام تعاديان كل وحدة تضم أقطار الهلال الخصيب: العراق وسورية الطبيعية. فمصر ترى في سورية الامتداد التاريخي لها إلى آسيا، أما السعودية القبلية فهي، على عكس ما يدّعيه قادتها بمناسبة وغير مناسبة، عدوة كل ما يوحد الإسلام ويوحد العرب ويمنع بالتالي تفرّدها بثروات الجزيرة العربية. وكان هناك في لبنان حركة مغرقة في رجعيتها وانعزاليتها

أسسها بيير الجميّل وهو ماروني ولد وترعرع في مصر. وقد أتى هذا الرجل إلى لبنان في عام 1936 ليؤسس ذلك الحزب الفاشي الذي هو حزب الكتائب المارونية والذي قام ليقف في مواجهة النجادة الإسلامية والحزب السوري القومي الذي كان ساعده يشتد في تلك الأيام. وفي تلك السنة عقدت فرانسة معاهدة اعترفت بموجبها باستقلال سورية في ذات الوقت الذي وعدت فيه بمنح لبنان كل ما تناله سورية. لذلك تحركت الانعزالية المارونية ومن ورائها الأوساط الفرنسية الاستعمارية والأوساط الصهيونية لتهيئ كل ما يقطع الطريق إلى تقارب لبنان مع أشقائه العرب الآخرين في الأقطار المجاورة فدفعت إلى تأسيس تلك الكتائب على عجل.

وكان حزب الكتائب المذكور أداة الاستفزاز في عام 1949 في محاولة للقضاء على الحزب السوري القومي في لبنان. ففي النصف الأول من شهر حزيران من ذلك العام وقعت صدامات بين حزبي الكتائب والسوري القومي في بيروت. وتدخلت حكومة رياض الصلح إلى جانب الكتائب واحتلت مكاتب السوريين القوميين وصادرت أوراقهم

ونشراتهم مدّعية بأن حزبهم كان يتآمر لقلب الحكومة. وقد اضطر زعيم الحزب أنطون سعادة حينذاك إلى ترك لبنان واللجوء إلى سورية. وقد تظاهر نظام حسني الزعيم بالترحيب به، ونقول تظاهر لأننا نعتقد بأن الأمر من أوله عندما قامت الكتائب باستفزازها لحزبه إلى أن سُلِّمَ من قبل حسني الزعيم إلى الحكومة اللبنانية لتغتاله كان مرتّباً من قبل الرجعيات المارونية والمصرية والسعودية مع انتهازية الانقلابيين في دمشق. فحسني الزعيم عندما التجأ إليه سعادة في النصف الأول من حزيران عام 1949 كان قد قلب ظهر المجن لكل مشاريع سورية الكبرى والهلال الخصيب وانحاز بكليّته إلى المعسكر المصري السعودي وذلك منذ شهر نيسان من ذلك العام. وقد مرّ معنا هذا الأمر أعلاه عندما أتينا بتصريح الزعيم إلى الجورنال ديجيبت القاهرية ونكرر هنا ما يهمنا من هذا التصريح: "..فالجمهورية السورية لا تريد سورية الكبرى ولا هلالاً خصيباً وسوف نوجّه قواتنا ضد هذين المشروعين اللذين أوحى بهما الأجنبي..". ومن المعلوم أن كلاً من هذين المشروعين يشكل هدفاً أساسياً في العقيدة

السورية القومية. ويبدو لنا أن أنطون سعادة عندما وصل إلى سورية لاجئاً، وما كان أمامه سوى هذا القطر يلجأ إليه حينذاك بسبب الوضع الجغرافي اللبناني، تظاهرت سلطات الزعيم بتأييده لتبقيه في قبضتها وبالتالي ليكون اتصاله بحزبه في لبنان عن طريقها، أو بالأحرى والأوضح أن تقوم هي مع جهات أخرى مساعدة بتحريك الحزب في لبنان باسمه. الأمر الذي يفسر قيام حزبه بتلك الحركة المرتجلة دون خطة وإعداد صحيحين مما أدى إلى سحق تلك الحركة بسرعة وسهولة وإيقاع الضرر البليغ بذلك الحزب. وانتهى الأمر بما خُطِّطَ له وذلك بتسليمه، تسليم أنطون سعادة، ضد كل عرف وشرف، إلى جلاديه. لقد كان من المتفق عليه بين السلطتين السورية واللبنانية أن يقوم رجلا الأمن العام اللبناني، الأمير فريد شهاب مدير الأمن العام ومعاونه نور الدين الرفاعي، باغتيال أنطون سعادة بعد تسلّمه من السلطات السورية وعند بلوغهما به الأراضي اللبنانية، وذلك بتدبير تمثيلية محاولة هرب الأسير. إلا أن شرف هذين المسؤولَيْن اللبنانيين أبى عليهما ارتكاب هذه الجريمة الدنيئة فأتما مهمتهما بالشكل الذي تمليه

عليهمـا القـوانين المرعيّـة وسـلّما موقوفهمـا إلـى السـلطات المختصـة. فمـا كـان مـن هـذه السـلطات إلا أن أعـدمت هـذا الأسير بعد استجواب قصير قيل إنه كان محاكمة سرية. ومن الواضـح أن السـرية والعجلـة القصـوى فـي هـذه المحاكمـة المزعومـة كانتـا لإخفـاء أسـرار تلـك المـؤامرة الرهيبـة. فالغموض الذي اكتنف تلك الفترة الحرجة القصيرة المنقضية بين لجوء أنطون سعادة إلى سورية واستشهاده على أيدي جلاديه لا يبرره سوى هذه الفرضية التي نقدمها هنا. فلو كانت هناك ثورة في الواقع قادها ذلك المناضل فإن تلك السلطات ما كانت بحاجة إلى السرية والعجلة ولكان من حقها، وهي المسؤولة عن "الأمن"، أن تعلن على الملأ "بكل فخر" وبالتفصيل دون أي عجلة ما جرى من إخلال بالأمن... ولكن فيما لو كانت هي حقاً بريئة من هذا الإخلال.

نقول إذن إن عهد حسني الزعيم ما كان ليدوم طويلاً لفقدانه كل أساس للاستمرار. ولكن القوى التقدمية، قوى الثورة، وهي، كما قلنا ورددنا مراراً، القوى الغالبة في الساحة، ما كان لها، بكل أسف، سوى ذلك الطموح الهزيل

التافه الذي لا يذهب إلى أبعد من التخلّص من ذلك النظام المهترئ. فانضوت مرة أخرى تحت أعلام الرجعية التي كانت تخطط لإقامة أحد مشاريع الهاشميين. فقبلت هذه المرة أيضاً بالأمي سامي الحنّاوي يقودها ومن ورائه عديله أسعد طلس المتلهف المتربص للوصول إلى السلطة بأي ثمن. ففي الرابع عشر من آب عام 1949 تحركت قوات الحنّاوي وفي مقدمتها كوكبة مصفحات بقيادة الملازم الأول فضل الله أبو منصور، وهو سوري قومي، إلى دمشق. وتوجه فضل الله المذكور إلى بيت الزعيم واعتقله، ثم اعتقل رئيس وزرائه محسن البرازي، وذهب بهما إلى طريق المعضمية حيث نفّذ بهما عقوبة الإعدام. ونذكر بهذه المناسبة أن السعوديين خصصوا لأفراد عائلة محسن البرازي رواتب تقاعدية ما تزال حتى يومنا هذا جارية.

الفصل السادس

الثورة قدر المستضعفين

الجمعية التأسيسية

مر معنا كيف أن قيادة حسني الزعيم لعملية قلب الوثنية القوتلية كانت بسبب تأخر القوى العقائدية التقدمية عن إيجاد صيغة صحيحة توحد صفوفها، وإحجامها بالتالي عن أخذ المبادرة وقيادة تلك العملية بدلاً من ذلك الأفّاق. وأشرنا إلى أن الفضل، مع ذلك، يعود إلى هذه القوى التقدمية بالذات لنجاح انقلاب الزعيم، فكان الأَوْلى بها أن تكون هي القائدة وأن تكون العملية ثورة بدلاً من أن تكون انقلاباً لمصلحة انتهازيين مرتزقة كانوا يخدمون مخططات المستعمرين. فالقوى التقدمية التي شكّلت الجبهة الوطنية وتسنّمت قيادة المقاومة ضد المستعمرين جميعاً وعلى رأسهم الأميركان بعد سقوط الشيشكلي كانت هي بذاتها موجودة باستمرار منذ جلاء

الأجنبي عن سورية عام 1946 حتى الوحدة السورية المصرية عام 1958، وقد قلنا هذا في أكثر من مناسبة سابقة من هذه الدراسة. وتكرر، مع ذلك، سير القوى التقدمية تحت أعلام الانتهاز المدعوم من اليمين المتخلف في عملية إسقاط حسني الزعيم، وذلك بسبب غياب العقيدة الثورية أيضاً التي تبين الواقع وتحشد التقدميين الثوريين في خندق واحد وتبعد الانتهازيين وتعطل نشاط الخونة. فوجدنا سامي الحنّاوي الجاهل المنعدم الشخصية محاطاً بقبضة من الانتهازيين الأفّاقين، عسكريين ومدنيين على رأسهم عديله أسعد طلس الموظف في الخارجية السورية المار ذكره في هذه الدراسة، يقود قوى الانقلاب المؤلفة بأكثريتها من الوطنيين العقائديين الذين ما كانوا حينذاك ليجدوا الصيغة الحقيقية للوحدة تحت راية تحرير الوطن من جميع المستعمرين في الوقت الذي قبلوا فيه العمل معاً تحت قيادة أفّاقين يعملون لصالح رجعيين للخلاص من أفّاق آخر هو حسني الزعيم.

إن البلاغات الرسمية لا تخبرنا، بطبيعة الحال، عما يعدّ في مطابخ المستعمرين من خطط وعما ينعكس من هذه

الخطط على تفاعلات مختلف القوى الاجتماعية، ولا بد لنا من التدقيق في مجريات الأمور للوقوف على الواقع وتخمين اتجاهاته المستقبلية. فنسمع مثلاً في الرابع عشر من آب عام 1949 بلاغاً صادراً عن "مجلس حربي أعلى" يقوده سامي الحنّاوي يُعْلِمُ الناس أن حسني الزعيم قد قُلِبَ وأُعْدِمَ وأن الجيش قد ابتعد عن السياسة وسلّم أمورها إلى الوطنيين المخلصين ليقودوا البلاد إلى برّ الأمان والسلامة. وعلم الناس في بلاغ آخر أمر تشكيل حكومة مدنية مؤقتة يرأسها هاشم الأتاسي وأعضاؤها الأساسيون من حزب الشعب إلى جانب وزيرين من حزب البعث ووزير مستقل وآخر من الحزب الوطني: زعيم حزب الشعب رشدي الكيخيا للداخلية، ومعاونه في الحزب ناظم القدسي للخارجية، وزعيم شعبي آخر فيضي الأتاسي للاقتصاد، وميشيل عفلق للتربية، وأكرم الحوراني للزراعة، وخالد العظم ممثل البرجوازية الدمشقية للمالية، والمستقل سامي كبّارة للعدل، وعادل العظمة من أطراف الحزب الوطني وزير دولة. وتبدو هذه التشكيلة الوزارية مناقضة لمشاريع الهاشميين ومن ورائهم الإنجليز. ففي البعث

وحزب الشباب الحوراني مقاومة كبيرة ضارية لتلك المشاريع، كما كان خالد العظم عدواً مؤكداً لها إذ تقف دون طموحاته للوصول إلى كرسي الرئاسة.

ودعت الحكومة المؤقتة المذكورة إلى انتخاب جمعية تأسيسية، الأمر الذي يدل بوضوح على نية القوى الكامنة وراء هذه الدعوة في تغيير النظام السوري الجمهوري وتسهيل مشاريع هاشميي العراق الملكيين، وإلا لكانت الدعوة المذكورة من أجل انتخاب مجلس نواب يعيد الشرعية إلى البلد بعد القضاء على حكم الزعيم غير الشرعي. وقد وُضِعَ بالفعل نَصٌّ قسم يؤديه رئيس الدولة والوزراء والنواب خالٍ من التعهد بالحفاظ على النظام الجمهوري، وتمكن حزب الشعب من توفير أكثرية في الجمعية التأسيسية المذكورة توافق على ذلك النص للقسم: كان لحزب الشعب في الجمعية 51 نائباً من أصل 144 نائباً، وللبعث ثلاثة نواب أشبه بنواب العشائر بثقافتهم وعواطفهم منهم بنواب حزب تقدمي ثوري هو البعث العربي. وبالفعل فإن أحدهم الأستاذ جلال السيد قال بتاريخ 16 آب عام 1965 في مقابلة مع الدكتور مصطفى دندشلي،

وهو يظن بأن ما يقوله مبعث فخر له، إن نجاحه في تلك الانتخابات ما كان بقوة حزبه بل "بقوة نفوذه الشخصي"، أي بما كان له من نفوذ عشائري. ويضيف الأستاذ دندشلي سبباً آخر لنجاح هذا السيد هو ما "مارسه النظام العراقي من ضغوط انتخابية لمصلحته" في أوساط منطقته المحاذية للقطر الشقيق. ويؤكد هذا الأمر مستمسكات محكمة الشعب العراقية التي أُحيل إليها رجال العهد الملكي حيث يتبين أن لجلال السيد في تلك الأيام صلات وثيقة بهذا العهد. وقد فشل الأستاذ ميشيل عفلق في الدورة الأولى لانتخابات الجمعية التأسيسية المذكورة فانسحب ولم يتقدم للدورة الثانية، كما قدّم استقالته من الوزارة، بينما فاز أكرم الحوراني بمقعد نيابي عن حماة وبقي وزيراً للزراعة.

كانت الجمعية التأسيسية مسرحاً لصراع دائم شديد بين أنصار الوحدة مع النظام العراقي وهم معظم نواب حزب الشعب ومعهم بعض النواب المستقلين وبين مجموعة من النواب المعارضين لتلك الوحدة كان في مقدمتهم الأستاذ أكرم الحوراني والدكتور عبد الوهاب حومد (الذي انشق عن حزب

الشعب فيما يخص هذه القضية) والأستاذ مصطفى السباعي زعيم الأخوان المسلمين وعبد الباقي نظام الدين من المستقلين. وكان أن فاز حزب الشعب، كما أسلفنا، بتوفير الأكثرية اللازمة لقبول نصٍّ ليمين الإخلاص يخلو من ذكر النظام الجمهوري. واستمرت المناورات والمداورات وبلغت حد قيام أنصار الوحدة بتقديم عريضة إلى رئيس الدولة هاشم الأتاسي يطالبون فيها بالإسراع في إتمام توحيد القطرين الشقيقين سورية والعراق. عندئذ قامت في الجيش، في 19 كانون الأول عام 1949، حركة تغيير لقياداته الموالية لحزب الشعب فَقُبِضَ على الحنّاوي وأعوانه وأُودعوا السجن، وعُيّن أنور بنود رئيساً للأركان وأديب الشيشكلي معاوناً له. ورئيس الأركان الجديد هذا لا يختلف كثيراً عن الحنّاوي من حيث الثقافة واتساع الأفق سوى أن الأخير كان يتصف بكثير من الطيب والبساطة والشجاعة إلى جانب انعدام ثقافته. وكان أكرم الحوراني وأديب الشيشكلي وراء حركة التغيير هذه وقاداها.

ونجد هنا مرة أخرى قيادة القوى التقدمية تتراجع عن الإمساك بالراية وتحفظ شعرة معاوية مع خليط البورجوازية التجارية السورية والرجعية والانتهاز. فتقوم مثلاً بطمأنة حزب الشعب بتعيين أنور بنود الحلبي الأصل ذي الصلات بهذا الحزب رئيساً للأركان وإلى جانبه الشيشكلي ذي الطماع الشخصية معاوناً، وذلك بدلاً من إقامة سلطة ثورية منظمة كان إمكان تحقيقها حينذاك ظاهراً بكل جلاء لكل عين: لم تكلف تلك الحركة التي قادتها القوى التقدمية وأدت إلى إقصاء الحنّاوي وكل أنصار الرجعية والانتهاز الممالئة لحزب الشعب سوى الزمن الاعتيادي لوصول المصفحات من معسكراتها إلى بيوت أولئك الرجعيين والقبض عليهم وإلقائهم في السجن. وفي النتيجة برزت ظاهرة اقتسمت فيها السلطة الشرعية مؤقتاً إلى حين جهتان متناقضتان:

- القوى التقدمية في الجيش وفي الشارع؛
- حزب الشعب مع حواشيه في قيادة السلطات المدنية.

فهذا الأمر، في تلك الحالة التي كانت عليها قيادات قوى التقدم السورية حينذاك من نقص فادح في وضوح رؤية التحولات العالمية وجهل على الأخص بتحولات الاستعمار من الشكل القديم إلى الشكل الجديد مع تسلل الانتهاز بقوة في صفوف تلك القيادات، نقول إن هذا الأمر المتناقض الذي حدث عقب إقصاء الحنّاوي يعود برأينا إلى الأسباب التالية:

1- إن المرفوض في الوحدة مع العراق من قبل الجماهير هو الاستعمار البريطاني المهيمن حينذاك على القطر الشقيق من خلال مدرسة الجاسوس الشهير لورانس الحاكمة هناك. أما الوحدة بحد ذاتها فهي دوماً مطلب وطني جماهيري. لذلك رأينا مثلاً أن الحزب الوطني السوري الجمهوري النزعة الذي عارض بشدة الوحدة مع العراق الملكي لا يجد صعوبة في الوقوف موقفاً إيجابياً من الوحدة السورية العراقية فيصدر في 22 أيلول عام 1949 بياناً يقول فيه: "إن الوحدة الكاملة مع العراق وحدها فقط تستطيع إنقاذ البلدين من الخطر الصهيوني الجاثم". أما حزب البعث فمن المشهور أنه ورث عن عصبة العمل القومي الاتجاه نحو

العراق للبدء بالوحدة العربية. أما الحزب السوري القومي فوحدة الهلال الخصيب تأتي في أساس بنيان عقيدته. ومن النافل التذكير بالمتدينين المسلمين، كالأخوان مثلاً، فمطلبهم توحيد دار الإسلام بدءاً من توحيد الأمة العربية. لذلك أتيح لحزب الشعب وأنصاره تلك الفرصة للبقاء في السلطة المدنية ولم تُعِبْهُ عقائدياً بنظر القيادات التقدمية الممسكة بالشارع وبالقوى المسلحة ما دام يمارس لعبة الديمقراطية فلا يجرب الغدر بالتآمر.

2- كان في قيادة البعث أفراد، مثل جلال السيد، يشكلون امتداداً للمدرسة الحاكمة في بغداد، وهم موضوعياً في خندق واحد مع حزب الشعب فيما يخص العلاقات السورية العراقية.

3- كان الصراع بين الهاشميين من جهة وبين المصريين والسعوديين من جهة ثانية على أشده لم يحسم بعد حينذاك. وكان الإنجليز كما نعلم وراء الهاشميين وأنصارهم والأميركان وراء المصريين والسعوديين وأنصارهم.

مواقف مختلف الجهات من الوحدة

قلنا دوماً إن الوحدة العربية ثورة إنسانية كبرى، والبدء بها من أي جهة وبأي عملية هو إعلان حرب على المستعمرين وعلى نظامهم العالمي، فلا يُسْتَأْذَنُ، بداهة، هؤلاء المستعمرون وأعوانهم في شأنها أبداً. ولننظر إلى مواقف مختلف الجهات ذات العلاقة من تلك الوحدة مع العراق على ضوء هذه المُسَلَّمَةِ:

الصهيونية: عدوة لدودة لكل وحدة عربية حقيقية، ونصيرة كل ما يمزق العرب والإسلام، وهذا من بديهيات الأمور.

السعودية: عدوة كل وحدة في وجه القهر العالمي ومع كل ما يعزز مواقع المستعمرين في المنطقة وفي العالم، فهي "كإسرائيل" دولة حدود للنظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي.

النظام المصري الرجعي: يقاوم كل وحدة للهلال الخصيب ويعتبر سورية مجرد امتداد لأرض مصر في آسية.

النظام العراقي الملكي: كان ما يبحث عنه النظام الملكي العراقي ينطبق تماماً على ما كان يسعى إليه الاستعمار

البريطاني. فهو بقيادة ولي عهده والوصي على عرشه الأمير عبد الإله كان يحاول "اصطياد" عرش لهذا الأمير على سورية بالتلويح بوحدة موهومة بين العراق وسورية ومن خلال التآمر على النظام السوري لقلبه. وهذا أمر معروف ومشهور في تلك الأيام. إن الأستاذ أكرم الحوراني مثلاً قال لتوفيق السويدي، وهو من كبار مسؤولي ذلك العهد الذي قاده عبد الإله ونوري السعيد والذي ما انفك أبداً عن التآمر على استقلال سورية منذ أن جلت الجيوش الأجنبية عن هذا القطر عام 1946 حتى ثورة الرابع عشر من تموز عام 1958، نقول إن الأستاذ الحوراني قال للسويدي في ختام مناقشة طويلة جرت في دمشق في أواخر عام 1955: أنتم كاذبون مراوغون لا تريدون في الواقع لا وحدة ولا اتحاداً وإنما عرشاً لعبد الإله على سورية، أما نحن هنا فمن أنصار الوحدة والاندماج. وقد اعترف السويدي بهذه الواقعة أثناء مثوله أمام محكمة الشعب البغدادية في مطلع تشرين الثاني عام 1958 ليحاكم على الجرائم المنسوبة إليه التي يأتي في مقدمتها التآمر على استقلال سورية. وكان زعيم عصبة العمل القومي

الأستاذ المجاهد علي ناصر الدين قد قال (بعد أخذ وردّ طويلين على ما يبدو) لعبد المنعم الكيلاني القائم بالأعمال العراقي في بيروت إن حكام العراق غير جديين في مسألة الوحدة مع سورية. وقد تقدم هذا القائم بالأعمال بتقرير حول هذا الحديث إلى مرجعه في بغداد ونشر هذا التقرير في جلسات محكمة الشعب البغدادية الآنفة الذكر.

وفي الواقع إن مجيء عبد الإله ليكون ملكاً على سورية يوسّع مدرسة لورانس في المنطقة العربية الآسيوية، ويعزّز بالتالي مراكز الاستعمار البريطاني القديم فيها تجاه كل من الحركة الوطنية العربية وزحف الاستعمار الأميركي الجديد، الذي كان يتقدم حينذاك بلا توقف ليقتلع البريطانيين هنا وفي العالم لصالح إمبراطوريته العبودية العالمية الناشئة. وفي ذات الوقت نجد أن تعدد العروش الهاشمية في الوطن العربي يكرّس تمزيق هذا الوطن بدلاً من أن يوحده ويلمّ شتات الرجعية والفساد في وجه حركات التقدم العربية. قال مزاحم الباجچي، وهو رئيس وزراء ووزير سابق في العهد الملكي في العراق، في شهادة له أمام محكمة الشعب في جلسة 13

تشرين أول 1958: إن عبد الإله كان يريد عرش سورية لنفسه.. كما إن بريطانيا لا تريد سوى تشتيت شمل العرب ومصادرة حرياتهم في كل قطر من أقطارهم الأمر الذي اعترف به اللورد ستانس كيت من حزب العمال والوزير عدداً من المرات.

الاستعمار البريطاني: لا يهدف إلا إلى تقوية مراكزه الاستعمارية في المنطقة، ويحرص على سلامة إسرائيل، لذلك فقد قاوم الوحدة السورية العراقية وهو يتظاهر كذباً بتأييدها، كما قاوم مشاريع سورية الكبرى بالعمل على الدعوة لها بأساليب لا تتصف بالجدية، غايتها لا تتعدى تغطية عملية اقتسام أشلاء فلسطين بين الصهاينة وعميله حاكم الأردن عبد الله بن الحسين.

الاستعمار الأميركي: كالاستعمار البريطاني يقاوم كل ما من شأنه تشكيل خطر على الكيان الصهيوني، فهو العدو الأول والأصلي للوحدة العربية، التي سيكون تمامها بشكل صحيح الثورة الحاسمة التي تدفع العالم إلى عتبة الطور الإنساني المقبل بإنهائها النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي.

سورية: نكرر ونقول إن حزب الشعب كان مندفعاً إلى إقامة الوحدة مع العراق لتحقيق تطلعات البورجوازية التجارية الحلبية إلى فتح أسواق العراق وأواسط آسيا أمام بضائعها. فكان الحزب المذكور يصطدم بعرقلة الإنجليز وخدمهم من أمثال نوري السعيد وبمناورات ولي العهد عبد الإله الباحث فقط عن عرش له على سورية فكان لا يهتم بتطلعات التجار الحلبيين الآنفة الذكر إلا بكونها السراب الخلّب الذي يوجه هؤلاء التجار ويسوقهم إلى تحقيق تطلعاته هو فقط. وقد انتبه زعماء حزب الشعب إلى هذا الأمر، فوجدنا مثلاً ناظم القدسي يفاتح أحد كبار مسؤولي العهد الملكي أحمد مختار بابان بهذا الشأن، ويطلب أن يأتي أناس جديون يؤمنون حقاً بالوحدة ليتحاوروا مع السوريين، وقد ورد خبر هذا الحديث في شهادة مزاحم الباجچي المار ذكرها أعلاه. وفي المقابل كان هناك تيار قوي في البورجوازية السورية، في الدمشقية على الأخص، يعارض الوحدة مع العراق، ويفضل أسواق الأردن والسعودية ومصر لنشاطه الاقتصادي، وقد مر معنا ذكر هذا الأمر فيما سبق من هذه

الدراسة. يضاف إلى هذا ما نشير إليه دوماً وهو وجود المعارضة القوية النشطة في كل الحركات الوطنية السورية لكل مشاريع الوحدة مع العراق الملكي والأردن إلى جانب المقاومة الضارية للجماهير السورية ضد كل تسلل من إي شكل كان للاستعمار.

وانطلقت المؤامرات على استقلال سورية في خضم هذه الظروف. فرأينا مثلاً كيف ركب الاستعمار البريطاني من خلال نظامي الأردن والعراق العميلين حركة حسني الزعيم للتسلل إلى سورية، كما رأينا كيف طرح الأميركان الإنجليز أرضاً بواسطة نظامي مصر والسعودية الرجعيين ليركبوا تلك الحركة بدورهم، ليرتد هؤلاء الأخيرون على أولئك الأميركان فيقوضوا عهد الزعيم بانقلاب الحنّاوي. ثم إن الحنّاوي وأعوانه يذهبون بثورة قيادة الجيش التي أتت بأديب الشيشكلي إلخ... لقد كانت فترة السنتين المنقضية من إقصاء الحنّاوي في 19 كانون الأول عام 1949 حتى الثالث من كانون الأول عام 1951 عند إقصاء حزب الشعب عن الحكم وحل مجلسهم النيابي وتعيين فوزي سلو رئيساً للدولة بمرسوم

عسكري من الفترات الحاسمة في تاريخ الوطن العربي. ففيها تفرغت الولايات المتحدة الأميركية لوضع أسس إمبراطوريتها الاستعمارية العالمية بتقدم مشروع جورج مارشال للهيمنة الاقتصادية الأميركية على الصناعة الأوروبية إلى جانب إتمام بناء حلف الأطلسي الاستعماري بقيادتها، ومد شبكة هذا الاستعمار الجديد في مختلف أنحاء العالم وفي مقدمتها المنطقة العربية الآسيوية. ولكن القيادات الوطنية بكل اتجاهاتها تخلفت، كما قلنا دوماً، عن رؤية وتقدير خطر الاستعمار الأميركي القادم، كما تعامت عن قوة زخم الانتفاضة الجماهيرية العالمية ضد الاستعمار بكل أشكاله، عن النهوض الجماهيري العربي للتحرر والخلاص على الأخص، فوجهت كل اهتمامها للاستعمار القديم، فلم تهمل فقط توجيه الجماهير للتصدي للجديد أيضاً قبل أن يتمرس ويتمكن في الأرض وإنما حاولت الاستنجاد به "ليساعدها" على القديم وفتحت له سبل التغلغل بعملائه وبالانتهازيين في الصفوف الوطنية. وقد اقتصر طموحها في سورية مثلاً بعد أن تمكن حزب أكرم الحوراني مع حزب

البعث من السيطرة على القوات المسلحة خلال فترة السنتين الآنفتي الذكر على "مراقبة" حزب الشعب الساعي حينذاك عبثاً إلى تحقيق وحدة حقيقية مع العراق وعلى الوقوف في وجه عملاء ولي العهد عبد الإله الذين كانوا يسعون إلى تهيئة فرصة يتمكن فيها هذا الأمير من تنصيب نفسه ملكاً على سورية، وذلك بدلاً من سلوك الطريق الطبيعي الصحيح باستغلال إمكاناتهم في حشد الجماهير لتحويل سورية إلى قاعدة ثورية تلتف حولها الجماهير العربية الثائرة، وفي مقدمتها جماهير العراق، للقضاء على الاستعمار بكل أشكاله وتحقيق الهدف الثوري الإنساني الكبير وهو توحيد وطننا العربي في ظل نظام تقدمي لأمتنا يدفع بالمسلمين وبالإنسانية الثائرة أيضاً حينذاك إلى عتبة طورها الأعلى: إن تلك القوى الوطنية كانت لها قيادات تناور في مسألة الوحدة العربية، وكأن الاستعمار بمعزل عن هذه المسألة فلا يوليها اهتمامه الكبير، أو بالأحرى إن تلك القيادات الوطنية كانت تحاول "استغفال" المستعمرين وتحقيق الوحدة "من وراء ظهورهم"، في الوقت الذي هي فيه ثورة إنسانية كبرى لا سبيل إلى

تحقيقها ثم كسبها إلا بمواجهة طويلة وكبيرة نشتبك فيها مع المستعمرين بسلسلة من المعارك المتنوعة إلى أن ينتصر حقنا ويهزم باطلهم. هذه هي المهمة الحقيقية التي كان على القيادات التقدمية السورية أن تعمل لتحقيقها بتكتلها جميعها في نظام ثوري واحد وليس باكتفاء واحدة منها بالقيام بدور الشرطي لحماية أمن النظام القطري القائم دون الاستفادة منه للانطلاق نحو تحقيق الهدف الأساسي للأمة بكليتها. ومما لا ريب فيه أن القوى الوطنية في الأقطار الأخرى لا بد من أن تتجاوب في النتيجة مع الموقف الثوري الصحيح فيقوم السيل العارم الذي يجرف المستعمرين ومرتكزاتهم. ولكن الشرط الأساسي هو أن تقوم تلك العقيدة الموَحِّدة لكل القوى الثورية في القطر وفي الأمة.

أديب الشيشكلي

ولد أديب الشيشكلي في عائلة إقطاعية حموية عام 1909 وانتسب إلى الكلية العسكرية عام 1930 بعد مرحلة إعدادية غير لامعة في ثانوية حماة وبعد دراسة لم تتم في

المعهد الزراعي الابتدائي، في سلميّة، الذي كانت تُعادَلُ شهادته حينذاك بالثانوية العامة. وكانت عائلته في الصف الوطني، فأحد أفرادها الدكتور توفيق الشيشكلي كان زعيماً من زعماء الكتلة الوطنية ونائباً عن حماة في مجلسي نواب 1928 و1937، كما إن والده اضطّهِد من قبل الفرنسيين فأوقفوه في مرة من المرات وأجبروه على تأدية السخرة بتنظيف اسطبلاتهم وبيوت خلاء ثكناتهم وهو الوجيه الحموي الكبير، ثم إن المستشار الفرنسي لمدينة حماة طلب إليه أن ينتسب ولداه أديب وصلاح إلى الكلية العسكرية وذلك لاسترضائه وتقريبه من سلطات الانتداب. وكان والدي المرحوم طالب البزري قاضياً بدائياً في حماة وتربطه به صداقة فدعاه لأن يكون شاهد زواج ولديه أديب وصلاح من شقيقتين من آل الفنري الإقطاعيين الآخرين في قضاء إدلب من أعمال حلب، وذلك عشية التحاقهما بالكلية العسكرية.

كان أديب الشيشكلي مختلفاً كلياً بصفاته عن كل من حسني الزعيم وسامي الحنّاوي. كان، كآبائه أغوات الإقطاع، واثقاً من نفسه متزناً ذا إدراك جيد لأحوال الناس مع تفتح

وثقافة كافيين لتجنيبه سخرية الآخرين. كان أيضاً اجتماعياً غير بعيد عن أصدقائه ومؤيديه وإن كان دوماً يضمر في نفسه طموحاً قوياً "للتزعم". كان كريماً ودوداً عامر المائدة التي كانت تُنْصَبُ بدون انقطاع إلى ما بعد منتصف الليالي حيث يسمر حولها الصحب والخلان فيتناولون كل المواضيع الجادة والمسلية.وكانت له بنية قوية تساعده على تحمل السهر مع مشاق مهنته العسكرية. كما إن ثروته العائلية سمحت له بإقامة تلك الولائم حتى نفذت في النهاية. ولقد بدأ قبل أن ينغمس في متاهات التآمر للوصول إلى السلطة وطنياً صادقاً فانضم إلى تنظيم الضباط الوطنيين في عهد الانتداب وساهم بفعالية في هذا التنظيم. وقد التحق بالثورة الوطنية ضد المستعمرين الفرنسيين في صيف عام 1945 في منطقة الفرات في الوقت الذي كان فيه شقيقه (الأكبر) صلاح يساهم في قيادة المقاومة الحموية الباسلة ضد الحملات العسكرية لأولئك المستعمرين.

وانتسب الأخوان أديب وصلاح مع نسيبهما وصديقهما الأستاذ أكرم الحوراني إلى الحزب السوري القومي منذ

تأسيسه في حماة في مطلع الثلاثينات من هذا القرن. وقد حاول المستعمرون الفرنسيون في صيف عام 1937 تعطيل المعاهدة التي عقدتها حكومتهم مع الكتلة الوطنية في عام 1936، المعاهدة التي ألغت الانتداب واعترفت بموجبها فرانسة باستقلال سورية وجرت بموجبها انتخابات نيابية في سورية وقام على أساسها حكم وطني تزعمته الكتلة الوطنية المذكورة. وكان لهم عون في شخص قاد فصيلاً من الثوار في غوطة دمشق أيام الثورة السورية الكبرى ثم انقلب على هذه الثورة وغدا من عملائهم وهو رمضان شلاش. ويتلخص خبر هذه المؤامرة، كما سمعته من أديب الشيشكلي في عام 1948 عندما كنا في الجليل في جيش الإنقاذ، في أن الفرنسيين اتصلوا به بواسطة أمير شلاش ابن رمضان الآنف الذكر وقالوا له إنهم مستعدون لغض النظر والسماح بإجراء عملية بواسطة الضباط الوطنيين تؤدي إلى طرد حكومة الكتلة الوطنية في دمشق وإقامة قيادة عسكرية وطنية إلى جانب حكومة مدنية تحالف فرانسة التي تُبْقي قوة رمزية صغيرة في سورية. وقد ذهب أديب الشيشكلي وأمير شلاش

وعرضا هذا الأمر على زعيم الحزب السوري القومي أنطوان سعادة في بيت مري في لبنان. كما جرى اجتماع في حماة برئاسة هذا الأخير وحضور أكرم الحوراني ونوقش العرض الفرنسي الذي رُدَّ في النتيجة لوضوح غايته وهو تعطيل المعاهدة الآنفة الذكر وضرب الحزب السوري القومي وتشتيت شمله والقضاء على كتلة الضباط الوطنيين السوريين واللبنانيين في القطعات الخاصة السورية اللبنانية.

وانضم أديب الشيشكلي إلى جيش الإنقاذ في عام 1948 فقاد إحدى كتائب لواء القاوقجي التي أُرسلت لمقاومة الصهاينة في الجليل. وقد انضم إلى هذه الكتيبة الأستاذ أكرم الحوراني مع عدد غفير من تنظيمه الحموي من أمثال عبد الكريم زهور وعلى عدي وخليل كلاس وغيرهم. وقد قام الخلاف بين أكرم وأديب من أيام الجليل تلك حيث برزت استقلالية الأخير عن الأول وطموحه لأن يكون سيد الأمر وتبين بوضوح أن كلاً منهما كان يساير الآخر لتحقيق أهدافه الخاصة به: كان أكرم زعيماً سياسياً يبحث عن دعم لخطه السياسي في الجيش بينما كان أديب عسكرياً ذا مطامع

شخصية يبحث عن تعزيز مكانته في الجيش عن طريق صداقاته العسكرية والمدنية التقدمية. وعندما التقى الجانبان، الحوراني والشيشكلي، في ساحة التطبيق العملي لصداقتهما في الجليل برز اختلافهما الشديد حول هدفيهما المتناقضين. وقد انسحب الأستاذ الحوراني ورفاقه المدنيون وعدد من العسكريين من أصدقائه من كتيبة الشيشكلي باكراً قبل انحلال هذه الكتيبة ومجيء القاوقجي لقيادة جبهة الجليل. وقد حدثني الأستاذ أكرم عن الشيشكلي وتصرفاته أثناء قيادته لكتيبته، وذلك في أواخر شهر أيار عام 1948 أثناء مروري بدمشق في طريقي إلى الجليل في قوات القاوقجي، وكان ذلك في مقهى الواحة حيث كنا ثلاثة أكرم والمجاهد الشهيد فتحي الأتاسي وأنا. فنعته بالخائن والمتخاذل الجبان الذي كان يختبئ دوماً فلا يعرف مكانه حتى أقرب معاونيه كالمرحوم فتحي الأتاسي الذي كان معاونه في قيادة الكتيبة. وللإنصاف أقول أن أكرم كان في تلك الأثناء تحت تأثير الخيبات التي كنا نعاني منها جميعاً نحن العرب فنلقي، بتأثير الغضب، التهم جزافاً يميناً وشمالاً. ولعل الشيشكلي الذي أُلقي على عاتقه

الدفاع عن منطقة واسعة كالجليل بكتيبة ضعيفة التسليح، وإن كانت في البدء مرتفعة المعنويات، كان يبالغ بعض الشيء في تطبيق قاعدة التخفي عن أنظار العدو إلا أنه ما كان لينحط إلى درك تلك الصفات التي وصفه أكرم بها، كما لم يرتفع حينذاك إلى مستوى القائد الذي يعوّض بتدبيره وعبقريته النقص في إمكاناته المادية التي توفرت له: لم يبلغ ذلك المستوى الذي رفعه إليه باتريك سيل في كتابه "الصراع على سورية" عندما قال: ""..لقد شوهد الشيشكلي كأحد أمهر القادة السوريين في حملة فلسطين..".

نجد إذن أن أديب الشيشكلي قد تَكَشَّفَ منذ حرب عام 1948 عن رجل له أطماعه الفردية الشخصية وعن إنسان غير متميز إيجاباً أو سلباً في صفاته فلا يصعب جرّه واحتواؤه لهذه الجهة أو تلك، ومع ذلك، ومع كل تلك الظنون الآنفة الذكر التي يحملها ضده الأستاذ أكرم الحوراني كبير قادة القوى الوطنية العقائدية حينذاك، فإن قيادات هذه القوى عادت مرة أخرى وأفسحت الطريق أمام هذا الإنسان غير المتميز العادي ليجعل من نفسه ديكتاتوراً بعد تجربتين

مشـــابهتين ســـابقتين: تجربــة حســني الــزعيم وتجربــة ســامي الحنّاوي. والسبب هو الذي نقوله ونكرره دومـاً: فقدان العقيـدة المُوَحِّـدَةِ لكـل تلـك القـوى الوطنيـة التـي أقامـت تعدديـة وثنيـة باختلافاتها وتعدد اتجاهاتها وأربابها فضلّت الطريق ولُدغت أكثر من مرة من ذات الجحر. فبعد أن فَرَطَـتْ الوثنيـة القوتليـة الموصوفة في الحلقات السابقة عقد الجبهة الوطنية التي حققت الجـلاء كـان ، ومـا يـزال وسـيبقى أبـداً، علـى القـوى التقدميـة تحقيق الأمور الأساسية التالية:

1- صياغة العقيدة المنيرة للواقع والمحددة لهويـة الثـائر المعاصـر بكـل أبعادهـا وتطلعاتهـا ولهويـة العـدو بكـل تفاصيلها وأطماعها والمُبَيِّنَـةِ لحقـائق النظـام العـالمي المعاصـر وحقائق الاستعمار الجديد ومختلف امتدادات شبكته فـي العـالم وفي المنطقة؛

2- تنظـــيم الجمـــاهير للجهـــاد وفقـــاً لستراتيجية تمليها العقيدة المذكورة؛

3- أن تكون القوات المسلحة جزءاً لا يتجزأ من الجماهير المسلحة وامتداداً لها فلا تطغى أية فردية لتقيم ديكتاتورية تجهض منطلقات الثورة الإنسانية الكبرى.

إن كل حكم قطري، مهما كان شكله، لا يعمل على إزاحة النظام الرأسمالي العالمي عن عاتق قطره فينخرط في هذا النظام ويشارك في تكريس الوطن العربي الكبير للتمزيق هو في جوهره حكم ديكتاتوري وإن تستر ببرلمانية وديموقراطية وثنية تخدم مصالح قطرية ضيقة على حساب مصير الأمة. أي إن الكفاح ضد الديكتاتورية في القطر بهدف الوصول إلى حكم برلماني فقط يبقي البلد منخرطاً في النظام الرأسمالي لن يغير شيئاً من واقع تخلف المتخلف العربي ومن ارتباطه بقاهريه المستعمرين الجدد. فلا سبيل إذن إلا سلوك طريق الثورة للخلاص من هذا النظام العالمي العبودي. وهذه الثورة لا يمكن أن تكون قطرية ولا بد لها من أن تكون ثورة الأمة بكاملها، بجميع أقطارها. وهذا هو الذي لم يتضح في تلك الأيام في أذهان أولئك القادة للقوى التقدمية فكانت طموحاتهم تنحط إلى الحصول على السلطة القطرية، بل في

عهدي الزعيم وحزب الشعب كانت تلك الطموحات تنحط إلى مستوى مشاركة الرجعية والانتهاز في السلطة، في الوقت الذي كانت فيه جماهير التقدميين هي القوى المحرِّكة، إلا أن قادتهم كانوا حينذاك منقسمين على أنفسهم يتسابقون للانفراد بتلك "السلطة" القطرية المنخرطة في نظام القهر العالمي للعبوديين الرأسماليين.

لا خلاص إلا بالثورة

كان الأستاذ أكرم الحوراني، وما يزال على ما نعتقد، يقول أن استلام التقدميين للسلطة في تلك الأيام يشكل مغامرة هوجاء لعدم توفر الظروف الداخلية والخارجية المؤاتية. فسورية كانت معرضة للغزو الخارجي في ظروف الحرب العالمية الباردة. وأضاف إلى هذا في عدد من المقابلات مع الأستاذ الدكتور مصطفى الدندشلي الذي كان يعدّ بحثه القيم "مساهمة في نقد الحركات السياسية في الوطن العربي"، فقال إن حزبه، الحزب العربي الاشتراكي، لم يعدم الفرصة لاستلام الحكم فالطريق إلى السلطة كانت مفتوحة أمامه منذ

عـام 1950 عنـدما أُسـس وقـام وحتـى عـام 1958 عنـدما تحققت الوحدة السورية المصـرية. وأضـاف بـأن الإحجـام عن الاسـتيلاء علـى السـلطة كـان بسـبب انشـغالنا بخلـق وتوسـيع حركة الجماهير بالاعتماد على العناصـر التقدميـة فـي الجيش. وما كان هذا الرأي يخص الأستاذ أكرم وحده بين التقدميين الثـوريين بـل كـان هـؤلاء جميعـاً يقولـون بهـذا القـول وأكثـر. ولننظـر عـن قـرب إلـى هـذا الـرأي الـذي يـداوي الـداء بالـداء: المستدين مثلاً يداوي دينه بمزيد من الاستدانة، والمنخـرط فـي نظام القهر والعبوديـة الرأسـمالية الاحتكاريـة يحـاول الخـلاص من عبوديته بمزيد من الارتباط بهذا النظام، والغريق المتخبط بمزيد من التخبط إلخ...، فنرى ما يلي:

1- إن الركـــون إلـــى آراء جنرالاتنـــا مـــن أمثـــال الشيشـكلي والحنّـاوي والـزعيم الـذين لـم يكتشـفوا بعـد الحـروب الشـــعبية الثوريـــة الطويلـــة الأمـــد وعقائـــدها وســـتراتيجياتها وعملياتهـا علـى مختلـف حجومهـا لا ولـن يـروا أبـداً ظروفـاً داخليـة وخارجيـة ملائمـة للثـورة علـى الظلـم. فعنـدما لا تكـون مـثلاً ظـروف الشـعوب المقهـورة ملائمـة للتمـرد فـي أعقـاب

الحـرب العالميـة الثانيـة، حيـث كـان المسـتعمرون قاهروهـا منهكين إلى حد التلاشي بنتيجة الدمار الشامل الذي سببته تلك الحـرب لبلادهم واقتصـادهم وحيث تصـاعدت حركـة التحـرر العالمية إلى أعلى الذرى فلوحق الاستعمار في كل بقعـة من العالم وهُزم ودُمّر، حتى الجديد منه وهو الاستعمار الأميركـي المتبجح كـان حينـذاك يلقـى هزيمـة كاويـة علـى يد الكـوريين والمتطوعــة الصــينيين، نقــول عنــدما لا تكــون مثــل هــذه الظـروف، التـي عناهـا الأستاذ أكـرم فـي رأيـه أعـلاه، ملائمـة فمتى يا ترى تكون ملائمة؟.. ولقد انتظرناها هذه الظـروف مع الأســتاذ أكــرم فأفســحنا بانتظارنــا هــذا للاســتعمار الجديــد الأميركي الطريق وهيأنا لـه "الظـروف الملائمـة" ليبنـي بيسـر وسهولة إمبراطوريته العبودية العالمية ويضع قلبها في عالمنـا العربي. وإنه من البديهي أن لا يجد أبداً الشعب المقهور ظرفـاً ملائمــاً، داخليــاً وخارجيــاً، عنــدما يمــارس لعبــة الاســتقلال الموهـوم فــي قفـص المسـتعمرين العــالمي فينــتفخ انتفــاخهم بممارسـة الحـروب النظاميـة بجيوشـه المنفصـلة عـن جمـاهير أمته لاستخلاص حقوقه. فالجيوش النظامية في البلاد المتخلفـة

عندما لا تكون امتداداً لجماهير شعوبها الثائرة وفصيلة طليعية من الفصائل الثورية للجماهير تكون بداهة، كما رأينا بما مرّ علينا من تجارب، صالحة فقط كأداة قمع للثورات.

2- إن القيادات التقدمية الثورية العربية أساءت تقدير شدة توتر المناخ الثوري الذي كانت تعيشه جماهير أمتنا، مع جماهير العالم المستعمر وشبه المستعمر، في الأربعينات والخمسينات من هذا القرن، المناخ الذي تجلّى بكل أبعاده عند تأميم القناة ويوم قيام الوحدة السورية المصرية ويوم اندلاع ثورة الرابع عشر من تموز في العراق. كان الأستاذ أكرم مثلاً، كما صرح به، يخشى من غزو الجيش العراقي لسورية. وهذه خشية مفهومة فيما لو اقتصر الصراع على الجيشين النظاميين للقطرين الشقيقين. ولكن ماذا كان بالإمكان أن يبقى من نظام الجيش العراقي عندما يُجابَه هذا النظام طوال مدة كافية بجيش سوري يكون طليعة الجماهير العربية الثائرة في العراق وفي سورية وفي كل الوطن العربي؟.. مما لا ريب فيه أن ذلك النظام للجيش العراقي الذي كان يخشاه الأستاذ أكرم لا بد من أن يتحول حينذاك إلى

تلك الثورة العارمة التي أطاحت بالعملاء يوم الرابع عشر من تموز عام 1958. وكنت قد سألت مرة ممثل العراق في دمشق الوزير المفوض عبد الجليل الراوي في صيف عام 1957 أيام بلغ تآمر الاستعمار علينا ذروته في الشدة، وعندما كانت جماهير شعبنا السوري تملأ ساحات التدريب المنتشرة في كل أنحاء القطر للاستعداد لمواجهة المستعمرين فقلت له: "أتعتقد حقاً أن الجيش العراقي سيطيع الحكام هناك ويقوم بعدوان علينا؟". فأجابني الراوي: "إن الجيش العراقي سينتفض إذن على طغاته ويحرر العراق من حكمهم!..". وكنت في الواقع أسأله سؤال العارف فقد كانت لنا اتصالات وثيقة بقائد ثورة الرابع عشر من تموز المجاهد الشهيد عبد الكريم قاسم منذ لقائي به في الأردن عام 1956 أيام العدوان على القناة وسيأتي خبر ذلك فيما سيأتي من هذه الدراسة. ولا بد هنا من القول بأن الأستاذ أكرم الذي كان يخشى غزو الجيش العراقي لسورية كان، بحكم مركزه كرئيس لمجلس النواب وكعضو في الجبهة الوطنية، عالماً بتلك الاتصالات..

3- إن من نتائج غياب العقيدة الصحيحة للثورة المعاصرة هو ظن قادة قوى التقدم الثورية أن التخلف بمختلف مظاهره المادية كالإقطاع مثلاً والبورجوازية الأنانية وضعف قوى الإنتاج والجهل والانتهاز وغيره هو "مرض داخلي" يمكن شفاؤه ويجب شفاؤه قبل منازلة المستعمرين، وذلك ظناً منهم بإمكان فصل ما هو داخلي عما هو خارجي في هذا العصر. إنهم لا يرون النظام العالمي على حقيقته، هذا النظام الذي يمتد بشبكة علاقاته إلى كل مناطق العالم فيحتوي كل الأنظمة الفرعية في كل جماعة إنسانية وكل قطر من أقطار الدنيا ويجعل من كل واحد منها امتداداً له في بلده يوفر لسادته الرأسماليين الاحتكاريين فضول القيم. فيكون إذن كل تعرّض لنظام خاص في كل بلد من بلاد جملة المجتمعات الإنسانية العالمية هو في ذات الوقت تعرّض لذلك النظام العالمي وبالتالي لا بد من أن يؤدي إلى الاصطدام بالمستعمرين. لذلك لا يمكن "سرقة التقدم" وتحقيقه في كل قطر من أقطار الدنيا بنجوة عن أعين هؤلاء المستعمرين وعن تدخلهم بشكل أو بآخر. أي إن التقدم المادي يأخذ بالضرورة شكل العمل

الثوري الذي يقوّض نظامهم في ذلك القطر، أو إن منجزاته تكون مع مجمل اقتصاد البلد ملكاً للاحتكاريين عندما يتحقق بنتيجة قروضهم الأمر الواضح كل الوضوح في عالمنا الحالي، أو إنه لا يكون أبداً فيغرق البلد في ظلمات الفقر والجوع. هذه هي خيارات هذا العصر الذي هو العصر الأميركي. فالمسألة تبقى إذن فيما إذا كان من الواجب سلوك طريق الثورة للخلاص من هذا النظام الاستعماري أم البقاء والانخراط فيه تحت مختلف اليافطات الخادعة كالمحافظة على التقاليد مثلاً أو المحافظة على الديمقراطية أو محاولة التنمية والركض لإدراك مستوى المتقدمين "الطائر" أبداً بعيداً عن المقهورين.

4- قال الأستاذ أكرم إن قيادته أحجمت عن الاستيلاء على السلطة بسبب انشغالها بخلق وتوسيع حركة الجماهير بالاعتماد على العناصر التقدمية في الجيش. ولكن الذي رأيناه حتى الآن في هذه الدراسة أن القيادات التقدمية الثورية كانت تقبل السير تحت أعلام غاصبي السلطة من حسني الزعيم إلى سامي الحنّاوي فأديب الشيشكلي الذين كانوا

دوماً بعد وصولهم إلى السلطة بمساعدة تلك القيادات يقومون باضطهادها ومطاردتها. فكيف وأين كانت "تُخْلَقُ وتُوَسَّعُ" حركة الجماهير بالاعتماد على العناصر التقدمية في الجيش في ظل تلك الديكتاتوريات التي استمرت من 30 آذار 1949 حتى 25 شباط 1954؟.. والواقع، كما سبق وقلنا في أول فصل من هذه الدراسة، ما كانت الجماهير بحاجة إلى أن "تُخْلَقَ وتُوَسَّعَ" حركتها من قبل قياداتها فهي كانت تتقدم عليها، والذي كانت بحاجة إليه هو ما نردده دوماً: قيادة ترى وتفهم الواقع العالمي والمحلي بشكل جيد، وتنطلق لتدبير الثورة على هذا الواقع والخلاص منه.

الفصل السادس

الثورة قدر المستضعفين

الجمعية التأسيسية

مر معنا كيف أن قيادة حسني الزعيم لعملية قلب الوثنية القوتلية كانت بسبب تأخر القوى العقائدية التقدمية عن إيجاد صيغة صحيحة توحد صفوفها، وإحجامها بالتالي عن أخذ المبادرة وقيادة تلك العملية بدلاً من ذلك الأفّاق. وأشرنا إلى أن الفضل، مع ذلك، يعود إلى هذه القوى التقدمية بالذات لنجاح انقلاب الزعيم، فكان الأَوْلى بها أن تكون هي القائدة وأن تكون العملية ثورة بدلاً من أن تكون انقلاباً لمصلحة انتهازيين مرتزقة كانوا يخدمون مخططات المستعمرين. فالقوى التقدمية التي شكّلت الجبهة الوطنية وتسنّمت قيادة المقاومة ضد المستعمرين جميعاً وعلى رأسهم الأميركان بعد سقوط الشيشكلي كانت هي بذاتها موجودة باستمرار منذ جلاء الأجنبي عن سورية عام 1946 حتى الوحدة السورية المصرية عام 1958، وقد قلنا هذا في أكثر من مناسبة سابقة

من هذه الدراسة. وتكرر، مع ذلك، سير القوى التقدمية تحت أعلام الانتهاز المدعوم من اليمين المتخلف في عملية إسقاط حسني الزعيم، وذلك بسبب غياب العقيدة الثورية أيضاً التي تبين الواقع وتحشد التقدميين الثوريين في خندق واحد وتبعد الانتهازيين وتعطل نشاط الخونة. فوجدنا سامي الحنّاوي الجاهل المنعدم الشخصية محاطاً بقبضة من الانتهازيين الأفّاقين، عسكريين ومدنيين على رأسهم عديله أسعد طلس الموظف في الخارجية السورية المار ذكره في هذه الدراسة، يقود قوى الانقلاب المؤلفة بأكثريتها من الوطنيين العقائديين الذين ما كانوا حينذاك ليجدوا الصيغة الحقيقية للوحدة تحت راية تحرير الوطن من جميع المستعمرين في الوقت الذي قبلوا فيه العمل معاً تحت قيادة أفّاقين يعملون لصالح رجعيين للخلاص من أفّاق آخر هو حسني الزعيم.

إن البلاغات الرسمية لا تخبرنا، بطبيعة الحال، عما يعدّ في مطابخ المستعمرين من خطط وعما ينعكس من هذه الخطط على تفاعلات مختلف القوى الاجتماعية، ولا بد لنا من التدقيق في مجريات الأمور للوقوف على الواقع وتخمين

اتجاهاته المستقبلية. فنسمع مثلاً في الرابع عشر من آب عام 1949 بلاغاً صادراً عن "مجلس حربي أعلى" يقوده سامي الحنّاوي يُعْلِمُ الناس أن حسني الزعيم قد قُلِبَ وأُعْدِمَ وأن الجيش قد ابتعد عن السياسة وسلّم أمورها إلى الوطنيين المخلصين ليقودوا البلاد إلى برّ الأمان والسلامة. وعلم الناس في بلاغ آخر أمر تشكيل حكومة مدنية مؤقتة يرأسها هاشم الأتاسي وأعضاؤها الأساسيون من حزب الشعب إلى جانب وزيرين من حزب البعث ووزير مستقل وآخر من الحزب الوطني: زعيم حزب الشعب رشدي الكيخيا للداخلية، ومعاونه في الحزب ناظم القدسي للخارجية، وزعيم شعبي آخر فيضي الأتاسي للاقتصاد، وميشيل عفلق للتربية، وأكرم الحوراني للزراعة، وخالد العظم ممثل البرجوازية الدمشقية للمالية، والمستقل سامي كبّارة للعدل، وعادل العظمة من أطراف الحزب الوطني وزير دولة. وتبدو هذه التشكيلة الوزارية مناقضة لمشاريع الهاشميين ومن ورائهم الإنجليز. ففي البعث وحزب الشباب الحوراني مقاومة كبيرة ضارية لتلك

المشاريع، كما كان خالد العظم عدواً مؤكداً لها إذ تقف دون طموحاته للوصول إلى كرسي الرئاسة.

ودعت الحكومة المؤقتة المذكورة إلى انتخاب جمعية تأسيسية، الأمر الذي يدل بوضوح على نية القوى الكامنة وراء هذه الدعوة في تغيير النظام السوري الجمهوري وتسهيل مشاريع هاشميي العراق الملكيين، وإلا لكانت الدعوة المذكورة من أجل انتخاب مجلس نواب يعيد الشرعية إلى البلد بعد القضاء على حكم الزعيم غير الشرعي. وقد وُضِعَ بالفعل نَصٌّ قسم يؤديه رئيس الدولة والوزراء والنواب خالٍ من التعهد بالحفاظ على النظام الجمهوري، وتمكن حزب الشعب من توفير أكثرية في الجمعية التأسيسية المذكورة توافق على ذلك النص للقسم: كان لحزب الشعب في الجمعية 51 نائباً من أصل 144 نائباً، وللبعث ثلاثة نواب أشبه بنواب العشائر بثقافتهم وعواطفهم منهم بنواب حزب تقدمي ثوري هو البعث العربي. وبالفعل فإن أحدهم الأستاذ جلال السيد قال بتاريخ 16 آب عام 1965 في مقابلة مع الدكتور مصطفى دندشلي، وهو يظن بأن ما يقوله مبعث فخر له، إن نجاحه في تلك

الانتخابات ما كان بقوة حزبه بل "بقوة نفوذه الشخصي"، أي بما كان له من نفوذ عشائري. ويضيف الأستاذ دندشلي سبباً آخر لنجاح هذا السيد هو ما "مارسه النظام العراقي من ضغوط انتخابية لمصلحته" في أوساط منطقته المحاذية للقطر الشقيق. ويؤكد هذا الأمر مستمسكات محكمة الشعب العراقية التي أُحيل إليها رجال العهد الملكي حيث يتبين أن لجلال السيد في تلك الأيام صلات وثيقة بهذا العهد. وقد فشل الأستاذ ميشيل عفلق في الدورة الأولى لانتخابات الجمعية التأسيسية المذكورة فانسحب ولم يتقدم للدورة الثانية، كما قدّم استقالته من الوزارة، بينما فاز أكرم الحوراني بمقعد نيابي عن حماة وبقي وزيراً للزراعة.

كانت الجمعية التأسيسية مسرحاً لصراع دائم شديد بين أنصار الوحدة مع النظام العراقي وهم معظم نواب حزب الشعب ومعهم بعض النواب المستقلين وبين مجموعة من النواب المعارضين لتلك الوحدة كان في مقدمتهم الأستاذ أكرم الحوراني والدكتور عبد الوهاب حومد (الذي انشق عن حزب الشعب فيما يخص هذه القضية) والأستاذ مصطفى السباعي

زعـيم الأخـوان المسـلمين وعبـد البـاقي نظـام الـدين مـن المستقلين. وكـان أن فـاز حـزب الشـعب، كمـا أسـلفنا، بتـوفير الأكثرية اللازمـة لقبول نـصٍّ ليمين الإخـلاص يخلـو مـن ذكـر النظام الجمهوري. واستمرت المنـاورات والمداورات وبلغت حد قيام أنصار الوحدة بتقديم عريضة إلى رئيس الدولـة هاشم الأتاسـي يطـالبون فيهـا بالإسـراع فـي إتمـام توحيـد القطـرين الشقيقين سـورية والعراق. عندئذ قامـت فـي الجيش، فـي 19 كانون الأول عام 1949، حركة تغيير لقياداته الموالية لحزب الشعب فَقُبِضَ على الحنّاوي وأعوانه وأُودعوا السجن، وعُيِّن أنور بنود رئيساً للأركان وأديب الشيشكلي معاوناً لـه. ورئـيس الأركـان الجديد هذا لا يختلـف كثيـراً عن الحنّـاوي مـن حيث الثقافة واتساع الأفق سوى أن الأخيـر كـان يتصـف بكثيـر مـن الطيـب والبسـاطة والشـجاعة إلـى جانـب انعـدام ثقافتـه. وكـان أكـرم الحـوراني وأديـب الشيشـكلي وراء حركـة التغييـر هـذه وقاداها.

ونجـد هنـا مـرة أخـرى قيـادة القـوى التقدميـة تتراجـع عن الإمساك بالراية وتحفظ شـعرة معاويـة مـع خليـط البورجوازيـة

التجاريـة السـورية والرجعيـة والانتهـاز. فتقـوم مـثلاً بطمأنـة حزب الشعب بتعيين أنـور بنـود الحلبـي الأصـل ذي الصـلات بهذا الحزب رئيساً للأركان وإلى جانبه الشيشكلي ذي الطمـاع الشخصية معاونـاً، وذلك بدلاً من إقامـة سلطة ثوريـة منظمـة كـان إمكـان تحقيقها حينذاك ظـاهراً بكل جلاء لكل عين: لـم تكلف تلك الحركة التي قادتها القوى التقدمية وأدت إلى إقصـاء الحنّـاوي وكـل أنصـار الرجعيـة والانتهـاز الممالئـة لحـزب الشـعب سـوى الـزمن الاعتيـادي لوصـول المصـفحات مـن معسكراتها إلى بيوت أولئك الرجعيين والقبض عليهم وإلقـائهم في السجن. وفـي النتيجـة بـرزت ظـاهرة اقتسمت فيهـا السلطة الشرعية مؤقتاً إلى حين جهتان متناقضتان:

- القـوى التقدميـة فـي الجـيش وفـي الشـارع؛
- حزب الشعب مع حواشيه فـي قيـادة السلطات المدنية.

فهذا الأمر، في تلك الحالة التي كانت عليها قيـادات قـوى التقـدم السـورية حينـذاك مـن نقـص فـادح فـي وضـوح رؤيـة

التحولات العالمية وجهل على الأخص بتحولات الاستعمار من الشكل القديم إلى الشكل الجديد مع تسلل الانتهاز بقوة في صفوف تلك القيادات، نقول إن هذا الأمر المتناقض الذي حدث عقب إقصاء الحنّاوي يعود برأينا إلى الأسباب التالية:

1- إن المرفوض في الوحدة مع العراق من قبل الجماهير هو الاستعمار البريطاني المهيمن حينذاك على القطر الشقيق من خلال مدرسة الجاسوس الشهير لورانس الحاكمة هناك. أما الوحدة بحد ذاتها فهي دوماً مطلب وطني جماهيري. لذلك رأينا مثلاً أن الحزب الوطني السوري الجمهوري النزعة الذي عارض بشدة الوحدة مع العراق الملكي لا يجد صعوبة في الوقوف موقفاً إيجابياً من الوحدة السورية العراقية فيصدر في 22 أيلول عام 1949 بياناً يقول فيه: "إن الوحدة الكاملة مع العراق وحدها فقط تستطيع إنقاذ البلدين من الخطر الصهيوني الجاثم". أما حزب البعث فمن المشهور أنه ورث عن عصبة العمل القومي الاتجاه نحو العراق للبدء بالوحدة العربية. أما الحزب السوري القومي فوحدة الهلال الخصيب تأتي في أساس بنيان عقيدته. ومن

النافل التذكير بالمتدينين المسلمين، كالأخوان مثلاً، فمطلبهم توحيد دار الإسلام بدءاً من توحيد الأمة العربية. لذلك أتيح لحزب الشعب وأنصاره تلك الفرصة للبقاء في السلطة المدنية ولم تُعِبْهُ عقائدياً بنظر القيادات التقدمية الممسكة بالشارع وبالقوى المسلحة ما دام يمارس لعبة الديمقراطية فلا يجرب الغدر بالتآمر.

2- كان في قيادة البعث أفراد، مثل جلال السيد، يشكلون امتداداً للمدرسة الحاكمة في بغداد، وهم موضوعياً في خندق واحد مع حزب الشعب فيما يخص العلاقات السورية العراقية.

3- كان الصراع بين الهاشميين من جهة وبين المصريين والسعوديين من جهة ثانية على أشده لم يحسم بعد حينذاك. وكان الإنجليز كما نعلم وراء الهاشميين وأنصارهم والأميركان وراء المصريين والسعوديين وأنصارهم.

مواقف مختلف الجهات من الوحدة

قلنا دوماً إن الوحدة العربية ثورة إنسانية كبرى، والبدء بها من أي جهة وبأي عملية هو إعلان حرب على المستعمرين وعلى نظامهم العالمي، فلا يُسْتَأْذَنُ، بداهة، هؤلاء المستعمرون وأعوانهم في شأنها أبداً. ولننظر إلى مواقف مختلف الجهات ذات العلاقة من تلك الوحدة مع العراق على ضوء هذه المُسَلَّمَةِ:

الصهيونية: عدوة لدودة لكل وحدة عربية حقيقية، ونصيرة كل ما يمزق العرب والإسلام، وهذا من بديهيات الأمور.

السعودية: عدوة كل وحدة في وجه القهر العالمي ومع كل ما يعزز مواقع المستعمرين في المنطقة وفي العالم، فهي "كإسرائيل" دولة حدود للنظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي.

النظام المصري الرجعي: يقاوم كل وحدة للهلال الخصيب ويعتبر سورية مجرد امتداد لأرض مصر في آسية.

النظام العراقي الملكي: كان ما يبحث عنه النظام الملكي العراقي ينطبق تماماً على ما كان يسعى إليه الاستعمار البريطاني. فهو بقيادة ولي عهده والوصي على عرشه الأمير

عبد الإله كان يحاول "اصطياد" عرش لهذا الأمير على سورية بالتلويح بوحدة موهومة بين العراق وسورية ومن خلال التآمر على النظام السوري لقلبه. وهذا أمر معروف ومشهور في تلك الأيام. إن الأستاذ أكرم الحوراني مثلاً قال لتوفيق السويدي، وهو من كبار مسؤولي ذلك العهد الذي قاده عبد الإله ونوري السعيد والذي ما انفك أبداً عن التآمر على استقلال سورية منذ أن جلت الجيوش الأجنبية عن هذا القطر عام 1946 حتى ثورة الرابع عشر من تموز عام 1958، نقول إن الأستاذ الحوراني قال للسويدي في ختام مناقشة طويلة جرت في دمشق في أواخر عام 1955: أنتم كاذبون مراوغون لا تريدون في الواقع لا وحدة ولا اتحاداً وإنما عرشاً لعبد الإله على سورية، أما نحن هنا فمن أنصار الوحدة والاندماج. وقد اعترف السويدي بهذه الواقعة أثناء مثوله أمام محكمة الشعب البغدادية في مطلع تشرين الثاني عام 1958 ليحاكم على الجرائم المنسوبة إليه التي يأتي في مقدمتها التآمر على استقلال سورية. وكان زعيم عصبة العمل القومي الأستاذ المجاهد علي ناصر الدين قد قال (بعد أخذ وردّ

طويلين على ما يبدو) لعبد المنعم الكيلاني القائم بالأعمال العراقي في بيروت إن حكام العراق غير جديين في مسألة الوحدة مع سورية. وقد تقدم هذا القائم بالأعمال بتقرير حول هذا الحديث إلى مرجعه في بغداد ونشر هذا التقرير في جلسات محكمة الشعب البغدادية الآنفة الذكر.

وفي الواقع إن مجيء عبد الإله ليكون ملكاً على سورية يوسّع مدرسة لورانس في المنطقة العربية الآسيوية، ويعزّز بالتالي مراكز الاستعمار البريطاني القديم فيها تجاه كل من الحركة الوطنية العربية وزحف الاستعمار الأميركي الجديد، الذي كان يتقدم حينذاك بلا توقف ليقتلع البريطانيين هنا وفي العالم لصالح إمبراطوريته العبودية العالمية الناشئة. وفي ذات الوقت نجد أن تعدد العروش الهاشمية في الوطن العربي يكرّس تمزيق هذا الوطن بدلاً من أن يوحده ويلمّ شتات الرجعية والفساد في وجه حركات التقدم العربية. قال مزاحم الباجچي، وهو رئيس وزراء ووزير سابق في العهد الملكي في العراق، في شهادة له أمام محكمة الشعب في جلسة 13 تشرين أول 1958: إن عبد الإله كان يريد عرش سورية

لنفسه.. كما إن بريطانيا لا تريد سوى تشتيت شمل العرب ومصادرة حرياتهم في كل قطر من أقطارهم الأمر الذي اعترف به اللورد ستانس كيت من حزب العمال والوزير عدداً من المرات.

الاستعمار البريطاني: لا يهدف إلا إلى تقوية مراكزه الاستعمارية في المنطقة، ويحرص على سلامة إسرائيل، لذلك فقد قاوم الوحدة السورية العراقية وهو يتظاهر كذباً بتأييدها، كما قاوم مشاريع سورية الكبرى بالعمل على الدعوة لها بأساليب لا تتصف بالجدية، غايتها لا تتعدى تغطية عملية اقتسام أشلاء فلسطين بين الصهاينة وعميله حاكم الأردن عبد الله بن الحسين.

الاستعمار الأميركي: كالاستعمار البريطاني يقاوم كل ما من شأنه تشكيل خطر على الكيان الصهيوني، فهو العدو الأول والأصلي للوحدة العربية، التي سيكون تمامها بشكل صحيح الثورة الحاسمة التي تدفع العالم إلى عتبة الطور الإنساني المقبل بإنهائها النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي.

سورية: نكرر ونقول إن حزب الشعب كان مندفعاً إلى إقامة الوحدة مع العراق لتحقيق تطلعات البورجوازية التجارية الحلبية إلى فتح أسواق العراق وأواسط آسيا أمام بضائعها. فكان الحزب المذكور يصطدم بعرقلة الإنجليز وخدمهم من أمثال نوري السعيد وبمناورات ولي العهد عبد الإله الباحث فقط عن عرش له على سورية فكان لا يهتم بتطلعات التجار الحلبيين الآنفة الذكر إلا بكونها السراب الخلّب الذي يوجه هؤلاء التجار ويسوقهم إلى تحقيق تطلعاته هو فقط. وقد انتبه زعماء حزب الشعب إلى هذا الأمر، فوجدنا مثلاً ناظم القدسي يفاتح أحد كبار مسؤولي العهد الملكي أحمد مختار بابان بهذا الشأن، ويطلب أن يأتي أناس جديون يؤمنون حقاً بالوحدة ليتحاوروا مع السوريين، وقد ورد خبر هذا الحديث في شهادة مزاحم الباججي المار ذكرها أعلاه. وفي المقابل كان هناك تيار قوي في البورجوازية السورية، في الدمشقية على الأخص، يعارض الوحدة مع العراق، ويفضل أسواق الأردن والسعودية ومصر لنشاطه الاقتصادي، وقد مر معنا ذكر هذا الأمر فيما سبق من هذه

الدراسة. يضاف إلى هذا ما نشير إليه دوماً وهو وجود المعارضة القوية النشطة في كل الحركات الوطنية السورية لكل مشاريع الوحدة مع العراق الملكي والأردن إلى جانب المقاومة الضارية للجماهير السورية ضد كل تسلل من إي شكل كان للاستعمار.

وانطلقت المؤامرات على استقلال سورية في خضم هذه الظروف. فرأينا مثلاً كيف ركب الاستعمار البريطاني من خلال نظامي الأردن والعراق العميلين حركة حسني الزعيم للتسلل إلى سورية، كما رأينا كيف طرح الأميركان الإنجليز أرضاً بواسطة نظامي مصر والسعودية الرجعيين ليركبوا تلك الحركة بدورهم، ليرتد هؤلاء الأخيرون على أولئك الأميركان فيقوضوا عهد الزعيم بانقلاب الحنّاوي. ثم إن الحنّاوي وأعوانه يذهبون بثورة قيادة الجيش التي أتت بأديب الشيشكلي إلخ... لقد كانت فترة السنتين المنقضية من إقصاء الحنّاوي في 19 كانون الأول عام 1949 حتى الثالث من كانون الأول عام 1951 عند إقصاء حزب الشعب عن الحكم وحل مجلسهم النيابي وتعيين فوزي سلو رئيساً للدولة بمرسوم

عسكري من الفترات الحاسمة في تاريخ الوطن العربي. ففيها تفرغت الولايات المتحدة الأميركية لوضع أسس إمبراطوريتها الاستعمارية العالمية بتقدم مشروع جورج مارشال للهيمنة الاقتصادية الأميركية على الصناعة الأوروبية إلى جانب إتمام بناء حلف الأطلسي الاستعماري بقيادتها، ومد شبكة هذا الاستعمار الجديد في مختلف أنحاء العالم وفي مقدمتها المنطقة العربية الآسيوية. ولكن القيادات الوطنية بكل اتجاهاتها تخلفت، كما قلنا دوماً، عن رؤية وتقدير خطر الاستعمار الأميركي القادم، كما تعامت عن قوة زخم الانتفاضة الجماهيرية العالمية ضد الاستعمار بكل أشكاله، عن النهوض الجماهيري العربي للتحرر والخلاص على الأخص، فوجهت كل اهتمامها للاستعمار القديم، فلم تهمل فقط توجيه الجماهير للتصدي للجديد أيضاً قبل أن يتمرس ويتمكن في الأرض وإنما حاولت الاستنجاد به "ليساعدها" على القديم وفتحت له سبل التغلغل بعملائه وبالانتهازيين في الصفوف الوطنية. وقد اقتصر طموحها في سورية مثلاً بعد أن تمكن حزب أكرم الحوراني مع حزب

البعث من السيطرة على القوات المسلحة خلال فترة السنتين الآنفتي الذكر على "مراقبة" حزب الشعب الساعي حينذاك عبثاً إلى تحقيق وحدة حقيقية مع العراق وعلى الوقوف في وجه عملاء ولي العهد عبد الإله الذين كانوا يسعون إلى تهيئة فرصة يتمكن فيها هذا الأمير من تنصيب نفسه ملكاً على سورية، وذلك بدلاً من سلوك الطريق الطبيعي الصحيح باستغلال إمكاناتهم في حشد الجماهير لتحويل سورية إلى قاعدة ثورية تلتف حولها الجماهير العربية الثائرة، وفي مقدمتها جماهير العراق، للقضاء على الاستعمار بكل أشكاله وتحقيق الهدف الثوري الإنساني الكبير وهو توحيد وطننا العربي في ظل نظام تقدمي لأمتنا يدفع بالمسلمين وبالإنسانية الثائرة أيضاً حينذاك إلى عتبة طورها الأعلى: إن تلك القوى الوطنية كانت لها قيادات تناور في مسألة الوحدة العربية، وكأن الاستعمار بمعزل عن هذه المسألة فلا يوليها اهتمامه الكبير، أو بالأحرى إن تلك القيادات الوطنية كانت تحاول "استغفال" المستعمرين وتحقيق الوحدة "من وراء ظهورهم"، في الوقت الذي هي فيه ثورة إنسانية كبرى لا سبيل إلى

تحقيقها ثم كسبها إلا بمواجهة طويلة وكبيرة نشتبك فيها مع المستعمرين بسلسلة من المعارك المتنوعة إلى أن ينتصر حقنا ويهزم باطلهم. هذه هي المهمة الحقيقية التي كان على القيادات التقدمية السورية أن تعمل لتحقيقها بتكتلها جميعها في نظام ثوري واحد وليس باكتفاء واحدة منها بالقيام بدور الشرطي لحماية أمن النظام القطري القائم دون الاستفادة منه للانطلاق نحو تحقيق الهدف الأساسي للأمة بكليتها. ومما لا ريب فيه أن القوى الوطنية في الأقطار الأخرى لا بد من أن تتجاوب في النتيجة مع الموقف الثوري الصحيح فيقوم السيل العارم الذي يجرف المستعمرين ومرتكزاتهم. ولكن الشرط الأساسي هو أن تقوم تلك العقيدة الموَحِّدة لكل القوى الثورية في القطر وفي الأمة.

أديب الشيشكلي

ولد أديب الشيشكلي في عائلة إقطاعية حموية عام 1909 وانتسب إلى الكلية العسكرية عام 1930 بعد مرحلة إعدادية غير لامعة في ثانوية حماة وبعد دراسة لم تتم في

المعهد الزراعي الابتدائي، في سلميّة، الذي كانت تُعادَلُ شهادته حينذاك بالثانوية العامة. وكانت عائلته في الصف الوطني، فأحد أفرادها الدكتور توفيق الشيشكلي كان زعيماً من زعماء الكتلة الوطنية ونائباً عن حماة في مجلسي نواب 1928 و1937، كما إن والده اضطّهِد من قبل الفرنسيين فأوقفوه في مرة من المرات وأجبروه على تأدية السخرة بتنظيف اسطبلاتهم وبيوت خلاء ثكناتهم وهو الوجيه الحموي الكبير، ثم إن المستشار الفرنسي لمدينة حماة طلب إليه أن ينتسب ولداه أديب وصلاح إلى الكلية العسكرية وذلك لاسترضائه وتقريبه من سلطات الانتداب. وكان والدي المرحوم طالب البزري قاضياً بدائياً في حماة وتربطه به صداقة فدعاه لأن يكون شاهد زواج ولديه أديب وصلاح من شقيقتين من آل الفنري الإقطاعيين الآخرين في قضاء إدلب من أعمال حلب، وذلك عشية التحاقهما بالكلية العسكرية.

كان أديب الشيشكلي مختلفاً كلياً بصفاته عن كل من حسني الزعيم وسامي الحنّاوي. كان، كآبائه أغوات الإقطاع، واثقاً من نفسه متزناً ذا إدراك جيد لأحوال الناس مع تفتح

وثقافة كافيين لتجنيبه سخرية الآخرين. كان أيضاً اجتماعياً غير بعيد عن أصدقائه ومؤيديه وإن كان دوماً يضمر في نفسه طموحاً قوياً "للتزعم". كان كريماً ودوداً عامر المائدة التي كانت تُنْصَبُ بدون انقطاع إلى ما بعد منتصف الليالي حيث يسمر حولها الصحب والخلان فيتناولون كل المواضيع الجادة والمسلية.وكانت له بنية قوية تساعده على تحمل السهر مع مشاق مهنته العسكرية. كما إن ثروته العائلية سمحت له بإقامة تلك الولائم حتى نفذت في النهاية. ولقد بدأ قبل أن ينغمس في متاهات التآمر للوصول إلى السلطة وطنياً صادقاً فانضم إلى تنظيم الضباط الوطنيين في عهد الانتداب وساهم بفعالية في هذا التنظيم. وقد التحق بالثورة الوطنية ضد المستعمرين الفرنسيين في صيف عام 1945 في منطقة الفرات في الوقت الذي كان فيه شقيقه (الأكبر) صلاح يساهم في قيادة المقاومة الحموية الباسلة ضد الحملات العسكرية لأولئك المستعمرين.

وانتسب الأخوان أديب وصلاح مع نسيبهما وصديقهما الأستاذ أكرم الحوراني إلى الحزب السوري القومي منذ

تأسيسه في حماة في مطلع الثلاثينات من هذا القرن. وقد حاول المستعمرون الفرنسيون في صيف عام 1937 تعطيل المعاهدة التي عقدتها حكومتهم مع الكتلة الوطنية في عام 1936، المعاهدة التي ألغت الانتداب واعترفت بموجبها فرانسة باستقلال سورية وجرت بموجبها انتخابات نيابية في سورية وقام على أساسها حكم وطني تزعمته الكتلة الوطنية المذكورة. وكان لهم عون في شخص قاد فصيلاً من الثوار في غوطة دمشق أيام الثورة السورية الكبرى ثم انقلب على هذه الثورة وغدا من عملائهم وهو رمضان شلاش. ويتلخص خبر هذه المؤامرة، كما سمعته من أديب الشيشكلي في عام 1948 عندما كنا في الجليل في جيش الإنقاذ، في أن الفرنسيين اتصلوا به بواسطة أمير شلاش ابن رمضان الآنف الذكر وقالوا له إنهم مستعدون لغض النظر والسماح بإجراء عملية بواسطة الضباط الوطنيين تؤدي إلى طرد حكومة الكتلة الوطنية في دمشق وإقامة قيادة عسكرية وطنية إلى جانب حكومة مدنية تحالف فرانسة التي تُبْقي قوة رمزية صغيرة في سورية. وقد ذهب أديب الشيشكلي وأمير شلاش

وعرضا هذا الأمر على زعيم الحزب السوري القومي أنطوان سعادة في بيت مري في لبنان. كما جرى اجتماع في حماة برئاسة هذا الأخير وحضور أكرم الحوراني ونوقش العرض الفرنسي الذي رُدَّ في النتيجة لوضوح غايته وهو تعطيل المعاهدة الآنفة الذكر وضرب الحزب السوري القومي وتشتيت شمله والقضاء على كتلة الضباط الوطنيين السوريين واللبنانيين في القطعات الخاصة السورية اللبنانية.

وانضم أديب الشيشكلي إلى جيش الإنقاذ في عام 1948 فقاد إحدى كتائب لواء القاوقجي التي أُرسلت لمقاومة الصهاينة في الجليل. وقد انضم إلى هذه الكتيبة الأستاذ أكرم الحوراني مع عدد غفير من تنظيمه الحموي من أمثال عبد الكريم زهور وعلى عدي وخليل كلاس وغيرهم. وقد قام الخلاف بين أكرم وأديب من أيام الجليل تلك حيث برزت استقلالية الأخير عن الأول وطموحه لأن يكون سيد الأمر وتبين بوضوح أن كلاً منهما كان يساير الآخر لتحقيق أهدافه الخاصة به: كان أكرم زعيماً سياسياً يبحث عن دعم لخطه السياسي في الجيش بينما كان أديب عسكرياً ذا مطامع

شخصية يبحث عن تعزيز مكانته في الجيش عن طريق صداقاته العسكرية والمدنية التقدمية. وعندما التقى الجانبان، الحوراني والشيشكلي، في ساحة التطبيق العملي لصداقتهما في الجليل برز اختلافهما الشديد حول هدفيهما المتناقضين. وقد انسحب الأستاذ الحوراني ورفاقه المدنيون وعدد من العسكريين من أصدقائه من كتيبة الشيشكلي باكراً قبل انحلال هذه الكتيبة ومجيء القاوقجي لقيادة جبهة الجليل. وقد حدثني الأستاذ أكرم عن الشيشكلي وتصرفاته أثناء قيادته لكتيبته، وذلك في أواخر شهر أيار عام 1948 أثناء مروري بدمشق في طريقي إلى الجليل في قوات القاوقجي، وكان ذلك في مقهى الواحة حيث كنا ثلاثة أكرم والمجاهد الشهيد فتحي الأتاسي وأنا. فنعته بالخائن والمتخاذل الجبان الذي كان يختبئ دوماً فلا يعرف مكانه حتى أقرب معاونيه كالمرحوم فتحي الأتاسي الذي كان معاونه في قيادة الكتيبة. وللإنصاف أقول أن أكرم كان في تلك الأثناء تحت تأثير الخيبات التي كنا نعاني منها جميعاً نحن العرب فنلقي، بتأثير الغضب، التهم جزافاً يميناً وشمالاً. ولعل الشيشكلي الذي أُلقي على عاتقه

الدفاع عن منطقة واسعة كالجليل بكتيبة ضعيفة التسليح، وإن كانت في البدء مرتفعة المعنويات، كان يبالغ بعض الشيء في تطبيق قاعدة التخفي عن أنظار العدو إلا أنه ما كان لينحط إلى درك تلك الصفات التي وصفه أكرم بها، كما لم يرتفع حينذاك إلى مستوى القائد الذي يعوّض بتدبيره وعبقريته النقص في إمكاناته المادية التي توفرت له: لم يبلغ ذلك المستوى الذي رفعه إليه باتريك سيل في كتابه "الصراع على سورية" عندما قال: ""..لقد شوهد الشيشكلي كأحد أمهر القادة السوريين في حملة فلسطين..".

نجد إذن أن أديب الشيشكلي قد تَكَشَّفَ منذ حرب عام 1948 عن رجل له أطماعه الفردية الشخصية وعن إنسان غير متميز إيجاباً أو سلباً في صفاته فلا يصعب جرّه واحتواؤه لهذه الجهة أو تلك، ومع ذلك، ومع كل تلك الظنون الآنفة الذكر التي يحملها ضده الأستاذ أكرم الحوراني كبير قادة القوى الوطنية العقائدية حينذاك، فإن قيادات هذه القوى عادت مرة أخرى وأفسحت الطريق أمام هذا الإنسان غير المتميز العادي ليجعل من نفسه ديكتاتوراً بعد تجربتين

مشـــابهتين ســـابقتين: تجربـــة حســـني الـــزعيم وتجربـــة ســـامي الحنّاوي. والسبب هو الذي نقوله ونكرره دوماً: فقدان العقيدة المُوَحِّدَةِ لكل تلك القوى الوطنية التي أقامت تعددية وثنية باختلافاتها وتعدد اتجاهاتها وأربابها فضلّت الطريق ولُدغت أكثر من مرة من ذات الجحر. فبعد أن فَرَطَتْ الوثنية القوتلية الموصوفة في الحلقات السابقة عقد الجبهة الوطنية التي حققت الجلاء كان ، وما يزال وسيبقى أبداً، على القوى التقدمية تحقيق الأمور الأساسية التالية:

1- صياغة العقيدة المنيرة للواقع والمحددة لهوية الثائر المعاصر بكل أبعادها وتطلعاتها ولهوية العدو بكل تفاصيلها وأطماعها والمُبَيِّنَةِ لحقائق النظام العالمي المعاصر وحقائق الاستعمار الجديد ومختلف امتدادات شبكته في العالم وفي المنطقة؛

2- تنظيم الجماهير للجهاد وفقاً لستراتيجية تمليها العقيدة المذكورة؛

3- أن تكون القوات المسلحة جزءاً لا يتجزأ من الجماهير المسلحة وامتداداً لها فلا تطغى أية فردية لتقيم ديكتاتورية تجهض منطلقات الثورة الإنسانية الكبرى.

إن كل حكم قطري، مهما كان شكله، لا يعمل على إزاحة النظام الرأسمالي العالمي عن عاتق قطره فينخرط في هذا النظام ويشارك في تكريس الوطن العربي الكبير للتمزيق هو في جوهره حكم ديكتاتوري وإن تستر ببرلمانية وديموقراطية وثنية تخدم مصالح قطرية ضيقة على حساب مصير الأمة. أي إن الكفاح ضد الديكتاتورية في القطر بهدف الوصول إلى حكم برلماني فقط يبقي البلد منخرطاً في النظام الرأسمالي لن يغير شيئاً من واقع تخلف المتخلف العربي ومن ارتباطه بقاهريه المستعمرين الجدد. فلا سبيل إذن إلا سلوك طريق الثورة للخلاص من هذا النظام العالمي العبودي. وهذه الثورة لا يمكن أن تكون قطرية ولا بد لها من أن تكون ثورة الأمة بكاملها، بجميع أقطارها. وهذا هو الذي لم يتضح في تلك الأيام في أذهان أولئك القادة للقوى التقدمية فكانت طموحاتهم تنحط إلى الحصول على السلطة القطرية، بل في

عهدي الزعيم وحزب الشعب كانت تلك الطموحات تنحط إلى مستوى مشاركة الرجعية والانتهاز في السلطة، في الوقت الذي كانت فيه جماهير التقدميين هي القوى المحرِّكة، إلا أن قادتهم كانوا حينذاك منقسمين على أنفسهم يتسابقون للانفراد بتلك "السلطة" القطرية المنخرطة في نظام القهر العالمي للعبوديين الرأسماليين.

لا خلاص إلا بالثورة

كان الأستاذ أكرم الحوراني، وما يزال على ما نعتقد، يقول أن استلام التقدميين للسلطة في تلك الأيام يشكل مغامرة هوجاء لعدم توفر الظروف الداخلية والخارجية المؤاتية. فسورية كانت معرضة للغزو الخارجي في ظروف الحرب العالمية الباردة. وأضاف إلى هذا في عدد من المقابلات مع الأستاذ الدكتور مصطفى الدندشلي الذي كان يعدّ بحثه القيم "مساهمة في نقد الحركات السياسية في الوطن العربي"، فقال إن حزبه، الحزب العربي الاشتراكي، لم يعدم الفرصة لاستلام الحكم فالطريق إلى السلطة كانت مفتوحة أمامه منذ

عـام 1950 عنـدما أُسـس وقـام وحتـى عـام 1958 عنـدما تحققت الوحدة السورية المصـرية. وأضـاف بـأن الإحجـام عن الاسـتيلاء علـى السـلطة كـان بسـبب انشـغالنا بخلـق وتوسـيع حركة الجماهير بالاعتماد على العناصـر التقدميـة فـي الجيش. وما كان هذا الرأي يخص الأستاذ أكرم وحده بين التقدميين الثـوريين بـل كـان هـؤلاء جميعـاً يقولـون بهـذا القـول وأكثـر. ولننظـر عـن قـرب إلـى هـذا الـرأي الـذي يـداوي الـداء بالـداء: المستدين مثلاً يداوي دينه بمزيد من الاستدانة، والمنخـرط فـي نظام القهر والعبوديـة الرأسـمالية الاحتكاريـة يحـاول الخـلاص من عبوديته بمزيد من الارتباط بهذا النظام، والغريق المتخبط بمزيد من التخبط إلخ...، فنرى ما يلي:

1- إن الركـون إلـى آراء جنرالاتنـا مـن أمثـال الشيشـكلي والحنّـاوي والـزعيم الـذين لـم يكتشـفوا بعـد الحـروب الشـعبية الثوريـة الطويلـة الأمـد وعقائـدها وسـتراتيجياتها وعملياتهـا علـى مختلـف حجومهـا لا ولـن يـروا أبـداً ظروفـاً داخليـة وخارجيـة ملائمـة للثـورة علـى الظلـم. فعنـدما لا تكـون مـثلاً ظـروف الشـعوب المقهـورة ملائمـة للتمـرد فـي أعقـاب

الحرب العالمية الثانية، حيث كان المستعمرون قاهروها منهكين إلى حد التلاشي بنتيجة الدمار الشامل الذي سببته تلك الحرب لبلادهم واقتصادهم وحيث تصاعدت حركة التحرر العالمية إلى أعلى الذرى فلوحق الاستعمار في كل بقعة من العالم وهُزم ودُمّر، حتى الجديد منه وهو الاستعمار الأميركي المتبجح كان حينذاك يلقى هزيمة كاوية على يد الكوريين والمتطوعة الصينيين، نقول عندما لا تكون مثل هذه الظروف، التي عناها الأستاذ أكرم في رأيه أعلاه، ملائمة فمتى يا ترى تكون ملائمة؟.. ولقد انتظرناها هذه الظروف مع الأستاذ أكرم فأفسحنا بانتظارنا هذا للاستعمار الجديد الأميركي الطريق وهيأنا له "الظروف الملائمة" ليبني بيسر وسهولة إمبراطوريته العبودية العالمية ويضع قلبها في عالمنا العربي. وإنه من البديهي أن لا يجد أبداً الشعب المقهور ظرفاً ملائماً، داخلياً وخارجياً، عندما يمارس لعبة الاستقلال الموهوم في قفص المستعمرين العالمي فينتفخ انتفاخهم بممارسة الحروب النظامية بجيوشه المنفصلة عن جماهير أمته لاستخلاص حقوقه. فالجيوش النظامية في البلاد المتخلفة

عندما لا تكون امتداداً لجماهير شعوبها الثائرة وفصيلة طليعية من الفصائل الثورية للجماهير تكون بداهة، كما رأينا بما مرّ علينا من تجارب، صالحة فقط كأداة قمع للثورات.

2- إن القيادات التقدمية الثورية العربية أساءت تقدير شدة توتر المناخ الثوري الذي كانت تعيشه جماهير أمتنا، مع جماهير العالم المستعمر وشبه المستعمر، في الأربعينات والخمسينات من هذا القرن، المناخ الذي تجلّى بكل أبعاده عند تأميم القناة ويوم قيام الوحدة السورية المصرية ويوم اندلاع ثورة الرابع عشر من تموز في العراق. كان الأستاذ أكرم مثلاً، كما صرح به، يخشى من غزو الجيش العراقي لسورية. وهذه خشية مفهومة فيما لو اقتصر الصراع على الجيشين النظاميين للقطرين الشقيقين. ولكن ماذا كان بالإمكان أن يبقى من نظام الجيش العراقي عندما يُجابَه هذا النظام طوال مدة كافية بجيش سوري يكون طليعة الجماهير العربية الثائرة في العراق وفي سورية وفي كل الوطن العربي؟.. مما لا ريب فيه أن ذلك النظام للجيش العراقي الذي كان يخشاه الأستاذ أكرم لا بد من أن يتحول حينذاك إلى

تلك الثورة العارمة التي أطاحت بالعملاء يوم الرابع عشر من تموز عام 1958. وكنت قد سألت مرة ممثل العراق في دمشق الوزير المفوض عبد الجليل الراوي في صيف عام 1957 أيام بلغ تآمر الاستعمار علينا ذروته في الشدة، وعندما كانت جماهير شعبنا السوري تملأ ساحات التدريب المنتشرة في كل أنحاء القطر للاستعداد لمواجهة المستعمرين فقلت له: "أتعتقد حقاً أن الجيش العراقي سيطيع الحكام هناك ويقوم بعدوان علينا؟". فأجابني الراوي: "إن الجيش العراقي سينتفض إذن على طغاته ويحرر العراق من حكمهم!..". وكنت في الواقع أسأله سؤال العارف فقد كانت لنا اتصالات وثيقة بقائد ثورة الرابع عشر من تموز المجاهد الشهيد عبد الكريم قاسم منذ لقائي به في الأردن عام 1956 أيام العدوان على القناة وسيأتي خبر ذلك فيما سيأتي من هذه الدراسة. ولا بد هنا من القول بأن الأستاذ أكرم الذي كان يخشى غزو الجيش العراقي لسورية كان، بحكم مركزه كرئيس لمجلس النواب وكعضو في الجبهة الوطنية، عالماً بتلك الاتصالات..

3- إن من نتائج غياب العقيدة الصحيحة للثورة المعاصرة هو ظن قادة قوى التقدم الثورية أن التخلف بمختلف مظاهره المادية كالإقطاع مثلاً والبورجوازية الأنانية وضعف قوى الإنتاج والجهل والانتهاز وغيره هو "مرض داخلي" يمكن شفاؤه ويجب شفاؤه قبل منازلة المستعمرين، وذلك ظناً منهم بإمكان فصل ما هو داخلي عما هو خارجي في هذا العصر. إنهم لا يرون النظام العالمي على حقيقته، هذا النظام الذي يمتد بشبكة علاقاته إلى كل مناطق العالم فيحتوي كل الأنظمة الفرعية في كل جماعة إنسانية وكل قطر من أقطار الدنيا ويجعل من كل واحد منها امتداداً له في بلده يوفر لسادته الرأسماليين الاحتكاريين فضول القيم. فيكون إذن كل تعرّض لنظام خاص في كل بلد من بلاد جملة المجتمعات الإنسانية العالمية هو في ذات الوقت تعرّض لذلك النظام العالمي وبالتالي لا بد من أن يؤدي إلى الاصطدام بالمستعمرين. لذلك لا يمكن "سرقة التقدم" وتحقيقه في كل قطر من أقطار الدنيا بنجوة عن أعين هؤلاء المستعمرين وعن تدخلهم بشكل أو بآخر. أي إن التقدم المادي يأخذ بالضرورة شكل العمل

الثوري الذي يقوّض نظامهم في ذلك القطر، أو إن منجزاته تكون مع مجمل اقتصاد البلد ملكاً للاحتكاريين عندما يتحقق بنتيجة قروضهم الأمر الواضح كل الوضوح في عالمنا الحالي، أو إنه لا يكون أبداً فيغرق البلد في ظلمات الفقر والجوع. هذه هي خيارات هذا العصر الذي هو العصر الأميركي. فالمسألة تبقى إذن فيما إذا كان من الواجب سلوك طريق الثورة للخلاص من هذا النظام الاستعماري أم البقاء والانخراط فيه تحت مختلف اليافطات الخادعة كالمحافظة على التقاليد مثلاً أو المحافظة على الديمقراطية أو محاولة التنمية والركض لإدراك مستوى المتقدمين "الطائر" أبداً بعيداً عن المقهورين.

4- قال الأستاذ أكرم إن قيادته أحجمت عن الاستيلاء على السلطة بسبب انشغالها بخلق وتوسيع حركة الجماهير بالاعتماد على العناصر التقدمية في الجيش. ولكن الذي رأيناه حتى الآن في هذه الدراسة أن القيادات التقدمية الثورية كانت تقبل السير تحت أعلام غاصبي السلطة من حسني الزعيم إلى سامي الحنّاوي فأديب الشيشكلي الذين كانوا

دوماً بعد وصولهم إلى السلطة بمساعدة تلك القيادات يقومون باضطهادها ومطاردتها. فكيف وأين كانت "تُخْلَقُ وتُوَسَّعُ" حركة الجماهير بالاعتماد على العناصر التقدمية في الجيش في ظل تلك الديكتاتوريات التي استمرت من 30 آذار 1949 حتى 25 شباط 1954؟.. والواقع، كما سبق وقلنا في أول فصل من هذه الدراسة، ما كانت الجماهير بحاجة إلى أن "تُخْلَقَ وتُوَسَّعَ" حركتها من قبل قياداتها فهي كانت تتقدم عليها، والذي كانت بحاجة إليه هو ما نردده دوماً: قيادة ترى وتفهم الواقع العالمي والمحلي بشكل جيد، وتنطلق لتدبير الثورة على هذا الواقع والخلاص منه.

الفصل السابع

عهد الشيشكلي

ضياع الوحدة الحقيقة في تنافس الرجعيات

بعد أن أحرز الشعبان السوري واللبناني ذلك النصر العظيم بإجلاء المستعمرين عن أراضي قطريهما الشقيقين وتحررا من كل ارتباط تعاهدي استعماري غدا الهمّ الدائم والشغل الشاغل للمستعمرين أن يطفئوا شعلة الحرية التي اتقدت هنا بشكل يندر مثيله في ذلك العالم المعذب، ويُنْذِرُ بخطر طلبه والسعي إليه من قبل بقية المعذبين في الدنيا، وأن يعيدوا بشكل ما هيمنتهم المفقودة على هذين القطرين. فكانت مثلاً لا تسقط مؤامرة على سورية إلا وتعقبها أخرى. وكان مما يزيد الأمور تعقيداً تنافس الاستعمارين، الإنجليزي من الطراز القديم والأميركي الجديد، للتسلل إلى سورية مع اتفاقهما على العمل على اغتيال حرية الشعب السوري، كل منهما بالشكل الذي يناسب أهدافه الاستعمارية. كان الإنجليز

مثلاً يرون قهرنا بإقامة عرش في سورية للأمير العراقي عبد الإلـه، أمـا الأميركـان فقهرنـا يكـون بـرأيهم بإقامـة ديكتاتوريـة عسكرية تلتزم بمخططاتهم الاستعمارية. فعندما أطيح بحسني الزعيم بانقلاب الحنّاوي، بعد تحوله من الولاء للإنجليز عن طريق عملائهم في العراق والأردن إلى الولاء للأميركان عن طريق ديكتاتورية تسندها مصر والسعودية، شكّل الوصي على عرش العراق وزارة علي جودة الأيوبي وفيها مزاحم الباجي، وذلك لإرضاء هاشم الأتاسي رئيس الدولة السورية حينذاك الذي ما كانت له ثقة بنوري السعيد من أيام الحكم الفيصلي في سورية، وقد ذكر هذا الأمر الباجي بشهادته، المار ذكرها فيما سبق من هذه الدراسة، أمام محكمة الشعب البغدادية فقال: إن ناظم القدسي وزير الخارجية السوري حينذاك في حكومة الأتاسي طلب إلى أحمد مختار بابان إقصاء السعيد واستبداله بعلي جودة الأيوبي لتقوم محادثات جدية حول وحدة القطرين. إلا أنه عندما فقد حزب الشعب قيادة الجيش بإقصاء الحنّاوي حاول الوصي عبد الإله الحد من الخسارة التي لحقت بمخططاته تجاه سورية فسمح

للباجي بالذهاب إلى مصر ليعمل ما أمكن على تحييدها، ولكن هذا الأخير تجاوز الحدود التي رسمت له في بغداد فقبل أن يوقّع على اتفاق ينص على عدم التدخل في الشؤون الداخلية السورية مدة خمس سنوات بما في ذلك إيقاف كل مسعى لتحقيق إقامة سورية الكبرى ووحدة الهلال الخصيب. وقد عنّف عبد الإله الباجي في اجتماع للوزارة وبعض رجال العهد لتوقيعه مثل هذه الاتفاقية التي تؤول إلى إيقاف مساعيه لتحقيق أطماعه في سورية فيما لو تم تنفيذها في الوقت الذي كانت فيه رغبته تحييد مصر لتسهيل تلك المساعي بالذات. فعمل إذن على إسقاط وزارة علي جودة الأيوبي لتحل مكانها وزارة برئاسة توفيق السويدي الملقب بنوري السعيد رقم 2. أما في سورية فقد تشكلت وزارة برئاسة خالد العظم تولّى فيها أكرم الحوراني وزارة الدفاع. وكانت قد تشكلت في المجلس التأسيسي معارضة قوية ضد تنصيب عبد الإله ملكاً على سورية أطلق عليها اسم "الجبهة الجمهورية"، وقد انضم إليها كل من أكرم الحوراني وسامي طيّارة وعبد الوهاب حومد وعبد الباقي نظام الدين، وكان لها

أثر فعال في فضح مؤامرات طغمة الوصي على عرش العراق وأعوانهم في سورية.

في هذه الأثناء كانت مصر تنشط في أوساط الجامعة العربية للدخول في معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي. وكان هدف مصر من هذه المعاهدة الرد على ما كانت السلطات العراقية تطرحه من ضرورة توحيد دول الهلال الخصيب للوقوف في وجه التوسع الصهيوني وتقديم طرح بديل بجعل الدول العربية التي تجمعها جامعتها هي المخوّلة بالقيام بهذه المهمة. وهذا لا يعني في الجوهر سوى أن الجامعة العربية تقوم، برأي الأوساط المصرية والسعودية حينذاك مقام كل توحيد للعرب أو أنها تمثل توحيداً كافياً لهم ولا لزوم لمزيد منه بتوحيد قطرين أو عدد محدود من الأقطار العربية. والدليل على ذلك هو توقف ذلك "الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي" عند بنود وعبارات المعاهدة المذكرة دون إقامة المؤسسات والهيئات والجيوش والأسواق الضرورية لتجسيد الدفاع والتعاون الاقتصادي في الواقع الملموس. وهذا ما يرضي كلاً من أميركا التي تحرص على

توفير السلامة للصهاينة بتأييد تشتت العرب تحت ستار تلك الجامعة التي تحفظ بدستورها تفرقهم، ويرضي فرانسة غريمة البريطانيين في تلك الأيام ومنافستهم في منطقتنا. ولا يعني هذا أبداً أن مساعي حكام العراق في تلك الأيام كانت أكثر نفعاً للعرب، وإنما يعني، كما فصلناه أعلاه بأكثر من أسلوب، تقصير قيادات القوى التقدمية الثورية السورية في تقدير ظروف تلك الأيام بشكل صحيح والمبادرة تبعاً لذلك.

ثنائي الشيشكلي والحسيني

كان أديب الشيشكلي يسير في تلك الأيام بخطىً حثيثة في بناء كيان شخصي له في الجيش بمساعدة عدد من الانتهازيين بقصد الاستئثار بالسلطة. فكان بهذا يكرر ما فعله أثناء قيادته كتيبة جيش الانقاذ في الجليل عندما استقل بتصرفاته عن قريبه وصديقه الأستاذ أكرم وعن بقية أصدقائه الذين كانوا معه في تلك الكتيبة، الأمر الذي أشرنا إليه فيما سبق من هذه الدراسة وقلنا إنه سبب حينذاك غضب أكرم عليه وأدى إلى القطيعة بينهما. أخذ أديب الشيشكلي إذن بعد الإطاحة

بالحنّاوي بالابتعاد عن القيادات التقدمية والعقائدية بما فيها على ما نعتقد من أصدقائه القدامى السوريين القوميين. ففي تقرير للسفارة العراقية في دمشق مثلاً في منتصف شباط 1950 نجد أن المسؤول فيها يخبر مرجعه في الخارجية العراقية في بغداد بهذا التقرير عن أن خلافاً حصل بين العقيد محمد ناصر وبين أديب الشيشكلي وينصح بالاتصال بالأول لكسب تأييده ضد الأخير في صراع محتمل بينه وبين المجلس التأسيسي. وقد كشفت محكمة الشعب البغدادية عن التقرير المذكور في جلسة محاكمة توفيق السويدي. ومن المعروف أن محمد ناصر كان ميالاً إلى السوريين القوميين. وبعد خمسة أشهر من هذا التاريخ، في شهر تموز عام 1950 اغتيل العقيد ناصر واتهم باغتياله رئيس المكتب الثاني ابراهيم الحسيني مع أحد مساعديه عبد الغني قنّوت. وابراهيم الحسيني من الأفّاقين الذين ابتليت بهم سورية. وهو من عائلة المسلماني الحيفاوية التي انتحلت كنية الحسيني. وكان له شقيق حُكِم بجرم تجسس للعدو الصهيوني من قبل المحكمة العسكرية السورية. وقد اطلعتُ على إضبارته عندما كنت

رئيساً لهذه المحكمة في عام 1956. وكان هناك أيضاً للحسيني شقيق آخر يعمل في تلك الأيام في شرطة الصهاينة. وقد ارتبط ذلك الأفّاق بأكثر من جهة متآمرة على استقلال سورية. كان مثلاً ذراع حسني الزعيم فانتقل معه من الولاء للهاشميين إلى الولاء للسعوديين وللرجعية المصرية. ثم انخرط في صفوف المؤيدين للحوراني والبعث في الوقت الذي هو فيه من عتاة أعداء التقدم، وانحاز في النتيجة إلى تأييد الشيشكلي. وعاد بعد طرد هذا الأخير إلى العمل مع الهاشميين للتآمر على استقلال سورية لقاء رشاوى كبيرة كان يحصل عليها من حكومة العراق كما ورد في وثائق محكمة الشعب البغدادية. وأخيراً وليس آخراً جنّده الأميركان مع رفيقه أديب الشيشكلي لمساعدة ستون في مؤامرته الشهيرة على سورية في عام 1957. وانتهى أمره باغتياله "بحادث سيارة" في السعودية لإسكاته بعد تقدمه في السن وانعدام الفائدة منه، تماماً كما تم اغتيال رفيق له هو صلاح الشيشكلي شقيق أديب في ذات البلد وبذات الطريقة ولأسباب مطابقة. لذلك فإن هناك ما يبرر الظن القوي بأن يكون هذا الشقي،

الذي اعترف في مناسبة من المناسبات للعقيد الشهيد عدنان المالكي بارتكاب عدد من جرائم القتل العادية، هو الذي أقنع و "ورَّط" أديب الشيشكلي في اغتيال العقيد محمد ناصر، أو إنه وضعه أمام الأمر الواقع بتنفيذ هذه الجريمة. وإن بعض أسباب هذا الظن هي التالية:

1. كان لأديب الشيشكلي أطماع ديكتاتورية، وقد قبل رشاوى الرجعيين حكام العراق، وانخرط في مؤامرات المستعمرين ضد وطنه، ولكنه بطبعه يتجنب سفك الدماء، فعند أول إنذار له مثلاً من الحركة التي أطاحت به ترك سورية إلى لبنان دون أن يحاول مقاومة تلك الحركة بما كان متوفراً لديه من قوىً مؤيدة.

2. إن الانفصال النهائي بين الحليفين أكرم وأديب ما كان قد تم عند اغتيال محمد ناصر فكان لا بد من أن يعارض أكرم بشدة تنفيذ هذه الجريمة التي كان من المؤكد وصول خبر إعدادها إليه فيما لو كان أديب هو المدبّر الأصلي لها. ولا تغير من هذا الأمر مساعي أكرم وأصحابه لتبرئة المتهمين بالجرم، الحسيني وقنّوت، بإحالتهما أمام

محكمة ضُمِنت أكثريتها سلفاً. ذلك لأن لأكرم طبعاً وطريقاً في العمل السياسي لا ينسجمان أبداً مع ارتكاب ذلك الفعل، الذي لم يغير أبداً شيئاً في واقع القوى المتصارعة حينذاك لمصلحة هذا الطرف أو ذاك، وإن غير من الجو ضد مصلحة الشيشكلي: إن اغتيال محمد ناصر أضعف مواقع الشيشكلي والحوراني تجاه حزب الشعب الذي كان مسيطراً في تلك الأثناء على الجمعية التأسيسية والذي سارع إلى استغلال هذا الحادث بشن هجوم دعائي ضد قيادة الجيش وإلى الوقوف إلى جانب عائلة الضحية مخصصاً لها بموجب قانون سنّه في تلك الجمعية راتباً تقاعدياً ضخماً يعادل راتب وزير في تلك الأيام. ثم إنه بعد يومين من الحادث، أي في الثاني من شهر آب عام 1950، قام منير العجلاني بشن هجوم قوي في الجمعية التأسيسية على الجيش فقال: "إن العسكريين يحشرون أنفسهم في كل شيء..". فأحيل هذا النائب إلى القضاء العسكري الذي لم يستطع إلا تبرئته. وفي ذات الأسبوع، أي في السابع من آب، رفع القوتلي، بعد صمت طويل، صوته من منفاه في الإسكندرية، داعياً السوريين إلى أن ينهضوا ويدافعوا عن

حريتهم واستقلالهم. وقد نتج عن هذا النداء قيام إضرابات ومظاهرات دبرها الحزب الوطني ضد الجمعية التأسيسية التي كانت في أثناء ذلك منهمكة في سن دستور لا ينسجم كثيراً مع النظام الجمهوري إرضاءً للحكم الملكي في العراق. وقد جرى التصويت والمصادقة على هذا الدستور في الأسبوع الأول من شهر أيلول. وغدا "مستقبل" الشيشكلي ومعه حزب الحوراني ومن ورائه حزب البعث وكل القوى التقدمية في خطر تجاه تلك الهجمة المعاكسة اليمينية ذات الشعبتين: شعبة حزب الشعب والمستقلين اليمينيين كالعجلاني وحسن الحكيم وغيرهما في تلك الجمعية التأسيسية التي تحولت في تلك الأثناء إلى مجلس نيابي لأربع سنوات، وشعبة الحزب الوطني وبقية أنصار القوتلي من البورجوازية والإقطاع.

3. قلنا إن ابراهيم الحسيني سفاك ارتكب عدداً من جرائم القتل قبل وبعد اغتيال محمد ناصر، وقد ثبت ارتباطه بالمخابرات الأميركية ولا نستبعد ارتباطه بالمخابرات الصهيونية التي نعتقد أنها دفعته مباشرة أو

بالواسطة لارتكاب جريمة اغتيال محمد ناصر وتوريط الشيشكلي بهذا الفعل لتعزيز مركزه لديه كشريك "ويد قوية" في نظامه وبالتالي ليكون للصهاينة تأثير كبير في هذا النظام. وفي الواقع إن المسعى الدائم لهؤلاء الصهاينة هو أن يكون لهم أولئك "الكواهين"[∃] في الأنظمة العربية. وبالفعل فإن هذا السفاك نُقل من رئاسة المكتب الثاني بعد ذلك الحادث إلى مديرية الشرطة والأمن العام، وأصبحت له اليد العليا في قضايا الأمن القومي الداخلي والخارجي. وكان بالإمكان أن يتقدم ليحتل منصباً أكبر في ذلك النظام، أن يحتل مثلاً مركز المعاون والخليفة المحتمل لشغل مركز الديكتاتور بعد الشيشكلي، فيما لو كانت تلك الجريمة قد نُفِّذت بشكل "أكثر إتقاناً" من ذلك الذي تم وقوعها فيه والذي كاد أن يسبب دمار النظام المذكور.

نجد إذن أن قيادات القوى التقدمية الثورية قد ابتعدت كثيراً في تلك الأيام عما كان يؤمل منها في العمل على حشد الجماهير السورية الثائرة لتكون قلباً لحشود الجماهير في

[∃] نسبة إلى كوهين الجاسوس الإسرائيلي الذي اكتشف وأعدم في سورية في الستينات؛ (ي.ب).

الـوطن العربـي الكبيـر لتحقيـق الزحـف الطـاحم لأمتنـا الـذي يكـنس الاسـتعمار بكـل أنواعـه وأشـكاله، قديمـه وجديـده، مـن أرض هـذا الـوطن، نقـول قـد ابتعـدت هـذه القيـادات عـن هـذه الصـورة المأمولـة وسـقطت إلـى مسـتوى "الانشـغال" بإنقـاذ الطامع أديب الشيشكلي والشقي السفاح ابراهيم الحسيني من تلـك "الورطـة" التـي وقعـا بهـا باغتيـال العقيـد محمـد ناصـر. وكان من نتيجة ذلك مزيد من انتكاس الحركة الوطنية الثوريـة ومن تجذّر الاستعمار الأميركـي الجديد وقاعدتـه إسرائيل فـي المنطقـة، ومـن إيغـال هـذا الثنـائي، الشيشـكلي والحسـيني، فـي طريق الديكتاتورية الخانعة للمستعمرين.

الشيشكلي يرتفع ليقع

رأينـــا إذاً أن اليمـــين المتمثـــل بحـــزب الشـــعب وبعـــض المستقلين المتعاونين مع العراق وبالحزب الـوطني قـد انـتعش وأخـذ يتحـرك فـي محاولـة لاسـتعادة السـلطة فـي إثـر اغتيـال محمـد ناصـر. وكان بإمكـان القيـادات التقدميـة حينـذاك أن تأخـذ الأمـور بحـزم فتحاسـب مرتكبـي الجريمـة حتـى ولـو تنـاول

الحساب شخص أديب الشيشكلي بالذات فتقصيه عن قيادة القوات المسلحة على الأقل، وذلك بدلاً من عملها على إنقاذه مع ساعده الأيمن ابراهيم الحسيني من تلك "الورطة". ولكنها كعادتها، وبحسب الشكل الذي كانت تعتمده في اتصالها المادي بالقوات المسلحة، كانت تعتبر الشيشكلي وأمثاله وكأنه صاحب هذه القوات ومالكها، فشخصه ضروري لها لإسناد مناوراتها السياسية بشكل خاص، وذلك بدلاً من أن يكون مسؤولاً أمامها عن مركز طليعي يشكل امتداداً لنظامها الثوري المدافع عن استقلال البلد وتقدمه في مواجهة مؤامرات المستعمرين وكل طامع داخلي أو خارجي وذلك بحسب برامج وخطط موضوعة من قبلها. ولكن هيهات، فقد كانت تنقصها أمور كثيرة تأتي في مقدمتها وضوح الرؤية ووحدة الصف لتتمكن من جعل القوات المسلحة امتداداً لجماهيرها المنظمة وطليعة لها. وقد استفاد أكرم مع ذلك من تلك الظروف ليقيم أول مهرجان فلاحي سوري في مدينة حلب معقل حزب الشعب في منتصف شهر أيلول من عام 1950 حيث سارت مظاهرات ضخمة أقامها الفلاحون

القادمون من مختلف أنحاء القطر، وحيث ارتفعت وترددت الشعارات الثورية حول الإصلاح الزراعي وتوزيع الأراضي. وتحول بهذه المناسبة "حزب الشباب" الحموي إلى "الحزب العربي الاشتراكي" لكل القطر السوري. ومما لا ريب فيه أن هذا المهرجان وما تبعه من نهوض فلاحي عمّ القطر السوري ومن تحريض علني قوي من قبل الحوراني وأعضاء حزبه للفلاحين في مناطق حماة وحمص والعلويين كي يثوروا وينتزعوا حقوقهم من الإقطاعيين ويحققوا شعار "الأرض للفلاح" كان يزعج ابن طبقة الإقطاعيين أديب الشيشكلي، ويلقي الرعب في قلوب هؤلاء الإقطاعيين ويجعلهم مع بقية اليمين والرجعية السورية يعودون ويحاولون "الانفتاح" على الشيشكلي والالتفاف حوله عساه يحميهم من الحوراني وصحبه. ولم يقتصر الأمر على الرجعية السورية وإنما سرى الخوف إلى بقية الرجعية العربية في مختلف أقطارها من حركة الحوراني الفلاحية. فالسعودية مثلاً التي كانت تبحث عمن يضمن لها العزل المطلق لسورية عن الهاشميين، والتي كانت ترى بكل تأكيد في الأستاذ الحوراني

عدواً لدوداً لأولئك الهاشميين، رأت في تلك الأيام أن خطر أكرم هذا بدعوته الثورية الفلاحية يفوق بما لا يقاس خطر الهاشميين. وأذكر بهذه المناسبة حديثاً طريفاً سمعته من الشيخ يوسف ياسين في السفارة السورية في باريز في السابع عشر من نيسان عام 1950 حيث كنا نحتفل بعيد الجلاء. وهذا الشيخ من أصل سوري تبوأ مناصب هامة في العربية السعودية، كما كانت له نشاطات غير نظيفة في قطرنا سنأتي على ذكر بعضها فيما هو آتٍ من هذه الدراسة، وكان من جملة المدعوين إلى سفارتنا المذكورة في تلك المناسبة. وكنا حينذاك نفر من الضباط السوريين في ركن من قاعة الاحتفال نسمر ونتحدث فاقترب منا يوسف ياسين المذكور وشاركنا في الحديث. ثم إنه قال، بدون مقدمات وبلهجة المخبر عن "سر خطير": "إن في سورية رجل عجيب اسمه أكرم الحوراني يقوم بدعوة مستهجنة فيحلِّل ما حرَّم الله ويحرِّم ما حلَّل الله. فهو يطالب بنزع الملكية من أصحابها وإعطائها إلى الآخرين. هذا مثلاً عنده دكان توفر له رزقه فيأتي آخر من طرف الحوراني وينتزعها منه. وهو أيضاً يشرب الخمر ويدعو إلى

شربه، ويحرض النساء على عدم طاعة الرجال. ويُظَنُّ أنه من عملاء موسكو إلخ..". وقد سخرنا منه حينذاك وسألناه فيما إذا كان أمراء العائلة المالكة أسياده يمتنعون عن شرب الخمر وارتكاب الموبقات فابتعد عنا هارباً.

كان من البديهي إذن أن تتوحد في نهاية الأمر الرجعية العربية بقيادة السعودية والباشوات المصريين فتدعو الرجعيين السوريين إلى الالتفاف حول الشيشكلي وتسهّل له أموره كي يصعد إلى الديكتاتورية ويطارد القوى الوطنية، ولا سيما منها التقدمية، فيقمعها. وكان الأميركان وراء هذه الجبهة الكالحة في المنطقة. وقد انتهت قيادة حزب البعث إلى رؤية هذا الأمر فوجهت في شهر تموز من عام 1953 رسالة إلى الشيشكلي تقول فيها: "..عبثاً يحاول حكمكم العسكري أن يعيش، إذ لا مكان على أرضنا العربية لحكم أجنبي استبدادي طائش... لقد كان انقلابكم بداية تحول في الوضع السياسي العربي، فلم يلبث أن أعقبه الانقلاب على العناصر المناضلة في مصر فاختنقت الحركة الشعبية العربية في بدايتها، ومُهِّدَ الجو للحكم العسكري وشبه العسكري في البلاد العربية كلها،

وعاد الاستعمار يسيطر على الشعب بأسلحته وعملائه وزبانيته. والحق إن انقلابكم الأخير انقلاب أجنبي احتضنته أميركا حامية الصهيونية، ورحّبت به كل الدول الاستعمارية الأخرى. نحن نعلم ذلك، وأنتم تعلمونه، والشعب بكامله يعرف اليوم من تمثلون..".

ولقد رأينا منذ الفصل الأول من هذه الدراسة أن أهداف مختلف الأحزاب العقائدية السورية، لا سيما منها الأهداف المباشرة، ما كانت لتتعارض. فالجماهير في مختلف هذه الأحزاب تعادي المستعمرين جميعاً وتنشد الحرية والحياة الأفضل. كما إن البعثي مثلاً، في تلك الجماهير، المكافح من أجل وطن عربي موحد، لا يعارض البدء بوحدة الهلال الخصيب التي ينادى بها السوري القومي. ومثله كذلك المسلم المتدين الذي يطمح إلى وحدة المسلمين بدءاً من وحدة العرب إلخ.. ولكن عدم رؤية الواقع على حقيقته من قبل قيادات كل تلك الأحزاب والجماعات شرذم جبهتها وجعل لكل حزب منها طريقاً خاصاً به يعارض طرق الآخرين، وأتاح الفرصة أمام الدجالين والانتهازيين ليطرحوا كل زائف. وحيث إن الجهل

والعماء مطيّة الخيانة فقد اندس في الصفوف الوطنية عملاء المستعمرين وحلفاؤهم الطبيعيين دون أن تتفتح العيون على مرامي نشاطاتهم وغايات دسائسهم التي لا تحصى أشكالها وأنواعها. وقد التقت في النتيجة أطماع الشيشكلي بدجل الانتهازيين ودسائس العملاء الذين اندمجوا بلعبته ليدفعوه إلى خدمة أغراضهم وأغراض المستعمرين الأميركان. وقد اشتهر من حاشية الشيشكلي ثلاثة تحلّقوا حوله يزيّنون له أموره ويكملون له نقصه في أداء دوره وهم: الصحفي أحمد عسّة ابن أخت عميل الهاشميين حسن الحكيم والحقوقي الكاتب نزيه الحكيم ابن عم العميل المذكور والكاتب قدري القلعجي الذي تزيّن بالشيوعية ردحاً من الزمن ثم انضم إلى خدمة المخابرات المركزية الأميركية. وهنا نشير إلى أن الأَوَّلَيْن كانا قبل ديكتاتورية الشيشكلي من المقربين المفضلين للأستاذ أكرم الحوراني، كما أن نزيه الحكيم كان على خلالة حميمة مع الأستاذ ميشيل عفلق. وقد استمر هذا الثلاثي الانتهازي يرتاد ساحات النضال العربي زمناً طويلاً بعد الشيشكلي.

وبعد أن تم طرد حزب الشعب من الحكم المدني عيّن الشيشكلي فوزي سلو رئيساً للدولة في الثالث من كانون أول عام 1951. وقد اشْتُهِرَ هذا الأخير بأنه كان المثال المزعج المثير للمرحوم اللواء محمد نجيب، فكان كلما أحس بأن مساعديه الضباط الأحرار يستغفلونه ويعملون من وراء ظهره يهب صائحاً محتجاً: "أنا لست سلو". ولكن الشيشكلي وأتباعه ما كانوا أبداً يعملون من وراء ظهر سلو هذا، وإنما كانوا غير مبالين به وبقدم رتبته على الإطلاق، فهو النموذج للمستسلم القاعد عن طلب المكارم ما دام طاعماً كاسياً. ومُنِعت جريدة البعث عن الصدور في كانون الثاني عام 1952 ودخل حزب البعث في السرّية. وصدر في نيسان عام 1952 مرسوم بحل جميع الأحزاب. وفي الخامس والعشرين من آب عام 1952 افتتح الشيشكلي مكاتب حركة التحرير في دمشق، الحركة التي كان قد شكلها قبل حل الأحزاب وعَرَّفَها بأنها ليست حزباً وإنما هي تجمّع وطني. وكان الثلاثي الانتهازي المار ذكره أعلاه، عسّة الحكيم قلعجي، قد وضع دستور هذه الحركة الذي يبيّن حدود الوطن العربي، وكأنها معنية حقاً

بتحرير هذا الوطن وتوحيده وليس بخدمة هذا السيد الجديد للحصول بالتالي على المنافع الشخصية الانتهازية، كما ينص على أمور أخرى تُكرر في العادة آلياً في كل بيان أو دستور يصدره دجّال طامع كتحرير المرأة وإصلاح الأراضي وفرض ضرائب عادلة وغيره. وفي الرابع والعشرين من تشرين أول عام 1952 دخل الشيشكلي إلى حلب على رأس "عراضة" مؤلفة من مئات السيارات لافتتاح الحركة في هذا البلد، وكأنه كان يردّ على المظاهرة الفلاحية التي أقامها هناك قبل سنتين تنظيم الأستاذ أكرم الحوراني والتي أصبح هذا التنظيم بعدها "الحزب العربي الاشتراكي".

ذهب الشيشكلي إلى مصر في الحادي عشر من كانون أول عام 1952، والتقى هناك برجال ثورة يوليو. ولكنه تلقّى أثناء هذه الزيارة تقريراً من ساعده الأيمن ابراهيم حسيني يستعجله بالعودة وينذره بمؤامرة تحاك للإطاحة بنظامه. وقد روى باتريك سيل خبر هذه المؤامرة في "الصراع على سورية"، فزعم أن العقيد عدنان المالكي قابل الشيشكلي عند عودته من مصر في المطار في السادس عشر من كانون أول

عام 1952، وتقدم إليه باسم ضباط الجيش بطلب حل حزب التحرير وإعادة الحريات الديموقراطية وغيره، فتظاهر الشيشكلي بالرضوخ لهذا الطلب وسأل المرحوم عدنان عن أسماء رفاقه الضباط والسياسيين الذين أيدوا طلباته المذكورة. وكانت النتيجة أن قبض الشيشكلي على المالكي والمتآمرين جميعاً وألقى بهم في السجن. والواقع إن العقيد المالكي ما كان بهذه السذاجة التي يصفه بها هذا "المؤرخ" المغرض الحاقد. والذي جرى هو أن أحد المتآمرين وهو عبد الغني قنّوت حاول إشراك صديقه القديم ابراهيم الحسيني بالمؤامرة فكان أن افتضح المتآمرون، وصدر بلاغ عن قيادة الجيش باكتشاف تآمرهم وتوقيفهم رهن التحقيق. وفي أواخر هذا العام اضطر كل من ميشيل عفلق وصلاح البيطار وأكرم الحوراني إلى مغادرة سورية واللجوء إلى لبنان ثم في إيطاليا. وكان هذا بعد أن تم توحيد حزبي "البعث العربي" و "العربي الاشتراكي" تحت اسم "البعث العربي الاشتراكي".

واستمرت حكاية الشيشكلي بالتقدم فَوُضِعَ له دستور رئاسي استفتي عليه بواحدة من مهازل الاستفتاءات التي تأتي

دوماً بحصيلة قبول الجماهير بما يتراوح ما بين الـ 85% و 99,9%، ونُصِّبَ ديكتاتورنا بنتيجة هذا الاستفتاء رئيساً للجمهورية في شهر تموز عام 1953. ثم جرى انتخاب مجلس نيابي احتلته في الرابع والعشرين من تشرين الأول عام 1953 حركة التحرير التي انتخبت مأمون الكزبري رئيساً له. وعاد زعماء حزب البعث العربي الاشتراكي إلى دمشق بموجب عفو عام صدر عن الشيشكلي بمناسبة انتخابه رئيساً للجمهورية. ولكن السعي إلى إنهاء عهد هذا الديكتاتور لم يتوقف فبدت جميع القوى الوطنية مصممة على العمل لهذه الغاية. فمن الناحية الخارجية كنا نرى التقارب بين نظامي الشيشكلي وثورة يوليو المصرية يسبب القلق للرجعية السعودية بالإضافة إلى عداء الرجعية الهاشمية لكل محور يقوم بين القاهرة ودمشق. وقد انعكس هذا العداء وذلك القلق على حزبي الشعب والوطني اللذين قبلا دعوة البعث العربي الاشتراكي لتشكيل جبهة تطيح بنظام الشيشكلي. وعُقِد مؤتمر حمص السري في 30 تموز عام 1953، وحضر هذا المؤتمر مندوبون عن أحزاب الشعب والوطني والبعث

وبعض المستقلين. واتفق المؤتمرون على إنهاء حكم الشيشكلي وإعادة النظام البرلماني الديموقراطي الذي قلبه الشيشكلي واعتبار حكم هذا الأخير منذ قيامه في التاسع والعشرين من تشرين الأول عام 1951 حتى نهايته كأنه لم يكن، وصيانة الحريات العامة والاستقلال والجمهورية، وإبعاد الجيش عن السياسة وجعله يلزم ثكناته. وفي الخامس والعشرين من شباط عام 1954 أعلنت حامية حلب بقيادة العقيد فيصل أتاسي القريب من قادة حزب الشعب الخروج على نظام الشيشكلي وكُلِّفَ النقيب البعثي مصطفى حمدون بإذاعة بيانها من إذاعة حلب وذلك تنفيذاً لمقررات مؤتمر حمص.

∃ نسبة إلى كوهين الجاسوس الإسرائيلي الذي اكتشف وأعدم في سورية في الستينات؛ (ي.ب).

الفصل الثامن

الأحلاف الاستعمارية

حلف الدفاع المشترك

قلنا في هذه الدراسة إن جلاء الجيوش الأجنبية عن سورية ولبنان عام 1946 حقق لهذين القطرين الشقيقين وضعاً عُدَّ في تلك الأيام ظاهرة شاذة في نظام القهر الرأسمالي الاحتكاري العالمي، حيث أصبح الشعبان السوري واللبناني بهذا الوضع مطلقين من كل قيد تعاقدي مع دول الاستعمار وخاليين من كل قاعدة للمستعمرين. وقلنا إن هذا الأمر قد أقلق المستعمرين جميعاً: قديمهم وحديثهم، فبادروا بالعمل، كل جهة منهم بالشكل الذي يلائم مصالحها، لحصر هذا الخطر أولاً ومنع تفشيه في بقية العالم المستعبد، وخاصة في بقية الوطن العربي، ثم للسعي إلى القضاء عليه بالطريقة

المناسبة. فرأينا البريطانيين مثلاً يحاولون بكل ما لديهم من جهد، مباشر ومن خلال الهاشميين، مدّ نفوذهم إلى سورية وإخضاعها لسيطرتهم بإقامة عرش فيها لوليّ عهد العراق، بينما كان الأميركان، مباشرة ومن خلال الرجعيتين المصرية والسعودية، يعملون على "ضبط" القطر السوري بالديكتاتوريات المتعاقبة: كانت كل ديكتاتورية منها تعمل على "ضبط" وتمزيق الجماهير، وتعمل على الحؤول دون قيام ظروف الثورة الكبرى الحاسمة وامتدادها من القطر السوري إلى بقية الأقطار العربية وبالتالي تحقيق الوحدة الكبرى لهذا الوطن في معمعان الكفاح من أجل إزالة الكيان الصهيوني وإسقاط الرجعيات والانتهازيات المتعاونة مع المستعمرين مساندي الصهاينة. وكانت الديكتاتوريات تلتزم بمخططات المستعمرين الجدد الأميركان بعملها على إحباط محاولات المستعمرين القدماء الإنجليز في توطيد مراكزهم في المنطقة بانتظار الفرصة لاقتلاعهم واستبدالهم بهيمنة النظام الأميركي. ولعل من المفيد أن نعرض هنا، وهو ما كنا أوردناه في دراسة "العسكرية الأميركية سياج العبودية

المعاصرة"، بعض أسس الستراتيجية الأميركية في طور ما بعد الحرب العالمية الثانية من عام 1945 حتى بدء الحرب الباردة بمجيء الثنائي (أيزنهور، دَلَس) في عام 1953 فنقول:

كانت الاحتكارية الأميركية منهمكة بكليّتها بوضع الأسس والدعامات الأولى للإمبراطورية العالمية المتعددة الأطراف والموحدة بزعامتها وذلك بتحقيق الأمور التالية:

أ - الأخذ بيد البلاد الرأسمالية الأوروبية المنتصرة والمهزومة في الحرب العالمية الثانية ومساعدتها للنهوض وبناء ما دمرته هذه الحرب فيها. والتغلغل أيضاً في اقتصادها والهيمنة عليها سياسياً وعسكرياً بالاستفادة من ظروفها الكارثية حينذاك.

ب - تكنيس الشكل القديم للاستعمار، ودفع المستعمرات وأشباه المستعمرات (أي بلاد ما يسمى حالياً بالعالم الثالث) إلى الاستقلال السياسي في حدود النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي بوجهه المتخلف، النظام الذي يكون بزعامة الاحتكارية الأميركية.

ج - المباشرة بإقامة الجهاز الإمبريالي العالمي الذي يتألف من مختلف الأحلاف العسكرية والسياسية في أوروبا الغربية، وأميركا اللاتينية، والشرق الأوسط، وجنوب شرقي آسيا. وإقامة شبكة تخريب وتجسس عالمية تغطي سطح الكرة الأرضية بقيادة مركز معقد التركيب يعمل تحت الإشراف المباشر لمجلس الأمن القومي الذي يرأسه رئيس الجمهورية في البيت الأبيض، ونشر القواعد العسكرية الأميركية في بحار ودول العالم الرأسمالي المتقدم والمتخلف، وتوزيع الأساطيل الحربية في جميع بحار العالم.

وحاولت الولايات المتحدة الأميركية في بدء هذا الطور أن تستغل ما تركته الحرب من دمار في الدول التي كانت حينذاك تقوم بتكوين المعسكر الاشتراكي، وعلى الأخص منها الاتحاد السوفياتي، لتضمها إلى إمبراطوريتها الآنفة الذكر. وقامت المحاولة على عرض مختلف المعونات الاقتصادية المشروطة من جهة وعلى الضغط الاقتصادي من جهة ثانية بمختلف أشكاله التي منها مثلاً الإلحاح على الاتحاد السوفياتي لتسديد ديونه التي عقدها مع أميركا أثناء الحرب (وهذه سياسة

ثابتــة لا تتغيــر نشــاهد حاليــاً فــي التســعينات مــن هــذا القــرن تطبيقها الدؤوب من قبل أميركا لتصفية المعسكر الاشتراكي وإتباعه بإمبراطوريتها العالمية). ونجح الأميركان في إخراج يوغوسلافيا من المعسكر الاشتراكي وضمها إلى معسكرهم (بنظامها الاشتراكي الكامل) ولكنهم حينذاك فشلوا في التغلغل بعيداً في ذلك المعسكر.

ويمكن القول إن الولايات المتحدة الأميركية، كي تكسب الوقت وتتمم مشاريعها الاستعمارية العالمية الآنفة الذكر، كانت تمارس بشكل عام سياسة "التهدئة" تجاه الاتحاد السوفياتي، إلى جانب ستراتيجية دفاع إيجابي (على الرغم من الحرب الكلامية العنيفة التي كانت تقوم بينهما). ونقصد بالدفاع الإيجابي أن الولايات المتحدة الأميركية كانت حينذاك تُظهر تمام الاستعداد للدخول في حرب مع الاتحاد السوفياتي فيما لو تعرقلت مخططاتها العالمية بسببه. ويمكن تسمية الستراتيجية هنا باسم "ستراتيجية الإبعاد": إبعاد الاتحاد السوفياتي من طريق ما كانت تدبّره أميركا في العالم. وفي الواقع كان الاتحاد السوفياتي من جهته يرى في مساعي

أميركا "لتكنيس" الاستعمار القديم من العالم "خطوة متقدمة" بالإضافة إلى انشغاله حينذاك بالأعمال الداخلية الهائلة الضخامة لإزالة ما خلفته الحرب من دمار في بلده. وبالإمكان أن نجمل الأسس المادية للموقف الأميركي بما يلي:

1. خرج الاتحاد السوفياتي من الحرب وهو أقوى دولة برية في العالم، تجاه حلفاءٍ لأميركا في أوروبا والشرق الأقصى كانوا منهكين ومنهمكين حينذاك بإزالة الدمار الشامل الذي خلفته الحرب في بلادهم.
2. كان المعسكر الاشتراكي يتسع اتساعاً هائلاً بانتصار ثورة الصين الشعبية، ثم امتداد نار الثورة إلى فييتنام، ووصول شرارتها إلى الأرخبيل الأندنوسي.
3. النهوض الكاسح للحركات الوطنية ضد المستعمرين القدماء، في المستعمرات وأشباه المستعمرات، مع اضطرار أميركا إلى وضع القناع الكاذب للتظاهر بالدفاع عن "التحرر وحقوق الإنسان" ريثما يتم بناء إمبراطوريتها العالمية على حساب المستعمرين القدماء وعلى حساب الحرية الحقيقية لشعوب العالم الثالث.

4. اشتداد الحركات الجماهيرية في بلاد المستعمرين بالذات ضد النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي الذي سبب كوارث الحرب الفاجعة: في فرانسة مثلاً كان للحزب الشيوعي حتى أواخر الخمسينات أكبر عدد من النواب في البرلمان وكان يسيطر على أكثر البلديات هناك، وما كان الوسط واليمين يتمكنان من تشكيل حكوماتهما إلا بعقد تحالفات بين مختلف أحزابهما.

5. كان تكوّن المخزون النووي الأميركي يتعثر، في الوقت الذي كان فيه الاتحاد السوفياتي يتقدم بسرعة نحو صنع أسلحته النووية، فتمت له أول تجربة ذرية عام 1949. يقول العالم الذري الألماني أرفين أوبنهايمر (الذي أصبح عالماً وباحثاً ذرياً أميركياً في أعقاب الحرب): "..كانت طائرات الولايات المتحدة هي التي ألقت قنابلنا الألمانية الذرية التي أنتجناها في إينسبروك على هيروشيما وناكازاكي، وكان قد استولى عليها الجيش الأميركي في أواخر الحرب ونقلها إلى بلاده... إن الحماسة الجنونية التي تلت تجارب حزيران لعام 1946 في بكيني تكاد لا تذكر اليوم أمام الحماسة التي

ظهرت بعد ما عرف أن القنابل الأميركية التي يمكن دعوتها بحق قنابل ذرية قد ألقيت في أوائل أيار عام 1948 في إينيوتوك".

6. مشاغل أميركا في بناء إمبراطوريتها العالمية.

وكان حلف الأطلسي قد قام منذ عام 1949 بزعامة الولايات المتحدة الأميركية. وقد انضم إلى هذا الحلف في البدء كل من الولايات المتحدة الأميركية وإنجلترة وفرانسة وإيطاليا والدانمرك والنروج وهولندة وبلجيكا واللوكسمبرغ وإيسلندة والبرتغال وكندا، ثم انضم إلى هذا الحلف فيما بعد كل من تركيا واليونان وألمانيا الغربية. وفي الربع الأول من عام 1951 عُقِدت اجتماعات قادةٍ أطلسيين أميركيين وإنجليز وفرنسيين وإيطاليين في جزيرة مالطة لبحث مسألة الدفاع الأطلسي في منطقة الشرق الأوسط. وكان قبل هذا، في الخامس والعشرين من أيار عام 1950، قد صدر عن الولايات المتحدة الأميركية وإنجلترة وفرانسة البيان الثلاثي الشهير الذي يحرّض على حرمان العرب من التسلح، ويعلن

أن هذه الدول الاستعمارية الثلاث ملتزمة بحفظ السلام على الحدود الفلسطينية ومعارضتها المطلقة لاستعمال القوة أو التهديد باستعمالها بين دول المنطقة. والواضح أن مُصْدِري هذا البيان قصدوا بالعبارة الأخيرة منع العرب من استخلاص حقوقهم في وطنهم فلسطين، وليس منعهم من محاربة بعضهم بعضاً ولا منع الصهاينة من شن العدوان عليهم متى رغبوا لتحقيق مطامعهم الاستيطانية، فهم بعد هذا البيان شنّوا ما لا حصر له من الاعتداءات على العرب بتشجيع من هؤلاء المستعمرين أصحاب البيان بالذات.

وكان النظام الاستعماري البريطاني يهتز في تلك الأيام في المنطقة ابتداءً من مصر وحتى إيران. فالجماهير المصرية لا تنقطع عن الكفاح من أجل تحقيق الجلاء البريطاني التام عن أرض الوطن وإقامة وحدة وادي النيل وإحباط مشاريع الدفاع المشترك الاستعمارية التي كان الإنجليز يسعون إلى فرضها على العرب. وقد كتب مثلاً رئيس جمعية الشباب المسلم في مصر صالح حرب في النصف الثاني من شهر كانون الثاني عام 1951 كتاباً إلى

الأمين العام للجامعة العربية يقول فيه: "إن الشعوب العربية بعد كل ما قاسته لن تقبل أن تباع باسم الديموقراطية في السوق البريطانية الاستعمارية. إن ما تبقّى من الكرامة العربية التي ورثناها عن أجدادنا العظام تدفعنا لأن نسألك باسم الشعوب العربية أن تعلن الحياد المطلق. إننا لا نرغب أن نساند الشيوعية ولا أن ندافع عن ديموقراطية المستعمرين". وكانت حركة الضباط الأحرار في تلك الأثناء في الجيش المصري تتصاعد وتبشّر بحدوث تغيّرات عميقة هناك. وقبل هذا كان قد اغتيل في الأردن الملك عبد الله وهو غني عن التعريف كخادم مجرَّب للاستعمار البريطاني. أما في سورية فقد سقطت مشاريع العميل الإنجليزي الآخر عبد الإله الوصي على عرش العراق بقيام حكم الشيشكلي. وكانت الجماهير هنا تعارض بطبيعة الحال بشدة مشاريع التحالف مع المستعمرين تحت أي يافطة. وقد عبّرت أحزاب البعث والاشتراكي الحوراني والجبهة الإسلامية منذ أوائل عام 1950، عندما تصاعدت روائح التحالف مع الغرب، عن معارضتها الشديدة لكل سياسة تؤدي إلى الانخراط في نظام

دفاعي مع المستعمرين ونادت بالحياد. وكان النظام الاستعماري البريطاني يهتز في إيران. فرئيس الوزراء الإيراني علي رازمارا اتجه منذ أوائل عام 1950 نحو الولايات المتحدة طالباً مساعدة مالية بقيمة مائة مليون دولار للقيام ببناء اقتصاد بلده الذي دمرته الحرب، فنال فقط خمسة وعشرين مليوناً مع "همسة" في الأذن "تنصحه" بالعودة على الإنجليز ليطلب منهم إعادة النظر في عائدات النفط وجعلها 50% كما هو الحال القائم حينذاك بين الأميركيين والسعوديين (الحال الذي استجد في تلك الأيام في العلاقات النفطية الشرق أوسطية). وكان هذا الأمر منطلق الأحداث التي أدت إلى عهد مصدّق وإلى تأميم النفط الإيراني ثم تسلل الاحتكارات النفطية الأميركية للسيطرة على هذا النفط. وكان إلى وقت ليس ببعيد، إلى الوقت الذي أصبح فيه النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي بزعامة الولايات المتحدة الأميركية يستوعب حتى "النظم الاشتراكية" ببيروقراطياتها وانتهازييها عن طريق القروض وغيره، نقول كان التأميم، لا سيما تأميم النفط، يشكل بمفاهيم المستعمرين عدواناً شيوعياً.

يقول خليل كنة مثلاً، وهو أحد تلامذة العميل البريطاني الشهير نوري السعيد، إن تأميم النفط هو "شعار شيوعي" يُقْصَدُ من ورائه تعطيل الثروة وإشاعة الفقر والعطالة ليتسنى للشيوعية استغلال التذمر وقيادة الجماهير التي غذتها بالحقد للإطاحة بالنظام القائم، وهذا بحسب ما جاء في مذكرات هذا الكنة تحت عنوان "العراق أمسه وغده". لكل هذا رأينا البريطانيين بعد اجتماعات مالطة المذكورة أعلاه يهرعون إلى منطقتنا في محاولة لتدارك الأحداث وتدعيم نظامهم الاستعماري المتهاوي، ويتبعهم عن كثب الأميركيون لتعطيل مساعيهم هذه لصالح بناء إمبراطوريتهم الاستعمارية العالمية، كما يأتي الفرنسيون أيضاً غرماء البريطانيين علَّهم يجدون بعض المنافع الاستعمارية. ففي شهري كانون الثاني وشباط عام 1951 زار الجنرال سير بريان روبرتسون العواصم العربية، كما عقد ماك غي مساعد وزير الخارجية الأميركية لشؤون الشرق الأوسط مؤتمراً لسفراء دولته في أقطار المنطقة. وانعقد مؤتمر مشابه في القاهرة برئاسة سفير فرانسة

كوف دو مورفيل في مصر، كما قام الجنرال الفرنسي فاليري بزيارة لدمشق.

لقد كان عرض الجنرال الإنجليزي روبرتسون في دمشق "صداقة" دولته بريطانيا لسورية ووقوفها إلى جانبها ضد مشاريع الهاشميين وذلك مقابل قبول سورية تسهيل مرور القوات الإنجليزية المرابطة في قناة السويس عبر أراضيها إلى شمالي العراق في حالة عدوان شيوعي على المنطقة. وكان هذا يعني فتح الحدود بين سورية والكيان الصهيوني في فلسطين مع وضع طرق وموانئ ومطارات سورية تحت تصرف الجيش البريطاني في حالة "عدوان شيوعي" تحدد شكله ونوعه الحكومة البريطانية. وقد رُفِض هذا العرض من قبل سورية.

إن المستعمرين جميعاً يعرفون جيداً أن الاتحاد السوفياتي بظروفه التي كان يمر بها في أعقاب الحرب العالمية الثانية لا يبدأ أي حرب ولا يستفيد من تفوقه براً إلا في الدفاع عن حدوده. والذي كان يشغل بالهم، وما يزال وسيبقى شغلهم الشاغل، هو أن يعمل العالم الثالث بجدية

للخلاص من نظامهم الاستعماري العالمي وينطلق في سبل الحرية إلى بناء الطور المقبل للإنسان. فما يُرْمَزُ إليه بلغتهم بالشيوعية والخطر الشيوعي والعدوان الشيوعي وما شابه في بلد عربي مثلاً أو بلد نفطي كإيران هو قيام حكم وطني خارج النظام الرأسمالي الاحتكاري فيه، الأمر الذي يستوجب عندئذ تدخلهم العسكري بشكل من الأشكال لتحطيم الحكم المذكور. فبريطانيا، الدولة البحرية المتحكمة حينذاك بقناة السويس ومضيق جبل طارق، ولها قواعد عسكرية في عدن وشرقي أفريقيا والخليج العربي وجزر المحيط الهندي، ما كانت بحاجة إلى الأرض السورية لمرور قواتها إلى العراق. ولكنها كانت تخشى تلك القوى المتحررة من الاستعمار في سورية من أن تطور حركتها لتجعل من بلدها قاعدة للثورة العربية الكبرى التي تجذب الجماهير العربية في شتى أقطارها، لاسيما منها القطر العراقي وأقطار الخليج حيث يستقر أضخم احتياطي للنفط في العالم. فهذا الوضع المتحرر للجماهير السورية، الذي لم تستطع الديكتاتوريات المتعاقبة حينذاك على هذا القطر من النيل منه فكانت له دوماً الغلبة عليها، كان

بالنسبة إلى الجنرال روبرتسون ولدولته بريطانيا وضعاً غير مستقر قد تنتقل عدواه إلى العراق حسب ما جاء في "الصراع على سورية" بقلم باتريك سيل. فكانت لذلك تلك المساعي البريطانية المتعددة الأشكال والموحدة الهدف لإدخال سورية في دائرة النفوذ البريطاني، حيث يتحقق "الاستقرار" الإنجليزي المنشود ضد التحرر العربي وضد المنافسين الخطرين الأميركان.

دعت الدول الكبرى، الولايات المتحدة الأميركية وإنجلترة وفرانسة وإيطالية، في الثالث عشر من تشرين أول عام 1951 مصر للدخول في حلف الدفاع المشترك. وقدّمت في ذات الوقت بريطانيا مذكرة إلى الحكومة المصرية تعلمها فيها أن الجلاء عن قناة السويس مرهون بقبولها لخطة هذا الدفاع المشترك. وكانت الدول الأربع المذكورة تأمل أن تقوم مصر، بصفتها أكبر دولة عربية، بجر بقية أشقائها إلى هذا الحلف. وقد أبلغ سفراء هذه الدول، في ذات اليوم، بقية البلاد العربية مضمون طلبها المذكور إلى مصر. وكان الرد الفوري لحكومة الوفد برئاسة مصطفى النحاس باشا رفض

الطلب الاستعماري. وقبل أسبوع من هذا التاريخ، أي في الثامن من تشرين أول، كانت هذه الحكومة المصرية قد قامت من جانب واحد بإلغاء المعاهدة المصرية البريطانية لعام 1936 مع إلغاء اتفاقات القواعد الإنجليزية على التراب المصري وإعلان ملك مصر ملكاً على السودان أيضاً. وقد أيدت الجماهير في سورية بحماس موقف مصر من الإنجليز ومن الأحلاف الاستعمارية فقامت المظاهرات وأُرسلت برقيات التأييد إلى مجلس الأمن وإلى رئيسي الوزراء السوري والمصري. وتحت ضغط الجماهير شنّ وزير الخارجية السوري فيضي الأتاسي حملة شديدة على سياسة الأحلاف الغربية في البرلمان.

حلف بغداد

كان يقوم في وجه الاحتكارية الرأسمالية الأميركية في عملها على بناء إمبراطوريتها الاستعمارية العالمية في أعقاب الحرب العالمية الثانية ثلاث صعوبات رئيسية:

- احتواء عالم المستعمرات وشبه المستعمرات المنطلق حينذاك بزخم كاسح في طريق التحرر والانطلاق نحو عالم منشود خال من المستعمرين.

- الإمبراطوريات الرأسمالية الاحتكارية الأوروبية التي كانت تقتسم العالم فيما بينها وتقسمه إلى إقطاعيات، كل إقطاعة منها تشكل مستملكة خاصة للطغمة الرأسمالية الاحتكارية الحاكمة في بلد مستعمِرها. فكان من المستحيل قيام إمبراطورية عالمية موحدة بزعامة الاحتكارية الرأسمالية الأميركية ما بقيت تلك الإمبراطوريات القديمة.

- المعسكر الاشتراكي الذي امتد بظفر الثورة الاشتراكية الصينية إلى مساحات شاسعة من الأرض تضم ما يقرب من ثلث بني الإنسان. فكان من المستحيل أن يمتد الاستعمار الأميركي الجديد إلى أجزاء من ذلك العالم الاشتراكي الضخم، بله احتواء هذا العالم بإمبراطوريته في ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة.

وكان من نتيجة هذا الوضع العالمي في مواجهة المطامع الأميركية أن تبنت الرأسمالية الاحتكارية هناك الستراتيجية

المار ذكرها أعلاه تحت اسم "ستراتيجية الإبعاد"، أي إبعاد المعسكر الاشتراكي ليخلي الطريق أمام الرأسمالية الأميركية لتستوعب العالم المتخلف، المنطلق حينذاك في طريق التحرر من الاستعمار القديم، وتكنيس إمبراطوريات هذا الاستعمار لصالح بناء إمبراطوريتها الجديدة. وقد رأينا تفصيل هذا الأمر بقدر كاف في الفصل الأول من هذه الدراسة. ونعود هنا ونذكّر بالأساس الذي قامت عليه المساعي الأميركية العالمية لبلوغ غرضها هذا وهو: اندساس المساعي الأميركية، إلى درجة الامتزاج في كثير من الحالات، في حركات التحرر العالمية، الموجهة بطبيعة الحال حينذاك ضد الاستعمار القديم، للاستفادة من هذه الحركات في تقويض هذا الاستعمار وتكنيس أنقاضه، على أن يقف التحرر عند هذا الحد ويبقى "المتحررون" في النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي الذي ستكون أميركا بالضرورة زعيمة له. وهذا أمر لا يعني سوى أن تكون نتيجة ثورات التحرر في ذلك العالم في تلك الأيام انخراط أمم الثائرين في النظام الاستعماري الجديد وتبعيتها

للإمبراطورية الاستعمارية العالمية المتعددة الرؤوس الموحدة بزعامة الولايات المتحدة الأميركية.

واندلعت الحرب الكورية في عام 1950، وكانت الحرب الفييتنامية في الهند الصينية مستمرة. وحلت الهزيمة الساحقة بالمستعمرين في هاتين الحربين: في الحرب الكورية عندما تحطم الجيش الأميركي على نهر يالو على يد الكوريين والمتطوعة الصينيين، وفي الحرب الفييتنامية عندما تحطم الجيش الفرنسي في ديان بيان فو على يد الفييتناميين الذين استمدوا أسلحتهم وكثيراً من وسائلهم من الصين والاتحاد السوفياتي. فتبين هنا أن ستراتيجية "الإبعاد" الأميركية الموصوفة أعلاه أصبحت بتلك الظروف غير مجدية، فسقطت لتقوم مقامها ستراتيجية "الحصار المزدوج"، وتتلخص بإقامة "ستار حديدي" على الحدود الفاصلة بين العالم الرأسمالي بشطريه المتقدم والمتخلف وبين العالم الاشتراكي. وقد رأت القيادة الأميركية التي قامت في عام 1953 بالثنائي (أيزنهور، دَلَس) أن خير تنفيذ لهذه الستراتيجية الأخيرة يكون من خلال "الحرب الباردة" التي توصل العالم، بحسب ما كان

يعبر عنه دَلَس على الدوام في تلك الأيام، إلى "حافة الهاويـة". وهذا الأمر يعني بوضوح تام: تضييق الهامش الذي يتمكن فيه الاتحـاد السوفياتي ومعسكره من التحـرك والتفاعل مـع العـالم الثالث إلى أدنى حد ممكن بحيث تندلع الحرب النووية عند أقل تجاوز لهذا الهامش. وهنا نجد من المفيد أيضاً أن نعرض فيما يلـي مـا كنـا قـدمناه حـول هـذا الموضـوع فـي دراسـتنا تحـت عنـوان "العسـكرية الأميركيـة سـياج العبوديـة المعاصـرة": إن طـور الحــرب البــاردة ابتــدأ فعليــاً بعهــد أيزنهــور ووزيــر خارجيتــه دَلَــس وانتهــى بطــور الانشــقاق فــي المعســكر الاشـتراكي، حيـث دب الخـلاف العلنـي بـين الصـين وأتبـاع أيـديولوجيتها مـن جهـة فـي العـالم، وبـين الاتحـاد السـوفياتي وأتباع أيديولوجيته من جهة أخرى في العالم. وفي هذا الطـور كـان المخـزون النـووي الحـراري قـد تقـدم كمـاً وكيفـاً فـي المعسكرين. وكانت العلاقات بين الدول الاشتراكية الأوروبية قد استقرت وقام حلف وارسو في مواجهة حلف الأطلسي. وفــي الجهــة المقابلــة انتهــت أميركــا عمليــاً مــن توحيــد الإمبراطوريــات الاســتعمارية القديمــة فــي الإمبراطوريــة

العالمية المتعددة الرؤوس بزعامتها. ولكن انهيار الاستعمار القديم وعجزه في تلك الأيام، وبروز الحكومات الوطنية في معظم المستعمرات القديمة ألهب حماس جماهير العالم الثالث، فاشتدت فيه الثورات التي كان من أعظمها ثورتا الجزائر والفييتنام. وراح الناس حينذاك في عالمنا المتخلف يتطلعون إلى الأفق الأبعد، يتطلعون إلى الخلاص من كل أشكال الاستعمار ومن جملتها الاستعمار الجديد وإمبراطوريته العالمية اللذين خرجت بهما أميركا على العالم. ثم إن القناع الخادع الذي كان يغطي الوجه الأميركي ويظهر أميركا كدولة مناصرة للحرية وحقوق الإنسان قد سقط في تلك الأيام. وظهرت هذه الدولة كأكبر عدو للإنسان وقيمه التي تتظاهر نفاقاً بالدفاع عنها. وبرز استعمارها في العالم القديم (البعيد نسبياً قبل تلك الأيام عن فظائعها في العالم الجديد وخاصة منه اللاتيني والزنجي) نقول برز استعمارها كأفظع بلاء ابتليت به البشرية طوال عهودها. ولا بد لنا بهذه المناسبة من أن نسجل بأن الشعب السوري كان له الفضل الأكبر في تمزيق ذلك القناع الخادع أمام جماهير العالم الثالث، بالنضال الجبار الذي

خاصه ضد المؤامرات الأميركية عليه وعلى أخوته في الأقطار العربية الأخرى، وبإحباطه لتلك المؤامرات الواحدة تلو الأخرى: من اغتيال الشهيد عدنان المالكي إلى مؤامرة ستون والحشود التركية، مروراً بمؤامرات مختلف الأحلاف الاستعمارية. كان الهدف الأساسي للولايات المتحدة الأميركية في هذا الطور، نتيجة لما أشرنا إليه، هو عزل العالم الثالث والعالم الاشتراكي، كل واحد منهما عن الآخر. وكان هذا لتحقيق أمرين:

الأول: منع العالم الثالث من إقامة علاقات حرة طبيعية مع الكتلة الشرقية، كي لا تستفيد هذه الدول من مساعدات وأسلحة الاتحاد السوفياتي وحلفائه لبناء اقتصادها والدفاع عن استقلالها وحقوقها.

الثاني: عرقلة علاقات الاتحاد السوفياتي وحلفائه الاقتصادية والسياسية مع دول العالم الثالث، لعزل تلك الدول الاشتراكية والإضرار بتجارتها والنيل من نفوذها العالمي.

كانت إذن السياسة الأميركية تجاه الجزء المتخلف من إمبراطوريتها الرأسمالية الاحتكارية وتجاه المعسكر الاشتراكي سياسة حصار مزدوج:

- حصار العالم الثالث وحصار ثوراته، التي تتجاوز الحدود النافعة للمستعمرين الأميركان إلى الإضرار بهم، ومنع المساعدات عنها، وبناء أسس الحملة عليها بالمبالغة بالتشهير بالشيوعية تمهيداً لضربها بعد اتهامها في وطنيتها ونعتها بالتبعية للاتحاد السوفياتي.

- حصار المعسكر الاشتراكي، وعلى الأخص منه الاتحاد السوفياتي، تمهيداً للانقضاض عليه وضربه واحتوائه عندما تسنح الفرص وتقوم الظروف.

كانت الولايات المتحدة الأميركية تهدف إذن إلى إقامة "ستار حديدي" على حدود إمبراطوريتها العالمية تكون مفاتيح أبوابه بيدها. ولدعم السياسة الآيلة إلى هذا الهدف قامت ستراتيجيات الحرب الشاملة، والرد الشامل "الكثيف"، والحرب الوقائية، وكلها أسماء لمسمىً واحد هو: الهجوم العام على الاتحاد السوفياتي وحلفائه عند أول بادرة منه تهدد وجود

الإمبراطوريـــة الرأســمالية الاحتكاريـــة المتعــددة الأطــراف والموحـدة بزعامــة أميركــا، الإمبراطوريــة الحديثــة التكـوين حينذاك على أنقاض الاستعمار القديم الذي ما كان أصحابه قد بلغوا حينذاك درجة "هضم" هذه الإمبراطورية الأميركية.

وكانـت الولايـات المتحـدة الأميركيـة قد حققت فـي تلـك الأيام قيام جزأين من "الستار الحديدي" الآنـف الذكر: الأول بحلـف الأطلســي فـي غـرب المعسـكر الاشـتراكي العـالمي، والثـاني بوجودهـا فـي شـرقي هـذا المعسـكر فـي شـبه جزيـرة ألاسكا، بطبيعة الحال كأرض أميركيـة، ثم ببقائها في كوريا الجنوبية بعد التسوية التي تحققت في عام 1953، في أعقاب هزيمتهــا هنــاك، والتــي دعمــت ترشــيح أيزنهـور لرئاســة الجمهوريــة ومكّنتــه مـن الفـوز بهـذا المنصــب، إلــى جانــب وجودها في الجزر اليابانية بنتيجة انتصارها على اليابان في الحرب العالميـة الثانيـة. وبقـي لإكمـال بنـاء "السـتار الحديدي" المذكور ثغرة جنوب المعسـكر الاشـتراكي وجنوبـه الشـرقي. وفي عشية انهزام فرانسة في الفييتنام، التي تمثل هذا الجنوب الشـرقي مـن المعسـكر الاشـتراكي، حاولـت أميركـا أن تـزج

بإنجلترة في هذه الحرب ولكنها فشلت. وعلّق إيدن على هذه المحاولة بقوله الوارد في مذكراته: "يعتقد الأميركيون أن الزمن الذي يحتاجون فيه إلى مراعاة شعور ومتاعب حلفائهم قد انقضى!..". عندئذ مضت الولايات المتحدة في أخذ مكان فرانسة في هذه الحرب من خلال حلف أقامته في جنوب شرقي آسيا، ويضم كلاً من أستراليا وفرانسة والفلبين ونيوزيلندة وتايلند وحكومات الهند الصينية العميلة. إلا أنها هُزِمت وتمرغ أنفها بالرغام هناك في النتيجة. وخلال عام 1953 دفعت أميركا كلا من تركيا والباكستان لتحوّلا معاهدة الصداقة المعقودة بينهما إلى اتفاقية تعاون عسكري، تم التوقيع عليها في الثاني من نيسان عام 1953. وفي التاسع عشر من أيار تم توقيع اتفاقية تعاون عسكري بين أميركا والباكستان وسط الاحتجاجات الشديدة من كل من الهند والاتحاد السوفياتي والصين وأفغانستان وأمام الغيظ الكاوي لإنجلترة التي كانت تعتبر نفسها المسؤولة الأولى عن دول هذه المنطقة: من العراق وشرقي الأردن حتى الباكستان، والتي لم تُسْتَشَرْ في هذه الخطوة الأميركية وإنما بُلِّغَتْ بوقوعها لأخذ

العلم. أما إيران التي تسد الفجوة بين تركيا والباكستان فإنها كانت قد وقعت في النفوذ الأميركي منذ انقلاب زاهدي في عام 1953 الذي انطلق من السفارة الأميركية في طهران. وبهذا قام القسم الأوسط من "الستار الحديدي" الأميركي الموصوف أعلاه: من أنقرة حتى كراتشي، فيغلق البحر الأسود بالسيطرة على مضيقي البوسفور والدردنيل، ويسير متتبعاً شواطئ البحر السود الجنوبية فجنوبي القوقاز والسواحل الجنوبية لبحر الخزر فجنوبي الجمهوريات السوفياتية في أواسط آسيا فجنوب الصين. وبهذا قام عملياً ذلك الستار الحديدي بكليّته حول المعسكر الاشتراكي.

واستمرت في تلك الأثناء المناورات المحلية المتناقضة ومن ورائها مناورات المتنافسَيْن الأميركي والبريطاني حول تثبيت علاقة الغرب بكتلة الدول العربية. فالسياسة البريطانية كانت، كما قلناه دوماً، تهدف إلى تعزيز وجود تلك الدولة الاستعمارية في هذه المنطقة لتكون لها كلمة قوية في نظام عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، الأمر الذي كان يؤدي إلى قيام قوة منفردة، إمبريالية منفردة، في الإمبراطورية العالمية

الجديدة التي كانت أميركا حينذاك تجهد لبنائها، وهذا أمر يخل بوحدة هذه الإمبراطورية ويخل بزعامة أميركا لها. وقد فشلت المحاولات البريطانية الأولية، كما مر معنا أعلاه، لجر الدول العربية إلى أن توقع على معاهدة للدفاع المشترك مع إنجلترة. وكانت هذه الدولة الاستعمارية تُسابق الزمن في تلك الأيام علَّها تتمكن من تلافي خطر زوال كل نفوذ لها مسيطر في القضايا العالمية، وخاصة منها التي تتعلق بسيطرتها على الطريق الأسطوري الذي يصل العرب الآسيويين (الذين وفّروا لها النفط لتسبح عليه إلى النصر في الحرب العالمية الثانية، بحسب تعبير رئيس وزرائها تشرشل في مذكراته) بالهند وما يحيط بالهند، فيشكل معها ذلك العالم الأسطوري الذي طالما حلم الطامعون الأوربيون على مدى التاريخ بامتلاك ثرواته، وقد نجحت بريطانيا حيناً من الدهر في استصفاء هذه الثروات، وهاهي ذا ترى اقتراب خطر طردها نهائياً من هذه الجنان على يد غرمائها الأميركان وبكفاح الحركات الوطنية في المنطقة. فبادرت لذلك في أعقاب انتهاء أميركا من إقامة "ستارها الحديدي" الآنف الذكر بإرسال

نوري السعيد إلى الهند، منتهزة استياء حكام هذا البلد من إشراك غرمائهم حكام الباكستان في أحلاف أميركا، للعمل على تكتيل أمم هذه القارة مع عرب آسيا وشعوب أواسط آسيا تحت إشرافها: كانت الهند والباكستان وما تزالان دولاً في الكمنولث البريطاني، كما كان لبريطانيا علاقات وقواعد في جميع الدول العربية المستقلة حينذاك عدا سورية ولبنان. ولكن رئيس الوزراء نهرو الذي كان، مع الزعماء الآخرين قادة حركات التحرر الوطني في العالم الثالث، يفكر في إقامة كتلة "غير منحازة" من دول هذا العالم الأخير، ردّ نوري السعيد خائباً. وكان هذا الفشل الجديد لبريطانيا، الذي أُضيف إلى فشلها في إدخال مصر معها في معاهدة دفاع مشترك كان يهدف، كما قلنا، إلى جر العرب كلهم إلى هذا الحلف بواسطة هذا القطر العربي الذي يعتبر كبير الأقطار العربية وقائدها، وذلك بمعزل عن أميركا ومخططاتها في إنشاء ستارها الحديدي المار ذكره، نقول إن فشل تلك المحاولات الإنجليزية دفع بريطانيا إلى محاولة جديدة هي العمل على جعل العراق، الذي تصاعدت وارداته النفطية في تلك الأيام، يتبوأ مكان

مصر في زعامة الأقطار العربية وذلك بدفعه إلى الارتباط بالغرب عن طريقها هي بالذات.

وكانت قد وُقِّعتْ اتفاقية الجلاء عن قناة السويس بالأحرف الأولى بين مصر وبريطانيا في تموز عام 1954. وطلبت مصر إجراء محادثات مع العراق لاستجلاء موقفه الإقليمي في ظروف ما بعد هذه الاتفاقية وظروف انتهاء أجل المعاهدة البريطانية العراقية لعام 1936 في سنة 1957، وكان تجديدها قد رفضه الشعب العراقي في انتفاضته ضد اتفاقية (بيفان، صالح جبر). وطار صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة المصرية مع محمود رياض إلى الموصل في أواسط شهر آب 1954 ومنها توجه إلى سرسنك حيث كان الملك فيصل وولي عهده عبد الإله ونوري السعيد بانتظاره. وجرت مناقشات مطولة بين الطرفين أدت إلى اتفاق مبدئي مآله: "اتفق الطرفان على ضرورة إعادة النظر في ميثاق الأمن الجماعي العربي بقصد تقويته وجعله أداة فعالة تمكن البلدان العربية من التصدي لأي خطر قد يتهددها. وسيدرس كل من الطرفين الأمر ويجري المحادثات اللازمة مع

الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا بهذا الشأن. إن اجتماعاً آخر بين مصر والعراق سيعقد في القاهرة خلال النصف الثاني من شهر أيلول لاستعراض نتائج الاتصالات مع الولايات المتحدة وبريطانيا ولمتابعة المحادثات، ثم سيجتمع الطرفان معاً مع ممثلي بريطانيا والولايات المتحدة لبحث الموضوع والاعداد لطرحه على الدول العربية الأخرى بقصد الوصول إلى اتفاق شامل". انتهى نص الاتفاق المبدئي بحسب الرواية العراقية على لسان نوري السعيد، عندما كان يدافع عن موقفه في أعقاب العدوان على قناة السويس في إذاعة بغداد يوم 16 كانون الأول عام 1956. فنجد إذن بجلاء بحسب هذا النص الذي يورده عميل بريطانيا نوري السعيد ما كانت تتمناه وتسعى إليه هذه الدولة، وهو جرّ "القيروان العربي" (القافلة العربية)، بمطيتها مدرسة لورنس الحاكمة في العراق، اعتباراً من مصر كبير أقطاره، إلى الانحياز بشكل من الأشكال إلى الغرب عن طريق بريطانيا. ونجد أيضاً في النص بجلاء أقل رغبة مصر بالاستناد إلى التضامن العربي وفي السعي إلى تقوية هذا التضامن وجعله الأداة

الفعّالة في السياسة العربية. ومن الواضح أن الميزان هنا يميل نحو كفة نوري السعيد وليس إلى جهة صلاح سالم، الذي تخادع لهذا السعيد حتى خُدِعَ، وذلك باندفاعه لكسب العراق واحتوائه ومنعه من الانفراد عن العرب في خطه السياسي، حتى بلغ به الأمر إلى أن يصرح في التاسع عشر من آب عام 1954 في بغداد بأن مصر لا تعارض مشاريع وحدة الهلال الخصيب لحكام العراق، المشاريع التي رأينا فحواها في هذه الدراسة، وهو في حقيقته لا يعدو إقامة عرش لعبد الإله في سورية. وكان هذا الأمر سبباً في تصعيد غضب الجماهير السورية، وقيام حملة صحفية شعواء في دمشق ضد الحكم في مصر، الذي سمح لنفسه أن يقرر مع العراق مصير القطر السوري بغياب ممثليه. وجزء، من جهة أخرى، السعوديون أشد الجزء من تلك البادرة التي تعني بالنسبة إليهم، فيما إذا استمرت وأثمرت، القضاء على مساعيهم الدائبة في حصر الهاشميين في الأردن والعراق ومنعهم من التسلل إلى القطر السوري بانتظار فرصة تاريخية للقضاء عليهم القضاء المبرم أو لاحتواء بقاياهم كما هو حاصل في أيامنا هذه. ثم إن قيادة

الثورة المصرية وجدت أن صلاح سالم قد خُدِعَ وذهب بعيداً في مساعيه لاحتواء حكام العراق إلى درجة الوقوع في حبائلهم. فدعت نوري السعيد ليزور القاهرة بهدف إيضاح الالتباس في الموقفين الحقيقيين لكل من مصر والعراق، في الموقفين اللذين تداخلا في الاتفاق المبدئي المذكور أعلاه. ولبّى السعيد الدعوة بعد تردد وبهدف إيقاع المزيد من البلبلة والخلاف في صفوف رجال الثورة المصرية. إلا أنه اتضح في النتيجة جيداً اختلاف موقفي ثورة يوليو المصرية ومدرسة لورانس الحاكمة في العراق الواحد منهما عن الآخر. فثورة يوليو تريد دفع الكتلة العربية حينذاك والتضامن العربي نحو موقف عدم الانحياز، الذي قلنا أن قيادات التحرر في العالم الثالث أخذت تتبناه وتعمل على إقراره وإقامته، بينما تقف مدرسة لورانس، بطبيعة الحال، عند تنفيذ المطامع الاستعمارية البريطانية التي عبّر عنها إيدن بمذكراته بالعبارة التالية: "لقد سررت لدى سماعي في نهاية عام 1954 أن نوري السعيد رئيس وزراء العراق كان يعمل في خط تقوية ميثاق الجامعة العربية بإدخال تركيا ومساعدة المملكة المتحدة

والولايات المتحدة". ويضيف باتريك سيل على هذه العبارة لإيدن الشرح التالي في بحثه "الصراع على سورية": "كان هذا بديلاً واضحاً لخطة دَلَس (الأميركي). فبينما كان "الحزام الشمالي" (أي الستار الحديدي المنوّه عنه أعلاه) الذي أقيم ليكون خط دفاع أمامي على الحدود الروسية مكوناً من دول غير عربية، من تركيا وإيران والباكستان، مع احتمال إضافة العراق كشريك ثانوي، فإن مشروع نوري السعيد المنافس حَوَّلَ مركز الثقل في النظام الدفاعي (الرأسمالي العالمي) إلى العالم العربي مرة أخرى. فهو يُعِدُّ لمشاركة عربية واسعة من كل الموقّعين على ميثاق الأمن الجماعي العربي. ويعطي العراق الدور الأول كهمزة وصل بين هذه الدول العربية من جهة وتركيا والقوى الغربية من جهة أخرى. والمشروع بكامله يطبّق تحت الإشراف الإنجليزي وليس الأميركي". انتهى تعليق باتريك سيل.

وبعد فشل نوري السعيد في القاهرة وافتضاح موقفه الحقيقي بقوله العبارة التالية أثناء المحادثات: "إني لا أستطيع أن أعتمد على العرب في الدفاع عن بلادي. فإذا قلت لشعبي

وأصدقائي الأجانب إنني سأعتمد على جيوش سورية والسعودية ولبنان للدفاع عن بلادي فسيقولون لي: نوري، إنك أحمق!.. إن الطريقة الوحيدة للدفاع عن بلادك هي في عقد تحالف مع الغرب. إنني أفهم شكوكك (شكوك مخاطبه عبد الناصر) تجاه بريطانيا، ولكنني ذاهب إلى هناك". وبالفعل فقد ذهب نوري السعيد إلى لندن مباشرة بعد محادثاته تلك مع رجال ثورة يوليو، حيث أمضى هناك ثلاثة أسابيع وُضِعَتْ له فيها الخطة الواجب عليه اتباعها، الخطة التي أدت به إلى الدخول في النتيجة في حلف بغداد. وذهب من لندن إلى استامبول وبقي فيها اسبوعين أجرى فيهما محادثات مع مندريس رئيس الوزراء التركي انتهت إلى إصدار بيان مشترك يعلن فيه الطرفان: "عزمهما على العمل لتحقيق تعاون مشترك بينهما يضمن سلامتهما". وقد أُرسل البيان إلى السفارات العربية في تركيا. وفي الثالث عشر من شهر كانون الثاني عام 1955 زار مندريس بغداد، حيث وقّع فيها مع نوري السعيد ميثاقها الشهير المؤلف من ثمانية مواد، تفتح منها المادة الخامسة الباب لدخول دول الجامعة فيه ولبريطانيا

أيضاً تحت اسم: "الدول التي يهمها أمر السلم والأمن في المنطقة". وفي الواقع لم تتأخر هذه الدولة الاستعمارية، المغرمة بسلم وأمن كل منطقة في العالم من فوكلاند إلى الوطن العربي فالهند في حدود مصالحها العبودية، عن الدخول في هذا الحلف فوقّعت على ميثاقه في نيسان عام 1955. وكان الأشبه بها أن توقّع مع تركيا والعراق على هذا الميثاق في ذات التاريخ الذي قام فيه، أي في الثالث عشر من كانون الثاني، ولكنها تأخرت حتى نيسان بأمل أن تأتي دول عربية أخرى، أن يأتي الأردن على الأخص، للدخول فيه قبل أن يتجسد انحيازه إلى المستعمرين بانضمامها (بانضمام بريطانيا) إليه. وسنعود فيما يلي من البحث إلى موضوع مقاومة هذا الحلف وغيره من مشاريع ومؤامرات المستعمرين من قبل العرب وفي طليعتهم سورية.

وبعد، إن العالم الثالث عندما يكون اقتصاده مرتبطاً بالاقتصاد الرأسمالي الاحتكاري، أي إنه عندما يكون هنا في العالم شمال متقدم مادياً، بما نهبه من ثروات الشعوب المقهورة، وجنوب متخلف فقير يشكل الجزء المقهور من

الإمبراطورية العالمية المتعددة الرؤوس الموحدة بزعامة أضخم رؤوسها الولايات المتحدة الأميركية، فإن المناداة "بعدم الانحياز" من قبل ذلك الجزء المقهور من هذه الإمبراطورية العالمية لا يشكل إلا نداءً فارغاً لا معنىً له. وعند انتهاء الحرب العالمية الثانية أدت ثورات العالم المقهور ضد قدماء المستعمرين إلى تحرر ذلك العالم من هؤلاء المستعمرين، فكان على قادة التحرر حينذاك إذن أن يكملوا طريقهم للتحرر أيضاً من النظام الرأسمالي الاحتكاري، كي يتحقق انعتاقهم من التبعية الرأسمالية التي تُلَوِّنُ العبودية بما يناسب الظروف، ولكنها تشدد عذابها ونكايتها بالإنسان بتطور الزمن. ولكنهم بدلاً من أن يأخذوا بهذا الاتجاه نادوا "بعدم الانحياز". وقد رضيت أميركا بهذا الموقف منهم، بل شجعته بكل ما لديها من قوة، على أن يبقوا منخرطين في النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي بوجهه المتخلف المقهور، أي أن يبقوا متخلفين ليشكلوا أهل الجنوب الحالي التابع للإمبراطورية الأميركية العالمية الذي يوفّر لأسيادها الاحتكاريين في أميركا وأوروبا أمواج فضول القيم: شجعت

أميركا رفع "شعار عدم الانحياز" بالقول من قبل أولئك المقهورين المرتبطين بالفعل بنظام إمبراطوريتها العالمية، أي المنحازين عملياً بطبيعة علاقاتهم بهذا النظام. ومن المفارقات العجيبة أن قطع هذا الرباط بالنظام المذكور لتحقيق شعار عدم الانحياز بداهة كان انحيازاً بمفهوم أصحاب الشعار المذكور ومفهوم الأميركان. ثم إن النظام الرأسمالي الاحتكاري هو بطبيعته، كما نقول ونردد دوماً وأبداً، نظام القهر الذي يمتد على العالم فيقسمه شمالاً وجنوباً، متقدماً ومتخلفاً، سيداً ومقهوراً. فالمقهور الذي يختار البقاء في هذا النظام لن يحقق أي تقدم يجعله يلحق بالمتقدمين ويتحرر من القهر، وتكون بالتالي مناداته بعدم الانحياز مناداة فارغة، كما قلنا أعلاه، تدل على جهل وعماء عن حقيقة العالم إن لم تكن انتهازية وخيانة لقضايا الوطن. ومن البديهي أن يكون إنهاء النظام العبودي الرأسمالي الاحتكاري بتحرر المقهورين من هذا النظام والعكس بالعكس، وليس هناك من سبيل آخر. فالقضية بالنسبة لذلك العالم الذي تحرر من الاستعمار القديم ما كانت إذن عدم انحياز إلى هذه الجهة أو تلك وإنما كانت انحيازاً إلى

طريق يؤدي إلى الحرية الحقيقية، إلى طور عالمي جديد لا يرى فيه الإنسان وجوه الذين طالما قهروه، وجوه الرأسماليين الاحتكاريين قتلة الشعوب.

الفصل التاسع

الجماهير تبرز في الساحة

بعض ظروف المنطقة والعالم

إن التنافس التاريخي الكبير بين الاستعمارين الإنجليزي والفرنسي على "طريق الهند"، الذي هو المشرق العربي، استمر على أشده حتى عصر زوال هذين الاستعمارين وقيام الاستعمار الجديد ليخلفهما بقيادة الولايات المتحدة الأميركية. وكان الهدف المباشر الكبير لهذا الاستعمار الأخير طرد البريطانيين من المشرق العربي موطن الاحتياطي النفطي العالمي، مما جعله يسير مرحلياً، لفترة قصيرة من الزمن، في طريق يوازي الحركة الوطنية العربية ويوازي مساعي الفرنسيين في صراعهم الآنف الذكر مع البريطانيين. وكان "رأس الجسر" للهجوم الأميركي على منطقة المشرق العربي قد بدأ في السعودية، ثم امتد إلى الحكم الرجعي الملكي في مصر، واستمر بعد سقوط هذا الحكم باستغلال الأحوال

الصعبة في هذا القطر مستنداً على التيارات الانتهازية التي تمثلت بالساداتيين في النتيجة. فلنلق إذن نظرة عاجلة على جانب هام من أحوال هذين القطرين العربيين اللذين كان وما يزال للحكم فيهما تأثير قوي على الحياة السياسية العربية وخاصة منها السياسة السورية:

1. إن قادة السعودية الرجعيين من كل المراتب والأصناف يمثلون في العالم أجمع أشد الوثنيات تحجراً ورجعية وعداء للتقدم الاجتماعي وللتحرر من العبودية والقهر مع اتصافهم بصلف وغرور ووقاحة الجاهل. فهم مثلاً آخر فئة إنسانية تخلت مرغمة عن ممارسة الاسترقاق، وذلك تحت الضغط العالمي الشديد والشجب الذي تعرضوا له في مختلف الندوات والمؤسسات الدولية في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية. ولكن مرض العبودية يسري في دمائهم ويخالط النخاع في عظامهم مما جعلهم أفضل مطيّة للمستعمرين الأميركان. فتراهم جاهزين بكل حماس وإقدام لخدمة هؤلاء المستعمرين في كل بقعة من بقاع الأرض من أميركا اللاتينية إلى الفلبين مروراً بالمنطقة العربية على

الأخص. كما إنهم بحكم عداوتهم للهاشميين عملاء الاستعمار البريطاني بذلوا كل ما بوسعهم من جهد لهدم هذا الاستعمار، بعد أن خنعوا له طويلاً فيما مضى قبل مجيء الأميركان إلى المنطقة، الأمر الذي زاد في التحامهم بمخططات هؤلاء المستعمرين الجدد.

2. كانت مصر تصارع الإنجليز منذ زمان طويل، منذ أن وطئت أقدامهم أرضها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. واستمرت ثورة يوليو بالكفاح ضد هذا الاستعمار القديم الذي كانت كل شعوب العالم المقهورة في أفريقيا وآسيا ثائرة ضده في تلك الأيام، وقد مر معنا ذكر هذا الأمر في هذه الدراسة. وكان جيفرسون كافري سفير الولايات المتحدة الأميركية "يرعى بعطفه" هذا الاتجاه في الثورة المصرية لا حباً بالتحرر بطبيعة الحال ولكن لخدمة مخططات دولته في اقتلاع الاستعمار القديم من هذه المنطقة والحلول مكانه. يقول جان وسيمون لاكوتور، مؤلفا كتاب "مصر تتحرك": "..كان الجانب الأميركي لا يخلو من انشغال البال بسبب الميول التقدمية للثورة. إلا أن السفير جيفرسون

كافري كان لا يأبه بهذه الميول ويفرض نفسه إشبيناً للثورة، وكان يقول: "إن بإمكان هؤلاء "الأولاد" (Boys) أن ينقذوا مصر من المد الأحمر الذي كان سينصب عليها من جراء تجاوزات فاروق والباشوات. إنهم سيقومون بالإصلاحات، يمكنكم أن تعتمدوا على تأكيداتي هذه، وسيرفعون سوية الشعب، ويجب علينا أن نشجعهم". وقد حصل التقارب بين الرجعية السعودية ورجال ثورة يوليو المصرية في الخط المشترك فيما بين هاتين الجهتين وهو صد مشاريع الأسرة الهاشمية في المنطقة والكفاح ضد الاستعمار البريطاني الذي يساند هذه المشاريع وتلك الأسرة صاحبتها. وكان من الطبيعي أن يكون مثل هذا الحلف موضع ترحيب من قبل الاستعمار الجديد، على أن يبقى نشاطه في حدود كل ما يلائم العمل على بناء هذا الجديد الذي كانت تضطلع أميركا بإنجازه، فلا تتعدى الحركة الوطنية العربية، وفي طليعتها ثورة يوليو هذه، الحدود لتضيف إلى مهامها مكافحة تلك المساعي الأميركية وسحقها. وكان اعتماد كافري المذكور مع أعوانه، الذين كانوا يشكلون رأس وطليعة جهاز الاستعمار الجديد الذي وضعته

أميركا للعمل في المنطقة، على التيارات الانتهازية في الحركات الوطنية العربية وفي مقدمتها تيار أنور السادات وروافده في ثورة يوليو، الذي اضطلع بعملية طويلة لعزل هذه الثورة ودفعها في اتجاهات وثنية ديكتاتورية أدت إلى كوارث قومية نذكر منها: تسهيل جريمة الانفصال وهزيمة الخامس من حزيران وثالثة الأثافي في كمب ديفيد.

قال جمال عبد الناصر في فلسفة الثورة: "لست أدري لماذا يخيل لي دائماً أن في هذه المنطقة التي نعيش فيها دوراً هائماً على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به. ثم لست أدري لماذا يخيل لي أن هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا قد استقر به المطاف متعباً منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك وأن ننهض بالدور ونرتدي ملابسه فإن أحداً غيرنا لا يستطيع القيام به. وأبادر هنا فأقول إن الدور ليس دور زعامة، إنما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة في كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة به، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة

كبيرة في هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور إيجابي في بناء مستقبل البشر. ونحن وحدنا بحكم المكان نستطيع القيام به". فعبد الناصر بهذه العبارة وضع إصبعه على الواقع الذي كانت فيه المنطقة العربية في تلك الأيام التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، في ذات الوقت الذي نبّه فيه إلى الموقع الحاسم للوطن العربي في مسيرة التقدم الإنساني. وقد أشار إلى الواجب الملقى على عاتق الشعب المصري لينهض هذا الشعب ويفجر تلك الطاقة الهائلة الكامنة في الجماهير العربية المحيطة بمصر، بعد أن تراجعت بقية الأنظمة العربية عن الاضطلاع بالدور المذكور الهائم على وجهه هنا وهناك في الوطن العربي بحثاً عن جهة تتلبسه وتقوم به: تداولت الحكم في سورية، التي أشرنا مراراً إلى أنها تمتعت في أعقاب جلاء الأجنبي عنها بوضع متميز فتحررت من كل ارتباط تعاقدي مع أي جهة استعمارية، مختلف الوثنيات البرلمانية والديكتاتورية حتى انتهاء حكم الشيشكلي، وذلك بسبب تقصير القيادات الوطنية والتقدمية الذي سبق لنا عرضه في أكثر من مناسبة في هذه الدراسة.

أما الدول النفطية، كالعراق وبقية أقطار الخليج، فكانت، كدول المغرب العربي، ترزح تحت وطأة النظام الاستعماري حينذاك بمختلف أشكاله ومدارسه، وذلك إلى جانب استعداد الجماهير العربية في كل أقطار وطنها في تلك الظروف المؤاتية للنهوض بكل طاقاتها الهائلة. وقد برهنت الأحداث على قيام المناخ الثوري في تلك الجماهير العربية عندما هبت هذه الجماهير لدعم كل كفاح ومقاومة للاستعمار وخاصة دعم ثورة الجزائر بكل شكل مناسب والوقوف إلى جانب مصر في معركة تأميم القناة وإلى جانب سورية عندما كان هذا القطر يتصدى لمؤامرات المستعمرين. نقول إذن إن جمال عبد الناصر بكلمته هذه عبّر بكل وضوح عن إحساس صادق بأن العالم يتجه نحو التغيير إلى مرحلة إنسانية جديدة، وأن على أمتنا بموقعها المتميز أن تعمل تحت قيادة ثورية ليكون هذا التغيير إيجابياً لمصلحة البشر. وقد عُقدت خلال شهر كانون الثاني عام 1954 اجتماعات في القاهرة حضرها سفراء مصر في كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية والهند والباكستان إلى جانب قادة ثورة يوليو ووزير الخارجية

محمود فوزي. وصدر في أعقاب هذه الاجتماعات، في 9 كانون الثاني، بيان يحدد مرتكزات السياسة المصرية الجديدة وهي الآتية:

أولاً: العمل على إقامة كتلة عربية حرة من أي تأثير استعماري لحماية مصالح الشعوب الإسلامية والعربية والأفريقية.

ثانياً: السعي إلى عقد معاهدات واتفاقات تربط هذه الشعوب وتجعل منها كتلة واحدة.

ثالثاً: السعي إلى تأسيس كتلة أفريقية تضم جميع البلاد الأفريقية لا سيما منها تلك التي ترزح تحت نير الاستعمار.

وقام الناطق بلسان ثورة يوليو صلاح سالم بعقد مؤتمر صحفي في أعقاب تلك الاجتماعات قال فيه: "بالنسبة للسياسة المصرية لك أن تسميها حيادية أو ما تشاء، فقد يختلف البعض على تعريف الحياد، ولكن الذي لا خلاف عليه هو أننا سنعارض ولن نتعاون بأي وسيلة مع جميع الذين يقفون في وجه حريتنا وكرامتنا، بل سنتعاون مع من يتعاون معنا ونؤازر الذين سيؤازروننا. إنني أعلن الآن أن مصر قد

اتخذت خطوات عملية لتحسين التعاون بكل أشكاله مع دول العالم في الشرق والغرب على السواء. إننا لن نميز بين دولة وأخرى إلا بمقدار استجابتها لمطالبنا ودعمها لنا في الحقول السياسية والاقتصادية واحترامها لقوميتنا المصرية. وبالاختصار إننا نرغب في العيش أحراراً وسنناضل من أجل ذلك. ولن يستطيع أحد أن يلومنا على نضالنا في الحصول على حريتنا التي لن نساوم عليها مطلقاً". انتهى تصريح صلاح سالم.

من الواضح تماماً أن تلك الاجتماعات ومناقشاتها قصّرت عن صياغة عقيدة وستراتيجية تنيران لمصر ولثورة يوليو الطريق للقيام بالدور القيادي الكبير والمصيري المبيّن بعبارة جمال عبد الناصر الواردة أعلاه. كان على أولئك المؤتمرين صياغة تلك العقيدة التي تكشف للثوار عن الواقع بشقيه، الغارب منه المتمثل بالاستعمار القديم والمقبل باحتمالي: العبودية الجديدة البادية بالوجه الأميركي المطل حينذاك، أو التحرر التام للبشر الذي يقوم عليه طور إنساني جديد. وكان بالإمكان بناء ستراتيجية على مثل هذه العقيدة،

تقودنا إلى بلوغ هدف تفجير الطاقات الثورية لجماهير أمتنا العربية وإضافتها إلى الطاقات الثورية الهائلة لعالم المستضعفين، التي كانت تتفجر في بنيان الاستعمار القديم المتهاوي حينذاك، ثم إكمال الثورة بقيادتها العربية بتطوير الكفاح ليواجه الاستعمار الجديد، الذي كان يتقدم حينذاك لإجهاضها وإيقافها عند تكنيس المستعمرين القدماء ولإبقاء ذلك العالم المستضعف منخرطاً في نظامه، نظام العبودية الرأسمالية الاحتكارية العالمية. وقد بينا في فصل سابق أن شعار الحياد وعدم الانحياز، الذي رفعه المتخلفون في تلك الأيام مع بقائهم منخرطين في النظام الرأسمالي العالمي وتشكيلهم بالتالي هذا العالم الثالث في الإمبراطورية الأميركية العالمية، كان وما يزال وسيبقى شعاراً فارغاً لا يعني شيئاً، فأيده لذلك المستعمرون الجدد الأميركان بكل ثقلهم، على أن يبقى المتخلف الذي يرفعه أسير نظامهم المذكور. فنقول إذن إن الاجتماعات الآنفة الذكر، التي حضرها سفراء لا يهتمون كثيراً بفن الثورة وإنما ينقلون انطباعاتهم عن سياسة البلد الذي يمثلون حكومتهم فيه، وقد نقلوا بالفعل مستوى تطلعات

قادة العالم الثالث حينذاك، المستوى الذي يقف عند الخلاص من النظام الاستعماري القديم الغارب دون الانتباه إلى الجديد، هذه الاجتماعات لم تتطرق أبداً إلى استجلاء الواقع بأكمله لرسم خطة الخروج والخلاص منه بكليته إلى طور عالمي أعلى، وإنما اكتفت باستجلاء "نصفه" الغارب فقط والبحث عن مسايرة الركب الوطني العالمي المتقدم "بالراحة" لتكنيس أطلال القديم، الأمر الذي سهل على العبودية الجديدة بقيادة أميركا أن تحتل الساحة، عندما انصرف الانتباه عن خطرها.

إن الاتجاه للخلاص من قدماء المستعمرين وتصفية نظامهم العالمي كان بداهة بحد ذاته أمراً ذا أهمية بالغة بالنسبة لمسيرة التقدم العالمي وتقدم المقهورين نحو استخلاص حقهم في الحياة كبشر، فكان لذلك لا بد من البدء به. إلا أنه كان بديهياً أيضاً وجوب انتباه هؤلاء المقهورين إلى الخطر الماحق الآتي بالاستعمار الجديد ونظامه العالمي الذي أخذت أسسه تُرْسى في تلك الأيام. كان عليهم أن لا يقعوا في السرابات الكاذبة، التي منّتهم بإمكان بلوغ سوية المتقدمين المستعمرين وهم أسرى نظامهم العالمي. فالتكافؤ

بين الأمم والشعوب، ووقوعها جميعاً في سوية واحدة، يعني بداهة زوال القهر واندثار النظام العالمي الذي يؤدي إلى تراكم الثروات والقيم في أيدي المستعمرين على حساب كدح المقهورين وشقائهم. ولا سبيل إلى هذا إلا بالثورة على النظام المذكور. فكان على زعماء الحركات الوطنية وقادة مسيرات التقدم في عالم المتخلفين أن يسلكوا مباشرة دون تردد هذا الطريق الوحيد إلى خلاص أوطانهم. ثم إن الثورة في ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية للخلاص من النظام الاستعماري العالمي في منطقة مناسبة، يزعزع النصر فيها هذا النظام ويقرّب نهايته أو ينهيه بجرّ بقية العالم المقهور إلى الانتفاض بشكل من الأشكال، كالمنطقة العربية مثلاً أو الهند أو الصين أو ما شابه، هي فرض ومسؤولية تاريخية على عاتق قادة الحركة الوطنية في هذه المنطقة. لقد كانت الظروف حينذاك مؤاتية، فقد هُزِم الاستعمار بكل أشكاله في الفييتنام وكوريا والجزائر وكوبا على الرغم من التركيز الهائل لكل جهوده على كل منطقة من هذه المناطق بمفردها. ولو إن مثل تلك الجهود قد جرى توزيعها على مساحات واسعة من عالم

المقهورين لباءت بالفشل بأهون سبيل ولكانت أكثر هواناً على ضحاياها. ولكن جواهر لال نهرو وجمال عبد الناصر وجوزيف بروز تيتو رفعوا شعار "عدم الانحياز" وناضلوا لتعميمه بين المتخلفين، وتوسطوا بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية، كما جاء في حديث جرى بين نهرو والصحفي الهندي كرانجيا، كي يقيما علاقات صداقة ومودة بدل الحرب الباردة التي كانت قائمة فيما بينهما. ونحن أيضاً من أنصار السلم بين هاتين الدولتين ولكننا لسنا من أنصار الاستسلام للمستعمرين الأميركان.

كان من أخطر الأوهام التي أوقعت المتخلفين في شباك المستعمرين الجدد ذلك الذي أدى بقادة الثورات في العالم الثالث إلى تبني خطط "تنمية اقتصاد هذا العالم بعقد الديون مع المستعمرين". فكانت النتيجة مزيداً من غرق المتخلفين في التخلف والفقر عندما ارتهن اقتصادهم بكليته بديون الرأسماليين الاحتكاريين، فأصبح ملكاً لهؤلاء وسلاحاً ماضياً في أيديهم يَفْضُلُ كثيراً أسلحة قدماء المستعمرين البالية السخيفة لإخضاع أولئك المديونين. ومما ساعد على خداع

الجماهير والقيادات الوطنية التقدمية هو تلك النظرية البائسة التي نادت طويلاً بإمكان بناء الاشتراكية بكل أبعادها في بلد واحد أو معسكر عدد من البلاد في ظل نظام رأسمالي احتكاري عالمي متقدم. فقد غاب عن ذهن هؤلاء الذين صاغوا هذه النظرية وساندوها طويلاً أن الخارج على النظام الرأسمالي العالمي هو ثائر على هذا النظام، فيقوم أولاً وقبل أي أمر آخر ببناء اقتصاد ثوري، اقتصاد كفاح، اقتصاد حرب، يمكّنه من الصمود مادياً أمام ضغط العدو الرأسمالي العالمي إلى أن يزول نظام هذا العدو. وكون اقتصاد الصمود هذا غير رأسمالي هو تحصيل حاصل مادام صاحبه ثائراً على نظام الرأسمالية، ولكنه بالتعريف العلمي لا يمكن أن يكون اقتصاداً اشتراكياً أيضاً ما لم ينفِ الآخر ويتجاوزه بالرقي والشمول فيصبح عالمياً بدوره له كل أبعاد الاشتراكية، وإن أُطلق عليه تَجَوُّزاً اسم اشتراكية مرحلة الانتقال من الطور الرأسمالي إلى الطور الاشتراكي: إن اقتصاد المعسكر الاشتراكي مثلاً، كمعسكر ثائر على النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي، هو اقتصاد كفاح وصمود أمام

هذا النظام الذي ما يزال سائداً عالمياً، وهو بهذا المعنى اقتصاد اشتراكي لمرحلة الانتقال المذكورة، اقتصاد ثوري كفاحي لا يرتقي إلى سوية كمال الأبعاد إلا بعد سيادته المطلقة عالمياً ونفي نقيضه الرأسمالي وزواله. وكان من الخطأ الفادح اعتبار اشتراكيته كاملة في الوقت الذي هو فيه اقتصاد جهة مشتبكة في صراع مرير مع نقيضها العبودي الرأسمالي وفي خدمة صمودها في هذا الصراع قبل كل شيء آخر، فيوفر لها كل الأسلحة المادية والمعنوية اللازمة لاستمرار ثورتها وحمايتها من النكوص والعودة إلى الانخراط في نقيضها الرأسمالي الذي خرجت عليه، إلى أن تبلغ مع العالم الهدف العام بزوال هذا النقيض. ثم إن التقدم التقني في بلاد المستعمرين وفي كل ما يقع تحت سيطرتهم، ككل القيم والثروات المادية الأخرى التي اغتصبوها، هو ملك للإنسانية تعمل ثوراتها لاستعادته مع تلك القيم والثروات، ووضع الكل في خدمة تقدمها وبناء الاشتراكية المسيطرة عندئذ عالمياً بعد نفي نقيضها وزواله.

لقد كان على قادة الحركات الوطنية والتقدمية في عالم المقهورين فيما بعد الحرب العالمية الثانية أن يعملوا على حماية قيمهم الناتجة في حدود اقتصادهم الوطني، وأن يصونوا المواد الأولية في أراضيهم من نهب المستعمرين، فيقوموا بتركيم وخزن هذه الثروات وتلك القيم في مقابل ما كان يقوم به المستعمرون من تكويم للأغذية في عنابر بلادهم وتركيم للقيم من كل نوع في مصارفهم ومؤسساتهم الاقتصادية وتكديس للأسلحة في في ترساناتهم لاستخدام كل هذه الوسائل في الضغط على البشر وتهديدهم وسوقهم إلى ساحات العبودية الرأسمالية وأقفاصها. فاقتصاد البلد الثائر الخارج على النظام العالمي للرأسمالية الاحتكارية يقيم "احتكاراً دفاعياً" لقيمه وثرواته تجاه الاحتكار العدواني الرأسمالي، بدلاً من أن ينزلق بأوهام الاستعانة به ويقع في شباك عبوديته.

الجماهير السورية تحطم الديكتاتورية

مر معنا أن قيادات الأحزاب السورية اجتمعت في حمص في الثلاثين من شهر تموز عام 1953، وأقامت جبهة غايتها إسقاط الشيشكلي والوقوف من بعد في وجه كل ديكتاتورية تحاول المسّ بالديموقراطية المزمع إقامتها بعد الظفر في المعركة ضد ذلك الحكم الديكتاتوري. وقلنا إنه كان من نتيجة ذلك أن أعلنت حامية حلب العصيان بقيادة العقيد فيصل الأتاسي. وتم بعد ذلك طرد أديب الشيشكلي من سورية. ولكن هذه المعركة التي خاضتها الجماهير السورية ضد ديكتاتورية الشيشكلي كانت معركة حاسمة في كفاح هذه الجماهير ضد المستعمرين وأعوانهم، وتبرز فيها بكل وضوح تناقضات المستعمرين فيما بينهم وتنافس الطامعين على اختلاف أشكالهم، المحليين منهم والعرب والأجانب، للفوز بالمغانم على حساب قضية شعبنا السوري ومسيرة التقدم لأمتنا العربية نحو أهدافها القومية. لذلك نرى بوضوح فائدة العودة فيما يلي بشيء من التفصيل إلى أحداث تلك الأيام القليلة بعددها العظيمة بنتائجها فنقول:

إن أديب الشيشكلي بموقفه العدائي من حزب البعث العربي الاشتراكي كان يتمتع بتأييد الرجعية السعودية المطلق، ولو كان هذا التأييد يزعج ويغضب كثيراً من الفئات اليمينية في الحزب الوطني المحافظة على الولاء لشكري القوتلي صديق السعودية. فالبعث، وخاصة منه الفرع الحوراني، نادى بقوة في تلك الأيام بالإصلاح الزراعي، وحرّض الفلاحين على الانتفاض ضد الإقطاعيين واستخلاص حقوقهم منهم بالقوة، الأمر الذي أرعب الرجعية السعودية وجعلها ترى في الشيشكلي ديكتاتوراً مناسباً لتصفية مثل تلك الدعوة البعثية الاشتراكية، ولو أدى ذلك إلى التضحية بأصدقائها غير المفيدين في تلك الأيام. يُضاف إلى هذا أن ديكتاتورية الشيشكلي كانت حينذاك تؤدي خدمة كبيرة حاسمة للسياسة السعودية الأميركية بردّ خطر التوسع الهاشمي الإنجليزي في المنطقة، بقمع أصدقاء حكام العراق والأردن في حزب الشعب وفي أوساط بعض المستقلين.

وكان الشيشكلي يقيم صداقة مع ثوار يوليو المصريين الشباب الذين كانوا، وبقوا دوماً، حذرين من الأحزاب

السياسية، فرأوا في صديقهم السوري خير مثال يؤيد خطهم في ملاحقة الأحزاب المصرية وتشتيت شملها في تلك الأيام، ويؤيد على الأخص موقفهم من رئيسهم محمد نجيب الذي كان حينذاك يعارض الاتجاهات الديكتاتورية للثورة. ولعل الكره المشهور الذي كان يكنّه هذا الرئيس المصري للزعيم سلو، فكان يردد مثلاً في كل مناسبة يلمس فيها "استبداد" الشباب أصحابه ببعض الأمور دون رأيه عبارة: "أنا لست سلو"، ذلك الكره يعود إلى أن سلو المذكور جعل من نفسه "فراشاً" لسرير ديكتاتورية أديب الشيشكلي. ولعل خير صورة في أذهان التقدميين المناضلين السوريين لعلاقات حكمي سورية ومصر، الواحد بالآخر، نجدها في الرسالة الشهيرة التي وجهها حزب البعث العربي الاشتراكي في تموز عام 1953 إلى الشيشكلي، والتي كنا ذكرنا بعض فقراتها في فصل سابق ونعيد كتابتها فيما يلي: "عبثاً يحاول حكمكم العسكري أن يعيش، إذ لا مكان في أرضنا العربية لحكم أجنبي استبدادي طائش... لقد كان انقلابكم بداية تحول في الوضع السياسي العربي، فلم يلبث أن أعقبه الانقلاب على العناصر المناضلة

في مصر، فاختنقت الحركة الشعبية العربية في بدايتها، ومُهِّدَ الجو للحكم العسكري وشبه العسكري في البلاد العربية كلها، وعاد الاستعمار يسيطر على الشعب بأسلحته وعملائه وزبانيته. والحق إن انقلابكم الأخير انقلاب أجنبي احتضنته أميركا حامية الصهيونية، ورحّبت به كل الدول الاستعمارية الأخرى. نحن نعلم ذلك، وأنتم تعلمونه، والشعب بكامله يعرف اليوم من تمثلون...".

ولم تهدأ مقاومة الديكتاتورية من قبل الجماهير المدنية والعسكرية، من اليوم الذي أطلت فيه بشؤمها على الناس. ومنذ أواخر عام 1952 كانت أصوات الجماهير بعدم الرضا ترتفع هنا وهناك في القطر السوري، كما كانت الاتصالات بين مختلف الجهات الوطنية تجري لترتيب الأمور بهدف الخلاص من الديكتاتورية المذكورة. وكنا أشرنا في فصل سابق إلى أن ابراهيم الحسيني مدير الشرطة والأمن العام أرسل إلى شريكه الديكتاتور أديب الشيشكلي الذي كان في زيارة لمصر يستعجله بالعودة إلى دمشق لخطورة الوضع فيها. وقلنا إن الحسيني قد أطَّلَعَ على أخبار تنظيم أَسَّسَهُ

المرحوم الشهيد عدنان المالكي من صديقه القديم عبد الغني قنّوت. وكان هدف هذا التنظيم الإطاحة بالحكم الديكتاتوري. وكان قد وقع أيضاً خطأً آخرٌ أدى إلى المزيد من الكشف عن هذا التنظيم. إذ قام آمر كوكبة مدرعة بمفاتحة عنصرين غير ناضجين من كوكبته بأمر التنظيم ومراميه، فوصل الخبر إلى المكتب الثاني الذي عهد إلى الملازم الأول أحمد عبد الكريم التثبت من صحة هذا الخبر باستخدام آلة تَنَصُّتٍ سجّلت محاورة دارت حول المؤامرة بين العنصرين المذكورين وقائدهما آمر الكوكبة. وجرى في النتيجة توقيف أعضاء التنظيم من مدنيين وعسكريين وفي مقدمتهم العقيد المالكي وشقيقه الأستاذ المحامي رياض المالكي، حيث جرى احتجازهم والتنكيل بهم من قبل جلاوزة الديكتاتور طوال أشهر امتدت من أواخر عام 1952 حتى أواخر تموز عام 1953.

كانت الجماهير طوال أشهر الاستعدادات، التي كان الشيشكلي يتخذها لتسلّق منصب رئاسة الجمهورية، لا تنفك تبدي اشمئزازها وسخطها من تصرفات هذا الديكتاتور

وزمرتـه. فقامت المظـاهرات وقُدِّمَتْ الاحتجاجـات التـي منهـا مثلاً مذكرة احتجـاج محـامي دمشق التـي أُرسلت إلـى الزعيم أديب الشيشكلي واستُهلّت بالعبـارة التاليـة: "الحريـة من صنـع الطبيعـة أقرتهـا شـريعة السـماء قبـل شـريعة الأرض، والـدفاع عنها حق من حقوقنـا ولـد يـوم مولـد المحامـاة. وقد ردّدتم في خطبكم وبياناتكم المذاعة على العالم كلمة الحرية أكثر من أيـة كلمة سواها. ولما كان قد مضى على توقيف زملائنا المحامين ومـنهم الأسـتاذ ريـاض المـالكي عضـو مجلـس النقابـة نَيِّـفٌ وخمسة أشهر بدون اتهـام ولا محاكمـة ولا دفـاع، ممـا يخـالف نصـوص الدسـتور والمعاهـدات والالتزامـات الدوليـة ومنهـا شـرعة حقـوق الإنسـان وسـائر القـوانين التـي كفلـت للآدميـين حـريتهم وحرّمـت حجزهـا عـن غيـر طريـق القضـاء... لـذلك نطلـب أن تـأمروا بـالإفراج عن المحـامين...". وعنـدما أُطلـق سراح الموقوفين السياسيين بمناسبة انتخاب الشيشكلي لرئاسـة الجمهورية بموجب ذلك الاستفتاء المزيف هُرِعَ النـاس للسـلام علـيهم وتهنئـتهم، فـامتلأت قاعـات الاسـتقبال فـي بيـت المـالكي مثلاً بالمهنئين الذين كان فيهم نسبة كبيـرة من العسـكريين من

جميع الرتب، فكان هذا المظهر تكذيباً لذلك الاستفتاء من جهة، وتحدياً واستخفافاً بصاحبه وزمرته من جهة أخرى.

وتصاعدت الاحتجاجات والإضرابات والمظاهرات في الربع الأخير من عام 1953، ولم تتوقف عن تصاعدها إلى أن سقط الديكتاتور في آخر شهر شباط عام 1954. ففي شهر كانون الأول قام الطلاب في حلب بمهاجمة الكلية الأميركية التي قدّمت تمثيلية تمس المشاعر القومية العربية. واستمرت المظاهرات الطلابية هناك، وحدثت اصطدامات بقوى الأمن. وآزر التجار والمحامون الطلبة وأضربوا تضامناً معهم. وامتدت الإضرابات إلى حماة وحمص ودمشق والسويداء خلال شهر كانون الثاني من عام 1954. وفي ليلة السابع والعشرين من كانون الثاني عام 1954 أُعيد اعتقال من كان قد أُطلق سراحهم في شهر تموز عام 1953 ومنهم عدنان المالكي وشقيقه رياض، واعتقل زعماء الأحزاب بالإضافة إليهم وهم: صبري العسلي ورشدي الكيخيا وعدنان الأتاسي وفيضي الأتاسي وعلي بوظو وشاكر العاص وأكرم حوراني وصلاح البيطار وميشيل عفلق وحسن الأطرش وعبد الوهاب

حومد ورزق الله أنطاكي ومنير العجلاني. ووُضِعَ هاشم الأتاسي بالإقامة الجبرية في منزله في حمص. ثم إن الديكتاتورية كانت قد نفّذت خلال الأسبوع الأخير من شهر كانون الثاني من عام 1954 مجزرة في جبل العرب، وأجبرت زعماء الجبل على الرحيل والالتجاء إلى الأردن. ولكن كل هذه التدابير لم تثنِ الحركة الوطنية العامة عن تصميمها لاقتلاع الديكتاتورية، بل إنها زادت من تصميم الجماهير على المقاومة ومجابهة تلك القبضة من الانتهازيين المتسلطين على الحكم. ففي صبيحة ليلة الاعتقالات الآنفة الذكر، يوم 28 كانون الثاني عام 1954، أصدرت الجبهة الوطنية بياناً تعلن فيه تصميمها على تصعيد المقاومة إلى أن تُقتلع الديكتاتورية وحشراتها المؤيدة لها، كما احتجت بشدة في ذات اليوم نقابتا المحامين في دمشق وحلب على الاعتقالات العشوائية.

كانت بريطانيا في تلك الأيام تعمل على تهدئة التناقض بين مصر والعراق لإعداد حلف يقوم بينهما تحت رعايتها، لعلها تظفر بالوصول إلى توازن في المنطقة بين استعمارها

والاستعمار الأميركي الطاحم، بعد أن تمكّن دَلَس من إتمام الطوق الآسيوي حول الاتحاد السوفياتي المار وصفه في الفصل السابق. أي إنها كانت في تلك الأوقات تهيئ لاجتماع سرسنك بين مصر والعراق، فكانت مثلاً تُلَيِّنُ مواقفها في مفاوضاتها مع الجانب المصري حول جلاء جيوشها عن قناة السويس. أما من جانب مصر فقد أعلنت الثورة، كما مر معنا أعلاه، حيادها بين الشرق والغرب وعزمها على إقامة تكتل عربي. فيكون إذن بالحسابات الإنجليزية الحلف العراقي المصري برعايتها وإشرافها وسيلة مثلى لبناء سد عربي ضد أميركا. فتفاهمت لذلك مع نوري السعيد ومدرسته ركيزتها في العراق للعمل على تأجيل مشاريع عبد الإله ولي عهد العراق الطامع في إقامة عرش سوري له مع الاستمرار في السعي لطرد النفوذ (الأميركي، الفرنسي) المتمثل بحكم الشيشكلي.

إن أديب الشيشكلي كان في تلك الظروف أسير السعودية مطيّة الاستعمار الأميركي، الذي يردف وراءه الاستعمار الآخر الفرنسي غريم الإنجليز. وكان أيضاً في تنظيمه الداخلي أسير نفر من الانتهازيين المدنيين والعسكريين، بنوا

له نظامه وزينوا له أعماله وشجعوا طموحاته، وبينهم من تلوثت يداه بدماء الأبرياء كمدير شرطته العسكرية عبد الحق شحادة مثلاً. ونحن إذ لا نبرئ أديب الشيشكلي شخصياً من كل الجرائم التي ارتكبتها ديكتاتوريته، إذ وقعت تحت بصره ورضي بها، بل إن واحدة منها، وهي جريمة قتل رقيب في سجن المزّة، وقعت بحضوره وهو في حالة سكر شديد، نرى مع كل هذا أيضاً ما يخالف طبع هذا الإنسان ويتجاوز مستواه الفكري في أشكال ونماذج تلك الجرائم. هنالك من كان "يرتكب له" هذه الجرائم فيسكت عنها لأنها قدر محتوم في سياق مسيرة ديكتاتوريته. إن الإذاعة التي كان يديرها أحمد عسّة مثلاً، والتي وصفها الأستاذ رياض المالكي في "ذكريات على درب الكفاح" بأنها "أصوات الشؤم المنبعثة عبر المذياع وكأنها نعيب البوم أو فحيح الأفاعي، تحاول بث سمومها في صفوف الجماهير الغاضبة الثائرة على الطغيان"، كانت لها برامج يعدّها أولئك الانتهازيون مؤلفو الأفكار بحسب الدارج الرائج. وكان هناك من رتّب له مؤسسات ديكتاتوريته بحسب ما يأمله من فوائد يجنيها منها كنزيه الحكيم وقدري القلعجي

وأضرابهما. وكانت الجرائم الأخرى، كالقتل وغيره، تُرتكب وتُفرض عليه كالقدر الذي لا يُردّ. كل هذا يذكّرنا بالسياق الجهنمي والآلية الوحشية التي تُصادف في كل مكان تفوح فيه روائح اليانكي، وتنتشر زبانية الرأسمالية الاحتكارية الأميركية وجحيم الجماهير المقهورة. فقد كانت لأميركا أيضاً سفارة في دمشق تتناعب مع السفارة السعودية والفرنسية وتُحَرِّكُ معهما الانتهاز في عناصر الحكم الديكتاتوري الشيشكلي.

وأتت الانتفاضة للخلاص النهائي من عصابة أديب الشيشكلي في صبيحة الخامس والعشرين من شباط عام 1954 عندما أعلنت حامية حلب العصيان، الذي امتد بسرعة إلى حاميات دير الزور بقيادة العقيد أمين أبي عسّاف وحمص وحماة بقيادة العقيد محمود شوكت واللاذقية بقيادة العقيد عبد الجواد رسلان وحوران بقيادة المقدم عمر قباني. وكنت حينذاك حديث العودة من بعثة في فرانسة وفي بدايات عملي لتأسيس فرع الجغرافيا العسكري المرتبط بالأركان العامة. وكانت تربطني بجميع الفئات العسكرية روابط ود وصداقات

واحتــرام متبــادل، مــع كرهــي الشــديد المشــهور عنــي للديكتاتوريات واحتقاري لكل تسلط مهما كانت دوافعه، فالتقدم الاجتماعي له كل السبل إلا سبيل التسلط الذي لا يُنتج سوى الكوارث. وعندما سمعت بلاغ حامية حلب الثائرة، وكنت أنتظره، هرعت إلى الأركان العامة فوجدتها خالية إلا من جنود الخدمات المختلفة والطوارئ، فقمت بطلب اللواء رفعت خانكان وزير الدفاع في بيته هاتفياً، فوجدته على علم بما يجري، وأخبرني أنه لن يتأخر بالوصول إلى مكتبه في الأركان العامة. وكانت لي صلات صداقة قوية معه مع احترامي ومحبتي لصفاته الممتازة من كل النواحي الوطنية والأخلاقية والمهنية، فكان والحق يقال الضابط الفارس المثال. وقمت، في انتظار وصوله، بالاتصال بمختلف قطعات الجيش حول دمشق والجبهة ومختلف المواقع السورية عدا حلب الثائرة وموقع القابون الموالي للديكتاتور كي لا أجلب الانتباه إلى الموقع الذي كنت أحتله في تلك الساعات الحرجة. فكنت أشجّع تلك القطعات وأحرّضها لتلتزم بالجماهير الوطنية، فلا تنجر وراء عصابات الديكتاتورية لشق الجيش

وجعلـه يقاتـل بعضــه بعضـاً، فـي الوقـت الـذي يتـربص بنـا الأعداء من كل جانـب. وكـان لتلك الاتصـالات أثرها فـي تلك القطعات، التي خيّل إليها أن الأركان العامـة التـي كنـت أتصل بها منها قد انتقلت إلـى جانـب الثـوار. ولكـن عواطـف جمـاهير العسكريين كانت بكل وضوح مع الانتفاضة، فكانت اتصـالاتي بقطعاتهـا مـن بنايـة الأركـان تطمينـاً لهـا وتشـجيعاً لتتخـذ هـذه القطعات الموقف المنسجم تمامـاً مـع عواطفهـا وتطلعاتهـا، فـلا تـؤثر عليهـا الشـكليات الخادعـة. وعنـد وصـول اللـواء رفعـت وزيـر الـدفاع ذهبـت لمقابلتـه فـي مكتبـه، واستوضـح منـي عـن الموقـف، فأبلغتـه باتصــالاتي وبـأن الجـيش خـرج مـن سيطرة الشيشـكلي فـي كـل أنحـاء سـورية. وقـد اتفقنـا علـى أن المهمـة العاجلـة هـي منـع حـدوث اشـتباك داخـل الجـيش يسـببه بعـض الحمقـى مـع بعـض المدسوسـين حـول الـديكتاتور، وأن خيـر وسـيلة لبلـوغ هـذه الغايـة هـي إقنـاع الشيشـكلي بالتنـازل عـن السلطة وتبصيره بالواقع على حقيقته ونصحه بمغـادرة الـبلاد. وفي أثنـاء ذلك رن الهـاتف ونـودي اللـواء رفعـت إلـى اجتمـاع عاجـل فـي بيـت رئـيس الجمهوريـة. وبقيـت أنـا فـي الأركـان

العامة حيث كان الضباط يتواردون عليها للاستفسار عن الأحوال وعن المرحلة التي وصلت إليها الأزمة، فكنت أشجعهم وأطمئنهم علناً بأن عهد الشيشكلي قد انتهى، وأطلب منهم الإسراع إلى مقراتهم ومكاتبهم للمساعدة على كبح الأمور ومنعها من أن تتجه نحو الأسوأ والالتزام برغبة الأمة بالخلاص. ومن الطبيعي أنه كان هناك أنصار لذلك العهد المشؤوم، ولكنهم أمام الرأي السائد في تلك الساعات ما كانوا ليجرؤوا أبداً على المجاهرة بعواطفهم، فكانوا يسكتون على مضض أمام تحريضي وتشجيعي على الالتزام بوحدة الجيش والأمة.

وكانت اتصالات الشيشكلي بمختلف قطعات الجيش غير مشجعة له، فقد انفض من حوله كثيرون كان يظن أنهم من مؤيديه. وكان لرأي اللواء رفعت خانكان وزير الدفاع الأثر الحاسم في النتيجة، إذ كان يبصّره بالعواقب الوخيمة للإقدام على مجابهة الانتفاضة، التي كانت تتفاقم وتتقدم كالنار في الهشيم. وفي الواقع ما كان تحت تصرفه أي احتياط يحركه لمجابهة الموقف، وذلك على عكس ما زعمه باتريك سيل من

أن الأسلحة الثقيلة كالمدفعية والدروع كانت تؤيده، وأنه "كانت لديه أكثر من فرصة للسيطرة على الحاميات الثائرة"، فالذي بيده حينذاك ما تجاوز جميهرة صغيرة من الدروع استطاعت لبعض الوقت، قبل أن تنطفئ، أن تثير التشويش في الحالة العامة العسكرية والمدنية المعادية بشدة له ولزمرته الصغيرة هذه. وفي الساعة العاشرة مساءً غادر الديكتاتور دمشق إلى بيروت مهزوماً، حيث قبع في السفارة السعودية، وأذيعت له استقالة موجهة إلى الشعب وليس إلى مجلس النواب من إذاعة دمشق. وتولى الزعيم شوكت شقير رئيس الأركان أمور البلد تحت إشراف اللواء رفعت خانكان، الذي فقد حينذاك مع ذلك صفته كوزير الدفاع بانهيار العهد بكليته: إن توجيه الاستقالة إلى الشعب وتولي رئيس الأركان أمور الدولة تبيّن بجلاء أن الشيشكلي في تلك الساعات لا يملك أي إمكان لفرض إرادته، فكان مثلاً عاجزاً عن تسليم السلطة إلى خلفه رئيس مجلس نوابه مأمون الكزبري كما ينص عليه دستوره. وكان لبقاء اللواء رفعت خانكان لإدارة الأمور

وتوجيهها باتجاه وطني في تلك الظروف الصعبة الأثر الحاسم الإيجابي في الوصول بسرعة إلى النهاية المرجوة.

وعاد الزعيم شوكت شقير إلى الأركان بعد مغادرة الشيشكلي إلى بيروت في فجر السادس والعشرين من شباط، وكنت بانتظاره لاستصدار أمر بإطلاق سراح السجناء السياسيين من عسكريين ومدنيين. وقد حاول المقدم رياض كيلاني، وهو من عتاة الرجعيين وقد رابط في الأركان العامة منذ عهد الوثنية القوتلية وطوال عهود الديكتاتورية العسكرية، هو وابن عم له كان يساعده في الدسّ بين الضباط الوطنيين والسعي في توجيه الأمور في أسوأ الاتجاهات، إلى أن اقْتَلَعْتُهُما وأَبْعَدْتُهُما عن الأركان للخلاص من شرورهما، أقول حاول المقدم رياض أن يثني الزعيم شقير عن إصدار الأمر للإفراج عن أولئك السجناء بحجة وجوب الانتظار لوضوح الأمور، فصحت به قائلاً: "ألم تتضح لك الأمور كفاية بعد أن غادر سيدك البلاد؟..". عندئذ بادر الزعيم رئيس الأركان إلى الهاتف يطلب سجني المزّة والشيخ حسن ويأمر بإطلاق سراح الموقوفين جميعاً بدون تأخير، ثم استدعى

رئيس مكتبه وأمره بتسطير برقية عاجلة للتأكيد على أمره الهاتفي. وكان النهار قد اقترب فذهبت بصحبة المقدم نبيه صبّاغ، وكان في تلك الأيام يقود الدرك السوري، إلى سجن المزّة للإشراف على تنفيذ الأمر، فوجدنا أن المقدم الكيلاني سبقنا بهاتف إلى مدير السجن يأمره بالتريث. فقلت عندئذ لهذا السجان إن رئيس الأركان قد أصدر أمره بالإفراج عن السجناء السياسيين وعليه تنفيذ أمره في الحال وعدم الإصغاء إلى أقوال المقدم الكيلاني، وهددته بسوء العاقبة. فانصاع للأمر وأخذ بإطلاق سراحهم، فبدأ بالضباط عدنان المالكي ومحمد بركات وحسن حدّة. ثم عدنا مع هؤلاء الضباط مسرعين بسيارة المقدم الصبّاغ للعمل على إيقاف التشويش الذي كان يفتعله المقدم الكيلاني وهو إلى جانب رئيس الأركان. وعند وصولنا في طريقنا إلى الأركان العامة إلى قرب ثانوية الهاشمي سمعنا طلقات نارية تصدر من جهة الأركان فتوقفنا هناك، وذهب المقدم محمد بركات والنقيب حسن حدّة لاستطلاع الأمر. وعاد هذان الضابطان بعد عشر دقائق والمقدم محمد دامي القدم من جراء إصابته برصاصة

من مصفحة كانت تقف على مدخل الأركان عندما حاول الاقتراب منها. عندئذ غيرنا اتجاهنا إلى منزل والدي في حي الجسر الأبيض، حيث قمنا بالاتصالات الضرورية، وتوجهنا في اليوم التالي عن طريق الغوطة الشرقية إلى الثنايا فحمص.

والذي جرى: إن حسين حدّة، من جماعة الشيشكلي شقيق حسن البعثي وعدوه السياسي، قام وصديقه عبد الحق شحادة رئيس الشرطة العسكرية بمحاولة انقلاب مضاد واحتلال بناية الأركان والإذاعة، وأوقفا الزعيم شوكت شقير ليذيعا باسمه بياناتهما. وكان كل ما لديهما من قوات تلك الجميهرة الصغيرة المشار إليها أعلاه وبعض عناصر الشرطة العسكرية. وقد تبيّن لي عندئذ قصد المقدم كيلاني عندما طلب تأجيل إطلاق سراح السجناء إلى أن تنجلي الأمور. لقد كان ينتظر ذلك الانقلاب المضاد الذي كان بكل تأكيد على علم به. وبنصائحه أرسل هؤلاء الانقلابيون في إثرنا مفرزة إلى سجن المزّة لمنعنا من إتمام مهمتنا وأخذ أولئك السجناء أو بعضهم رهائن عندهم. إلا أننا كنا سبقنا هذه المفرزة فلم نصادفها في طريقنا، فاكتفت بأخذ خمسة معتقلين كان قد تأخر إطلاق

سراحهم وهم: المحامون فؤاد قضماني ورزق الله أنطاكي ومحمد جيرودي ورياض المالكي والأستاذ الجامعي سامي الدروبي. ولكن تلك المفرزة أُوقِفت غير بعيدٍ عن أبواب السجن من قبل آمر سرية التسليح حينذاك الرئيس الشهم فؤاد ملاطيلي، الذي اعتقل رجال تلك المفرزة مع مصفحتهم، وأطلق سراح أولئك الرهائن وأوصلهم إلى بيوتهم بسيارة من سريته[∃] . ثم إن بقية السجناء أُطلق سراحهم في ذلك اليوم في ظروف غموض الأوضاع وخوف السجانين من المسؤولية وسوء العاقبة، وتوجه معظمهم إلى حمص التي أصبحت مقر قيادة الثورة.

وما كان صحيحاً أبداً ما شاع وأورده باتريك سيل في كتاب "الصراع على سورية" من أن الزعيم شوكت شقير قام

[∃] إن العقيد فؤاد ملاطيلي المار ذكره أعلاه هو من ضباطنا الشجعان الذين أبلوا البلاء الحسن في ميادين القتال وكل الميادين الأخرى في خدمة أمتهم. وقد كان لهذا الشهم، بالإضافة إلى ما ورد عنه أعلاه، مواقف ساعدت بجدوى كبيرة في انتصار الانتفاضة على الديكتاتورية. ففي زحمة الأحداث مثلاً أثناء الانتفاضة قام الأميركان بإرسال عميلهم ابراهيم الحسيني، الذي كان ملحقاً عسكرياً في واشنطن، ليقوم بالحلول مكان الشيشكلي بعد سقوطه، ولكن الضابط فؤاد ملاطيلي آمر سرية التسليح حينذاك قبض عليه بمبادرة خاصة منه، عندما بلغه خبر وصوله إلى دمشق، وأجبره على العودة من حيث أتى، قبل أن يتمكن من القيام بأي عمل يزيد في تعقيد الأمور. وهو الذي قام بترحيل قائدي الانقلاب المضاد رفيقي دورته حسين حدّة وعبد الحق شحادة. وكان لمؤازرته اللواء رفعت خانكان بوسائل سَريته الأثر الكبير في إنهاء الأزمة بأحسن حال. ولكنه سُرِّحَ في النهاية من الجيش مع من سُرِّحَ من رفاقه الضباط الذين ما قصّروا أبداً في خدمة وطنهم أبداً؛ (عفيف البزري).

في منتصف ليل الخامس والعشرين من شباط، في إثر مغادرة أديب الشيشكلي إلى بيروت، بزيارة سجن المزّة وأطلق سراح السجناء. ثم إن الغضب الشعبي انفجر في كل أنحاء سورية وخاصة في دمشق، حيث نزلت الجماهير بعشرات الألوف إلى الشوارع وأغرقت القوات الهزيلة لبقايا الشيشكلي لدى سماعها بالانقلاب المضاد. واستقال حمدي الصالح مدير الشرطة والأمن العام وحل مكانه المقدم طلعت عبد القادر، الذي حاول بدون جدوى الاستعانة بالأستاذ رياض المالكي، الذي كان قد وصل تواً إلى بيته بعد إطلاق سراحه من سجن المزّة، فالأستاذ المالكي نصحه بالعمل على إبعاد الفلول الشيشكلية لتتم تهدئة الجماهير. وكان رئيس مجلس النواب مأمون الكزبري قد جمع قبضة من نوابه تحت تهديد الضابطين حسين حدّة وعبد الحق شحادة وقرأ عليهم استقالة أديب الشيشكلي وأعلن نفسه خليفة له، وأذاع له الضابطان المذكوران "قراره" هذا من إذاعة دمشق، فما كان من الجماهير عند سماعها هذا الخبر إلا أن اجتاحت مجلس النواب ودار الإذاعة وبيت رئيس المجلس مأمون الكزبري

الذي حمته والدته من التمزيق. أما أحمد عسّة فقد فرّ من مكتبه في دار الإذاعة من نافذة خلفية. وكان اللواء رفعت خانكان يعمل طوال الوقت من مكتبه في الأركان العامة على إطفاء النيران، فقد أمر مثلاً أن لا تُقطع الإمدادات الروتينية، حتى بالذخائر، عن القطاعات الثائرة في الشمال، حتى تمكّن بما له من احترام لدى جميع الأطراف من تهدئة الأحوال، فأرسل الضابطين حدّة وشحادة إلى أوروبا ليلتحقا بدائرة الملحق العسكري في باريز. وفي الأول من آذار عاد الرئيس هاشم الأتاسي ليتسنّم رئاسة الجمهورية التي كان قد أُبعد عنها في أواخر عام 1951.

إن النقيبين حسين حدّة وعبد الحق شحادة طلبا إلى الشيشكلي العودة إلى دمشق عندما أقدما على محاولتهما الانقلابية المضادة، ولكن كميل شمعون الذي كان يعمل للإنجليز وخدمهم الهاشميين أبلغ السفارة السعودية التي كانت تؤوي الشيشكلي بأنه لن يسمح لهذا الديكتاتور بالعودة إلى دمشق. وكان حكام السعودية مع أسيادهم الأميركان يلحظون في تلك الأثناء ضعف وهزال أنصاره واستحالة ثباتهم أمام

الموجة العارمة التي هبت وأطاحت بنظامهم خلال يومين أو ثلاثة. وكانوا يعلمون أيضاً أن الإنجليز قد أوقفوا في تلك الأثناء محاولات خدمهم الهاشميين للاستيلاء على سورية، وذلك تقرباً منهم من مصر، كما أشرنا إليه أعلاه. لذلك كانوا، أي السعوديون والأميركان، غير متحمسين للرهان على الشيشكلي وأنصاره الهزيلين، إن لم يكونوا أيضاً من الذين نصحوا الشيشكلي بمغادرة دمشق إلى بيروت ومنها إلى السعودية. والدليل على هذا الأمر أن نقله إلى السعودية تم بشكل يشبه نقل سجين وليس بسفر رئيس دولة مخلوع، وذلك بحجة الخوف على حياته من انتقام الدروز منه. ثم إن أولئك المستعمرين الأميركان وخدمهم السعوديين كانوا يرغبون بأن تكون أيديهم طليقة للعمل في سورية في ظروفها المستجدة حينذاك، فلا يشوش على نشاطهم ذلك الديكتاتور المهزوم. وكان انقلاب الشيشكلي على السعوديين وعمله فيما بعد مع خصومهم الهاشميين للتآمر على سورية نتيجة لموقفهم هذا منه.

وبعد، كانت الإطاحة بالشيشكلي ملحمة جماهيرية رائعة، بدت فيها القوات المسلحة جزءاً لا يتجزأ وطليعة للجماهير التي جسّدت بأمواجها الكاسحة حينذاك إرادة الحرية التي طالما زيّفها الفراعنة الجدد أجراء المستعمرين. والجدير بالملاحظة والتسجيل لأحداث تلك الأيام الخالدة هو تقدم الجماهير المدنية والعسكرية للعمل في ساحات الجهاد وسبقها بمبادراتها لكل قيادة سياسية أو عسكرية وتناغم مختلف فئاتها دون أي تشويش من أي فئة منها على أخرى أثناء التقدم إلى هدفها في إيقاع الهزيمة بالديكتاتورية.

[∃] إن العقيد فؤاد ملاطيلي المار ذكره أعلاه هو من ضباطنا الشجعان الذين أبلوا البلاء الحسن في ميادين القتال وكل الميادين الأخرى في خدمة أمتهم. وقد كان لهذا الشهم، بالإضافة إلى ما ورد عنه أعلاه، مواقف ساعدت بجدوى كبيرة في انتصار الانتفاضة على الديكتاتورية. ففي زحمة الأحداث مثلاً أثناء الانتفاضة قام الأميركان بإرسال عميلهم

ابراهيم الحسيني، الذي كان ملحقاً عسكرياً في واشنطن، ليقوم بالحلول مكان الشيشكلي بعد سقوطه، ولكن الضابط فؤاد ملاطيلي آمر سرية التسليح حينذاك قبض عليه بمبادرة خاصة منه، عندما بلغه خبر وصوله إلى دمشق، وأجبره على العودة من حيث أتى، قبل أن يتمكن من القيام بأي عمل يزيد في تعقيد الأمور. وهو الذي قام بترحيل قائدي الانقلاب المضاد رفيقي دورته حسين حدّة وعبد الحق شحادة. وكان لمؤازرته اللواء رفعت خانكان بوسائل سَريته الأثر الكبير في إنهاء الأزمة بأحسن حال. ولكنه سُرِّحَ في النهاية من الجيش مع من سُرِّحَ من رفاقه الضباط الذين ما قصّروا أبداً في خدمة وطنهم أبداً؛ (عفيف البزري).

الفصل العاشر

سورية تجمّد حلف بغداد

تفسّخ الرجعية وسقوطها

دخل اليمين دمشق في الأول من آذار عام 1954 "بعراضة" ضخمة تتألف من مئات السيارات وفي مقدمتها سيارة هاشم الأتاسي، الذي عاد ليتسنّم منصب الرئاسة الأولى، الذي انقطع عنه بفترة الديكتاتورية الشيشكلية. وقد أشرنا في الفصل السابق إلى أن الثورة على تلك الديكتاتورية ألغت كل ما قام في عهدها من قوانين وتشريعات وأنظمة ومكاسب لبعض الناس، واعتبرت ذلك العهد كأنه لم يكن. ولكن تلك المظاهرة ما أخذت الشكل الجماهيري القومي الذي كان بالإمكان قيامه بسهولة في تلك الظروف التي غمرت الناس بالسعادة لخلاصهم من تلك الديكتاتورية الذميمة، وإنما أخذت شكل الانتصار المزيف لليمين المذكور، الذي أراد حينذاك أن ينكر الدور الحاسم للجماهير بكل فئاتها المدنية والعسكرية في تحقيق ذلك الانتصار، وأن ينتحل هذا الدور

ويدّعيه لنفسه حصراً. فاستُدعِيَ المجلس النيابي القديم الذي حلّه الشيشكلي، وقام حلف بين حزبي الشعب والوطني، وكُلِّفَ صبري العسلي، زعيم الحزب الوطني، بتشكيل الوزارة من الحزبين المذكورين مع بعض المستقلين الذين لا يختلفون كثيراً بلونهم السياسي عن بقية زملائهم المتحزبين اليمينيين. وقد أُطلق على هذه الوزارة اسم "وزارة المائة يوم"، وكانت على الشكل التالي: صبري العسلي من الحزب الوطني للرئاسة، فاخر الكيّالي من الحزب الوطني للاقتصاد، محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل) من الحزب الوطني للصحة، عفيف الصلح من الحزب الوطني وزير دولة، معروف دواليبي من حزب الشعب للدفاع، فيضي الأتاسي من حزب الشعب للخارجية، علي بوظو من حزب الشعب للداخلية، رشاد جبري من حزب الشعب للأشغال، حسن الأطرش مستقل للزراعة، عزّت الصقّال مستقل للعدلية، عبد الرحمن العظم مستقل للمالية، منير العجلاني مستقل للمعارف. ووقف اليمين بهذه التشكيلة ضد اليسار والوسط، أي ضد الأكثرية الساحقة من الشعب السوري، بالإضافة إلى تحديه للجيش

بإسناد وزارة الدفاع إلى الشيخ معروف الدواليبي المكروه جداً في أوساط العسكريين.

كانت تلك الأيام التي عاشها الشعب السوري شبيهة بأيام الخلاص من الاحتلال الأجنبي، عندما سجّل هذا الشعب نصره العظيم على المستعمرين وحقق جلاءهم عن أرض الوطن. وبرزت في تلك الأيام البشائر الأولى للامتزاج الطبيعي لجميع الفئات الوطنية من كل الألوان المدنية والعسكرية، وذلك نتيجة للظروف التي قامت فيها كل هذه الفئات بتشكيل كتلة جماهيرية واحدة (مدنية - عسكرية) تمكنت بتلاحمها من الإطاحة بالديكتاتورية، الأمر الذي لم يستوعبه حينذاك ذلك اليمين الذي قام بتلك العراضة الآنفة الذكر، فغاب عن إدراكه وانطلق في طريق الضياع. لقد قامت حينذاك أولى البشائر لبروز تلك الجزيرة الخضراء للحرية في خضم ذلك العالم الذي ملأه المستعمرون الأميركان وأتباعهم بالجور والفساد، لبروز سورية المكافحة من أجل الحرية ببطولة انتزعت عجب وإعجاب العالم. وعاد اليمين إلى لعبته القديمة محاولاً تحويل الجيش إلى مجرد آلة بيد

وثنية شبيهة بتلك التي نشأت في العهد الأول لشكري القوتلي، وذلك انطلاقاً من ذلك الادعاء بأنه هو الذي أطاح بالديكتاتورية كما أطاحت قيادة القوتلي بالاحتلال الأجنبي. وقد جرت الأحداث على الشكل التالي، مع وجوب ملاحظة أن مدرسة نوري السعيد في بغداد مع الإنجليز كانوا جميعاً في تلك الأثناء منهمكين بمحاولات احتواء مصر بضمها إلى حلف استعماري تتزعمه بريطانيا كحلف بغداد مثلاً، وقد جرى اجتماع سرسنك في شهر آب عام 1954 كما مر معنا في الفصل السابق في سياق تلك المحاولات:

أولاً: قرر حزبا الوطني والشعب في بادئ الأمر أن تعمل وزارة المائة يوم الآنفة الذكر على الاستعانة بالعراق لضرب القوى المعارضة بدءاً من مؤيديها في الجيش. وقد أرسلت الحكومة العراقية من جانبها فاضل الجمالي إلى لبنان لمراقبة الأوضاع في سورية عن كثب في تاريخ غير بعيد من انهيار ديكتاتورية الشيشكلي. وفاضل الجمالي هذا، الذي انهمك طويلاً في التآمر على سورية، وعلى الحرية والتقدم في العالم أيضاً، ابتدأ مسيرته في الحياة من وكيل معلم في

المدارس الابتدائية براتب دون الأربعة دنانير ووصل إلى منصب رئيس وزراء العراق، وهو يتلون في مسيرته تلك بألوان الاستعمار المهيمن في المنطقة وفي العالم. فكان مثلاً عميلاً للنازية ولمندوبها في العراق السفير الهر كروبا قبل الحرب العالمية الثانية. وبعد فشل ثورة الكيلاني وسيطرة الإنجليز في المنطقة انضم إلى مدرسة نوري السعيد. ثم انتقل إلى خدمة أميركا فأصبح مع شارل مالك أحد أبواقها الجعجاعة على منابر الأمم المتحدة. ولننظر إلى المستمسكات التالية التي عُرضت في محكمة الشعب المنعقدة في بغداد في جلسة 24 أيلول عام 1958 لنتبين خط محاولات الحزبين المذكورين للاستعانة بالرجعية العراقية أثناء فترة المائة يوم لوزارة صبري العسلي الآنفة الذكر:

- برقية فاضل الجمالي من بيروت إلى الاستخبارات العسكرية البغدادية تحت رقم 57 وتاريخ 1954/4/28: "اجتمعت بالقوميين السوريين وعلمنا منهم بأن سورية مقدمة على أحداث قد تكون خطيرة في الأسابيع القليلة القادمة. إنهم مستعدون للسير بتوجيهات العراق. أقترح

استقدام المقدم غسان جديد ليحضر إلى بغداد لمواجهة فخامتكم بصحبة ملحقنا العسكري صالح مهدي".

ورداً على سؤال رئيس المحكمة في جلستها الآنفة الذكر قال المتهم فاضل الجمالي: "اجتمعت بنفس الوقت مع ميشيل عفلق وجلال السيد ومع جهات أخرى مختلفة".

- أبرقت الخارجية العراقية إلى سفارتها في بيروت تحت رقم 49 وتاريخ 1954/5/20 بما يلي: "يسافر فخامة الدكتور الجمالي بالطائرة العراقية الأحد 23 الجاري. يُرجى حجز محل لفخامته في نادي الخريجين بقصد التداوي وإجراء الفحوص في مستشفى الجامعة الأميركية".

- أبرق رئيس وزراء العراق أرشد العمري إلى القائم بالأعمال في بيروت ببرقية تحت رقم 53 وتاريخ 1954/5/27 وقال: "أرجو زيارة فخامة الجمالي في المستشفى للاستفسار عن صحته وإعلامنا نتيجة الفحوص الطبية وحالته الصحية وإخبار فخامته عن أن الحالة هنا مريحة وطبيعية".

- أجاب الجمالي على البرقية السابقة ببرقية موجهة إلى الخارجية العراقية تحت رقم 97 وتاريخ 1954/5/30 وقال: "زارني عدد من الشخصيات السورية في المستشفى كنتيجة للمداولات. وقد يصل وفد إلى الجبل لاجتماع خاص ويقدّمون اقتراحات للاتحاد مع الحكومة العراقية. نظراً لضعف حالتي الصحية أتمنى لو أمكن إقناع صالح جبر للحضور أيام العيد إلى لبنان للتعاون في الأمر".

- رد رئيس وزراء العراق على برقية الجمالي السابقة رقم 97 بالبرقيتين التاليتين: رقم 60 وتاريخ 1954/6/2، ورقم 61 وتاريخ 1954/6/7. ونقرأ في البرقية الأولى ما يلي: "بالنظر لانشغال فخامة صالح جبر فلا يسعه مع الأسف المجيء. معالي أحمد مختار بابان سيتوجه لطرفكم غداً الخميس بالطائرة العراقية الساعة الثانية والنصف وهو مخوّل عوضاً عن فخامة صالح جبر. يرجى الإيعاز باستقباله في المطار وحجز محل له في الأمباسدور في بحمدون ودفع جميع ما يقتضي له من سكنى ونثريات وغيرها وتخصيص سيارة لمعاليه. غادر صاحب الجلالة إلى

سرسنك مع رئيس الوزراء". ونقرأ في البرقية الثانية: "يرجى تنويرنا عن نتيجة المداولات التي نوّهتم عنها ببرقيتكم المرقمة 97 بكتاب يرسل بالبريد السياسي وإخبارنا عن صحتكم وموعد عودتكم". وكان الجمالي قد أخبر بالتفصيل عن هذه المداولات المطلوبة بالكتاب التالي المؤرخ في 30 مايس 1954 والمرسل بالبريد الدبلوماسي، حيث نقرأ التالي في هذا الكتاب الذي نورده حرفياً (مع ما فيه من أخطاء):

"فخامة الأخ أبا عصام (أرشد العمري)

تحيات وأشواق قلبية وبعد. فإنني أفكر في مهامكم الشاقة دائماً وأسأله تعالى أن يوفقكم لخير البلاد. أبرقت عن إمكان اجتماعي بوفد من سوريا. جاءني أمس مساء بصورة مكتومة السادة صبري العسلي رئيس الوزراء وعبد الرحمن العظم وزير المالية وعدنان الأتاسي وحسني البرازي واجتمعنا إلى منتصف الليل. استعرضنا فيه الأوضاع الحاضرة في سوريا والاتحاد بين سوريا والعراق وما يلابسه من مشاكل ويقف في الطريق من عقبات وطرق التغلب عليها.

1- إن الأوضاع الحاضرة في سوريا قلقة بسبب عدم ضبط الجيش وانتسابه إلى خمسة أحزاب على الأقل. ومع أن هذا الوضع لا يعطي السعوديين مجالاً للعمل الفوري إلا أنه خطر على كل حال. والسؤال المهم هو هل العراق مستعد أن يبعث بقوة (عسكرية) إذا قام قسم من الجيش (السوري) بالعصيان وذلك بعد أن يُطلب رسمياً وبصورة سرّية من الآن تدخّل العراق فيما إذا حدث انقلاب في الجيش.

لا شك أن الاحتمال هذا يكون بعيداً فيما إذا كتّلت الحكومة السورية موالين من الجيش وإغراء البعض منهم بالدراهم. إن الكل مجمعون على أن دخول الجيش العراقي سواء لقمع حركة عصيان أو لمجابهة تحرش إسرائيلي هو أكبر ضمان للاتحاد.

2- إن استعراض عملية الاتحاد بصورة عامة تتطلب التفاهم مع الدولتين الغربيتين الكبيرتين أمريكا وإنكلترا وقد وعدت أن أقوم بذلك. أما فرنسا فلا يؤمل أن توافق ولا السعوديون ولا إسرائيل. ثم موافقة الحكومة العراقية والرأي العام العراقي. أما الرأي العام السوري فسهل موافقته. فمع أن

رجال السياسة أكثرهم من دعاة الاتحاد إلا أنهم يخشون التظاهر بذلك. فإذا رأوا حكومة سوريا تندفع بالأمر فلا بد من سيرهم جميعاً معها دون أكثرية على الأقل.

3- لقد تم الاتفاق على أن يُعِدَّ عدنان الأتاسي مشروع اتحاد يقدمه لنا بعد أسبوعين. وإني أرى أن يقوم السادة عبد الله بكر ويوسف الكيلاني يساعدهم عبد المجيد عباس أو عبد الكريم الأزري بإعداد مشروع مقابل.

4- إن العنصرين المتحمسين كثيراً للاتحاد هما السادة صبري العسلي وحسني البرازي. وقد تم الاتفاق على تشكيل لجنة سرّية من الشخصيات البارزة الممثلة لتعقيب الأمر.

5- إن كل من السيدين صبري العسلي والبرازي ينتظران وضع العراق المبالغ اللازمة تحت تصرفهم للأمور التالية:

أ- السيطرة على الجيش.

ب- التمهيد لانتخابات المجلس الجديد.

ج- السيطرة على الرأي العام.

كنت قد أبرقت طالباً خمسة آلاف دينار مبدئياً للسيد حسني البرازي. هذا مجمل للوضع وهناك تفاصيل لا مجال لذكرها. وإني أرى أن الأمر يتطلب زماناً وجهوداً مستمرة ولكنه في نظري يستحق كل اهتمام لأنه الحجر الأساسي في إعادة اعتبار العالم العربي وإنقاذ كرامة العرب.

يصلكم الملحق العسكري العقيد صالح مهدي أرجو أن تزودوني معه بما لديكم من آراء وهو يشرح لكم الوضع جيداً.

التوقيع

: فاضل الجمالي"

ثانياً: قلنا إن الإنجليز مع مدرسة نوري السعيد كانوا جميعاً في تلك الأيام يقومون بمحاولات لاحتواء مصر وضمها إلى حلف تتزعمه بريطانيا، وقلنا إن هذه الجهة الاستعمارية كانت تحرص على أن لا تثير الحكم في مصر بالتدخّل علناً في الشؤون السورية بالتآمر المفضوح أو بالتدخّل العسكري العراقي، مع العلم أن تغيّراً في الحكم في سورية، يلائم مخططات الإنجليز دون أن تبرز فيه بوضوح

آثار تدخّل خدمهم أصحاب مدرسة نوري السعيد، يبقى موضع ترحيبهم، فهو على كل حال مفيد في حرمان مصر من سند عربي قوي في موقفها ضد الأحلاف الاستعمارية. لذلك كانت تجري، في أثناء مساعي الجمالي الآنفة الذكر في لبنان، أمور تختلف تماماً عن هذه المساعي بغفلة عن قادة حزبي الشعب والوطني. فالحكومة العراقية كانت تتصل بالشيخ معروف الدواليبي سراً، وهو وإن كان من حزب الشعب فإنه ذو طبيعة ضعيفة الالتزام. وقد أرسل إليه العراقيون المقدّم المسرّح محمد صفا الذي يشبهه بغرابة أفكاره المتحدرة من القرون الوسطى. وكان هذا الضابط في العراق أيام الديكتاتورية على رأس تنظيم سوري يناوئ الشيشكلي، كما شكّل هناك ما دعاه "حكومة سورية الحرة". وما كان بعد سقوط الشيشكلي ملاحقاً من السلطات السورية الجديدة، وكان بإمكانه العودة إلى وطنه دون أي عائق. ولكنه، زيادة في "التخفي"، فضّل أن يدخل دمشق بسيارة وزير الدفاع الشيخ معروف، وأن يختبئ في بيت ضابط صديق له هو المقدّم فريد السيد درويش. ثم إنه أخذ يستدعي ضباطاً

متقاعدين وفي الخدمة ويعرض عليهم "العمل على تنظيف الجيش من المشاغبين"، وذلك بالقبض عليهم وتخديرهم وحملهم بعد ذلك في أكياس خيش إلى الصحراء السورية (إلى الحمّاد) ورميهم هناك. وما كانت عين أمن الجيش غافلة عنه منذ وصوله بسيارة وزير الدفاع من بيروت إلى دمشق، بالإضافة إلى أنه ارتكب حماقة كبيرة باستدعائه المقدّم بشير صادق، وهو البعثي القديم، وعرضه عليه مشروعه الآنف الذكر. فقُبِض عليه في النتيجة وأُلقي في غياهب السجن في 5 حزيران 1954. وقد دب الرعب في قلب الدواليبي وخشي افتضاح دوره في تلك المؤامرة، وانتظر قيام أزمة تودي بذلك الحكم اليميني وبقادته. وسعى إلى عقد اجتماع لمجلس الوزراء حيث طرح موضوع توقيف المقدّم محمد صفا بشكل غير صحيح يوهم مستمعيه بأن الجيش يدبّر في تلك الليلة انقلاباً يطيح بالحكومة وينصح الوزراء بعدم المبيت في بيوتهم فيها. ولكن الوزير عفيف الصلح الذي له خؤولة في عائلة المالكي دبّر اجتماعاً ضم رئيس الوزراء صبري العسلي وقريبه وجاره العقيد عدنان المالكي مساء السادس من

حزيران عام 1954. فتبين للعسلي أن التآمر ما كان من قبل الجيش وإنما من قبل وزير الدفاع معروف الدواليبي المدفوع من قبل العراق. وقد جرى حديث طويل بهذه المناسبة بين المرحوم الشهيد عدنان المالكي وبين العسلي اقتنع فيه الأخير بوجوب قيام وزارة حيادية للإشراف على الانتخابات المقبلة بدلاً من وزارته القائمة حينذاك التي يهيمن عليها حزب الشعب الذي لا يُؤْمَنُ جانبه بعد أن "استقل أحد قادته معروف الدواليبي بالتآمر بغفلة من شركائه في الحكم من الحزب الوطني". ولكن صبري العسلي ذهب مع ذلك في اليوم التالي ليجتمع مرة أخرى، هو وصديقه العضو في الحزب الوطني ميخائيل ليان، بالجمالي في برمانا في مساء السابع من حزيران عام 1954، وذلك لمعاتبة الجانب العراقي على اتصاله بالدواليبي بغفلة منه. وعاد إلى دمشق في اليوم التالي ليقدّم استقالة حكومته إلى رئيس الجمهورية ويرشّح الأستاذ سعيد الغزّي لتشكيل الوزارة الحيادية التي ستشرف على الانتخابات التالية. وقد قدّم الجمالي إلى مرجعه في بغداد

التقرير التالي حول ما دار في ذلك الاجتماع الأخير مع العسلي:

"أوتيل الجبل الأخضر ـ برمانه

في 1954/6/9

فخامة الأخ الأعز أبا عصام (أرشد العمري)

أشواق واحترامات

وبعد، فقد اجتمع عندي ليلة الاثنين 1954/6/8 السيد صبري العسلي رئيس وزراء سوريا ومعه السيد ميخائيل ليان بحضور أحمد مختار بابان باشا ودام الاجتماع إلى الواحدة ليلاً وها أنا ألخّص لفخامتكم الظروف عل الوجه التالي:

1. الجيش السوري هو مصدر عدم الاستقرار وضعف الحكومة الزائد يجعله سيد الموقف.
2. الجيش السوري فيه عناصر تخشى الاتحاد وتفهم منه أن العراق سيجرّد الضباط من سلطانهم.

3. الوزارة السورية الحالية ضعيفة وغير متجانسة ويُؤْمَل تقويتها قبل الانتخابات إذا لم يحدث ما لم يكن في الحسبان.

4. السعوديون يدبرون خطة لإحداث الانقلاب والمجيء بشكري القوتلي إلى سوريا.

5. صبري العسلي ينتقد سياسة الحكومة العراقية في الماضي باعتمادها على حزب الشعب. ثم إنه انتقد اعتماد العراق على الشيخ معروف الدواليبي وعلى غيره من الشخصيات. ومن رأيه أن العراق إذا كان جاداً فيجب أن يعتمده هو ومعه ميخائيل ليان وأن في إيمانه بالاتحاد وإخلاصه له خير ضمان. ومع ذلك فهو لا يضمن النجاح فوراً ولكنه سيكرس حياته وجهوده لتحقيق أهدافه القومية وأنه وإن كانت العلاقة بينه وبين القوتلي طيبة إلا أنه لا يتفق معه على السياسة السعودية وموضوع الاتحاد الذي سيبقى يناضل في سبيله. وقد استعرضنا إمكان إرسال جيش عراقي فلم نجد إمكاناً لذلك فلا توجد اتفاقية بين سورية والعراق لمجيء الجيش العراقي لحفظ النظام الداخلي ولا توجد أكثرية وزارية

تجرأ على القيام بهذه الاتفاقية حتى ولو كانت سرّية. كما إن الأتاسي رئيس الجمهورية بدوره يتخوف من توقيع طلب بذلك. ولا توجد إمكانية في الوقت الحاضر لتبادل الجيشين العراقي والسوري لغرض التدريب والمناورات لأن الجيش السوري لا يطمئن لذلك ولا يمكن استغلال العدوان الإسرائيلي على سوريا لأن ذلك قد يؤدي إلى صراع دولي يكون الغلبة فيه لإسرائيل ولذلك فإرسال جيش عراقي لحماية سورية من إسرائيل يجب أن ينتظر اعتداء إسرائيلي خطيراً ومع كل هذا فالجماعة يتركون الأمر لنا إن وجدنا طريقاً لإرسال الجيش فذلك أفضل الوسائل وأسرعها لإنجاز الاتحاد. إذا لا يمكن إرسال جيش عراقي فيجب العمل على كسب الجيش السوري وتكتيله إلى جانب الحكومة وهذا يتوقع السيد صبري العسلي مساعدات مالية ثم لا بد من القيام بحملة انتخابية اتحادية لكسب الموقف بالأصول البرلماني. يرى السيد صبري العسلي ضرورة الاعتماد عليه وحده وعدم القيام ببعثرة الدراهم والجهود هنا وهناك. إننا نؤيد الاعتماد على صبري العسلي وجعله مركز الثقل للحركة ولا يمنع هذا

الاتصال بالآخرين على شرط أن يتم التناسق في العمل ويطّلع صبري على ما نقوم به من جهود.

قبل إنهاء الجلسة قلت لصبري أريد أن يكون واضحاً ماذا نقصد بالاتحاد؟ فقال الاتحاد في الشؤون العسكرية والسياسية والاقتصادية. قلت ولكن المهم لدينا رئاسة الاتحاد فنحن لا يسعنا دخول الاتحاد ليس ملك العراق رئيسه وإذ ذاك يصبح القلق الذي يساور سوريا بسبب نظامها الجمهوري يؤثر على مصير العراق أيضاً وفي هذا ضرر بليغ ما فوقه ضرر على المصلحة العربية ووافق على أن يكون ملك العراق رئيساً للاتحاد.

أنهى معالي السيد بابان الجلسة بقوله نحن يهمنا تقوية الحكومة القائمة في سوريا ودعم العسلي بكل طريقة ممكنة ولذلك فعلى العسلي أن يتقدم بطلباته واقتراحاته ونحن دوماً مستعدين لإنجاز ما نستطيع إنجازه.

فاضل

الجمالي"

كان من نتيجة تلك المحاولة الفردية التي قام بها الشيخ معروف الدواليبي مزيد من التشرذم في اليمين السوري. فانحلت كما نرى وزارة العسلي المؤلفة من حزبي اليمين: الشعب والوطني ومن بعض المستقلين اليمينيين. وتبع هذا فيما بعد انقسام الحزب الوطني واقتراب أحد قسميه بزعامة العسلي من الوسط واليسار، بينما ناصب القسم الآخر العداء الحركة التقدمية الوطنية، وكان ميخائيل ليان من أبرز زعمائه الممعنين في التآمر على حرية وطنه السوري. وانعزل نهائياً حزب الشعب وسار نحو الاضمحلال، في الوقت الذي ظهرت فيه بوادر قيام الجبهة الوطنية التي مثّلت بأقرب شكل ممكن الاتجاه الواقعي للجماهير السورية حينذاك في مقاومة المستعمرين ومشاريعهم، وفي تقدم سورية في مختلف المجالات المادية والروحية، وفي مجال النضال القومي على الأخص لاسترداد فلسطين واستكمال تحرر الوطن العربي وتحقيق وحدته. وكان حرياً بقادة حزب الشعب أن يبادروا إلى محاسبة الدواليبي على تصرفه الأرعن السخيف الموصوف أعلاه، على انفراده عن رفاقه وقيامه بذلك العمل المشين

واستغفاله لهم، إذن لكانوا بهذا قد عبّروا بصدق عن تطلعات جماهير حزبهم المؤمنة كغيرها من الجماهير السورية بأهداف وطنها، نقول لقد كان حرياً بتلك القيادات أن تحاسب ذلك الانتهازي حساباً عسيراً، وهي لو فعلت ذلك لما زادت في زخم ملايين الجماهير السورية المقاومة للمستعمرين حينذاك سوى أصوات بضع عشرات من الأفراد.

الجماهير تتجاوز الأحزاب:

كُلِّف المرحوم سعيد الغزّي بتشكيل الوزارة الانتقالية لإجراء الانتخابات فور استقالة صبري العسلي في الثامن من حزيران عام 1954. والغزّي من عائلة دمشقية اشتهرت بالعلم. وكان منها فوزي الغزّي أحد أقطاب الكتلة الوطنية في برلمان 1928، الذي اضطر الانتداب الفرنسي إلى دعوته في أعقاب الثورة السورية الكبرى، فأنشأ أول دستور للجمهورية السورية. وكان سعيد الغزّي محامياً مشهوراً بعلمه واستقامته ولين جانبه. وقد ألّف الوزارة الانتقالية في التاسع من حزيران عام 1954 على الشكل التالي: سعيد الغزّي للرئاسة والدفاع، أسعد الكوراني للعدلية والاقتصاد، نهاد

القاسم للمعارف والزراعة، عزّة الصقّال للمالية والخارجية، اسماعيل قولي للداخلية، نبيه الغزّي للأشغال العامة والمواصلات والصحة. وعينت هذه الوزارة تاريخ العشرين من آب عام 1954 موعداً للانتخابات النيابية، واتخذت كل الإجراءات الضرورية لضمان نزاهتها: كالاقتراع السرّي وإجراء تنقلات بين الموظفين المسؤولين في عمليات الاقتراع وغيره. وقد انزعج الحزبان الوطني والشعب من هذه الإجراءات فأعلنا إضرابهما عن خوض تلك الانتخابات في 19 تموز عام 1954. عندئذ قرر الغزّي تأجيل موعد الاقتراع من 20 آب إلى 24 أيلول لإثبات نية الحكومة بالحياد التام ولإعطاء الحزبين المذكورين مهلة كافية للتفكير والرجوع عن إضرابهما. وعاد الحزبان بالفعل وقررا خوض معركة الاقتراع في التاريخ النهائي المحدد لها. وكانت النتيجة فوز المستقلين بـ 64 مقعداً، من العدد الكلي لأعضاء المجلس البالغ 142، وفوز حزب الشعب بـ 30 مقعداً، وحزب البعث بـ 17 مقعداً مع خمس مؤيدين غير بعثيين، والحزب الوطني بـ 19 مقعداً، وفاز بمقعدين كل من الحزب السوري القومي

والاشتراكي التعاوني وحركة التحرير العربي، وحاز الحزب الشيوعي على مقعد واحد. ونجد بالمقارنة مع مجلس عام 1949 أن نسبة تمثيل الأحزاب الرئيسية تغيرت بالشكل التالي: هبطت نسبة تمثيل حزب الشعب من 38% إلى 21%، وارتفعت نسبة تمثيل الحزب الوطني من 11% إلى 13%، كما ارتفعت نسبة تمثيل حزب البعث من أقل من واحد بالمائة إلى 15%، ودخل المجلس لأول مرة ممثل للحزب الشيوعي هو أمينه العام الرفيق خالد بكداش.

وشهد الناس جميعاً بنزاهة هذه الانتخابات ولم يجرؤ أحد، أجنبياً كان أو عربياً أو سورياً، على تجريحها. ومما يُؤْثَرُ أن تجار دمشق كانوا يقولون: "نريد حمل خالد العظم وخالد بكداش معاً إلى البرلمان ليراقب هذان الضدان الواحد منهما الآخر هناك". وقد نال بالفعل كل من هذين المرشحين عدداً ضخماً غير اعتيادي من أصوات مدينة دمشق تجاوز الأربعين ألف صوت، فكان لكل منهما على العموم ذات الناخبين المؤيدين. أما في العاصمة السورية الثانية حلب فقد نال الدكتور عبد الوهاب حومد، وهو من حزب الشعب، عدداً

كبيراً من الأصوات يعادل ضعف ما ناله رشدي الكيخيا قائد حزبه، ويتجاوز ما ناله كل زعيم آخر لهذا الحزب في تلك المدينة حلب معقل الشعبيين. والدكتور عبد الوهاب حومد من عائلة متوسطة ومن حي فقير من أحياء حلب، مشهور بوطنيته وميوله الجمهورية واليسارية وباستقامته وعلمه. ونجحت قائمة الحوراني بكليتها في حماة. ونجد في النتيجة أن التأثير الحاسم في توجيه هذه الانتخابات كان لإرادة الجماهير السورية، التي نشأت وارتقت عبر سلسلة طويلة من حضارات الجهاد في سبيل رفع الظلم ودفع البغي عن بني الإنسان، وليس لخطط وترتيبات وحملات الدعاية للأحزاب المختلفة التي خاضت تلك المعركة الانتخابية. ويقول باتريك سيل، الكاتب الإنجليزي، في مؤلفه "الصراع على سورية"، معلقاً على نتائج الانتخابات ما يلي: "..أما الرأي العام الأميركي فقد تعامى عن كل شيء ما عدا نجاح خالد بكداش، إذ أعلنت صحيفة النيوزويك على سبيل المثال في عددها الصادر في تشرين الأول بأن سورية قد أصبحت الزعيمة الشيوعية في العالم العربي..". انتهت أقوال باتريك سيل.

والـرأي العـام الأميركـي الـوارد ذكـره فـي هـذه العبـارة هـو بطبيعـة الحـال بمفهوم هذا الكاتـب رأي المخـابرات الأميركيـة وقادة الاستعمار العالمي الرأسماليين الاحتكاريين، ولـيس رأي الأميركـي العـادي المسـحوق مادياً وفكريـاً بأثقـال نظـام أمتـه الذي يقوده أولئك المستعمرون. ولكـن هـذه الكلمـة تنبئنـا علـى كـل حـال عـن المشـاعر الحقيقيـة للأوسـاط الاسـتعمارية، التـي "رمز" إليها باتريك سيل بتعبير "الرأي العام الأميركي"، تجاه خروج الجماهير السورية من "الأقفـاص"، بحيـث نجـد التـاجر اليمينـي الدمشـقي مـثلاً ينتخـب بحمـاس أمـين عـام الحـزب الشـيوعي الـذي يمثـل بنظـره حينـذاك قمـة مقاومـة الأميـركيين متزعمـي الاسـتعمار والقهـر فـي العـالم. لقـد أعلـن علينـا إذن الاستعمار الأميركـي الحـرب كأمـة مجاهدة فـي تلـك اللحظـات التاريخية، وقرر السعي إلـى تدميرنا بكل وسيلة كشـعب عدو وليس كنظام عدو، فقالـت صـحافته تلـك الجملـة المعبـرة الآنفـة الـذكر: "إن سـورية أصـبحت الزعيمـة الشـيوعية فـي العـالم العربـي"، الجملــة التــي تُتَـرْجَمُ باللغــة المفهومــة بمــا يلــي: "أصــبحت ســورية العــدوة اللــدودة للمصــالح الرأســمالية

الاحتكارية في العالم العربي". وفي الواقع فإن السفير الأميركي في دمشق هرع إلى مقابلة رئيس الوزراء المرحوم سعيد الغزّي، عندما بلغه خبر تقدم الرفيق خالد بكداش بترشيح نفسه، وطلب إليه بالصفاقة المعهودة للدبلوماسيين الأميركان أن يرد هذا الترشيح ويمنعه، فرفض الرئيس الغزّي "بنعومة الدمشقي المتعالية"، التي لا يفهمها في العادة قتلة الهنود الحمر غليظي الأكباد، تنفيذ ذلك "الأمر" الأميركي، فأصبح لرفضه هذا شيوعياً أيضاً بنظر ذلك "السفير".

وقدّم المرحوم سعيد الغزّي استقالة حكومته الانتقالية في 14 تشرين أول عام 1954 بعد إنجاز الانتخابات النيابية. عندئذ كلف الرئيس هاشم الأتاسي نائب دمشق المستقل خالد العظم بتأليف الوزارة. وكان القصد من هذا التكليف في الواقع مجرد تجربة توخاها حزب الشعب لمعرفة الاتجاهات العامة في المجلس النيابي الجديد الذي لم تتبلور بعد التكتلات النيابية فيه وتحالفاتها، وإن كانت وحدة الجماهير متبلورة بطبيعة الحال في مقاومة مؤامرات المستعمرين وأحلافهم، هذه

الوحدة التي أتت كما رأينا أعلاه بهذا المجلس بالذات: إن تكتلي كل من حزبي الشعب والبعث كانا معروفين وواضحين منذ البداية، ولكن مؤيدي العظم مثلاً، وهم حوالي الثلاثين نائباً مستقلاً أتوا من هنا وهناك وكانوا يسمّون كتلتهم "الكتلة الديموقراطية"، نقول إن هؤلاء المؤيدين ما كانت لهم كتلة متبلورة في البدء بحيث تضم عدداً مؤكداً من النواب في ظروف يكفي فيها نائب أو نائبان لتقرير مصير الوزارة. وكانت هناك أيضاً كتلة نواب العشائر المشكّلة من حوالي اثني عشر نائباً، وهناك كتلة المستقلين الذين يشكّلون حوالي الثلاثين نائباً فيهم الدكتور مأمون الكزبري ورفاقه من بقايا حركة التحرير التي تألفت في عهد الشيشكلي، وكتلة الدكتور منير العجلاني وغيرهم. أما الحزب الوطني فكان حينذاك يتمخض عن انقسام وتشرذم تتعدد فيه الاتجاهات والولاءات. كل هذا أدى إلى إخفاق العظم في تشكيل الوزارة فاعتذر وانسحب. وكانت هذه هي النتيجة التي ينتظرها الشعبيون، فأسرعوا بدفع راعيهم الرئيس هاشم الأتاسي إلى أن يستدعي فارس الخوري، الغني عن التعريف كرمز كبير بعلمه

وماضيه الوطني وسنّه المتقدم، لتغطية وزارة يمينية تعمل على ضعضعة وشل الحملة العربية التي كانت حكومة الثورة المصرية تتزعمها ضد حلف بغداد الذي كانت تدبره بريطانيا حينذاك. ففي تلك الأيام بالذات كان نوري السعيد، الذي لم يتمكن من إقناع رجال ثورة يوليو بالانضمام إليه للعمل على جر العرب إلى حلف مع الغرب أثناء اجتماعه بهم في القاهرة، يتشاور مع البريطانيين في لندن ويضع معهم أسس حلف بغداد. وقد مر معنا خبر ذلك في فصل سابق من دراستنا هذه. ورأينا أيضاً أن مندريس رئيس وزراء تركيا ذهب إلى بغداد في 13 كانون الثاني عام 1955، حيث أصدر مع نوري السعيد بياناً مشتركاً يعلنان فيه عن عزمهما على إقامة حلف بغداد الذي تم التوقيع عليه نهائياً في 24 شباط عام 1955.

ودعت الحكومة المصرية رؤساء الحكومات العربية في 22 كانون الثاني عام 1955 لعقد مؤتمر في القاهرة لدراسة ذلك الأمر الخطير الذي انفردت بالإقدام عليه حكومة العراق. وكان قصد حكومة الثورة المصرية محاصرة الحلف الآنف

الذكر ومنع امتداده إلى بقية الدول العربية في حال إصرار مدرسة نوري السعيد في المضي إلى التوقيع على ميثاقه مع الأتراك، الأمر الذي اتضح سلفاً حينذاك بعدم تلبية رئيس وزراء العراق المذكور الدعوة لحضور مؤتمر القاهرة وإرساله فاضل الجمالي بدلاً عنه. وذهب فارس الخوري مع وزير خارجيته فيضي الأتاسي (من حزب الشعب) إلى القاهرة للاشتراك في ذلك المؤتمر. وكانت خطة هذا الوفد للحكومة السورية تهدف حينذاك إلى منع حصار الحكومة العراقية عربياً، مما يسهل على هذه الحكومة العمل على تصدير ذلك الحلف إلى دول عربية أخرى. وكانت حجة ذلك الوفد السوري في موقفه هذا تتلخص في "أن العراق بلد مستقل يحق له عقد المحالفات التي يشاؤها مع من يشاء". وبديهياً، إن هذه الحجة تصلح أيضاً لأية دولة عربية، لسورية مثلاً، كي تدخل الحلف المذكور إذا شاءت. ولكن موقف فارس الخوري ووزير خارجيته فيضي الأتاسي في هذا المؤتمر كان يتعارض مع البيان الوزاري الذي نالت حكومتهما الثقة على أساسه، والذي يعلن رفض الأحلاف

العسكرية مع الدول الغربية بشكل خاص أو عقد معاهدات معهم أو قبول مساعداتهم المادية. وكان هناك أيضاً قرار بهذا المعنى اتخذته لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب السوري عشية سفر وفد الخوري إلى القاهرة لحضور المؤتمر المذكور.

منع موقف الحكومة السورية في المؤتمر المذكور اتخاذ قرار بشجب الأحلاف والتوصية بعدم الانضمام إليها. وتأجل البت في هذا الموضوع إلى ما بعد ذهاب وفد من المؤتمرين إلى بغداد لمحاولة إقناع نوري السعيد بإيقاف عملية الحلف. لذلك توقفت في الثلاثين من كانون الثاني الاجتماعات ريثما يعود من بغداد وفد المؤتمرين، الذي تألف من سامي الصلح رئيس وزراء لبنان وتوفيق أبو الهدى رئيس وزراء الأردن والصاغ صلاح سالم. وعاد في هذه الأثناء فارس الخوري ووزير خارجيته فيضي الأتاسي إلى دمشق ليكونا في استقبال عدنان مندريس رئيس وزراء تركيا، الذي أتى لزيارة دمشق وتشجيع حكومتها من حزب الشعب وشد أزرها في خطها الذي كانت تنتهجه. وأذكر بهذه المناسبة مشهداً لهذه الزيارة

يتلخص بما يلي: عند مرور موكب هذا الضيف في شارع الصالحية المزدحم في ضحى النهار كان الناس يديرون ظهورهم له عند مروره بدلاً من تحيته والترحيب به وذلك بشكل عفوي تلقائي لم تنظمه أو تأمر به أي جهة من الجهات السياسية. وقامت حملة عنيفة في مجلس النواب افتتحها النائب المرحوم عبد الكريم زهور بالتنديد بتلك الزيارة بشدة. وأجاب وزير الخارجية فيضي الأتاسي على منتقديه بقوله إنه: "يرفض حفظ سورية في خزانة مغلقة بعد أن يرش عليها مادة الـ (د.د.ت)!..". ثم إن اللجنة التي ذهبت لمقابلة نوري السعيد في بغداد عادت إلى القاهرة دون أن تحقق شيئاً من مهمتها. ثم انفض مؤتمر الرؤساء العرب المذكور في 6 شباط 1955 بلا قرار بسبب الموقف الغامض للحكومة السورية. وقد فاز نوري السعيد بهذا الموقف بالشق الأول من المعركة وهو: إفشال المؤتمر ومنعه من اتخاذ قرار تتم به محاصرة الحكومة العراقية وعزلها ومنعها من تصدير ذلك الحلف إلى دول عربية أخرى. ولكن الضغط الجماهيري كان قد أضعف ذلك التحالف الذي أتى بحكومة فارس الخوري، فانسحب منها

عضوا الحزب الوطني فاخر الكيالي وبدوي الجبل في الوقت الذي انشق فيه هذا الحزب إلى شطريه المنوّه عنهما أعلاه: شطر يتزعمه العسلي وقف ضد حلف بغداد وأخذ يتقرب من حزب البعث وكتلة العظم، والآخر بقيادة لطفي الحفار، ثم انحاز إليه ميخائيل ليان، عارض التقرب من اليسار السوري. وسقطت وزارة الخوري في السابع من شباط 1955. وتم الاتفاق في نهاية المطاف بين الكتل النيابية لخالد العظم والبعث وشطر الحزب الوطني بقيادة العسلي على تشكيل وزارة تقف ضد الأحلاف العسكرية الاستعمارية. وتم تشكيل هذه الوزارة في 13 شباط عام 1955 بالشكل التالي: صبري العسلي للرئاسة والداخلية، خالد العظم للخارجية والدفاع، عبد الباقي نظام الدين للأشغال العامة والمواصلات، رئيف الملقي للتربية الوطنية، حامد الخوجة للزراعة، فاخر الكيّالي للاقتصاد الوطني، ليون زمريا للمالية، مأمون الكزبري للعدلية، وهيب غانم وزير دولة. وأعلنت هذه الوزارة شجبها لحلف بغداد، الأمر الذي أدى في النتيجة إلي عزل هذا الحلف

وتكليسه ثم سقوطه نهائياً بثورة الرابع عشر من تموز التي "نسفت" مدرسة عملاء الإنجليز في العراق.

بعد أن أفلتت مصر من قيود الاحتلال الأجنبي لأرض الوطن بتوقيع معاهدة جلاء الإنجليز عن قناة السويس في 19 تشرين أول عام 1954، وكانت قبل هذا قد أفلتت أيضاً من فخ الدخول في حلف استعماري يتزعمه الإنجليز نصب لهم في سرسنك على شكل تحالف (مصري، عراقي) تتسلل إليه بريطانيا بعد قيامه، أمر المستعمرون البريطانيون عملاءهم في العراق ليدخلوا في حلف بغداد مع الحكومة التركية. وأجّل الإنجليز دخولهم في هذا الحلف كي يبدو في البدء حلفاً مشرقياً بين عرب وأتراك، وذلك على أمل أن يتمكن العراق من جر الدول العربية الأخرى إليه، عدا مصر التي رفضته والتي تبقى عند تمام هذا الأمر معزولة محاصرة. وقد مر معنا بيان هذه الأمور في فصل سابق من هذه الدراسة. لذلك كان موقف سورية الرافض لحلف بغداد في تلك الظروف حاسماً لجهة عكس الأمور التي كان يدبرها الإنجليز، فحوصر الحلف عربياً بدلاً من عزل مصر ومحاصرتها.

وكان الفضل في ذلك كما نبينه هنا للجماهير السورية التي هزمت مخططات المستعمرين، بعد أن أبعدت عن الحكم من كانوا يعملون على إنجاح هذه المخططات. إلا أنه، كما هي العادة، قام عملاء المستعمرين بتشويه هذه الصورة للكفاح المجيد للشعب السوري بوصفها كذباً بالفوضى وتهافت النظام، وكأن الترتيب والنظام لا يقومان إلا بفوضى المستعمرين وعملائهم عندما يقلبون الدنيا عاليها سافلها. وتبع هؤلاء نفر وثني حاول احتكار الفضل لنفسه بوضع ذلك الكفاح المجيد للشعب السوري في الظل وتغطيته، كي لا يسطع نوره فيكسف ادعاءات فارغة. فباتريك سيل مثلاً الذي عنون بحثاً له عن سورية بعنوان "الصراع على سورية" يعطينا في هذا البحث صوراً لهذا القطر العربي ينبئ عنها سلفاً هذا العنوان، يعطينا صوراً لبلد يتجاذبه ويقرر مصيره الآخرون بمعزل عن شعبه الفاعل الأصلي لكل تلك الأحداث ولكنه مع ذلك لا يظهر له أي أثر في هذه الصور. إننا نرى مثلاً في البحث المذكور الصورة التالية التي يبدو فيها الشعب السوري مجرداً عن الفاعلية يشاهد مسرحاً يدور عليه صراع

بين جهتين غير سوريتين: "..سرعان ما أدركت مصر دور سورية في معركة حلف بغداد فأيدت حكومة العظم وحلفائه في كل مراحل استلامها السلطة، وأوكلت أمر اكتساب جانب سورية إلى خبيري مصر في الشؤون العربية صلاح سالم ومحمود رياض. فأدار سالم الجانب الإعلامي في المعركة في حين أن محمود رياض استلم دوراً ألطف في عالم الدبلوماسية، إذ أصبح سفيراً لمصر في دمشق. وبتوجيه من صلاح سالم ركزت صحافة مصر وإذاعاتها حملات بلا كلل ولا ملل على حكومة فارس الخوري... وفي رسالة من صلاح سالم إلى المؤلف (إلى باتريك سيل كاتب هذه الأسطر) ذهب مرسل الرسالة في حماسته إلى أن قال إنه هو المسؤول المباشر عن سقوط فارس الخوري..". ولكن هذين "الخبيرين" في الشؤون السورية، اللذين ذكرهما باتريك سيل في عبارته هذه لتقوية معانيها وتشديد بلاغتها وبهرجها الخادع، ما كانا قد شاهدا من قبل سورية أبداً، وقد اكتسبا خبرتهما عندما خصصتهما حكومتهما في عملهما المذكور فارتكبا، بطبيعة الحال، أخطاء فادحة أضرت بالمسيرة العربية، وبسياسة

الحكومة المصرية على الأخص، بدلاً من أن تفيدها. إن صلاح سالم مثلاً في زيارته الأولى لدمشق أمر، بناءً على نصيحة السفير محمود رياض، بدفع ثلاثين ألف جنيه إلى النائب الفاشي المكروه فيصل العسلي كي يرسل زلمه إلى المطار ويقوموا "بعراضة" استقبال له بلغت في هزالها وهجنتها حداً مزرياً. وكان هذا الفعل يناقض مناقضة تامة خط الحركة الوطنية المساند لحكومة صبري العسلي القائمة حينذاك، الحكومة التي أتت لإسقاط حلف بغداد بعد إتمام حصاره إلى جانب حكومة الثورة المصرية. وهذا بالإضافة إلى أن نفوذ فيصل العسلي المذكور ما كان ليمتد إلى أبعد من حدود حيّه، وإلى أنه كان دوماً أداة استفزاز ضد الحركة الوطنية. وادّعى سيل أن محمود رياض حدثه في القاهرة في شهر كانون الثاني عام 1961 فقال له: "..كانت مهمتي في سورية أن أشرح سياستنا في التضامن العربي ومعاداتنا لحلف بغداد. وكان طبيعياً أن أجد نفسي على وداد خاص مع البعث لتشابه نظرتينا إلى القضايا الخارجية..". وفي الواقع كان "الوداد الخاص" للأستاذ محمود رياض في البدء مع عدو

البعث فيصل العسلي كما مر معنا قبل هنيهة. ويتابع سيل بحثه بقوله: "في 22 شباط عام 1955 تقدّم صبري العسلي، رئيس الوزراء الجديد ببيان حكومته إلى المجلس النيابي فشجب عقد جميع الأحلاف والمواثيق العسكرية الأجنبية وتبنى مخلصاً أفكار مصر في السياسة الخارجية... وفي 26 شباط وصل صلاح سالم إلى دمشق ليرسّخ المكاسب المصرية..".

ولكن سورية، منذ ما قبل جلاء المستعمرين عن سورية وسقوط معاهدة 1936 مع فرانسة، رفضت عقد أي معاهدة تحالف مع أية دولة أجنبية، وبلغت في تزمّتها بهذا الخصوص أن سنّت في أعقاب الجلاء قانوناً يمنع الدولة من عقد القروض الخارجية أو قبول أية مساعدة من أية جهة أجنبية، كالنقطة الرابعة مثلاً. وما كانت الحركة الوطنية فيها بحاجة إلى أحد، ككل الحركات الوطنية في الأقطار العربية الأخرى، وفي أقطار الدنيا أيضاً، لتتعلم منه عداءها للأحلاف الاستعمارية أو ليدفع مبادراتها للدفاع عن استقلال إرادتها.

وبعد، إن الحركة الوطنية هي بداهة إفراز طبيعي عفوي لجماهير الشعب فلا تُزَوَّرُ بدافع خارجي كتجمعات الانتهاز وشرانم الخيانة. ومن الطبيعي أن تقوم فيها مذاهبها ومفاهيمها بنتيجة تجاربها الخاصة وباستفادتها من تجارب الآخرين. وهي لا تقاد إلا من أهلها، فهم أدرى بحالها وبطبائعها. ثم إن الحركات الوطنية لأقطار العالم العربي ترفد الحركة الوطنية العامة للأمة العربية كروافد أصيلة "لا تخلق" بعضها بعضاً، تماماً كما لا تخلق مختلف جماعات بلد واحد بعضها بعضاً عندما تشكّل بالتقائها معاً وبتفاعلاتها المختلفة جماهير هذا البلد. أما المزوِّرون فلا يُبرزون إلا الفردية على حساب التنوع المترافد المتفاعل الخلاق.

الفصل الحادي عشر

أميركا تتقدم المستعمرين

العالم الثالث والاستعمار القديم

وقفنا في الفصل السابق عند مقولة: "إن الحركة الوطنية هي بداهة إفراز طبيعي عفوي لجماهير الشعب الذي تعود إليه، فلا تُزَوَّرُ من قبل أجنبي كشراذم الخيانة وتجمعات الانتهاز، ولا تُصنع من قبل فرد أو جماعة أو حزب، وإن تلونت بشكل أو بآخر بحسب الفئات السائرة في سياقها من تلك الجماهير". فأولئك الوثنيون العرب أو مرتزقة المستعمرين الذين كتبوا أكوام الصفحات عن سورية الحديثة وصوّروها كما لو كانت دوماً أُلعوبة تتداولها أيدي الطامعين من عرب وأجانب في الوقت الذي هي فيه قطر في الجملة الإنسانية يمر مجتمعها، كغيره من مجتمعات هذه الجملة، بمختلف الظروف ويساهم في صنع تاريخ أمته بالشكل

المناسب لإمكاناته التي ليست بالقليلة ولموقعه الذي ليس بصغير الخطَر. وكان اهتمام الولايات المتحدة الأميركية، التي كانت حينذاك منهمكة في تجديد بناء العالم الرأسمالي الاحتكاري وإقامة الاستعمار الجديد، بأحوال سورية في أعقاب طرد الشيشكلي من الحكم وخشيتها الكبيرة من امتداد مَثَلِها في مقاومة المستعمرين إلى بقية الأقطار العربية، نقول كانت هذه الخشية وذلك الاهتمام برهاناً على الدور الكبير الذي كان يضطلع به هذا القطر في الحركة الوطنية العربية، الدور الذي حققت به سورية أول وحدة عربية صحيحة حلم بمثلها العرب والمسلمون وكل مضطهَد طوال قرون عديدة.

كان عالم المستعمرات القديمة وأشباه المستعمرات، في أيام منتصف الخمسينات التي تم فيها طرد الشيشكلي من الحكم، يبحث عن المكان الذي سيحل فيه في جملة المجتمعات الإنسانية، في ذات الوقت الذي كانت الولايات المتحدة الأميركية منهمكة فيه، كما قلنا، في تجديد بناء القهر العالمي بهدم الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة لتوحيد الاستعمار بزعامتها، والتسلل في الحركات الوطنية لإيقاف سعيها عند

الاستقلال السياسي فقط مع الانخراط في نظامها الرأسمالي الاحتكاري العالمي كعالم متخلف تابع فكرياً واقتصادياً للمتقدمين مادياً في أوروبا وأميركا. فقام رئيسا وزارء أكبر بلدين في العالم من حيث عدد السكان، رئيس وزراء الصين شو إن لاي ورئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو بإعلان المبادئ الخمسة لتعايش الدول: "البانش شايلا"، وهي:

1. عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى؛
2. الاحترام المتبادل لسلامة أراضي الدول واستقلالها؛
3. الامتناع عن العدوان؛
4. التناصر ضد العدوان؛
5. التعايش السلمي.

ومن الواضح أن هذه المبادئ تهدف إلى تعزيز الاستقلال السياسي للدول، لا سيما منها حديثة الخلاص من قهر الاستعمار القديم، ولكنها لا تتصدى للعلاقات الأخرى بين الدول التي تأتي العلاقات الاقتصادية في مقدمتها، لا تتصدى

لتبعية المتخلفين اقتصادياً إلى المتقدمين مادياً في أوروبا وأميركا. ويمكن القول إن هذه المبادئ تنادي بالانخراط بشكل من الأشكال في النظام العالمي القائم، في يمينه الرأسمالي الاحتكاري أو في يساره الاشتراكي. وهذا مجمل واقع الدولتين صاحبتي الإعلان الآنف الذكر، فإحداهما وهي الصين لها عقيدتها الاشتراكية، والأخرى وهي الهند ترتبط بشدة بالنظام الرأسمالي الاحتكاري وهي دولة من اتحاد الكمنولث الذي انقلبت إليه الإمبراطورية البريطانية الغابرة. وانعقد المؤتمر الآسيوي الأفريقي في باندونغ بين 18 و24 نيسان عام 1955، حيث نادى المؤتمرون بإنهاء الاستعمار القديم وتحرير ما بقي من مستعمرات في أفريقيا وآسيا كالجزائر الثائرة حينذاك مثلاً وغيرها. وتبنوا المبادئ الخمسة لتعايش الدول الآنفة الذكر. وأيدوا مبادئ الأمم المتحدة. وطالبوا بالتعاون الدولي في المجالات الاقتصادية، التعاون الذي لا يؤول عملياً في ظروف عالمهم إلا إلى الشكل الجديد للاستعمار الذي كانت تسعى إليه أيضاً الرأسمالية الاحتكارية الأميركية. وكنا أشرنا في هذه الدراسة إلى مبدأ "عدم

الانحياز" الذي نادى به (نهرو، ناصر، تيتو) في تلك الأيام. أما الحركة الوطنية السورية فقد رفعت شعار "الحياد الإيجابي". وقد رأينا أن "عدم الانحياز" للدول المتخلفة المنخرطة في النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي هو أمر لا معنى له على الإطلاق عندما تكون الإمبراطورية الاستعمارية العالمية الموحدة بقيادة أميركا قائمة على تلك الهيمنة الاقتصادية للمتقدم مادياً على المتخلف. أما "الحياد الإيجابي" فيعني في الجوهر مناصرة كل ما هو إيجابي في هذا المعسكر العالمي أو ذاك، وخاصة مناصرة ودعم كل ما هو إيجابي من أجل القضية العربية: الحصول على الأسلحة مثلاً وقبول المساعدات الاقتصادية غير المشروطة كالتنقيب عن النفط وإقامة الصناعات الثقيلة والخفيفة وغيره مع دعم لقضايا العرب التي تأتي في مقدمتها قضية فلسطين. وكان الاتحاد السوفياتي مع المعسكر الاشتراكي يستجيب إلى هذه الطموحات الوطنية والقومية السورية في الوقت الذي كانت فيه أميركا والغرب معها على عداء سافر ضد كل تقدم في هذه الاتجاهات. إن الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة

الأميركيـة كـان دومـاً ومـايزال بطبيعـة الحـال وراء قاعدتـه "إسرائيل" فيمدها بكل وسائل الدعم ويقطع على العرب كل سبل التقدم لنيل حقوقهم في أوطانهم ورد عدوان الصهاينة عليهم. أما الارتباط الاقتصادي به من كل نوع فيتبع قانون المتسلط القوي على المتخلف الضعيف، فلا ينفك عن التآمر علينا لإقامة الحكم الذي يربطنا بنظامه العالمي الاستعماري. لقد كان شعار "الحياد الإيجابي" بهذه المعاني التي نوردها هنا تسوية جيدة بين القوى القومية وفي مقدمتها البعث والبورجوازية الوطنية وبين الشيوعيين في الجبهة الوطنية. وكان يقوم جدل واسع وحاد في كثير من الأحيان بين الحركة الوطنية المصرية بقيادة ثوار يوليو وبين الحركة الوطنية السورية بقيادة تلك الجبهة التي كثيراً ما نعتها المستعمرون وأعوانهم الرجعيون بالشيوعية واتهمها الأخوة المصريون بالخضوع للشيوعية.

وقد سبق وقلنا في هذه الدراسة إن مذاهب العقائديين السوريين تكاد تتكامل في جوهرها. فالنضال من أجل وحدة الهلال الخصيب الذي يسعى إليه السوريون القوميون يمكن أن

يشكل المدخل إلى وحدة الوطن العربي التي يسعى إليها البعثيون والقوميون الآخرون، كما إن وحدة الوطن العربي تعطينا قلباً قوياً موحداً لدار إسلام تنادي بتعاون وتكامل وتكافل الإنسان ويسعى إلى إقامتها الأصوليون المسلمون غير الوثنيين، غير الذين يعطون آذانهم كما يعطيها الانتهازيون في الحركات الوطنية الأخرى للمستعمرين. وماذا يضير الشيوعيين عند قيام دار عالمية كدار الإسلام تنادي بتكافؤ الفرص بين البشر وتمنع كل استغلال للإنسان من قبل أخيه الإنسان وتحض على ولوج أبواب التقدم المادي والروحي بدون تردد؟. ثم إن كل هذا من الأهداف التي لم يتحقق منها شيء فعلام كان إذن الاختلاف بين كل هذه المذاهب العقائدية؟. إن الأمر يبدو هنا تماماً كاختلاف الصيادين على اقتسام جلد الدب قبل اصطياده. ولكن الجماهير السورية كانت بمنأى عن كل هذه الخلافات السطحية في عقائد قادتها السياسيين، ونقول السطحية وتؤكد قولنا هذا طموحاتنا القومية الإنسانية الكبرى وكل ما نتعرض له من أخطار جسيمة من قبل الأعداء المستعمرين وأعوانهم. وكانت انتخابات عام

1954، بعد طرد الشيشكلي، أكبر برهان على ما نورده هنا فقد أعطى التاجر المتدين صوته لأقصى اليسار عندما انتخب خالد بكداش إلى جانب خالد العظم، كما أعطى الاشتراكي الماركسي صوته لأقصى اليمين عندما انتخب خالد العظم إلى جانب خالد بكداش. ولكن الجهل والانتهاز في مختلف فصائل التيارات الوطنية السورية كانا مطية المستعمرين في مؤامراتهم على قطرنا مما أدى إلى وقوع الخسائر والانحرافات الخطيرة في الحركة الوطنية السورية: من الديكتاتوريات التي توالت على حكمنا إلى استشهاد الضابط المجاهد عدنان المالكي فملاحقة حركة وطنية عقائدية هي حركة السوريين القوميين ثم ملاحقة الشيوعيين وزجهم في السجون وتشريدهم وقتلهم وملاحقة الناصريين وانقسام البعثيين.

العلاقات مع المعسكر الاشتراكي:

كان التعامل بكل أنواعه شبه مقطوع بين الكتلة الشرقية وبين العالم العربي منذ أيام الاستعمار القديم وهيمنته على

مختلف أقطارنا، حتى إن قادة هذه الأقطار وممثليهم في الأمم المتحدة عندما كانوا "يتصنعون الغضب" تجاه مواقف المستعمرين التي تبلغ الذروة في الافتئات على حقوقنا الوطنية، لا سيما منها ما يتعلق بقضيتنا الفلسطينية، كانوا يصرفون عبارات يجعلون فيها التعامل مع المعسكر الشرقي، وخاصة منه الاتحاد السوفياتي، شراً لا بد منه. كانوا يقولون مثلاً: "إننا نفضّل ألف مرة الوقوع في النفوذ الروسي على أن نقبل هذا الأمر الظالم أو ذاك من الغربيين". وكأن المفروض أن يكون الروس راكضين وراء نفوذ أقل ظلماً من نفوذ الغرب ولكنه ظالم على كل حال. وقال المرحوم قائد الأخوان المسلمين الشيخ مصطفى السباعي في إحدى كلماته: "نعتزم التوجه إلى المعسكر الشرقي إذا لم ينصفنا الديمقراطيون. ونجيب أولئك الذين يقولون إن المعسكر الشرقي هو عدونا، متى كان المعسكر الغربي صديقاً لنا، إننا سنربط أنفسنا بروسيا ولو كانت الشيطان نفسه...". كان إذن مجرد القول بإقامة علاقات دولية طبيعية مع المعسكر الشرقي تجديفاً على "الأسياد" الغربيين عندما نغضب من عنجهيتهم وعدوانيتهم.

ولكن الجماهير بعفويتها كانت ترى الشيطان يطل من ذلك الحصار الذي يضربه حولنا أولئك المستعمرون الغربيون. فاقترحت أنا في أعقاب سقوط الشيشكلي شراء لوازم المصلحة الجغرافية التي كنت أقوم بتأسيسها للجيش السوري من الكتلة الشرقية، كما اقترحت إرسال بعثات من خريجي كلية العلوم في جامعة دمشق ومن حملة الثانوية الصناعية للدراسة والتمرين في المعاهد المختصة هناك، وقد استجابت قيادة الجيش لمقترحاتي وتم إرسال تلك البعثات وشراء لوازم المصلحة المذكورة من ألمانيا الشرقية دون أية صعوبة وقبل عقد صفقات الأسلحة العربية من الكتلة الشرقية.

إن صفقات الأسلحة التي أُبرمت من قبل سورية ومصر مع الكتلة الشرقية طالما تنازعت "شرف السبق إلى تحقيقها" مختلف الأطراف حتى وصل مستوى التنافس إلى ادعاء الأستاذ حسنين هيكل من جهة شرف مشاركة رمز كبير يكسف كل شريك، شرف مشاركة الرئيس جمال عبد الناصر، في السبق إلى عقد أول صفقة أسلحة مع المعسكر الاشتراكي، وتكذيب هذا الادعاء من جهة ثانية من قبل الأستاذ أحمد عسة

الذي نسب إلى نفسه وإلى المرحوم خالد العظم شرف الانفراد في تحقيق هذا الأمر في دولة لها مجلس نواب ومجلس وزراء مسؤول أمامه وجيش مسؤول فنياً في هذا الموضوع. والواقع كانت التجارب المريرة وخيبات الأمل في الحصول على سلاح حديث جيد من الغرب ندافع به عن أنفسنا وحقوقنا الوطنية منذ تلك الحرب التي خضناها في قفص المستعمرين عام 1948 في فلسطين حتى صفقات الأسلحة التشيكية في منتصف الخمسينات السبب في جعل الحصول على الأسلحة من الكتلة الشرقية مطلباً شعبياً ورسمياً بديهياً في كل وسط تنتصر فيه الإرادة الوطنية كوسطي مصر وسورية حينذاك. وما كان الاتحاد السوفياتي ولا معسكره الاشتراكي بحاجة إلى من يقنعه بأن إمدادنا بالأسلحة المتقدمة يخدم قضايا التقدم في العالم ويعزز مواقع المقهورين تجاه المستعمرين العدوانيين وأذنابهم الصهاينة. كان يكفي تقديم طلب للحصول على الاستجابة الفورية من قبل المعسكر الشرقي. لهذه الأسباب ظن كثير ممن حضر مناقشة أو حديثاً حول هذا الموضوع بين مسؤولين أو على صلة بالمسؤولين، وما أكثر ما دار من

مناقشات وتساؤلات في مختلف الأوساط الاجتماعية والسياسية في منطقتنا وفي العالم حول موضوع تسليحنا من الكتلة الشرقية، أنه هو صاحب الشرف في "كسر طوق احتكار الأسلحة" الغربية... ولقد تم في النتيجة ذهابنا إلى الدول الاشتراكية ونلنا منها أسلحتنا الدفاعية لمصر وسورية وغيرهما من الأقطار العربية، وذهب عسكريونا للتدرب في مدارسهم، ونمت علاقاتنا معهم في هذا المجال وغيره من المجالات العلمية والاقتصادية والسياسية، خلال كل تلك السنين الماضية حتى يومنا هذا وإلى زمن غير منظور فلا ميزة إذن للسابق ببضعة أيام أو أشهر إلى هذا الأمر مادام قد تم وقام كل هذه العقود من السنين.

كانت صفقة الأسلحة التشيكية لكل من سورية ومصر الحدث المدوي الذي أقلق المستعمرين جميعاً وخاصة منهم زعيمتهم الولايات المتحدة الأميركية، التي قلنا إنها كانت حينذاك منهمكة في تجديد البنية العالمية للاستعمار. وكانت أيضاً الحدث المفاجئ الذي ألقى الرعب في قلب الرجعية العربية في جميع أنحاء الوطن العربي، والذي أفرح قوى

التقدم وجعلها تظن الظن الخاطئ، عن تسرع وجهل، بأن يوم الخلاص مما خلفته الأيام فينا من تخلف وتمزق قريب. وقد سارع الأميركان اليانكي إلى العمل على تطويق واحتواء تلك المبادرة للحركة الوطنية العربية للخروج من الطوق الاستعماري. فالتخلف المادي العربي في كل النواحي الاقتصادية والسياسية والتقنية إلى جانب ضعف الوسائل الدفاعية أمام القاعدة الصهيونية في فلسطين التي تمكنت بمساعدة المستعمرين من الصمود وإلحاق الهزيمة بالأنظمة العربية عام 1948، كل هذا كان يبدو مطمئناً للأميركان ليسيروا بكل ثقة في المستقبل، حينذاك، في مشروع إتمام بناء جملتهم الاستعمارية في المنطقة العربية. ولكن تلك الخَرْجَةَ من الطوق الاستعماري للحركة الوطنية العربية أخل بحسابات أولئك الأميركان الذين سارعوا كما قلنا إلى العمل على تلافي خطر تصاعد الإمكانات الوطنية العربية على مخططاتهم باتخاذ التدابير التالية:

1. شن حملة نفسية ضارية على الحركة الوطنية العربية وتشويهها باتهامها بالوقوع تحت النفوذ الشيوعي،

واتهام كل وطني يتشدد في مقاومة المستعمرين بأنه شيوعي عميل للسوفيات

2. توسيع التغلغل الأميركي في مختلف الحركات الوطنية، في مختلف الأحزاب العقائدية والجماعات الثورية، كحزب البعث والسوري القومي والأخوان المسلمين وثورة يوليو المصرية وغيرها. وسنعرض فيما يلي مثالاً على هذا الأمر في المسعى المحموم للمدعو هشام شرابي كي يورط الحزب السوري القومي بالارتباط بالمستعمرين الأميركيين.

3. تحريض عملاء المستعمرين والرجعيين والانتهازيين على محاصرة العناصر الوطنية بأراجيفهم واتهاماتهم التي تأتي في مقدمتها العمالة المزعومة للسوفيات ودس الدسائس في صفوفهم وبث الفرقة والتناقضات والخصومات فيما بينهم.

4. التآمر لقلب الحكم الوطني واغتيال الوطنيين كاغتيال العقيد عدنان المالكي.

5. تحـريض الرجعيـة العربيـة علـى ضرب الحصار حول الحكمين الوطنيين في كل من سورية ومصر.

6. شـد أزر إسـرائيل بإمـدادها بكـل المعونات اللازمة من عسكرية واقتصادية وسياسية لتقف نداً لمجموع الأنظمة العربية المتفرقة المتناقضة.

7. وضـعت أميركا خطـة لإقامـة قاعدة ذريـة لـها فـي الكيـان الصـهيوني وسـاعدت هـذا الكيـان بكـل الوسـائل المفضوحة ليمتلك السلاح النووي الذي هو في الواقع سلاحها الموجه ضد أمن المنطقة وضد الاتحاد السوفياتي.

ولكـن المسـاعدات السـوفياتية فـي مجـالات التسـليح والاقتصـاد والبعثـات التدريبيـة علـى اخـتلاف أشـكالها واختصاصـاتها سمحت للقطرين السوري والمصـري بالتقدم سريعاً في النواحي الاجتماعية والدفاعية. فبينما كنا نستجدي البواريد وذخائرها هنا وهناك في العالم الغربي في حرب عام 1948 فلا نحصل عليها أو نحصل على الفاسد منها أصبح بإمكاننا في سورية مثلاً بعد صفقة الأسلحة التشيكية أن ندرب

ونجهز عشرات ألوف المجاهدين في المقاومة الشعبية إلى جانب الجيش بأحدث الأسلحة وأمضاها. ثم إن الحركة الوطنية العربية تصاعدت في كل أقطار وطننا العربي الكبير وشد بعضها أزر بعضها الآخر لا سيما بعد فك الحصار الغربي الاستعماري بإقامة علاقات طبيعية بين كل من سورية ومصر وبين دول المعسكر الاشتراكي. وكان من أبرز نتائج ورود الأسلحة المتقدمة من هذا المعسكر إلينا تمكننا من إمداد ثورة الجزائر بالأسلحة الفرنسية التي كان الجيش السوري يتسلح بها، تلك الثورة التي صدف أن تصاعدت في تاريخ يقرب من تاريخ ورود أول صفقة أسلحة إلى سورية من تشيكوسلوفاكيا. ثم إن المعسكر الاشتراكي المذكور قدم مساعدات مادية قيمة عن طريق سورية ومصر إلى ثورة الجزائر بالإضافة إلى دعمه السياسي والمعنوي لها في الساحات العالمية.

أميركا تدبر اغتيال المالكي

قلنا إن تفسّخ اليمين المتطرف السوري بعد انهيار ديكتاتورية أديب الشيشكلي وانقسام الحزب الوطني وتقرُّب أحد قسميه برئاسة صبري العسلي من اليسار ومن كتلة خالد العظم وضع الحركة الوطنية السورية في اتجاه حاسم على طريق التحرر من العلاقات الاستعمارية، ورَشَّحَ هذه الحركة لتكون منطلقاً للثورة العربية الكبرى ، أو على الأقل لطرق أبواب توحيد الوطن العربي وما يتبع هذا الأمر من نهوض قومي جارف يقوض مراكز الاستعمار العالمي ويعطل مخططات أميركا قائدة هذا الاستعمار. كانت أفكار الانبعاث العربي تنتشر بسرعة مذهلة في كل أقطار الوطن العربي، في الوقت الذي كانت فيه أفكار الاشتراكية والتحرر الإنساني من الرأسمالية الوثنية تذكي حماس الجماهير العربية وتحشدها لمقاومة المستعمرين وفي مقدمتهم الرأسمالية الاحتكارية الأميركية. وكنا في سورية في تلك الأيام نكافح بكل قوانا لإقامة جبهة وطنية تقف في وجه المؤامرات الاستعمارية الهادفة إلى إقامة حكم عميل للمستعمرين وللرجعية العربية. وكان النشاط الوطني يتأثر في أثناء ذلك بمسألة خلافة الرئيس

هاشم الأتاسي الذي أوشكت فترة رئاسته للجمهورية على الانتهاء. وكان هناك مرشحان قويان لهذا المنصب لكل منهما ثقله الهام في توجيه الحركة الوطنية: كان هناك الرئيس شكري القوتلي الذي خرج من عزلته التي وضعته فيها الديكتاتوريات الغابرة وفي مقابله كان السيد خالد العظم. فالأول يحظى بتأييد اليمين وتأييد كل من مصر والسعودية. أما خالد العظم فكانت له مساع حثيثة في الأوساط اليسارية وفي أوساط العسكريين تستند إلى أمرين هامين:

الأول: موقفه السياسي الذي ساعد إلى حد بعيد في إقامة الجبهة الوطنية التي تمكنت من تحطيم الحصار الغربي المشار إليه أعلاه حول سورية؛

الثاني: إضعافه اليمين المتطرف بقيامه كيميني من حيث الانتماء الطبقي بتكتيل كتلة هامة من اليمين السوري وقيادتها إلى محالفة اليسار لإقامة الجبهة الوطنية. وقد رأينا أثر هذا الأمر في تركيب المجلس النيابي الذي انْتُخب في إثر عهد الشيشكلي.

وبالاختصار، كان العسكريون واليساريون التقدميون ميالين لدعم كتلة خالد العظم في المجلس النيابي لانتخابه لرئاسة الجمهورية للأسباب الآنفة الذكر، بالإضافة إلى أن الوثنية التي قامت في عهد القوتلي في أعقاب الجلاء عن أرض الوطن لجيوش المستعمرين، الوثنية التي أدت إلى انقلاب حسني الزعيم، كانت آثارها السيئة مازالت عالقة في أذهان الناس في تلك الأيام، فتشكل عائقاً هاماً أمام طموح القوتلي لتسنّم الرئاسة للمرة الثالثة. ولكن خالد العظم كان مع ذلك مناوراً أكثر منه صاحب مبدأ يساري. فقد تقلَّب في اليمين قبل أن يأتي إلى اليسار سعياً منه للوصول إلى سدة الرئاسة، وما كانت الوحدة مع مصر مثلاً لتسره عندما سدت أمامه الطريق إلى هذه السدة. والقوتلي عريق في الكفاح الوطني وهو الذي قاد سورية إلى الاستقلال بإجلاء الجيوش الأجنبية عن أراضيها. وكان كثيراً ما يستخف بخالد العظم علناً في أثناء انعقاد مجلس الوزراء برئاسته أو انعقاد مجلس الدفاع الأعلى في عهد رئاسته الثالثة فيقول له ساخراً مؤنباً

مثلاً: "لا تتعجل، فالنعمة التي تلحّ في طلبها لا تستحق كل هذا العناء!..". فيحمر وجه العظم ويطرق برأسه خجلاً.

وانقسم العقائديون في تلك الأيام إلى قسمين متعارضين متناحرين مع أن الجميع كانوا على العموم من ذات الأصول الاجتماعية. فالأخوان المسلمون والسوريون القوميون انحازوا إلى أقصى اليمين وحاربوا اليسار واتهموه بالعمالة للاتحاد السوفياتي. أما البعثيون فقد التقوا مع شرائح عريضة من يمين المجتمع وخاصة منه التجار، كما ضموا جماهير الفلاحين وكثيراً من العمال، والتقوا أيضاً، كما مر معنا، بالشيوعيين الماركسيين في ظروف قيام الجبهة الوطنية في إثر انهيار حكم الشيشكلي وتفسّخ اليمين وانقسامه على نفسه. وقام صراع كبير على الأخص بين اتجاه البعث والاشتراكيين على العموم وبين اتجاه السوريين القوميين. فكانت نشرات البعثيين في تلك الأيام وجرائدهم لا تخلو الواحدة منها من الحملة على السوريين القوميين فتتهمهم بالعمالة للغرب. وكان السوريون القوميون لا يقصِّرون في هذه الناحية. ففي تعميم لناظر التدريب في الحزب السوري القومي فرانسوا دياب

مؤرَّخ في 1955/3/30، وهو من الأوراق المصادرة من مكتب الحزب في دمشق في أعقاب اغتيال العقيد عدنان المالكي والمقدمة إلى المحكمة التي نظرت في هذه القضية، نقرأ الفقرة التالية: "أيها الرفاق، عليكم كجنود أخذتم على عاتقكم محاربة الفساد والتخريب الشيوعي الهدام وتحطيم تلك التحزبات والتشكيلات البعثية المضللة للشعب والمحرِّفة لمُثُل الأمة، من حق وخير وجمال. وعليكم، كجنود آمنتم بأن اجتثاث الفساد والمساوئ لا يكون إلا بتخطيط مدروس، أن تتقيدوا بكل ما يصدر إليكم من تعليمات مسؤوليكم. وبتنفيذكم تلك التعليمات بدقة وانضباط تدللون على مقدار تمسكنا بمبادئ زعيمنا التي مهرها بدمه..". ونقرأ أيضاً في رسالة خاصة لناظرية التدريب مؤرخة في 1955/4/5 ما يلي: "في كل يوم من سجل حياتنا الظافرة نثبت للملأ أننا الفئة الوحيدة في هذه البلاد تدرك حقيقتها وتعمل لعز الأمة التي نحن منها ولها... ها هي الضربات تكال إلينا من مواطنين أعزاء علينا وما حادثة دير الزور ببعيدة عنا، نريد أن نرفعهم من الدرك الذي انحدروا إليه ولكنهم يأبون الرقي والارتفاع ويفضلون

التردي في دياجير الفساد والانحطاط على أن نرفعهم نحن بأيدينا. لقد تكالبوا على المستعمر يبغون منه الخبز والنعم ونسوا أن في أمتهم كل حق وخير وجمال ولا بأس فقد تعودنا أن ننسى جراحنا لنضمد جراح أمتنا البالغة.. وإليكم أبناء الحياة الثورة التي تعمل لسحق الباطل والفساد، تعالوا نطرد من أمتنا الظالمين المأجورين ونستعيد الماضي البعيد، تعالوا نطرد زبانية المستعمر الخائنين رأس الأفعى الشيوعية الصهيونية المنادية بكل صفاقة ودونما خجل أو حياء بالانجرار وراء المستعمر الشرقي ونرد كل اعتداء يصدر عنهم بمثله ولكن بأقوى منه لأنهم أشخاص تكالبوا على العيش فبصقتهم الحياة..". إلخ...

واهتبلت، كما أشرنا أعلاه، أميركا فرصة تعارض وتناحر الحركات الوطنية في الوطن العربي وفي داخل كل قطر من أقطار هذا الوطن، فتسللت مخابراتها بنفوذها في مختلف هذه الحركات لتجند فيها العملاء وتحالف الانتهازيين طلاب المغانم ولتذكي التعارض والتناحر فيما بينها على مستوى الوطن ككل وفي كل قطر. لقد تسللت بنفوذها مثلاً في

جماعة ثورة يوليو المصرية فجندت السادات وغيره، كما تسللت وجندت لها عملاء في الأحزاب التقدمية والشيوعية والعقائدية الأخرى. فكانت تحرض المصريين على السوريين والسوريين على المصريين، كما حرضت مختلف الفئات في القطر الواحد بعضها على بعضها الآخر. وكان في أساس التحريض اتهام الوطنيين العقائديين بالشيوعية والعمالة للاتحاد السوفياتي أواتهامهم بالعمالة للغرب. فقامت الشكوك وقام الحذر في كل جهة من نيات الجهة الأخرى، في جهة ثورة يوليو المصرية مثلاً من الجبهة الوطنية السورية. وكان تركيز تلك المخابرات الأميركية على السوريين القوميين لغرضين كبيرين من أغراضها: الأول حرف الحركة السورية القومية عن منحاها المعادي للصهيونية وعن هدفها الذي يشكل خطراً على الكيان الصهيوني في فلسطين فيما لو تحقق وهو وحدة الهلال الخصيب الذي يمتد إلى فلسطين بطبيعة الحال، والثاني استخدام ما أمكن من عناصرها في ضرب رموز الحركات الوطنية السورية الأخرى واغتيالها.

كان من جملة من جندتهم المخابرات الأميركية المدعو هشام الشرابي أحد المستشارين المقربين حالياً لياسر عرفات، ويشغل حالياً كرسي أستاذه شارل مالك في إحدى جامعات الولايات المتحدة الأميركية إلى جانب عضويته في المجلس الوطني الفلسطيني وإلى جانب نشاطه في الأوساط العربية الفلسطينية في أميركا وفي الخليج العربي وبقية الأقطار العربية كرئيس لمنظمة صداقة أميركية فلسطينية لصالح المخابرات الأميركية بطبيعة الحال. إن هذا النموذج تجند في خدمة أميركا والصهيونية منذ أيام النكبة عام 1948، عندما كان الصهاينة يشردون أهله من وطنهم فلسطين، حيث التقطه شارل مالك كتلميذ له في الجامعة الأميركية في بيروت، فكان هو وأستاذه هذا الذي طالما خدم مخططات أميركا في الأمم المتحدة كرئيس لوفد لبنان، وفي النظام اللبناني كوزير للخارجية، وفي الأوساط الثقافية العربية في لبنان والولايات المتحدة الأميركية، وكأحد الرموز الذين تآمروا على لبنان مؤخراً وحطموا وحدته، نقول إن هذا المدعو هشام شرابي الفلسطيني الأصل الأميركي الجنسية مع أستاذه وأبيه الروحي

السيئ الصيت شارل مالك نشأ وترعرع في أحضان الـ (سي.آي.إيه) ومع نشوء ونمو هذه المؤسسة التخريبية العالمية، التي بدأت بإقامتها الإدارة الأميركية في أعقاب الحرب العالمية الثانية عندما كانت منهمكة في سلب فلسطين منا لتقيم عليها قاعدتها الصهيونية. وقد اندس مع استاذه شارل مالك في صفوف السوريين القوميين منذ تلك الأيام للنكبة. ثم رحل مع أستاذه هذا إلى أميركا ليلتحق هناك بإحدى جامعاتها حيث كان أستاذه يحاضر فيها. وكان يحمل، بطبيعة الحال، علم دعوة الحزب السوري القومي للتعاون مع الولايات المتحدة الأميركية وخدمة مخططاتها في بناء قلب إمبراطوريتها العالمية في المنطقة العربية الآسيوية بدلاً من المسعى الوطني لتحقيق وحدة الهلال الخصيب التي تنفي هذا القلب الاستعماري وتقتلع حبته، الكيان الصهيوني. فأجرى مع أستاذه شارل مالك الاتصالات بالمخابرات الأميركية، وأرسل التقارير إلى قيادات حزبه يدعوهم فيها بإلحاح للتعاون مع الإدارة الأميركية. وكان من جملتها تقريره المؤرخ في 24 كانون الثاني عام 1955 الذي كان من جملة المستمسكات

المقدمة إلى المحكمة التي نظرت بقضية المالكي والتي أحيل إليها هذا الشرابي كمتآمر ومحرض على اغتيال المالكي. ونعطي فيما يلي النص الكامل للتقرير المذكور فهو يجمل ويصور بوضوح النشاط التخريبي الأميركي في الأحزاب الوطنية العربية:

"هذا التقرير السري في غاية الخطورة وهو مستقى من مصدر موثوق به مطلع على دخائل السياستين العربية والأميركية نرجو أن يلقى منكم العناية الفائقة. فالوضع في الشرق الأوسط على مفترق الطرق أكثر من أي وقت والحكومة الأميركية عازمة عزماً أكيداً على تنظيم الدفاع عنه وسد الثغرة فيه مهما كان الأمر، وخطتها في ذلك ربط العراق أولاً بحلف مع تركيا ومن ثم الأردن والجمهورية السورية ولبنان. وبموجب هذه الخطة ينفصل العالم العربي إلى منطقتين: شمالية في الهلال الخصيب وجنوبية هي مصر والسعودية. إن لبنان والأردن راغبان في الانضمام إلى الحلف والمسألة مسألة وقت. أما سورية وهي في وضعها الحالي عاجزة عن اتخاذ موقف حازم تجاه هذه القضية الأمر

الذي يجعلها في عزلة. فالسياسة الأميركية منصرفة انصرافاً عنيداً إلى تهيئة الجو لحدوث انقلاب داخلي فيها. ولكن السياسة الأميركية تلاقي صعوبات كبيرة في هذا الأمر بالنظر إلى خلو المسرح السياسي في سورية من أحزاب أو هيئات أو أشخاص ترى فيهم إمكانية قيام الانقلاب المذكور. فإذا اتخذ الحزب السوري القومي موقفاً صريحاً واضحاً يتصف علناً أولاً بمقاومة الشيوعية وثانياً بالاستعداد للتعاون مع الغرب بشروط تؤمّن وتضمن المصلحة العليا يكون عندئذ في موقف يخوِّله التفاوض على أساس أنه الهيئة المؤهلة لإقامة الحكم الإيجابي القوي. وهذا يتطلب ما يلي:

أولاً: الاتصال فوراً بالمراجع الأميركية المسؤولة، والحكومة الأميركية مستعدة لمثل هذا الاتصال؛

ثانياً: كي يتحقق هذا الاتصال وينجح يقتضي على الحزب القيام بما يلي:

أ- يقرر الحزب ويعلن سياسة داخلية للجمهورية السورية تقوم على برنامج عملي واضح للإصلاح الاجتماعي والاقتصادي الشامل؛

ب- يقرر الحزب ويعلن في بيان رسمي موقفه المعارض لفساد الأوضاع المتعاقبة منذ العهد الاستقلالي ويدعو الشعب للالتفاف حوله بحزم من أجل الخلاص؛

ج- لكي يضمن الحزب تنفيذ خطته المشار إليها يقتضي على الحكومة الأميركية أن تقوم بما يلي:

1. استخدام كل الوسائل لمساعدة الحزب على تمهيد الطريق أمامه للوصول إلى الحكم؛

2. أن تمد الحزب بالمساعدات المالية التي تمكنه من تعزيز وسائله الخاصة وتوسيعها؛

3. أن تتعهد الحكومة الأميركية بالاعتراف بالحكومة الجديدة عند قيامها وأن تضمن سيادة البلاد القومية.

وإن الحكومة الأميركية مستعدة لبحث هذه المواضيع مع مسؤول حزبي مفوَّض ومزوَّد بالأمور التالية:

- رد على هذا التقرير.
- خطة مدروسة تامة بكيفية الوصول إلى الهدف.

- مستلزمات نجاح الخطة.
- الجهات الأخرى التي تشترك لتنفيذ هذه الخطة.
- شيفرة للاتصال البرقي.".

انتهى تقرير هشام الشرابي.

واقتربت فترة رئاسة هاشم الأتاسي من نهايتها ولم يبقَ منها سوى أربعة أشهر ونيف: في السادس من أيلول عام 1955 انتهت رئاسة الأتاسي. وكان اليمين في حالة تفكك فقامت الجبهة الوطنية التي يسيطر عليها اليسار وتجمعا العظم والعسلي البرلمانيان، وأفلتت من ذلك اليمين الأكثرية الضرورية لتشكيل الوزارة. وفيما لو دام الحال على هذا الشكل، بل فيما لو تفاقم باتجاه تعزيز مواقع تلك الجبهة الوطنية، فإن فرصة العظم في تسنّم منصب الرئاسة الأولى تصبح مؤكدة. وطموحات هذه الشخصية السياسية كان بالإمكان أن لا تقف عند تسنّم هذا المنصب فتتجاوزه إلى أبعد منه في المنطقة العربية الآسيوية، الأمر الذي يسبب امتداد نفوذ تلك الجبهة الوطنية فيها وما يتبعه من تصاعد رواج

فكرة "الحياد الإيجابي" بين جماهيرها العربية وتشكيلها أساساً أيديولوجياً لقيام أجواء معادية للمسيرة الأميركية للحلول محل المستعمرين القدماء، لقيام نظام عام هنا يشكل قلب الإمبراطورية العالمية التي كانت تطمح إلى بنائها الرأسمالية الاحتكارية الأميركية. وما كان العالم المتحرر حينذاك ينقصه مزيد من تصعيد ثورته ضد الاستعمار بكل أشكاله وهو يتنادى للاجتماع في باندونغ. وقد تم هذا اللقاء لقيادات تلك الشعوب التي تتذكر جيداً قهر المستعمرين القدماء، وكان خالد العظم وبرفقته خالد بكداش في هذا اللقاء. لقد بلغ السيل الزبى وأُسقط في يد جهات عالمية وإقليمية فضلاً عن الأذناب المحليين. فالرعب استولى على الرجعيين السعوديين والانتهازيين الساداتيين في مصر إلى جانب القلق العميق للأميركيين. وكان حزب البعث الذي قاوم الوثنية القوتلية مقاومة ضارية، منذ جلاء الأجنبي عن أرض الوطن حتى انقلاب حسني الزعيم، قلقاً أيضاً من عودة نشاط القوتلي للوصول إلى سدة الرئاسة الأولى مؤيداً من مصر والسعودية. وكانت جماهير العسكريين تشارك البعث في قلقه وفي

مقدمتهم العقيد عدنان المالكي. فقررت المخابرات الأميركية أن تضرب ضربتها باغتيال العقيد عدنان، وأعدت العدة للقيام بهذه العملية الإجرامية، ووزعت بعناية فائقة الأدوار على عملائها. وقد وقع الاغتيال في هذه الأجواء التي نصفها هنا في الثاني والعشرين من نيسان عام 1955 أثناء انعقاد مؤتمر باندونغ.

كانت الجبهة الوطنية عند وقوع حادث الاغتيال مقتصرة من الناحية العملية على السياسيين الناشطين في حدود البرلمان. وهذا لا ينفي ما نذهب إليه دوماً في هذه الدراسة وفي غيرها من أن الجماهير تكون دوماً، من يمينها إلى يسارها، عدا أقلية ضئيلة من الانتهازيين وعملاء المستعمرين، في جبهة واحدة ضد كل ما يهدد أمن وطنها ويؤخر تقدمه، ضد المستعمرين وأعوانهم. وهي كثيراً ما تتجاوز قادتها في أيام المحن، كما حدث ورأينا عند سقوط حكم الشيشكلي عندما وضعتها عفويتها أمام قياداتها. ولكن تنظيم الجماهير وتعبئتها يكون على كل حال عن طريق الجماعات المتحزبة فيها بحسب عقائد مناسبة. وترتفع

مقاومتها بارتفاع وعي أحزابها للظروف المحيطة وانخفاض تعارضها وتضاربها فيما بين بعضها بعضاً. نقول إذن إن تلك الجبهة الوطنية ما كانت بعد تتعدى حدود البرلمان في تلك الظروف التي نشير إليها، وما كانت على الأخص تمتد إلى جماهير العسكريين. وكان المالكي بحكم علاقاته العائلية والاجتماعية، وبحكم ماضيه النضالي ضد الديكتاتوريات والوثنيات، واعياً تماماً الظرف الذي تمر به البلاد، فكان تفكيره ومذهبه ككل مناضل مجرِّب من تفكير ومذهب تلك الجبهة الوطنية التقدمية الآنفة الذكر. ونجد من جهة ثانية أن ذلك اليمين الموصوف أعلاه ما كان بإمكانه أن يفرض القوتلي رئيساً للجمهورية في الظروف السائدة حينذاك دون الاستعانة بقيادة الجيش أو دون تحييد هذه القيادة على الأقل: لقد مر معنا ورأينا أن هذا اليمين عجز عن تشكيل الوزارة واضطر للتراجع أمام تلك الجبهة الوطنية، فكان من باب أولى أن يتراجع أمامها عند التصويت لانتخاب الرئيس الذي سيكون بكل تأكيد خالد العظم إن لم يتعدل الظرف السياسي لصالح القوتلي بكسب قيادة الجيش إلى هذا التعديل أو تحييدها

كما قلنا. ولكن المالكي كان وحيداً في قيادة الجيش، كان يرأس الشعبة الثالثة: شعبة العمليات، أما رئيس الأركان شوكت شقير فكان ضعيفاً معزولاً، بينما كان بقية رؤساء الشعب غير معنيين بأفكار الجبهة الوطنية وتسيطر عليهم فكرة الحياد السياسي الجامد للجيش. ولا نقصد بطبيعة الحال أن ننفي الحياد عن المرحوم المالكي، والعكس هو الصحيح، لقد كان وجوده ضمانة لحياد العسكريين أمام مناورات ومداورات ومؤامرات اليمين الذي لا يترك وسيلة توصله إلى هدفه دون أن يمسك بها، وهو يتظاهر بالبراءة والمسكنة... وكان المستعمرون وعلى رأسهم الأميركان في الساحة...

لم ترَ القيادات الوطنية هذا الظرف الذي نصفه هنا وغفلت عن دقائقه، في حين لاحظه بداهة المستعمر الأميركي فقرر اغتيال العقيد عدنان المالكي كبدء لسلسة عمليات تؤدي إلى شل قدرة الجبهة الوطنية وتجميع اليمين لخوض معركة الرئاسة. وهنا نود أن نلفت النظر إلى أمر خطير وهام قلما يجلب انتباه متتبعي مثل هذه الأمور، فتنطلق الاتهامات والظنون العشوائية الظالمة المضللة بسبب عدم التدقيق وفهم

طبيعة الحياة. والأمر الخطير المقصود هنا هو أن المشتركين في الأحداث اليومية يكونون على العموم أبرياء جميعاً، عدا قلة ضئيلة، من أسباب تلك الأحداث. فالرئيس شكري القوتلي مثلاً الذي كان يسعى إلى تسنّم الرئاسة للمرة الثالثة كان رجلاً وطنياً مستقيماً يريد كل الخير لوطنه ويسترخص الحياة للدفاع عن مصالح هذا الوطن. وإذا كان الأميركان وأعوانهم في المنطقة يفضلونه على غيره لتسنّم منصب الرئاسة الأولى في سورية فهذا من شأنهم هم ولا ذنب له في ذلك مادام يعتقد بصحة خطه وتوجهاته لخدمة وطنه. وكذلك يمكن القول بما يشبه هذا بالنسبة إلى الآخرين الذين شاركوا في تلك الأحداث المشار إليها آنفاً: لقد انطلقت أحداث على كل حال، وشارك فيها الناس جميعاً، على العموم، كل بحسب موقعه الاجتماعي في هذا الاتجاه أو ذاك دون أن يكونوا جميعاً متآمرين. أما أميركا التي أطلقت الحدث الكبير الذي هو التآمر لاغتيال المالكي وتنفيذ هذا الاغتيال، فإنها لم تُبَلِّغْ، بطبيعة الحال، عن هدفها وتفاصيل خطتها للوصول إلى هذا الهدف أياً كان من البشر، اللهم سوى واضع هذه الخطة ومحدد هدفها. إنها لن

تقول مثلاً للمستفيد الأول من خطتها وهو المرحوم القوتلي إنها ستعمل على إيصاله إلى كرسي الرئاسة لأنه كان سيرفض بالتأكيد هذا العرض لوطنيته وإبائه أن يكون المستعمر وسيلته للفوز بهذا الكرسي. ولو كان قد علم بأنها كانت تدبر اغتيال العقيد المالكي لتسهيل هذا الأمر لكان إذن انضم إلى صفوف محاربيها بكل تأكيد لمنعها من تنفيذ جريمتها. وقد يكون أحد مسؤوليها قد أبلغ القوتلي عن أنها لا تمانع في عودته إلى الحكم وأنها ستكون مسرورة بفوزه، فإنه، بهذا الاحتمال، سيكون ممتناً لهذا السرور، وإن كان كاذباً فهو غير مسؤول عن صدقه أو كذبه[∃] أو غرضه، فكل هذا من شأن صاحبه.

إن مثل هذه الجريمة النكراء لها أصداء عالمية وإقليمية ومحلية، فيجب اتخاذ كل التدابير من قبل المخابرات الأميركية كي لا تؤذي تلك الأصداء سمعة هذه الدولة التي كانت حينذاك تتظاهر بمساندة تحرر المستعمرات، ولكن لتقع هذه المستعمرات في نطاق استعمارها الجديد الذي كانت

منهمكة في بنائه. فبالنسبة للعالم كان يجب أن يأخذ الحادث مثلاً شكل نتيجة صراع قائم بين جماعات بدائية في بلد متخلف. وبالنسبة للمنطقة يجب تشويه سمعة المالكي وجعله واقعاً تحت تأثير "الشيوعية الدولية". أما بالنسبة للمجتمع السوري فيجب أن يصوَّر الحادث على أنه صراع على السلطة بين حزب البعث وبين الحزب السوري القومي. أي في النتيجة إخفاء الهدف الحقيقي لجريمة الاغتيال وهو تدمير كل طموح سوري لإشعال مقاومة عربية جادة ضد مخططات صهينة المنطقة لحساب الرأسمالية الاحتكارية الأميركية. يجب أن يختفي في هذه الحالة موقع الصراع على كرسي الرئاسة السورية في المخطط التآمري العام للولايات المتحدة الأميركية. وقد تمكنت مخابرات هذه الدولة بكل أسف من تمويه أفعالها هذه عن القيادات الوطنية، التي كانت بطبيعة الحال ترى جيداً الصراع بين اتجاهي القوتلي والعظم كما ترى بوضوح الهجمة الأميركية والرجعية العربية على الحكم في سورية، إلا أنها ما كانت لتربط بين هذين الأمرين وبين عملية الاغتيال اللئيمة، بالإضافة إلى عجزها عن وضع كل

تلك الأحداث في مكانها الصحيح في المسلسل التاريخي لتستنتج أقرب صورة واقعية للهجمة الاستعمارية الأميركية. إنها وقعت في الفخ وتصورت أن الاغتيال المذكور كان مجرد نتيجة للصراع بين حزبي البعث والسوري القومي، أي أنه كان لا يتعدى الحدود المحلية، فهو صراع على السلطة بين حزبين فحسب بتلك التصورات وليس عملية لها أبعادها العالمية المرتبطة بإقامة أسس الاستعمار الجديد في منطقتنا العربية. لقد تم فضح أميركا وفضح تدخلها السافر في تلك الجريمة، ولكن الأهداف الكبرى التي كانت هذه الجريمة نقطة انطلاق المسيرة نحوها بقيت غير واضحة لعدم وضوح وعي أولئك القادة في تلك الأيام.

لقد كان على القيادات العقائدية أن تستنير بعقائدها لتتفتح على العالم، فتنظر بشكل صحيح إلى ظروفه وإلى ما تدبره له الولايات المتحدة الأميركية. لقد كان عليها أن لا تترك العقيد المالكي وحيداً في قيادة الجيش، كان عليها أن تعمل على توسيع الجبهة الوطنية لتشمل القيادات الفعالة في الجيش، كما فعلنا نحن فيما بعد واستدركناه، إذن لأصبح كل مسؤولي

الأركان موحدين بالفكرة مع المـالكي، ولاستحال بالتـالي علـى المخـابرات الأميركيـة أن تغتـال كـل الأركـان للوصـول إلـى بغيتها.

∃ أي إذا كان سرور الولايات المتحدة كاذبـاً فـالرئيس القوتلي غير مسؤول عن هذا؛ (ي.ب).

الفصل الثاني عشر

الجبهة الوطنية

الذي حرر المستعمرات من الاستعمار القديم ليس أميركا

أشرنا في الفصل السابق إلى أن اغتيال العقيد عدنان المالكي ما كان نتيجة صراعات شخصية ولا حزبية محلية، وإنما كان في إطار مخطط أميركي لمحاصرة الحركة الوطنية السورية ومنعها من قيادة ثورة التحرر العربي للسير بالأمة العربية نحو توحيد وطنها بعد طرد قدماء المستعمرين منه واجتثاث الصهيونية من فلسطين. كانت الرأسمالية الاحتكارية الأميركية في تلك الأيام منهمكة في بناء الاستعمار الجديد على أنقاض القديم، في خضم الحركة العارمة للتحرر العالمي التي كانت تكتسح هذه الأنقاض. أي أن العالم كان يمر حينذاك بمرحلة ينعدم فيها الجزم والتعيين في هذا الاتجاه أو ذاك وبالتالي كان المستعمرون يجدون أنفسهم في أوقات حرجة فلا الجديد كان قد تم كي يملك القوة اللازمة لتوجيه الأحداث

حسب مصالحه ورغباته، ولا القديم الغارب المتشبث عبثاً بالبقاء كان باستطاعته التأثير، وكل هذا أمام الزخم الطاغي لحركة التحرر الجماهيرية في كل أنحاء العالم الذي ما كان يتذكر في تلك الأيام إلا الكوارث التي سببتها له الرأسمالية بحروبها التي ذهبت بأرواح عشرات ملايين البشر وبقهرها الذي خنق الإنسان طوال القرون. وكان لا ينقص إلا الوعي الكامل لأجهزة قيادة طالبي التحرر، لا ينقص سوى رؤية الاستعمار الأميركي على حقيقته وتقدير ما كان يدبره في تلك الأيام واستشعار أخطاره المقبلة واتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنعه من الترعرع والتضخم على حساب سلامة وأمن البشر في الجملة الإنسانية. لقد كان بإمكان حركة وطنية واعية في موقع خطير، كالحركة الوطنية السورية في الموقع الحاسم للقطر السوري، أن توقع هذا الاستعمار الجديد في أزمة قاتلة تسد عليه السبل في منطقتها. وعندما تتضافر جهود سواد البشر ضده في شتى أنحاء العالم فإنه لا بد منتهٍ عند ذلك إلى نهايته. ولكن هذا كان يتطلب بَدْءاً ينبه العالم إلى أخطاره

المقبلة وليس السكوت عليه وتجميله لا سيما من قبل حركة وطنية يعتقد الناس بصدقها ويحترمونها.

حاول المستعمرون الأميركان جعل جلسات المحكمة التي نظرت في قضية المالكي سرّية كي لا تطلع الجماهير السورية والعربية والعالمية على الدور المخزي الذي كان لهم في هذه القضية. وما كانت وقاحة ممثليهم المشهورة لتتردد عن إبراز حجج سخيفة لمنع علنية المحاكمة فقالوا مثلاً: "إن في القضية المذكورة مساساً بأميركا وهي دولة عظمى!..". نعم، هذا ما قيل لي كي استجيب لطلب سرّية جلسات المحكمة التي كنت فيها مستشاراً. وكان جوابي: "إن حسن أو سوء سمعة هذه الدولة العظمى يرتبط بسلوكها هي وليس من وظيفتنا نحن إخفاء جرائمها في الوقت الذي نحن فيه الضحية.. إنني أعارض بشدة طلب السرّية وسأنسحب من المحكمة وأعرض الأمر برمّته على الجماهير السورية المدنية والعسكرية عند إقرار هذا الطلب..". وقد جرت جلسات تلك المحكمة علناً وكانت وقائعها تنشر بحذافيرها في الصحف المحلية، كما نقلت وقائعها مباشرة على الهواء

ليسمعها القاصي والداني. فكان لسورية ولجماهيرها شرف تعرية استعمار هذه الدولة وغدرها محلياً وعربياً وعالمياً في تلك الأوقات التي كانت هذه الدولة تتصنع دعم التحرر، ولكن من الاستعمار القديم فقط للوقوع في الجديد الذي كانت تدبره للإنسانية. وكان كثير من بسطاء الناس مخدوعاً حينذاك بالتحرر المزعوم لهذه الدولة، فهي طالما تسللت في الحركات الوطنية تحت هذا القناع، هذه الحركات التي شغلها الاستعمار القديم الغارب ولم تنتبه بشكل كاف إلى الجديد إلا بعد فوات الأوان.

وكانت تربطني بالعقيد المالكي صداقة تعود إلى أيام الكلية العسكرية حيث كان الشهيد متقدمي. وارتبطنا معاً في تنظيم العسكريين العرب الوطنيين في القطعات الخاصة أيام الانتداب الفرنسي، كما التقينا معاً في عدد من المواقع قبل جلاء الأجنبي عن أرض الوطن وبعده. وكنا مدربين لدورتي الاستقلال في الكلية العسكرية، الدورتين اللتين اشتهرتا، مع الدفعات الأخرى المستجدة، في الأحداث التاريخية التي مرت بسورية. وأوفِدْنا إلى باريز، المالكي لدورة الأركان وأنا

للدراسة في المعهد الجغرافي الفرنسي، بعد سقوط حسني الزعيم مباشرة، وكان هذا الإيفاد للإبعاد في ظروف التقلبات السياسية حينذاك. وقد اشتركت مع الشهيد منذ أن وصلنا إلى العاصمة الفرنسية بتقديم احتجاج إلى القيادة على ارتفاع تعويضات الموفدين العسكريين وطلبنا إنقاص هذه التعويضات لتتساوى مع تعويضات موفدي الدولة الآخرين للدراسة ولتخفيف أعباء وطننا النامي، الأمر الذي كلفنا توبيخاً شديد اللهجة من قيادتنا أجبنا عليه بنقد ساخر. ثم عاد عدنان إلى أرض الوطن وتابعت أنا دراستي في المعهد المذكور أعلاه وفي كلية العلوم في السوربون. وبعودتي إلى سورية في نهاية دراستي كان عدنان في سجون الشيشكلي بعد تسريحه من الجيش وملاحقته من قبل سلطات هذا الديكتاتور، وقد مرت أخبار هذه الأيام في فصول سابقة من هذه الدراسة.

كان حزني شديداً لاستشهاد هذا الرمز الكبير للحرية والكفاح من أجل تقدم الوطن. وعندما درست إضبارة الدعوى واطلعت على ما فيها من مستمسكات تثبت تورط المخابرات الأميركية في تدبير وارتكاب هذه الجريمة النكراء اتصلت

عندي الصور البشعة لجرائم هذه الدولة ضد الإنسانية وضد أمتنا ووجدت فيها شريطاً واحداً طويلاً يطول ويطول: من إبادة الهنود الحمر واغتصاب مرابعهم، إلى أرتال الفلسطينيين الناجين من المذابح على الطرقات المؤدية إلى المخيمات التي نصبت لهم بعيداً عن أرضهم التي احتلها الخزر المتهودون الذين أتوا ليقيموا قاعدة لأميركا في وطننا فلسطين. ومر بخاطري مئات ألوف اليابانيين الذي أبادهم خلال ثوان هؤلاء الوحوش الأميركان بالسلاح النووي في نهاية الحرب العالمية الثانية في الوقت الذي كانت فيه الحكومة اليابانية تعِدّ مذكرة الاستسلام بلا قيد أو شرط، وكانت الحكومة الأميركية على علم أكيد بهذا الأمر ولكنها ارتكبت هذه الفظاعة التي لا ضرورة عسكرية لها سوى أنها أرادت تجريب ذلك السلاح الجديد على البشر وممتلكاته قبل أن تضع الحرب أوزارها ويمتنع هذا الأمر عليها في حالة قيام السلم. وتذكرت أيضاً الجنرال رايلي الأميركي رئيس مراقبي الهدنة الذي تبعني إلى نيويورك عندما ذهبت إليها مرسلاً من حكومة بلدي لتقديم شكوى ضد الكيان الصهيوني الذي قام بعدوان على الأرض

المجـردة لابتلاعهـا. وكـان بنيّتنـا دعـوة الـدكتور رالـف بـنش الأمين العام المساعد للأمم المتحدة لتأدية الشهادة أمام الجمعيـة العامة في هذه القضية، على اعتبـار أنـه كـان الشـاهد المشـرف والضـامن والمؤهل لتفسير بنـود الهدنـة بيننـا وبـين الصـهاينة، فأخبرنا هذا الموظف الكبير بأننا محقون ولكنـه لا يسـتطيع أن يشـهد لنـا بـذلك لأنـه يُعَرِّضُ سـلامته وسـلامة عائلتـه إن فعـل. وكـان رايلـي المـذكور قد أتـى، كمـا قلنـا، إلـى نيويـورك لينـذر حكومته بـالأمر لتضـغط علـى بنش كـي يجيبنـا بـذلك الجـواب. واستعرضــت بــذهني مشــاهداتي الشخصــية فــي فرانســة إلــى جانـب مـا سـمعته مـن الفرنسـيين عـن فظاظـة العسـكريين الأميـركيين تجـاه حلفـائهم هـؤلاء عنـدما جـاءوا لتحريـرهم مـن الألمـان إلـخ.. وكنـت كغيـري مـن مـواطنيي السـوريين والعـرب أعيش ظروف تلك الأيام وأشاهد تصميم جماهيرنا العربية فـي كل أقطارها في الوقت الـذي كنـت أرى فيـه مـع غيـري تخـاذل أنظمتنـا العربيـة تجـاه المسـتعمرين عمومـاً وتقصـير قياداتنـا الوطنيـة فـي مقاومـة هـذا الاسـتعمار الجديـد اللئـيم الـذي كانـت الولايات المتحـدة الأميركيـة منهمكـة فـي بنائـه حينـذاك. وكنـت

أرى أن الجبهة الوطنية كانت دوماً قائمة بين الجماهير السورية، وهذا طالما منع وقوع قطرنا السوري فريسة أنظمة ديكتاتورية سافرة ومقنـّعة الأمر الذي يحدث بسبب انقطاع اللحمة الكاملة بين جماهير العسكريين وجماهير المدنيين.

إن أشكال الدولة التي ورثناها عن المستعمرين هي أشكال تنخرط بها شعوبنا في نظامهم العالمي العبودي كتابعة، كمستعمرات جديدة لاستعمار جديد. فالمجتمع العبودي الرأسمالي يخضع لنظام تديره أجهزة الدولة التي تحميه أيضاً من أعدائه في الداخل والخارج. ذلك لأن العبودية بكل أشكالها هي في جوهرها نظام اغتصاب لمصلحة قلة من الناس ضد سوادهم في الداخل والخارج. وفي الطور الرأسمالي الاحتكاري يأخذ النظام، بأجهزته وفي مقدمتها السوق الاحتكاري، دور موزع القيم المغتصبة والثروات المنهوبة. وهذا نظام لا يرضى به بداهة إلا قلة من الناس فتحتاج هذه القلة لفرضه على أكثرية الناس إلى أجهزة قمع مناسبة يكون الجيش في مقدمتها. فهذه المؤسسة بيد الرأسماليين تكون أداة عدوان داخلي وخارجي ولا يمكن أن تكون إلا بهذه الصورة.

أما في العالم المتخلف التابع للرأسماليين فإن الجيوش تصبح أداة تمزيق هذا العالم بشن الحروب العبثية المدمرة فيما بين بعضها بعضاً كي لا تتحد جماهير هذا العالم ضد قاهريها الرأسماليين، كما تكون جيوش احتلال لبلدها لحساب هؤلاء الرأسماليين. لكل هذا وغيره كنت أرى أن حكومات البلاد المتخلفة التي تحاكي بشكلها الفضفاض حكومات أوروبا هي من المظاهر الخادعة، وإن كانت من علامات "التمدن" عند بعض مثقفينا محبي الأشكال الدارجة عند "الأسياد" المستعمرين. ولا يعني هذا تحبيذ النظم العشائرية المتخلفة فهي أيضاً واقعة بيد المستعمرين ومجندة في خدمتهم وهي امتداد لهم في بلدها. والمطلوب يختلف عن هذا أو ذاك وهو النظام الجماهيري الثوري المناسب حيث يكون الجيش دوماً امتداداً مسلحاً للجماهير المسلحة ومدرسة جهادية لها. ومثل هذا الشكل من تنظيم المجتمع في العالم الثالث يجب أن يجعل الانقلاب العسكري الصريح أو المبطن لصالح ديكتاتور ووثنية تكون وراءها المخابرات المركزية الأميركية صعباً إلى درجة الاستحالة. وقد ناقشت هذا الموضوع مع المرحوم

جمال عبد الناصر عدداً من المرات قبل الوحدة وبعدها. وكنت أؤمن أن الصحيح لا يحتاج على العموم إلى قسر لإقامته وأن على كل قادر في كل دائرة من الدوائر الاجتماعية أن يسعى إلى رفع البغي عن الإنسان من أي مصدر وبأي شكل أتى هذا البغي وأن ميزان صحة الأمر هو غضب المستعمرين وعدم رضاهم وخاصة منهم الأميركان.

ورأيت بعد تجاربنا التي انتهت باستشهاد العقيد عدنان المالكي غيلة أن أفضل السعي هو العمل على تمديد الجبهة الوطنية إلى الجيش. ولا يعني هذا أنه كان هناك في الجيش أحزاب متنافرة تتربص بعضها ببعضها الآخر أو أن الأحزاب المختلفة في الساحة السورية كانت تمدد خصوماتها إلى الجيش كما حاول تصويره العدو المستعمر وأذنابه، إلا أنه من الطبيعي أن يكون في التجمعات الإنسانية، ومنها التجمعات العسكرية، ميول مختلفة وصداقات وقرابات مع مختلف الجهات السياسية. ثم إن عسكريي الجيش السوري قبل انخراطهم في سلك الجندية كانوا أولاداً وشباباً لهم انتماءاتهم الاجتماعية وهي انتماءات وطنية كلها مهما كان اتجاهها.

ويغلب على العموم الاتجاه اليساري في العالم الثالث الذي منه سورية.

وساعدتني ظروفي وصداقاتي الممتدة إلى مختلف الفئات العسكرية وصلاتي الاجتماعية التي ما انقطعت أبداً بالناس من مختلف الاتجاهات والمشارب، في الأحوال العامة السائدة حينذاك في هذا البلد الطيب المجاهد، على إنجاز اتصالات مفيدة للغرض الذي كنت أرمي إليه. فكنت لا أتردد ولا أترك فرصة لعقد اجتماع أو توفير لقاء هنا وهناك في كل وقت ممكن للتبشير علناً بتكتيل العسكريين حول الأهداف القومية المعروفة جيداً من كل أبناء الوطن، الأهداف التي كانت تستغل من قبل الانتهازيين لركوب الموجة وإقامة الديكتاتوريات العسكرية المنتهية دوماً إلى خدمة الأغراض المعاكسة المفيدة للمستعمرين. وناديت بمقولة أساسية هي: إن للوطن حدين الواحد في مواجهة الأعداء المتربصين، والآخر الذي كثيراً ما نسهى عن رؤيته وهو الذي في مواجهة أطماع الانتهازيين المرتبطين بشكل من الأشكال بالمستعمرين لتسهيل أمورهم في أوطاننا عن طريق حكم ديكتاتوري سافر

أو مبطن. وكنت أقول إن على الجيش أن يكون على الحدين لحماية الوطن وليس فقط على الحد الخارجي. كنت أنبه باستمرار إلى الخطر المتمثل بالاستعمار الجديد ومؤامراته التي ما كانت تتوقف علينا، فإذا سلم الجيش بتكتله ووحدته النفسية من التسلل الانتهازي ليُستغلَّ سلاحه من قبل انتهازي عسكري أو غير عسكري فإن بإمكانه بسهولة إحباط أي حركة تطيح بحرية الجماهير وتكمم الأفواه لصالح العدو الأميركي الأساسي الواقف متربصاً وراء الصهاينة يهوداً أو غير يهود. ثم إن الحد الداخلي الآنف الذكر، حد الحرية والقهر الديكتاتوري، هو الحد الأخطر لغموضه، أما الحد الآخر الخارجي فإنه واضح لا يخطئه أحد فيتكتل بلحظة واحدة كل الناس لمواجهته.

لقد كان إذن على العسكريين أن يحرسوا حرية الجماهير السورية لتتمكن الجبهة الوطنية في قطرنا من قيادة الثورة العربية المعاصرة بالاشتراك مع القيادات الثورية في الأقطار العربية الأخرى. ويجب الوصول، قبل كل أمر آخر، إلى بناء موحد للمقاومة الجماهيرية السورية المدنية والعسكرية وأن

يكون لهذا البناء قيادة موحدة، فيستحيل في مثل هذا الوضع على الاستعمار العالمي النيل من حرية الشعب السوري بمؤامرة أو اغتيال أو ما شابه. كان علينا أن نحقق وحدة الجماهير المدنية والعسكرية لتقف هذه الجماهير صفاً واحداً في مواجهة العدو وأعوانه والإحاطة بكل بؤر التخريب والقضاء عليها قبل أن يمتد أذاها ويستفحل. وقد حظيت بدعم كبير لتحقيق هذه الأهداف من كل الجهات الوطنية وأخص بالذكر منها كتلة الضباط الفلسطينيين وتلاميذي وزملائي العسكريين وأصدقائي من رجال السياسة والنشاط الاجتماعي وكل أولئك الذين يشكلون كتل المجاهدين المجهولين الذين يستحيل إحصاؤهم وتعدادهم. وعليَّ أن أنبه إلى أن ما أسرده هنا لا يشكل سوى مجهود فردي تشرفت بإضافته إلى مساعي شعب عريق بالنضال. فأنا كنت في الواقع واحداً يسير في طريق عريض تملؤه جماهير شعبنا السوري. وما كنت أقترحه ما كان إلا من وحي إرادة هذه الجماهير وتعبيراً عنها. وما تم في الجيش أنجزه ضباط وصف ضباط وجنود كانوا في المدارس التي اشتهرت على الدوام بانتفاضاتها على

ظلم المستعمر المحتل لأرض الوطن، ثم في ثوراتها على كل أشكال الوثنيات المدنية والعسكرية بعد جلاء الأجنبي المحتل. وهم الذين قاتلوا العدو الصهيوني وهزموه بشجاعتهم وتضحياتهم، على قلة وسائلهم، وإيمانهم بحقهم وكرههم للمستعمر وأتباعه وجنده. إلا أنه مع كل هذا وعلى الرغم مما توفر من أسس ومنطلقات مادية إيجابية لتتقدم قيادات الجبهة الوطنية في سورية لقيادة الثورة العربية الناشبة هنا وهناك في وطننا العربي من المحيط إلى الخليج إلا أنها ترددت وضاعت في الشكوك المتبادلة فيما بين بعضها بعضاً، بالإضافة إلى مساعي عملاء أميركا في الحركة الوطنية العربية الذين لم يوفروا جهداً في الدس فيما بينها وتأليب مختلف فئاتها بعضها على البعض الآخر. لذلك ما كان عملنا سهلاً وسهرنا الليالي طوال سنة ونصف كي نصل إلى شكل مقبول لجبهة وطنية مدنية عسكرية وقيادة عامة لها.

إن الانتهازية "وتهيؤات" بعض من تقدموا صفوف الحركة الوطنية العربية بحق وبغير حق، لا سيما في الحركة الوطنية المصرية أكبر وأشهر حركة في وطننا العربي، كان

لها الأثر الحاسم في تضييق أفق رؤيا الكفاح العربي ضد القهر العالمي. فالاستعمار القديم الذي ما زالت له قواعد في أرض مصر مثلاً في تلك الأيام كان الشغل الشاغل للثورة المصرية، وهذا أمر طبيعي لا عيب فيه ولا بد منه، ولكن الخطأ الفادح يكمن في التوهم، كما فعلت قيادة الثورة هناك، وكما دفعها إلى متاهات هذا الوهم أولئك "الستراتيجيون" الانتهازيون، بإمكان دفع الاستعمار الأميركي دون الوقوع في شباكه إلى مساعدة هذه الثورة للخلاص من الاستعمار القديم. فالاحتلال الأجنبي كان وسيلة للعلاقة العبودية التي هي الاستعمار القديم، فبرهن لنا الأميركان، ولكن على حسابنا، أن بالإمكان استمرار هذه العبودية بدون الاحتلال الأجنبي، بأولئك الانتهازيين الرجعيين من قومنا الذين استبدل بهم المستعمرون الأميركان جيوش احتلاله. وهذا يعني أن الثورة المعاصرة هي الخلاص من النظام العالمي وليس فقط من النظام المحلي الخائن ومن المحتل الأجنبي. ففي هذا العصر نجد العسكر الأميركان، عندما تعجز مخابراتهم المركزية عن تبديل الحكومة بحكومة موالية لاستعمارها في بلد من العالم

الثالث، يذهبون إلى هذا البلد ويقبضون على رئيسه وينصبون غيره هناك ثم ينسحبون بملء إرادتهم، ذلك لأن عبودية نظامهم لا تتطلب حالياً بقاء عساكرهم في البلد المذكور لضمان بقائها.

إن الذي حرر العالم الثالث من مستعمريه القدماء هو ثوراته وتضحياته وليس الاستعمار الجديد الذي طلعت به أميركا على العالم في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ما كان بوسع الإنجليز مثلاً البقاء في مصر إلى ما لا نهاية أمام الثورة المصرية العارمة ضدهم. وما كان باستطاعة الأميركان مساعدتهم على البقاء فيما لو كنا "أغضبناهم" بطرد عملائهم من صفوفنا وبسد آذاننا عن سماع "نصائحهم". وقد يقول بعضهم إن ذلك كان يؤدي إلى إطالة المواجهة مع المستعمرين القدماء. ولكن العذاب الأطول كان في الاستكانة لهم وهم لن يزولوا إلا بمثل تلك المواجهة الطويلة الأمد. والبرهان على ما نقول هو ما نعانيه حالياً ولا ينقض هذا البرهان الحسي الدولارات التي قبضها ذلك "المبارك" هذا العام ليخرب، هو وشركاؤه الآخرون، المقاومة

العربية في ظروف تكاثف الوافدين الصهاينة إلى أرضنا المقدسة.

الميثاق القومي

لملم اليمين شعثه لاستثمار غياب قيادة الجيش عن الساحة بعد اغتيال العقيد المالكي في معركة انتخاب رئيس الجمهورية. اما اليسار والجبهة الوطنية التي كانت حينذاك، على كل حال، قيد التشكيل فلم تبلغ بعد مرحلة النضج، فإنهما لم يأخذا هذا الأمر بالجدية التي يستحقها، كما فعل اليمين ومن وراءه، وبشكل خاص لم يفهماه على أنه صراع بين اتجاهين في المنطقة: اتجاه تمَكُّن الاستعمار الأميركي وزيادة تغلغله في حياتنا وتدخله في شؤوننا الخاصة، واتجاه الاستقلال والثورة لتحقيق أهدافنا القومية التي لا يمكن بأي صورة من الصور أن تنسجم مع المخططات الاستعمارية الأميركية. ونجد هنا أن التحالفات قد انقلبت في هذه المعركة فوقف أنصار العراق وأنصار السعودية ومصر في صف يساندون ترشيح القوتلي للرئاسة بينما وقف البعثيون مع بقية التقدميين

يناصرون ترشيح العظم: حزب الشعب والحزب الوطني والمستقلون ونواب العشائر للقوتلي، وبقي للعظم أغلب كتلته مع البعثيين ونائب الحزب الشيوعي خالد بكداش. وفي الثامن عشر من آب عام 1955 فاز القوتلي بالاقتراع الثاني فنال 91 صوتاً بينما نال العظم 41 صوتاً. وكان هناك خمس أوراق بيضاء وورقتان لاغيتان. وتحليل هذه النتيجة يعطينا التقدير التالي: خسر العظم عدداً من نواب كتلته لصالح القوتلي لا يقل عن سبعة أصوات: كتلة العظم 30 صوتاً والبعثيون 17 صوتاً والشيوعيون صوتاً واحداً فيكون المجموع 48 لا 41 صوتاً كما ظهر في الاقتراع.

ما كانت في الواقع قيادة الجيش حيادية عندما غابت عن الساحة في معركة الرئاسة. فهذا الغياب سمح لبعض العسكريين بالتدخل في تلك المعركة موهمين بعض الكتل النيابية بأن الجيش يؤيد القوتلي. وقد وضعت السعودية والثورة المصرية كل ثقلهما لكسب ما أمكن من الأصوات لصالح الأخير. وقد عبّر أحد النواب عن هذا الأمر في الاقتراع الأول بأن ألقى ورقة اقتراعه وعليها اسم سفير

السعودية عبد العزيز بن زيد قاصداً بذلك السخرية من كل هذه العملية المدبرة بأموال السعودية. ورد عليه نائب آخر في الاقتراع الثاني، الذي تم فيه انتخاب القوتلي، بأن كتب على ورقة اقتراعه اسم نوري السعيد. ثم إن الثورة المصرية أرسلت إلى دمشق نقيباً سورياً كان يعمل في الملحقية العسكرية في القاهرة وذلك ليؤلب نواب العشائر ضد العظم ويدفعهم لإعطاء أصواتهم للقوتلي، على اعتبار أن هذا الضابط كان يعمل في قوات البادية السورية. وقد نقل إلي المرحوم فواز الشعلان الذي كانت تربطني به صداقة، أثناء ترؤسي المحكمة العسكرية في قضية المؤامرة الكبرى على سورية خبر حمله مبلغاً كبيراً من المال السعودي إلى هذا الضابط لقاء تأدية هذه الخدمة للقوتلي.

بدأ الرئيس القوتلي عهده بالدعوة إلى إقامة جبهة وطنية تضم جميع الفئات والأحزاب السورية. ففي الخطاب الذي ألقاه أمام مجلس النواب في جلسة أدائه القسم الدستوري لتسنم الرئاسة في السادس من أيلول 1955 قال: "..وإني الآن، وقد طُويَتْ صفحة الانتخاب، لأود من صميم قلبي أن تتجه

الأحزاب والهيئات نحو اتحاد قومي في هذه الأزمات الصعاب التي نواجهها نحن ويواجهها العالم العربي بأسره، فيشد بعضنا أزر بعض في العمل على إسعاد وطننا، ورفع مستوى شعبنا، وإدراك المثل العليا التي تستهوي أفئدتنا ونتطلع من خلالها إلى إنشاء مجتمع يسوده الحق والعدل والإخاء".

وعرض القوتلي بعد ذلك خطاً يسير عليه طوال فترة رئاسته يقوم على خمسة مبادئ هي: التمسك بالدستور واحترام القانون، وصيانة النظام الجمهوري، وحماية استقلال الوطن، وتعزيز قدراتنا الدفاعية، والسعي لتحقيق الوحدة العربية. وفي الخامس عشر من شباط عام 1956 عاد الرئيس القوتلي وأكد طلبه إلى نواب الأمة بإقامة جبهة وطنية بكتاب قال فيه: ".. لقد كانت الدعوة إلى اتحاد وطني وحكم قومي رائدي ودليلي منذ شرعت الاستشارات لتأليف أول حكومات هذا العهد، لقد حرصت أشد الحرص على أن تأتي نتائج المساعي والاتصالات منسجمة مع أماني هذا الشعب في أن تقوم على إدارة شؤونه وتأمين استقراره وتعزيز أسباب قوته ومنعته حكومة قومية على نطاق واسع تجتمع فيها كل العناصر التي

تمثل مجلسكم أشمل تمثيل وتجتمع لها شتى أسباب القوة والمضاء وحسن التوفيق. ثم قامت على الحكم حكومة ائتلافية كانت أقرب الحلول إلى الأمنيات وقد منحها مجلسكم الكريم ثقته الغالية..". وكانت هذه الحكومة التي أشار إليها القوتلي وقال إنها تمثل كل الاتجاهات في المجلس هي حكومة سعيد الغزي المؤلفة على الوجه التالي: لرئاسة الوزراء والخارجية سعيد الغزي (مستقل)، للمالية عبد الوهاب حومد (حزب الشعب)، للاقتصاد رزق الله أنطاكي (حزب الشعب)، للدفاع رشاد برمدا (حزب الشعب)، للداخلية علي بوظو (حزب الشعب)، للأشغال العامة عبد الباقي نظام الدين (الكتلة الديموقراطية)، للصحة بدر الدين العبود (الكتلة الديموقراطية)، للزراعة مصطفى ميرزا (الكتلة الدستورية)، وزير دولة للإعلام محمد سليمان الأحمد (الكتلة الدستورية)، للأوقاف أسعد هارون (مستقل)، وزيرا دولة المستقلان عبد الحسيب رسلان وحسن الأطرش، للتربية الوطنية مأمون الكزبري (مستقل).

ونجد أن حزب البعث والحزب الشيوعي لم يشتركا في هذه الوزارة التي هي، على عكس ما أكده القوتلي، وزارة يمينية بكل أعضائها دون استثناء. كما أن خالد العظم لم يشترك فيها أيضاً. لقد كانت حكومة على مقاس السعودية وإن كان رئيسها وأعضاؤها ممن يُشهد لهم بالوطنية والإخلاص، لأنه في كثير من الأحيان لا يكفي الإخلاص ولا الوطنية لأداء خدمة صحيحة للوطن إذ لا بد دوماً من "قناعة واعية" توجه الوطنية والإخلاص في أنسب طريق. ونجد في النتيجة أن سعي الرئيس القوتلي لتحقيق الوحدة الوطنية كان مسعىً مخلصاً من حيث المبدأ ولكنه يبقى، مع ذلك، محدوداً بعقلية صاحبه الأبوية الجامدة. لقد كان القوتلي سجين ماضيه فلم يتفتح على الزمن الذي أصبح فيه رئيساً للمرة الثالثة فركب في مركبات لاعبي هذا الزمن من عرب وأغراب، ولا أقول أنه كان ضعيف الشخصية أو قليل الفطنة، فالمسألة مسألة قديم وجديد.

وصدر عن الأحزاب والكتل النيابية بناءً على الكتاب الآنف الذكر للرئيس القوتلي ميثاقاً قومياً، ينص على ما يلي:

1. في السياسة العربية والخارجية:

أولاً- مقاومة الاستعمار والصهيونية وإسرائيل وذلك بعدم الاعتراف باغتصاب فلسطين:

أ- بمقاومة الصلح مع إسرائيل. وإحكام مقاطعتها. ومقاومة مشاريعها التوسعية وكل سياسة تؤدي إلى ذلك.

ب- بمناهضة الأحلاف العسكرية الأجنبية وكل سياسة تتجه في هذا السبيل.

ج- بانتهاج سياسة الحياد الإيجابي بين المعسكرين الغربي والشرقي ودعم مقررات باندونغ.

ثانياً- تحرير البلاد العربية وتوحيدها وذلك:

أ- بتوسيع الاتفاق الثنائي مع مصر بعقد اتفاقات بين الطرفين تشتمل على الشؤون الاقتصادية والسياسية والثقافية لتصبح هذه الاتفاقات نواة للوحدة

العربيـة الشـاملة بحيث تشمل مختلف النـواحي التـي يمكن توحيدها أو تنسيقها بين الطرفين.

ب- بالسـعي لتقويـة ميثـاق الجامعـة العربيـة باتجـاه سياسـة الاسـتقلال والوحـدة وتحقيـق الوحـدة الثقافيـة والاقتصــادية بـين جميـع الأقطـار العربيـة بوصـفها عاملاً يساعد على تحريرها وتوحيدها.

ج- بـــدعم الجـــيش العربـــي الأردنـــي وتحريره من القيادة الأجنبية عن طريق تقديم المساعدة الماليـة له.

د- بـدعم نضـال المغـرب العربـي فـي سبيل تحرير هذا الشطر الخطير من وطننـا العربـي تحريـراً كاملاً وانضمامه إلى الوحدة العربية الشاملة.

ثالثاً- توطيد علاقات الأمـة العربيـة مـع الأمـم الإسـلامية بما لا يمس قضـايانا القوميـة ومسـاعدة كل أمـة إسـلامية علـى التحرر.

رابعاً- انتهاج سياسة عربية خارجية استقلالية مستمدة من إيمان الشعب العربي بوحدته وحريته وسيادته ومتجهة نحو تدعيم علاقاتنا السياسية والدبلوماسية مع الدول التي تدعم قضايانا القومية.

خامساً- ممارسة سيادتنا الكاملة:

أ- في الدفاع عن أنفسنا وكياننا ووحدتنا بتسليحنا تسليحاً حراً.

ب- في تصنيع بلادنا والتخلص من تخلفنا عن طريق المساعدات العسكرية والفنية والمالية والاقتصادية الأجنبية بدون التزامات سياسية وعن طريق المقايضة بين منتجاتنا الزراعية وبتجهيزنا الصناعي والدفاعي وتدعيم علاقاتنا التجارية مع البلدان التي نجد فيها دعماً لاستقلالنا الاقتصادي والمالي.

2. في سياسة الدفاع:

تعبئة كامل قوى الأمة وإمكاناتها المادية والمعنوية في سبيل الدفاع عن كيانها القومي وذلك:

أ- بتنفيذ مشروع القرى الدفاعية في مناطق الحدود.

ب- بالإسراع بإنجاز مشروع مصفاة البترول وإنشاء مستودعات لتخزين المحروقات والمباشرة فوراً بجميع الوسائل الممكنة.

ج- باستكمال التسلح والتصنيع والتجهيز وإقامة المنشآت العسكرية للجيش.

د- بتدريب الشعب على الدفاع المدني بحيث يستطيع أن ينظم نفسه في كل حي وقرية لأعمال الدفاع السلبي وما يتطلبه ذلك من إسعاف وأمن ونقل وتمريض وملاجئ ومستشفيات ومطاعم ومهاجع وألبسة وأجهزة وأعمال رفع الأنقاض وإطفاء الحريق.

هـ- بتدريب الشبيبة على حمل السلاح وإعدادها إعداداً روحياً وجسمياً لمهمة الدفاع وبصورة خاصة بتشكيل الحرس الوطني.

و- بتوجيه أفراد الجيش توجيهاً روحياً يعزز الإيمان بالله في نفوسهم وتثقيفهم ثقافة عسكرية وقومية بتخصيص إذاعات منظمة ومجلات ونشرات وحفلات ومهرجانات متنوعة.

ز- بالسعي لوضع سياسة تسلح موحدة مع مصر وذلك بوحدة السلاح والتصنيع الحربي والتدريب باعتبار أن جيش سورية وجيش مصر يؤلفان نواة الجيش الموحد للدفاع عن الوطن العربي.

ح- بالأخذ بمبدأ فرض الخدمة المدنية واتخاذ الإجراءات اللازمة لتنفيذه.

3. في السياسة الداخلية:

أولاً- في الناحية المالية:

أ- فرض ضريبة استثنائية فوراً لمرة واحدة لسد حاجات الدفاع.

ب- إعادة النظر في نظام الضرائب بحيث يبنى على أسس حديثة عادلة.

ج- إعادة النظر في أسس ميزانية الدولة لوضعها على قواعد سليمة.

ثانياً- في الناحية الاقتصادية:

أ- اتباع سياسة تقنين وتدبير تقوم على أساس الحد أو المنع من استيراد المواد الاستهلاكية والكمالية والمنتجات الحيوانية والزراعية والصناعية.

ب- اتباع سياسة اقتصادية موجهة تهدف إلى تنشيط استثمار رأس المال القومي في المشاريع الإنتاجية وفي الصناعات التي تحررنا من أن نعيش عالة على البلاد الأجنبية والتي توفر العمل لليد العاملة في البلاد وترفع مستواها الاجتماعي والمعاشي كما تهدف إلى المقايضة بين

منتجاتنا وإنشاء المصانع ليتم الاستقلال الاقتصادي والسياسي بجعل مجلس الإنماء الاقتصادي معدّاً للمهمة التي أُنشئ من أجلها.

ج- سن تشريع لمنع الاحتكار ومكافحة الإثراء غير المشروع.

ثالثاً- الناحية الاجتماعية:

أ- مكافحة الإلحاد والميوعة والانحلال الخلقي.

ب- تحقيق العدالة الاجتماعية بتنفيذ الضمان الاجتماعي وبسن تشريع يحمي حقوق العمال والفلاحين وفق نصوص الدستور وبصورة خاصة فيما يتعلق بالهجرة والتسريح التعسفي.

ج- توزيع أراضي أملاك الدولة على الفلاحين غير المالكين وخريجي المدارس الزراعية وأفراد العشائر والمواطنين العاطلين عن العمل مع إيجاد تعاونيات تضمن لهم

توفير الآلات والبذار والقروض وأدوية المكافحة وبيع المحاصيل وتشكيل مجلس خاص يسمى مجلس الإنتاج الزراعي لتنفيذ هذه الأغراض.

د- وضع تشريع لحفظ كرامة الصحافة ورفع مستواها المادي والمعنوي وتطبيق الرقابة المالية على مواردها وصيانة المجتمع والأفراد من جرائم المطبوعات.

ه- مكافحة شبكات التجسس والدعايات والنشرات.

و- سن قانون لتحديد الأعمال التي لا يجوز الجمع بينها وبين النيابة تنفيذاً للمادة 48 من الدستور.

رابعاً- جهاز الإدارة:

الخروج بهذا الجهاز من فساده بإنشاء ديوان للموظفين تحدد اختصاصاته وصلاحياته بقانون.

4. التعاون الحزبي والسياسي:

تحقيقاً للتعاون الحزبي والسياسي في البلاد تشكل لجنة تمثل الأحزاب والكتل النيابية لتوثيق التعاون فيما بينها والإشراف على تنفيذ هذا الميثاق القومي.

وإننا نحن ممثلي الأحزاب والكتل النيابية إذ تم اتفاقنا على هذا الميثاق القومي نضرع إلى الله أن يسدد خطانا ويلهمنا من أمرنا رشداً.

إلا أنه لم يلتزم بهذا الميثاق سوى الجبهة الوطنية التقدمية كما سيأتي معنا فيما يلي من هذه الدراسة.

الفصل الثالث عشر

كفاح الجماهير السورية

التقاء الثورتين السورية والمصرية

اتجهت الأنظار نحو الثورة المصرية التي بدأت أسهمها ترتفع في صفوف الجماهير السورية منذ مؤتمر باندونغ، بعد هزيمة بريطانيا في فرض حلف بغداد على الدول العربية، ثم الوصول إلى إتمام صفقتي الأسلحة المصرية والسورية مع تشيكوسلوفاكيا. فوقع في دمشق في العشرين من تشرين الأول عام 1955 اتفاق إقامة القيادة المشتركة للجيشين السوري والمصري واختير اللواء عبد الحكيم عامر قائداً عاماً لهما. وقد انضم فيما بعد الأردن والسعودية إلى الاتفاق الآنف الذكر. وكانت هذه الخطوات في المسيرة الوطنية العربية طبيعية من كل الأوجه الجغرافية والسياسية والقومية وصدىً صادقاً لرغبة الجماهير الثائرة على الأوضاع التي خلفها

المستعمرون والأذى الذي سببوه لنا. فالتحدي الأساسي الذي كانت وماتزال وستظل تواجهه أمتنا العربية يتركز في فلسطين التي تحيط بها هذه الأقطار العربية الأربعة. والتحرر العربي والخلاص من المستعمرين جميعاًوليس من قدمائهم فقط لابد من أن يبدأ من تحشد قوى الأمة العربية وإمكاناتها في مواجهة الصهاينة. ولكن المستعمرين وعملاءهم بيننا يرون هذه الأمور على نحو آخر، يرون مثلاً هذا الذي تم مابين سورية ومصر في البدء انتصاراً للسياسة المصرية في سورية أو ما شابه، وكأن من اللازم أن يكون في الأصل تناقض مابين المصالح المصرية والسورية، وكأن الأقطار العربية تعود إلى أمم مختلفة لها مطامع هيمنة ووصاية لبعضها على بعضها الاخر. فباتريك سيل مثلاً يورد الحديث التالي للأستاذ محمود رياض سفير مصر في دمشق في كتابه "الصراع على سورية": "كانت سورية محاطة بحكومات تحبذ جميعها حلف بغداد البريطاني فكانت حكومتها متوترة الأعصاب.. وحتى عام 1954- 1955 كانت مصر كماً غير معروف في العالم العربي، ولم يكن لحكومة الثورة إلا

اتصــالات جـد بسـيطة بالحكومـات العربيـة.. ولكـن فـي عـام 1955 أصـبحت سياسـتنا واضـحة، إذ آمنـا بـأن علـى العـالم العربي أن يحمي استقلاله الكامل قبل أن ينضم إلى أيـة اتفاقيـة عسكرية مع الدول الأجنبية. فقد كنـا ضـعافاً جداً ونعلم أن أي ارتباط مع حلف أجنبي سيجعلنا تابعين له. وكانـت مهمتـي فـي سـورية أن أشـرح سياسـتنا فـي التضـامن العربـي ومعاداتنـا لحلف بغداد. فاتصلت بجميع الأحـزاب السياسـية. وكـان مـن الطبيعـي أن أجـد نفسـي علـى وداد خـاص مـع البعـث لتشـابه نظراتنـا إلـى القضـايا الخارجيـة". ثـم يسـتمر باتريـك سيل فـي تصـوير الكفـاح العربـي فـي تلـك الأيـام ضـد المسـتعمرين علـى أنه كان محاولات لجر سورية إلى طريق السياستين المصـرية والسـعودية فيقـول: "ومنـذ ذلـك التـاريخ أخـذ السـفير المصـري محمـود ريـاض، وسـيلة عبـد الناصـر وظلـه فـي دمشـق يحتـل مكانـاً هامـاً فـي الشـؤون السـورية، وفـي الأشـهر التـي سـبقت "السـويس" وأعقبتهـا كـان مـد الأحـداث يجـري لصـالح مصـر، واسـتطاع محمـود ريـاض أن يشـغل مركـزاً فـي قلـب الحيـاة السياسية السورية لا يضـارعه في ذلك أي مبعوث أجنبـي، فقـد

كان على علاقة وثيقة بالرئيس القوتلي واتصال مستمر بالزعماء السياسيين، كما أن نفوذه في زمرة الضباط التقدميين كان عظيماً أيضاً. وبالفعل بدأت علاقات الصداقة بين الجيشين السوري والمصري تشتد لتتوثق عراها فيما بعد. ولدى تبدل الحكومات السورية كان محمود رياض يلعب دوراً حاسماً في جعل سورية تنتهج سياسة خارجية تتفق وتلك التي تنتهجها مصر. وقد أصبح في حقيقة الأمر أكثر من مجرد سفير لدولة أجنبية بالنسبة لمختلف آراء الشعب ورمزاً للعلاقات الخاصة التي تربط بين سورية المحاصرة المهددة بمصر شقيقتها الكبرى والعظيمة. وكانت علاقته بحزب البعث علاقة صميمة بشكل خاص، فالبعث هو القوة الكبرى المؤيدة لمصر في السياسة السورية، وطليعة حركة الوحدة مع مصر، ولذلك كان من الطبيعي أن تكافئه مصر بوضع ثقلها الدبلوماسي كله في صالحه وتدعيماً له. وأضيف إلى التوجيه السياسي، الذهب السعودي وذلك على شكل قروض رسمية (جرى التوصل إلى اتفاقية لتقديم قرض إلى سورية قدره عشرة ملايين في تشرين الثاني عام 1955) وسيل من

الرشاوى التي استهدفت تدمير مركز العراق في سورية وتدعيم مركز مصر والعربية السعودية..". انتهى قول باتريك سيل الذي قام أساسياً، بحسب مايبدو لنا، على النجوى التي جرت بينه وبين الأستاذ محمود رياض حول سفارة هذا الأخير في سورية. ولكن ما الذي يربط بين الانتهازيين الذين تنتفخ مخيلاتهم بما يظنونه منجزات من توافه الأمور وسطحيها في الوقت الذي تستحيل عليهم رؤية وفهم ما تجيش به أعماق الجماهير من تطلعات إلى الحرية والتقدم.

إن كلاً من مصر وسورية بلد من العالم الثالث يشكو من قهر النظام العبودي الرأسمالي العالمي ويتطلع إلى الخلاص من هذه العبودية. ومن الطبيعي أن تتعاطف القوى الثورية الوطنية في البلدين. ويضاف إلى هذا أن البلدين قطران في وطن أمة واحدة تسعى إلى تحقيق أهدافها القومية التي يأتي في مقدمتها توحيد وطنها الكبير في كيان واحد موحد، وهذا على عكس ما ينشره المستعمرون وأعوانهم مع الانتهازيين الوثنيين من أن مصر لم "تكتشف" عروبتها إلا مؤخراً في الوقت الذي هي فيه أكبر روافد أمتنا العربية في نشوئها

وتكونها عبر التاريخ. فنجد إذن في النتيجة أن كل ثورة في مصر أو في سورية أو في أي قطر عربي هي ثورة أمتنا جميعها ولا حاجة بنا إلى "عبقرية" الأستاذ محمود رياض أو غيره مثلاً لدفع الرأي العام السوري إلى التعاطف مع الثورة المصرية. ولكن المستعمرين ومؤرخيهم من أمثال باتريك سيل والسخفاء من قومنا يظنون أن تعاطف السوريين المذكور كان من صنع محمود رياض. فإذا كان الرأي العام السوري قد شجب تصرفات الثورة المصرية ضد الإخوان المسلمين تارة وضد الشيوعيين تارة أخرى، فكانت جرائد دمشق مثلاً من كل الاتجاهات الوطنية تسمي حكومة الثورة "حكومة البكابشة" وما شابه من أسماء بقصد السخرية والنقد، فإن ذلك كان بسبب عواطف الكره التي كنتها الجماهير السورية للديكتاتوريات العسكرية واستمراراً للحذر الذي قام في نفوس السوريين من حكومتي مصر والسعودية اللتين حالفتا ديكتاتورية حسني الزعيم ثم ديكتاتورية الشيشكلي في الصراع السياسي الذي قام بينهما وبين الهاشميين في المنطقة. وكان النصر كما هو معلوم للجماهير السورية التي أطاحت

بحكم الشيشكلي على الرغم من تعاطف حكومة الثورة المصرية مع هذا الحكم ومن رشاوى السعودية له ولرجاله، إلا أنه عندما اتضح خط الثورة المصرية في كفاح الاستعمار القديم ورفضها الانجرار إلى أحلافه التي كانت بريطانيا تسعى إلى إقامتها بمساعدة الهاشميين في العراق والأردن، ثم التقى هذا الخط في الميدان العالمي مع الخط الثابت للحركة الوطنية السورية وحركات التحرر الأخرى في العالم لمقاومة الاستعمار، وعندما اشتركت حكومتا مصر وسورية في كسر طوق حصار المستعمرين للعرب لمنعهم من التعامل الاقتصادي والعسكري والسياسي مع المعسكر الشرقي واشتركتا في تأييد ودعم ثورة الجزائر العربية للتحرر من المستعمرين الفرنسيين، كل هذا وغيره من الأمور، التي دفعت بمجموعها الثورة المصرية إلى المجابهة في نهاية الأمر مع الاستعمارين القديمين الإنجليزي والفرنسي اللذين قاما بالعدوان على مصر في أعقاب تأميم قناة السويس، كان أبلغ من أي شرح قدمه الأستاذ محمود رياض لقادة الحركة الوطنية السورية ليؤيدوا الثورة المصرية ويلتقوا معها في

كفاح المستعمرين. نقول إذن بعبارة ثانية أنه عندما حصلت القناعة عند الجماهير السورية بأن ما يجري في مصر حينذاك كان ثورة ضد المستعمرين عادت تلك الجماهير عن حذرها الأول من هذه الثورة وأيدتها بكل عفويتها دون الحاجة إلى أي مندوب عنها، كالأستاذ محمود رياض مثلاً، ليكون بحسب تعبير باتريك سيل الآنف الذكر "رمزاً للعلاقات الخاصة التي تربط بين سورية المحاصرة المهددة بمصر شقيقتها الكبرى والعظيمة وليلعب دوراً حاسماً في جعل سورية تنتهج سياسة خارجية تتفق وتلك التي تنتهجها مصر". فأفراد الجمهور المدنيون والعسكريون كانوا مثلاً في أعقاب تأميم القناة وأثناء العدوان على مصر وبعد ارتداد هذا العدوان وهزيمته يفدون على السفارة المصرية بكل عفويتهم كي يعبروا عن تأييدهم للثورة المصرية ووقوفهم إلى جانبها في مجابهتها للمستعمرين، وذلك تماماً كما يفدون على أي بيت عربي، سوري أو غير سوري، يمثل جهة وطنية كفاحية تعبر عما يختلج في نفوسهم من آمال وعما يكنونه من تصميم على مكافحة المعتدين المستعمرين. ماكانت الجماهير السورية

بحاجة إلى من يحرضها لتندفع للتعبير بالشكل المناسب عن رأيها في مختلف المواقف الوطنية. ففي الثالث من حزيران عام 1955 مثلاً احتل طلبة الجامعة السورية مكتب وزير الاقتصاد وطردوا منه الوزير رزق الله أنطاكي الذي سمح بتصدير الحنطة السورية إلى فرانسا التي كانت حكومتها حينذاك منهمكة في المحاولات الفاشلة لقمع ثورة الجزائر. ولم ينسحب أولئك الطلبة من المكتب المذكور إلا بعد إلغاء قرار التصدير المذكور. وماكان هذا الفعل نتيجة لأي تحريض خارجي يوجه أولئك الطلبة إلى ما يجب عمله لإيقاف قرار للحكومة يضر بثورة الجزائر وبالمسيرة القومية. لقد كان تصرف الطلبة حينذاك ينسجم مع حركة الجماهير الثائرة ضد المستعمرين ومؤامراتهم ويستجيب تماماً لها كما استجابت زيارات المدنيين والعسكريين للسفارة المصرية للتعبير عن تأييدهم لقرار تأميم قناة السويس وشجب عدوان المستعمرين على مصر وإبداء استعدادهم للتطوع للقتال إلى جانب أخوتهم المجاهدين المصريين، وذلك دون أية دعوة من الأستاذ محمود رياض سفير مصر حينذاك الذي يصوره باتريك سيل

في كلمته السابقة وكأنه مفوض سام للثورة المصرية في سورية يوجه الأحداث فيها ويشكل حكوماتها ويخرجها من عزلتها المزعومة. أما الواقع فإن المستعمرين وأعوانهم كانوا هم المعزولين المحاصرين في دمشق حتى أن السفير الأميركي كان يشكو بمرارة حينذاك من مقاطعة الجمهور السوري لحفلاته ومناسباته القومية في الوقت الذي كانت فيه السفارة السوفياتية تمتلئ بمدعويها السوريين في أعيادها بسبب موقف حكومتها الإيجابي من تطلعاتنا القومية والوطنية. وليس بإمكان باتريك سيل وأمثاله من كتاب المستعمرين أن يسيئوا إلى الأستاذ محمود رياض فيتهموه بتحريض الجماهير السورية على مقاطعة احتفالات السفارة الأميركية وعلى إحاطة السفارة السوفياتية بصداقتها وعطفها.

سورية جزيرة الحرية الخضراء

كان همي الأول بعد صدور الحكم في قضية الشهيد عدنان المالكي الانتهاء بسرعة من تشكيل امتداد الجبهة الوطنية في الجيش ليقود جماهير العسكريين. وهنا أكرر الإشارة إلى أن جماهير العسكريين كجماهير المدنيين لا

يفرقهم إلا اختلافات من يمثلونهم من القادة والبارزين. فكنت أكثف اجتماعاتي بتلاميذي العسكريين من مختلف الاتجاهات الفكرية داعياً إلى رص الصفوف وسد كل ثغرة ينفذ منها الديكتاتوريون أعداء الحرية صنائع المستعمرين الذين يأتي في مقدمتهم الأميركان أعداء الإنسان الألداء. وكان يعضدني في هذه المهمة بتفهم عميق وحماس كتلة العسكريين الفلسطينيين الذين كانوا بتجانسهم الفكري ووعيهم وسعيهم الدائب لتعزيز اللحمة بين مختلف الفئات وسهرهم لإفشال مختلف محاولات الدس وتفريق الصفوف يشكلون طليعة ونموذجاً ممتازاً للفئات الجماهيرية العربية الثائرة في تلك الظروف التاريخية. ففي ظروف تصاعد المناخ الثوري إذ يزداد انتباه تلك الجماهير الثائرة ويتسع اهتمامها بالأحداث الجارية تزداد أيضاً حساسياتها وتأثرها بالشائعات بحيث يقوم بهذا مجال واسع خطر لعمل الدساسين والانتهازيين ناشري الشائعات ومفرقي الصفوف. فيأخذ إذن في مثل هذه الظروف السهر على تبديد الشائعات وتقريب وجهات النظر ومحاربة الدسائس ورفع الشكوك أهمية حاسمة.

ما كان المستعمرون الأميركان يوفرون وسيلة ولا جهداً لنشر الأكاذيب والأوهام التي تخدم أغراضهم. فقد نشر مثلاً الصحفي الأميركي جوزيف ألسوب، الغني عن التعريف لشهرته العالمية في تلك الأيام، مقالاً في صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون، عدد 25 أيار عام 1956، تنبأ فيه بأن عبد الحميد السراج سيكون الديكتاتور المقبل لسورية. وهذا الدس من أساليب المخابرات الأميركية لدغدغة وتحريك أطماع الانتهازيين لدفعهم في الاتجاه الذي يخدم أغراضها. وألسوب هذا كان قد أمضى أسبوعين في سورية يدس ويتجسس قبل كتابة مقاله هذا. ولكنه لم يبلغه على مايبدو خبر اجتماع لي بالعسكريين قرب التاريخ المذكور لبحث ما يتعلق بالجبهة الوطنية. وقد طرح أحد الضباط اسم السراج ليكون قائداً لهذه الجبهة في الجيش، فهب الحاضرون جميعاً بما فيهم السراج يعنفونه ويقولون له: "إن ما نسعى إليه هو إقامة مدرسة تسهر على صيانة ارتباط جماهير العسكريين ببقية جماهير الشعب والأمة وليس إقامة ديكتاتورية عسكرية يتقاسم أهلها المغانم". وقد نجحنا بالفعل بإقامة هذه المدرسة التي ضمت عملياً جميع

العسكريين وتشكلت لها قيادة تسيطر على الأركان بكل شعبها ودوائرها فما كان أمر هام يقوم وينفذ في الجيش إلا بتدبيرها أو موافقتها ومن خلالها.

ولكن الرجعية ما كانت نائمة حينذاك فرأت أن تعمل على نسف تلك المدرسة في باكورة قيامها، وذلك بإثارة التنافس بين العسكريين على مراكز القيادة والمنافع الباطلة الأخرى. وما هذا الأمر إلا أسلوب معروف مكرر طالما أثار به المستعمرون والرجعيون أطماع وحماقات أفراد لم يجلبوا لذويهم سوى الكوارث والآلام ولأنفسهم سوى الخزي والعار. وقد وجدت الرجعية في تلك الظروف منصب رئاسة الأركان يشكل موضوعاً مناسباً لتنافس الضباط عليه وبالتالي لوقوع الخلاف فيما بينهم بسببه. وقد أشرت مرة في هذه الدراسة إلى أن رئيس الأركان حينذاك الزعيم شوكت شقير كان ضعيف التأثير في الجيش لظروفه الخاصة التي يأتي في مقدمتها كونه غريباً عن هذا الجيش. فاستغلت الرجعية هذا الأمر ودفعته إلى الاستقالة التي لم يكن لها حينذاك أي سبب أو مبرر. وما كنت في تلك الأوقات لأفكر باحتلال هذا

المنصب الذي كنت عملياً قائماً به بإدارتي تلك المدرسة الآنفة الذكر. وقد فوجئت ودهشت عندما أتاني أحد اليساريين وقال لي بلهجة العتاب: "لِمَ تعارض تعيين اللواء نظام الدين خلفاً لشوكت شقير في رئاسة الأركان العامة ما دمت أنت في كل الأحوال عملياً قائداً لهذا الجيش؟". فأجبته أن الرجعية هي التي ألقت في أذنك هذه الفرية، وما أهتم به اليوم هو مقاومة وإحباط مؤامرات المستعمرين الأميركان ومكاني الحالي ملائم جداً لهذا الغرض. وقد نبهت زملائي إلى أن هذه الشائعة وأمثالها لا تهدف إلا إلى تفريق الصفوف في الجيش بالإضافة إلى إثارة الشكوك لدى القوى الوطنية المدنية التي تؤيد تعيين اللواء نظام الدين لقيادة الجيش لأسباب منها كون شقيقه النائب عبد الباقي نظام الدين وزيراً وعضواً في الجبهة الوطنية، وهذا أمر يناسبنا نحن أيضاً لأننا نسعى لنكون امتداداً عسكرياً لهذه الجبهة. وكان الرجعيون في تلك الأيام يفدون أيضاً على المقدم أمين النفوري ويقولون له: "شد حيلك، يجب أن تكون أنت رئيساً للأركان". وكان المرحوم النفوري ينقل إلي أخبار هذا التدليس الرجعي الذي كان

يستهدفه. وطوال قيادة نظام الدين للجيش كانت الجبهة الوطنية تعمل بدون أي عائق مدني أو عسكري. وعندما قدم استقالته بذلت كل جهد ممكن لإقناعه بالعدول عنها ولكنه أصر عليها لأسباب تخصه.

لقد أصر المستعمرون وأتباعهم من قومنا والجهلة الوثنيون في تشويه ثورة الجماهير العربية في الخمسينات من هذا القرن بإغفال دور هذه الجماهير ودور مدارسها الفكرية والقيادية التي وجهت مختلف ساحات تلك الثورة في مختلف أقطار وطننا. وراح هؤلاء الغرباء جميعاً عن تلك الثورة ومعظمهم أعداؤها ينسجون القصص الخيالية والأخبار الكاذبة عن هذا "البطل" أو ذاك. وقد ساهم إلى درجة كبيرة بعض أولئك "الأبطال" بتسريب حكايات مبالغ فيها عن "بطولاتهم الموهومة". وكان هذا أمراً غير ذي خطر فيما لو بقي في حدود الفرد الذي يبالغ بعض الشيء بمنجزاته دون المساس بالمسيرة العامة وتشويهها. ولكن المدرسة الوطنية الثورية السورية أصيبت بتشويه وظلم كبيرين حتى من بعض أتباعها عندما صدق هؤلاء الأتباع ما ردده حولها كل أولئك

المستعمرين والخونة والانتهازيين والوثنيين والكتاب المرتزقة الباحثين عن غرائب الأخبار دون صحيحها وأشباههم من قصص وما عرضوه لها من صور كاذبة شوهاء. ولكثرة الأفراد الذين نُسب إليهم شرف هذا الإنجاز أو ذاك دون الجماهير ومدرستها الثورية ومؤسساتها المتضافرة في تصعيد المقاومة وإحباط مؤامرات ومكائد المستعمرين وإقفال السبل أمام الانتهازيين انتهى الأمر إلى تصوير المقاومة الباسلة الرائعة للجماهير السورية ضد المستعمرين وأعوانهم بصورة تناحر قبلي بين مختلف الفئات السورية كاد يودي باستقلال هذا البلد لولا أن أتت الثورة المصرية تأخذ بيده وتنقذه من نفسه "بحصافة ودهاء" سفير هذه الثورة محمود رياض. ولكن لا أحد ينكر أبداً أن الذي رأى إمكان وحدة القطرين كان تلك المدرسة الثورية السورية التي صورت بتلك الصورة الشوهاء وليس الثورة المصرية وذلك باعتراف رجال هذه الثورة جميعهم. فأقبل الثوار السوريون في خضم ذلك العالم، الذي كانت فيه الولايات المتحدة الأميركية منهمكة في إقامة استعمارها العالمي الجديد، على إنجاز ذلك الأمر

العظيم الذي فاجأ المستعمرين والرجعيين جميعاً وشل حركتهم حينذاك والذي تمنته أمتنا طوال قرون عديدة، كما عجز عن استعادته بعد ضياعه كل أولئك الذين ادّعوا بأنهم طلبوه بصدق، ذلك لأنه ضاع بضياع تلك المدرسة الثورية.

ولإعطاء الصورة الحقيقية للثورة الجماهيرية السورية في تلك الأيام، الثورة التي حققت وحدة القطرين بعد أن أوقعت بالمستعمرين أشنع الهزائم نأتي بصورة لسورية قامت في الهند والباكستان في تلك الأيام، وقد نقلها إلينا بشكل عفوي الرئيس شكري القوتلي بكلمة له على شكل تقرير قدمه للشعب السوري حول زيارته لهاتين الدولتين. قال الرئيس القوتلي:

" أيها المواطنون الأعزاء، كلما حملتني الأسفار بعيداً عن بلادي، ونظرت إليها من تلك الأبعاد والخطوط، صغيرة في رؤية البصر، كبيرة في رؤى الشعور والحب والحنين، كلما نظرت إلى بلادي، وأنا بعيد عنها، نظرت إلى وطن صغير في نقطة تائهة على خريطة الكون، تظل تنتشر سعة وارتفاعاً وتدفقاً وإشعاعاً حتى تتلألأ في صفحتها صورة المجد العربي الجليل، وألف ألف صورة ولون، وظل، من

ملك عربي عريض، تدفقت سراياه في أرجاء الأرض، شرقاً وغرباً، من أواسط أوروبا حتى أقاصي الهند والصين. كلما نظرت إلى بلادي، وكلما تحدثت عن بلادي نظرت إلى شيء واحد، وتحدثت عن شيء واحد هو وحدة الوجود العربي ووحدة التاريخ العربي، ووحدة الشعور العربي".

"أيها الأخوان، في رحلتنا إلى الهند والباكستان التي أريد أن أحدثكم اليوم على هامشها كنا نلقى الكثيرين ممن يسألون عما هي سورية، ومن هم سكانها، وماهي قوتها؟! وما شأننا نحن الذين نُصَعِّرُ للدول الكبرى، ونترفع في الجري في أفلاك الأقوياء، وأحلاف المحاربين؟! ولقد كانوا يدهشون عندما كنا نخبرهم أننا أربعة ملايين وسرعان ما تزول دهشتهم عندما يعرفون كيف يمكن أن يكون أربعة ملايين سوري مائة مليون عربي، وكيف كنا نتقمص بواقعنا النضالي عظمة أمة عظيمة، ونستوحي في أيام الشدائد سيرة أبطالها الأشداء، وشهدائها الأبرار".

"حول اسم سورية العربية، هذه الدولة الصغيرة التي إذا انتسبت إلى الأرقام لا تبلغ بالسكان والمساحات حجم ناحية

باكستانية، أو مدينة هندية، حول هذا الاسم الفتي المشرق بالغار والريحان، تجمهر الألوف من أبناء تلك البلاد الكبيرة، الممتدة الأرجاء يستطلعون أخبارنا ويستزيدوننا إيضاحاً وحديثاً، كيف أدلنا دولة الغاصبين، وكيف أنهينا حياة الاستعمار الرازح بكابوسه الثقيل على صدور الملايين في آسيا وأفريقة، وعندما كانت الصحف والإذاعات أثناء قيامنا في تلك البلاد تردد أسطورة الفراغ، ومن عسى أن يملأ هذا الفراغ، كان إيضاح تاريخ سورية وموقف سورية كدولة حرة مستقلة منذ عام 1946، تتمتع بسيادتها الكاملة في جميع مرافقها وشؤونها، وسياستها الداخلية والخارجية، خير ردّ على الناعقين بأسطورة الفراغ، لأن الشعب السوري منذ أحد عشر عاماً قد استطاع أن يقدم البرهان تلو البرهان، أنه وحده يملأ فراغ القوى الغاصبة الراحلة، وأن التجربة السورية ليست حديثة عهد في تاريخ النضال ضدَّ مكائد المستعمرين وأضاليلهم. ولكم حاول المستعمرون أن يتسللوا من ثغرات الضعف إلى مراكز المقاومة في ضمير هذا الشعب الأبي المجاهد ليملأوا في حياته الحرة فراغاً مزعوماً، فارتدوا

خاسئين خاسرين. ولكم بنوا آمالهم ومطامعهم على الانقلابات التي توالت في البلاد، وكانوا من ورائها متربصين، فردَّ الشعب سهامهم إلى نحورهم، وكانت المؤامرة الأخيرة حلقة من سلسلة مؤامراتهم لقلب نظام الحكم بالقوة، وتعطيل مبدأ سيادة الشعب ليسوده العملاء والمأجورون والموتورون وكل من حدثته نفسه ببلوغ الحكم عن طريق الظلام، ليبلغ به المستعمرون أطماعهم في ضرب أقوى جبهات العروبة المناضلة وهي جبهة هذا الوطن، جبهة هذا الشعب، جبهة هذا الجيش وجبهة هذا النظام الديموقراطي الذي انغرس في أعماق الشعب حتى في أحلك أيام الاحتلال".

"لم يكن يطمع المستعمرون، تمهيداً لتحقيق مآربهم وأطماعهم في بلادنا التي رحلوا عنها كارهين مكرهين إلى أكثر من أن يفتحوا الثغرات والخروق في صفوف نظامنا الديموقراطي ليستغلوه، وفي صفوف جيشنا، ليجعلوه شيعاً وفرقاً، وفي صفوف شعبنا لينشروا بينه أسباب القلق والاضطراب. وقد تابعتنا أبواقهم بأضاليلها في رحلتنا إلى الهند والباكستان، كما لاحقتنا من قبل في رحلتنا إلى موسكو،

وبينما كنا في أجواء ذلك اللقاء الودّي الكبير مع الملايين من سكان تلك البلاد، يهفون إلى سماع أقوالنا، وعرض آرائنا، وإعلاء كلمة الحق في الدفاع عن قضيتنا، كانت الأبواق في صحفهم وإذاعاتهم تصر على أن الخبراء السوفيات قد اتخذوا من كهوف الصحراء في بلادنا مقراً لقواعد سرية، وأننا لا نستطيع أن ننسجم في سياستنا العامة مع سياسة الهند، رغم صدور البيان المشترك بيننا وبينها، لأننا بزعمهم دولة غير ديموقراطية، تحكمها أيد خفية، وتعطل فيها إرادة الشعب، وطبيعة النظام الديموقراطي".

"ولقد كانت فرصة ملائمة، ونحن على منابر الحديث والخطابة في مجالس دولة صديقة وفي صحافتها وإذاعاتها أن نردّ المكائد إلى نحور أصحابها، وندحض افتراءات المستعمرين والصهاينة فتتناقل أقوالنا عشرات الصحف والإذاعات، ونجد في خطب الرؤساء والوزراء والحكام في بلاد الهند، وفي مقدمتها خطاب الزعيم الرئيس جواهر لال نهرو خير عون لنا في الجهر بواقعنا وعرض قضيتنا على منابر الملأ الأوسع. ولقد أيد الرئيس نهرو ما جاهرنا به،

وسخر معنا من خرافة الفراغ ومطلقيها ومن أضاليل المستعمرين في تشويه سمعة الشعوب المناضلة، وأكد مثلما أكدنا إرادة الملايين في آسية وأفريقية وطموحهم إلى حياة حرة عزيزة، لا تجري وراء منافع الدول الطامعة وتأبى أن تسخر نفسها لسياسة الأحلاف والمعسكرات، وقد حيّى الرجل الكبير جهاد سورية وتاريخها النضالي أصدق تحية وأجملها وقال أنها **"جزيرة الحرية الخضراء"**، فنسجل هذه الكلمات المخلصة الكريمة لزعيم الهند وقائد نهضتها بكثير من الامتنان والشكر".

انتهت أقوال المرحوم الرئيس شكري القوتلي التي لانجد فيها أي أثر لدعاوى المستعمرين وأذنابهم من الكتاب العرب بأن الانقسامات كانت تعصف في الصفوف الوطنية السورية في تلك الأيام، الانقسامات التي دعتنا بحسب مزاعم هؤلاء الأعداء إلى إنجاز تلك المهمة الوطنية الكبرى التي هي تحقيق أول وحدة عربية معاصرة. ولكن إذا كان مثل ذلك التناحر القبلي المزعوم يؤدي إلى مثل ذلك الإنجاز الوطني الضخم فَلِمَ لا تدفع جاهلية العرب المعاصرة حكامنا لتحقيق الإنجاز

الكبيـر بمقـدار اتسـاع وعمـق خلافـاتهم وهـو توحيـد وطـنهم العربي؟!..

العدوان الثلاثي

خططت الرجعية العالمية العدوان على مصر في أعقاب تـأميم قنـاة السـويس بتحريـك إسـرائيل أولاً لتقـوم بهجـوم فـي اتجاه القناة عبر سيناء يبرر تدخل جيوش قدماء المسـتعمرين الإنجليز والفرنسيين بحجة المحاجزة بين المتقاتلين المصـريين والصـهاينة وإبعـادهم عـن القنـاة الممر الهـام للملاحـة الدوليـة. وكانت أميركا لا تكتفي بمراقبة الأمور عن كثب وإنما كانـت تشجع أولئك الحمقى متحجري العقول حكام بريطانيا وفرنسـا المغرقين في رجعيتهم ليتورطوا بمباشرة العدوان علـى مصـر في الظروف العالمية السائدة حينذاك ويواجهوا وقوف العـالم، الثـائر حينـذاك علـى الاسـتعمار، فـي وجههـم ويواجهـوا تهديـد المعسكر الاشتراكي وإنذار الاتحـاد السـوفياتي. وعنـد وصـول الأزمـة إلـى ذلـك الحـد الـذي تـورط فيـه الإنجليـز والفرنسـيون بالعـدوان وقـف المسـتعمرون الأميركـان علـى الحيـاد وعـادوا ينصـحون أولئـك المعتـدين بـالتراجع أمـام الإنـذار السـوفياتي

وثورة العالم ضدهم بعد أن كانوا قد شجعوهم على التورط في العدوان ووعدوهم بالدعم. وكانت النتيجة كما هو معروف انهيار الاستعمار القديم انهياراً تاماً في شرقي العالم العربي. وهذا ما أرادته وخططت له الولايات المتحدة الأميركية لتتمكن من إتمام بناء إمبراطوريتها العالمية المتعددة الرؤوس وإقامة الاستعمار الجديد بقيادتها. فصدر على الفور بعد تراجع المعتدين على مصر مبدأ أيزنهاور رئيس الولايات المتحدة الداعي إلى "ملء الفراغ" الذي خلفه أولئك المستعمرون القدماء في الشرق العربي بنتيجة فشل عدوانهم المذكور والذي أتى على ذكره مطولاً الرئيس القوتلي بكلمته الواردة أعلاه.

كان الهجوم الصهيوني الذي افتتح العدوان الثلاثي على مصر في مساء التاسع والعشرين من تشرين الأول عام 1956. وكنت في صبيحة الثلاثين منه أرأس المحكمة العسكرية في قضية المقدم أحمد قصيباتي. وكان إلى جانبي المقدمان بشير صادق ومصطفى حمدون كمستشارين، فرأيت أن أفتتح المحاكمة بقرار من المحكمة يُتلى علنياً بدعم الرئيس

عبد الناصر والثورة المصرية وتأييد تأميم القناة وشجب العدوان الاستعماري على مصر. فعارضني المستشاران المذكوران وكانت حجتهما أن إثارة قضية القناة في الوقت الذي يجب أن توجه كل الجهود العربية لدعم ثورة الجزائر المشتعلة حينذاك ضد المستعمرين الفرنسيين هو تبديد لتلك الجهود العربية. فقلت لهما عندئذ بأنني بسبب موقفهما هذا سأصدر القرار المذكور باسم رئاسة المحكمة وحدها. وفي النتيجة اقتنعا بالاشتراك معي وصدر القرار بالإجماع باسم المحكمة. فإذا علمنا أن هذين الضابطين كانا من الأصدقاء المقربين جداً من قيادة البعث حينذاك تبين لنا أن ذلك التقارب البعثي الناصري الوارد فيما نسب أعلاه من كلام إلى الأستاذ محمود رياض ما كان قد تم عندما وقع ذلك العدوان الثلاثي على مصر.

وكنت طلبت تعييني في الوحدات المقاتلة. وقد تلقيت الموافقة تلفونياً على هذا الطلب أثناء انعقاد المحكمة للنظر في القضية المذكورة آنفاً. فذهبت في نهاية الجلسة إلى بيت اللواء نظام الدين حيث كان رئيسا الشعبتين الأولى والثانية يبحثان

مع رئيس الأركان موضوع أنبوب النفط العائد لشركة الـ(اي، بي، سي) البريطانية والمار عبر الأراضي السورية إلى طرابلس. فاستقر الرأي على نسف هذا الأنبوب في الحال والعمل على نسف الأنبوب الآخر المار في الأراضي الأردنية باتجاه حيفا، وتم هذان الأمران فيما بعد. ثم غادرت مباشرة هذا الاجتماع للالتحاق بالمجموعة السورية التي كانت في ذلك الوقت قد عبرت الحدود الأردنية في اتجاه الضفة الغربية لتولي قيادة لواء المدرعات الأول فيها. وتتألف المجموعة من جمهرة أسلحة معززة بالدبابات والمدفعية وهندسة الميدان وغيره. وقد أدركت رتل لوائي في المفرق يقوده المقدم طعمة العودة الله في مساء الثلاثين من تشرين الأول فأمرت بالمبيت في معسكرات "خو" الأردنية. وفي صباح الواحد والثلاثين منه استأنفت أرتالنا مسيرتها باتجاه الضفة. وتقدمت مع قيادات الأسلحة الأخرى نحو عمان للاجتماع بالقيادة الأردنية وتلقي مهماتنا منها. فاستقبلنا اللواء علي أبو نوار مع أركانه وعقد معنا مباشرة جلسة افتتحها بإخبارنا بأن القائد العام للجيوش العربية اللواء عبد الحكيم عامر أصدر أمراً إلى

الجيشين السوري والأردني بعدم التدخل بسبب نزول الإنجليز والفرنسيين في بور سعيد وانسحاب الجيش المصري من سيناء لمواجهة الوضع الجديد الناشئ عن هذا النزول. ولكن اللواء علياً أبا نوار قال أن علينا أن نكمل نحن ترتيباتنا بأن تستمر المجموعة السورية بمسيرتها نحو الضفة الغربية لتأخذ مواقع لها في مواجهة بيت المقدس. وأضاف بأن علينا أن لا نضيع هذه الفرصة لتحرير المدينة المقدسة نهائياً بالاستيلاء على القدس اليهودية الغربية. هنا يجب أن أنبه إلى أن المجموعة السورية كانت تشكل الاحتياطي الوحيد للقوات السورية التي كانت في تلك الأيام متحشدة كلها في مواجهة العدو الصهيوني في الجبهة السورية. وكان من الطبيعي أن لا ترسل المجموعة السورية المذكورة بعيداً عن الجبهة السورية، أن لا ترسل إلى القدس مثلاً على بعد مئات الكيلومترات من هذه الجبهة، إلا استثناءً وبعد أن يوفَّر احتياطي آخر للجيش السوري. لذلك سألت اللواء علياً أبا نوار عما لديه من قوات في الأغوار وفي إربد. فأجابني بأن الجيش الأردني بكليته في الضفة الغربية بمواجهة الصهاينة وأنه لا

يوجد في الأغوار وإربد إلا سرية مشاة واحدة متمركزة في هذا البلد الأخير. عندئذ أصدرت أمراً إلى أحد ضباطي ليذهب مسرعاً باتجاه أرتال المجموعة التي كانت تتقدم حينذاك نحو عمان ومنها إلى الضفة الغربية ليوقفها حيث هي بانتظار أوامر جديدة. ثم التفت إلى اللواء أبي نوار، الذي كان في غاية الاندهاش من الأمر الذي أصدرته للتو، وقلت له أن الضفة الغربية تصبح مصيدة إذا بقيت المحاور: (جسر المجامع، إربد، دمشق) و (جسر المجامع، إربد، عمان) و (جسر المجامع، الأغوار)، على ماهي عليه حالياً مفتوحة للعدو الصهيوني. واقترحت نشر المجموعة السورية مبدئياً على محور يمتد من جسر داميا في الأغوار إلى إربد فالمفرق، بانتظار تطور الأحداث. ولكن الجانب الأردني أصر على طلبه بذهاب المجموعة السورية إلى القدس، وأصررت من جهتي على موقفي حفاظاً على الجبهتين الأردنية والسورية من أن يلتف عليهما العدو من ثغرة (إربد، المجامع) الخالية تماماً من كل دفاع. ثم وصل الملك حسين ومر بقاعتنا مسرعاً دون أن يرحب بنا إلى قاعة أخرى في

تلك القيادة الأردنية، وتبعه ضباطه. ومما لاريب فيه أن تصرفه بهذا الشكل تجاهنا كان بسبب معرفته بموقفنا الذي أبلغ به هاتفياً فأتى مسرعاً يستجلي تفاصيل الأمر. أما نحن السوريون فقد اعتبرنا أن الأمر منتهٍ عند هذا الحد وغادرنا بدورنا عائدين إلى المجموعة السورية، وقمنا حالاً بتنفيذ تمركز مجموعتنا على المحور الآنف الذكر الذي اقترحته. وقد شكتني القيادة الأردنية إلى القيادة السورية التي لم تخالف ما ذهبت إليه.

ثم تبين لنا سبب إصرار القيادة الأردنية على إبعاد الاحتياطي العام للجيش السوري إلى الضفة الغربية على بعد مئات الكيلومترات من العاصمة دمشق بحجة واهية كاذبة هي الاستيلاء على القدس اليهودية، في الوقت الذي كان فيه القائد العام للجيوش العربية اللواء عامر يؤكد أمره بعدم قيام جيشي سورية والأردن بالتعرض للعدو ريثما تنجلي المعركة الرئيسية الدائرة حينذاك في بور سعيد. ففي ذلك التاريخ بالضبط كان حكام العراق منهمكين مع البريطانيين في تدبير مؤامرة تطيح بالحكم الوطني السوري وتسحق الحركة

الوطنيــة الســورية فــي ذات الوقــت الــذي تقــوم فيــه الجيــوش الإنجليزية والفرنسية بغزو مصر بدءاً من بور سعيد لإسقاط حكومــة الثــورة فيها بحجــة استرداد القنــاة التــي أممتهــا هــذه الحكومــة. لقــد كانــت تلــك الهجمــة المتشــعبة المحــاور آخــر المحــاولات البريطانيــة لاســترداد مواقعهــا الاســتعمارية فــي مشرق العالم العربي ويمكن تلخيصها بما يلي:

-**أولاً:** قلب الحومة السورية بحركة تبدأ من جبل العرب وتمتد إلى بقية المدن السورية. وبالفعل فقد كدس حكام العراق الأسلحة الازمة لذلك في مختلف الأماكن المناسبة في سورية مثل وعرة الصفاء شرقي جبل العرب مثلاً وفي المنــاطق المتاخمة للبنان الذي كان يحكمه كميل شمعون وأنصاره. وقد حاولـت فـي تلـك الأوقـات عناصـر قريبـة مـن أوسـاط حـزب الشعب إثارة فتنة طائفية في حلب وذلك بتشجيع ضمني من وزير الداخلية أحمد قنبر، أحد زعماء حزب الشعب المغرق في حقده على اليسار وحركة التقدم على الرغم من أصوله الاجتماعية المتواضعة. وعندما أتى ليشهد حول هذه الواقعة أمام المحكمة التي نظرت في قضية تلك المؤامرة الكبرى

والتي كنت أرأسها عنفته بشدة على إهماله وموقفه المريب كمسؤول أثناء محاولة إثارة الفتنة الطائفية المذكورة وأبديت أسفي لعدم إحالته مع الآخرين متهماً بجناية التآمر. وكان المتآمرون يعتمدون على انشغال الجيش السوري في ميادين القتال ضد الصهاينة والمعتدين الآخرين مع ابتعاد احتياطي هذا الجيش إلى منطقة القدس كما خطط له. وقد خططوا لينطلق الجهد الرئيسي لقلب الحكم الوطني في دمشق من جبل العرب وأن يشترك فيه بعض عشائر البدو بقيادة الشيخ هايل السرور من أعراب المساعيد الذين يعيشون في هذه المنطقة. وقد أكد هذا الأمر تصريح حسن الأطرش لباتريك سيل في عام 1960 حيث قال: "في هذا الوقت بدأ الهجوم الإنجليزي الفرنسي على مصر وكنت أتميز غيظاً من توريطي في مثل هذه المؤامرة التي ظن فيها بعضهم أن باستطاعتي قهر الجيش السوري كله بتلك الأسلحة الضئيلة التي أرسلت لي".

-**ثانياً:** طرد حكومة النابلسي الوطنية في الأردن وإعادة النفوذ البريطاني الذي كان قد زال لصالح الأميركيين بطرد كلوب من قيادة الجيش هناك. فالملك حسين غضب بشدة

عندما فشلت قيادة الجيش الأردني في إبعاد مجموعتنا إلى الضفة الغربية بناءً على رغبته وأوامره، وغضب بشكل خاص عندما تمركزت هذه المجموعة السورية على السفوح الجنوبية لجبل العرب، من إربد إلى الرمثة والمفرق، حيث ديار عرب المساعيد عشيرة الشيخ هايل سرور أحد المتآمرين الرئيسيين. وفي الواقع ماكان هذا التمركز للمجموعة السورية مقصوداً ضد ما كان يُدبَّر هناك من أمور حينذاك للإطاحة بالحكم الوطني السوري وتحطيم القوى الثورية في سورية، وإنما كان مجرد تدبير عسكري لوضع هذا الاحتياطي للجيش السوري في المكان الصحيح في تلك الظروف. وقلنا أن هذا المكان صدف واختير من قبل المتآمرين ليكون قاعدة انطلاق لحركتهم فأسقِط في يدهم عندما رأوا المجموعة تأخذ مواقعها حولهم وظنوا أن أمرهم قد كشف وأننا ماضون للوثوب عليهم ففر قادتهم وتفرق شملهم وأتاني بعضهم يكشف لي أخبار تآمرهم ومخابئ الأسلحة العراقية التي كانت تكدس للبدء بالحركة فحولتهم بدون تأخير إلى دمشق لاتخاذ الإجراءات اللازمة. وقد استمر الملك حسين في الابتعاد عن التحالف مع

ثورتي سورية ومصر على الرغم من إخفاق المؤامرة البريطانية العراقية في سورية وهزيمة العدوان البريطاني الفرنسي، ففي شهر نيسان من عام 1957، أي بعد بضعة أشهر فقط من طرد كلوب وقيام حكم وطني في عمان، قام هذا الملك بانقلاب الزرقاء وطرد حكومة النابلسي التي تمثل الحكم الوطني المذكور وشرد الضباط الوطنيين الثوريين ونسق أموره مع الحكم العراقي وانتهى إلى إقامة وحدة مع هذا الحكم مباشرة في أعقاب قيام الوحدة السورية المصرية وعندما آن الأوان ضرب هذه الوحدة وهدمها وأخيراً وليس آخراً قام بذبح الفلسطينيين في أيلول الأسود والحبل على الجرار... ومع ذلك فهو ما يزال بشرع هذه الجامعة العربية حاكماً عربياً وإن كان على امتداد هذا الحبل!..[∃]

-ثالثاً: الإطاحة بحكومة الثورة المصرية.

وكانت هزيمة ساحقة للمستعمرين البريطانيين ولنمط استعمارهم القديم بفشل هذه العملية المتعددة الأبعاد التي تمتد لتهدف الأقطار الثلاثة: مصر والأردن وسورية، ولم تقم

بعـدها للإنجليـز قائمـة فـي منطقتنـا أوفـي العـالم، إلا فـي الفوكلاند، أراضـي الفقمات، على حساب الأرجنتين.

[∃] كتب هذا الكتاب كما توفي مؤلفه قبل أن يتوج الملك حسين مسيرته السياسية بتوقيع اتفاقيـة الصـلح مـع الكيـان الصـهيوني في وادي عربة في 1994/10/26 مقتفياً بذلك أثـر السـادات؛ (ي.ب).

الفصل الرابع عشر

زوبعة في فنجان

قيادة الكفاح مدرسة لا فردية

بلغت الثورة العربية مفترق الطرق عند انهيار الاستعمار القديم في المشرق العربي بهزيمة عدوانه على مصر وانهيار آخر مؤامرة له على سورية. واتجهت في تلك الأيام أنظار العرب نحو الحركتين الوطنيتين الثوريتين في كل من سورية ومصر، كما تنبه العالم بشدة إلى ما يجري في المشرق العربي المذكور فمنه، وهو الجماهير المسحوقة بالعبودية الرأسمالية، من نظر إلى ما يجري هنا بعطف وتأييد، ومنه، وهم المستعمرون الأسياد الذين يقهرون الناس وينهبون ثرواتهم، من اشتد به القلق واستولى على نفسه الخوف على مصيره. فكان ممثلو الثوار العرب في الجزائر وعمان وعدن وكل مكان في الوطن العربي يترددون بثقة، كما يتردد

صاحب البيت على بيته، على القاهرة ودمشق فيستقبلهم الناس فيهما استقبال الأهل للولد العائد من مشاغله فيستقصون أحواله ويلبون حاجاته ويخففون همومه. وكانت هذه المشاهد على بداهتها واستجابتها لطبيعة الأمور من الجديد غير المألوف قبل عقد ونيف من السنين عندما كان المستعمرون يشدون أطنابهم على أرضنا. فكان الثائر مثلاً في قطر من وطننا يسيطر عليه الفرنسيون عندما يلتجئ إلى قطر يسيطر عليه الإنجليز تنقسم نفسه فيحار بين إرضاء ضميره وبين توقي عدو آخر لايقل في أذاه عن ذلك الذي ينجو بنفسه منه إلى هذا الذي يلتجئ إليه. لقد كان لنا ذلك الشعور الفياض والنشوة العارمة بالاستيقاظ على صبح نجد أنفسنا فيما هو لنا حقاً وليس لأجنبي يملي علينا إرادته. كان الناس أهلاً بين أهلٍ مهما اختلفت أقطارهم وأشجانهم في وطننا الكبير. ولكن الأيام لا تثبت على حال ولدوام النعم يجب فهم أسبابها وتطوراتها لدفعها إلى الارتقاء وليس إلى الزوال، إلى الارتقاء إلى طور إنساني ثابت نسبياً وليس إلى مرحلة عابرة نقع في نهايتها في قهر جديد.

ما كان الاستعمار الأميركي مُعَرَّ فاً بشكل واضح يبين للناس في العالم القديم علاماته وأساليبه وأشكال أخطاره واستعباده للناس، فكانت صور الاستعمار القديم تغطي أوصافه عند الضحايا المستهدفين فيضيع هؤلاء بين تلك الصور وبين حقيقته غير المجلوة ببحوث كان من الواجب القيام بها من قبل القيادات السياسية التي قَصَّرتْ عن إنجاز هذا الأمر. ويأتي في مقدمة وسائله تسلله عبر المجتمعات الإنسانية وبناؤه علاقات وقواعد اقتصادية وسياسية وعسكرية في هذه المجتمعات وحولها تشكل في المجموع نظاماً عالمياً تسهر على حفظه مؤسسات مناسبة وحكومات عميلة وأساطيل حربية تجوب البحار وغيرها. وهو بنظامه العالمي هذا لا يحتاج إلى احتلال أراضي ضحاياه وإدارتها من قبله بشكل مباشر كما كان يفعل قدماء المستعمرين في مستعمراتهم، وإنما يقوم القابلون في كل بلد من بلاد العالم بالانخراط في نظامه المذكور بحكم بلادهم لحسابه. وكان هذا الاستعمار الأميركي الجديد قد جُرِّبَ في أميركا اللاتينية دهراً طويلاً قبل

أن ينتقل إلى عالمنا القديم، وذلك تحت يافطة استقلال سياسي مزيف.

كان المستعمرون الجدد الأميركيون يتجهون في تسللهم نحو القوى الوطنية والحركات الثورية حيث يجندون الانتهازيين الطامعين ويدسون العملاء الخونة ويخدعون القادة بأوهام المشاركة بنظامهم والسعي العقيم في عبوديته لإحراز التقدم واللحاق بالسابقين مادياً قاهري الإنسان، ويحاولون بالتالي استيعاب تلك القوى والحركات وتوجيهها في الاتجاهات التي تخدم أغراضهم وسياساتهم العدوانية. فالسفير الأميركي في القاهرة مثلاً، السفير جيفرسون كافري، كعادة ممثلي الولايات المتحدة في كل بلد في العالم المتخلف، كان يرتاد الأوساط التقدمية والثورية ويجند فيها من يستطيع تجنيده ويخدع من يستطيع خداعه. وكانت عنايته تتركز في أوساط ضباط الثورة على الذين سبق اتصالهم بالنازية أثناء الحرب العالمية الثانية فجند فيهم السادات وغيره من الذين أسسوا له تياراً جعل همه الأول توجيه الثورة في اتجاه ساحات الصراع الداخلي وخاصة منه الصراع بين عقيدتي

الرأسمالية والاشتراكية بدلاً من التركيز على حشد الطاقات المعنوية والمادية لرد الاستعمار الجديد الذي قلنا أن أخطاره ما كانت على كل حال قد انجلت بعد في تلك الأيام: اتجه هذا التيار في مسعاه إلى التنسيق مع المخابرات الأميركية وعملائها لإثارة الشكوك بين الحركات الوطنية القومية وبين الحركات الوطنية الاشتراكية لإلهاء هذه الحركات بعضها ببعضها الآخر بدلاً من تركيز جهودها على فضح المستعمرين الجدد الأميركان وتسللهم في الوطن العربي. وكان يساعدهم في هذه اللعبة أنهم كانوا يعملون على المساعدة في تكنيس الاستعمار القديم في المنطقة وفي العالم لصالح بناء استعمارهم الجديد. فكان فعلهم هذا يخدع أولئك الذين كانوا في الحركات الوطنية يبحثون عبثاً لأوطانهم عن مكان مناسب في النظام العالمي الجديد يتمكنون فيه من دفع هذه الأوطان لتتقدم مادياً وتلحق بالمستعمرين الأوروبيين والأميركان، يتمكنون فيه من تحقيق تلك الأوهام التي لا تتحقق ماداموا لا يعملون على الخروج والنجاة من نظام أولئك المستعمرين. فالعبودية بكل أشكالها، لاسيما منها شكلها

الرأسمالي، هي نظام يتواجد فيه بالضرورة السيد والعبد في وحدة وتضاد فلا ينتفي أحد هذين النقيضين إلا وينتفي معه النقيض الآخر، أي في النتيجة إلا بنفي النظام من أساسه واستبداله بالنظام الأعلى. وهذا قانون لا مفر منه ولا محيص. وكان أن رأينا في فصل سابق من هذه الدراسة أن محاولة المتخلف لإدراك المتقدم في قفص العبودية الرأسمالية قد أوقعته في الديون للمتقدمين المرابين الذين غدوا بهذه العلاقة المالكين الحقيقيين لكل مابناه المتخلف في بلده من تقدم مادي فتصلهم عائدات هذا التقدم المزعوم بالإضافة إلى نسبة كبيرة من عوائد مجمل اقتصاد ذلك البلد بفوائد تلك الديون، تماماً كما جرى في التنميتين البولونية والبرازيلية وفي التنميات الأخرى المشابهة في العالم الثالث التي حصلت بالقروض المعقودة في الأسواق الرأسمالية الاحتكارية.

إن الظالم في كل زمان ومكان، في كل مجتمع وعند كل جماعة بشرية، هو إنسان مكروه منحط. ولكن الجلاد في يد هذا الظالم هو في درك أشد انحطاطاً من دركه. وعُدَّة الظلم في يد الجلاد هي كل ما يُرهب المستضعَف المظلوم ويقيد

حريته من سوط وسلاح وسجن وقلم قذر وغيره. وكان ذلك التيار الذي تصدّر فيه أنور السادات يشكل أخطر مرض ابتليت به الحركة الوطنية العربية. فهذا التيار أخذ ببناء وثنيته منذ ذلك التاريخ لينتهي إلى ما نراه اليوم من فجور ولؤم في خدمة أسياد العبودية الرأسمالية الاحتكارية وفي النزول إلى درك مشاركة الجلادين الصهاينة في أهدافهم للعمل على النكاية بأمتنا وعلى تفتيت الحركة الوطنية العربية. فالساداتية، التي استفحلت وغدت الوسيلة الأولى في منطقتنا في يد الكيسنجرية الأميركية الصهيونية العالمية في السبعينات من هذا القرن، كانت تضطلع في الخمسينات بمناهضة ومحاربة الاشتراكية في وطننا العربي تحت ستار الدفاع الكاذب عن القيم القومية وخلف الحجج الوقحة لعبادة الفرد الوثنية[∃]. وكأن أسيادهم قتلة ومبيدي الهنود الحمر عندما عمموا أفعالهم هذه على منطقتنا فأتوا بالصهاينة الخزر المتهودين ليقتلوا أهلنا ويبيدوهم من فلسطين قوامون على قيمنا القومية بغير الشكل الذي قاموا به على قيم أولئك البؤساء الهنود الحمر. إن حسني

[∃] يشير عفيف البزري هنا إلى ديكتاتورية جمال عبد الناصر التي أدت إلى ترعرع التيار الساداتي واستفحاله ضمن الحركة الوطنية الناصرية؛ (ي.ب).

مبارك مثلاً نتاج السادتية بالأمس يقول اليوم، في مطلع نيسان عـــام 1990، بمناســـبة تعـــاوي[1][i] الكــونغرس الأميركـــي والكنيسـت الصـهيوني حـول جثـث أطفالنـا ونسـائنا وشـيوخنا وشـبابنا فـي انتفاضـتهم فـي فلسـطين، عنـدما قـرر الأول أن القدس جميعها عاصـمة للصـهاينة بينمـا قرر الخدم في الثـاني أن القدس والجولان لهم ومن حق قطعان الخزر المتهودين الآتـين مـن الاتحـاد السـوفياتي أن يقطنوهمـا، نقـول أن هـذا "المبـارك" قـال فـي هذه المناسبة الكئيبـة أن قـرار الكـونغرس المـذكور يخـل بحيـاد أميركـا!.. ولكـن متـى كانـت هذه الدولـة محـايدة؟ أفي دفعها المليارات سنوياً بما يعادل أكثر من ضـعف موازنـة دولـة كسـورية لبنـاء وتـرميم هـذه القاعـدة العدوانيـة إسرائيل، أم في تغطية عدوانها الذي لاينقطـع علينـا بإحباطهـا الـدائم لكـل قـرار يمـس قرصـنتها فـي المحافـل الدوليـة، أم بالأسـلحة التـي تغـدقها عليهـا لتكـون قوتهـا نـداً لقـوى العـرب مجتمعة، أم بإعلانها فـي كل مناسـبة أنهـا حليفتهـا الستراتيجية أم..؟ فهذا "المبارك" يقبض سنوياً في هذه المرحلة من عذاب

---

[1][i] من العواء، نسبة للذئاب عندما تفترس ضحاياها؛ (ي.ب).

أمتنا الذي ينزله بنا هذا العدو الأميركي ملياراً أو مليارى دولار ليقول مثل هذا الكلام ويفعل بمقتضاه من أعمال خيانية.

أما في الخمسينات من هذا القرن فقد كانت الساداتية (تحت غطاء محاربة الاستعمار القديم المتمثل بالإنجليز وبحجة عدم الانحياز بين المعسكرين في الوقت الذي نحن فيه منخرطين عملياً في النظام العالمي للمعسكر الذي تتزعمه أميركا) تحارب بلا هوادة مبدأ "الحياد الإيجابي" الذي تبنته الحركة الوطنية السورية حيث يوجد فيها أيضاً امتداد للساداتيين أيضاً. ولكن هؤلاء الأخيرين ما كانوا ليجرؤوا على الإعلان عن خطهم في خضم المواجهة الحامية مع ذلك العدو الأميركي في تلك الأيام.

في هذه الظروف التي نذكرها هنا والتي فصلناها فيما سبق من هذه الدراسة، كانت حركتنا الوطنية السورية، وفي مقدمتها امتدادها العسكري، تتجه بحزم نحو تحقيق الوحدة مع مصر، وذلك بقيادة تلك المدرسة الثورية القائمة حينذاك والعاملة بأسلوب جماعي بالاتصال الوثيق مع الجماهير وليس بالأساليب الفردية التي حاول المستعمرون والكتبة أتباعهم

تزويرها كي يُخفوا في ظلالها تلك الجماعية الجماهيرية. وهنا علينا أن نوجه الانتباه مرة أخرى إلى المدرستين الثوريتين المصرية والسورية فلا تطغى عليهما أخبار الفرديات وأساطيرها السطحية التي يلفها الكذب والادعاءات الفارغة، علينا أن نجهد ما أمكن لإزالة ما تراكم من أكوام التخرصات على المدرستين المذكورتين ليظهر بجلاء دورهما في أحداث تلك المرحلة التاريخية التي مر بها المشرق العربي في الخمسينات من هذا القرن. فالمدرستان وجدتا وكان لهما إنجازاتهما التاريخية في المنطقة التي يأتي في مقدمتها جهاد المدرسة الثورية المصرية في سبيل تقويض الاستعمار البريطاني في المنطقة العربية وجهاد المدرسة الثورية السورية في سبيل تقويض الاستعمار بكل أشكاله وفي سبيل تحقيق الوحدة السورية المصرية، وذلك بالإضافة إلى المنجزات الاجتماعية الداخلية في القطرين المذكورين وعلى نطاق الوطن العربي. ومما لا ريب فيه أنه كان في كلٍ من هاتين المدرستين قيادات وطنية أدت مهماتها النضالية بكل تفان وإخلاص، وهذا أمر بديهي يتكرر في كل أحداث التاريخ

ولا يمكن إنكاره وإن حاول العدو وأعوانه التصغير من قيمته وشأنه، كما لا يمكن تضخيمه ليغطي على كل شيء في المدرسة التي يعود إليها. فالمدرسة منظمة الجماعات وقائدتها وهي الأساس في تقدم المسيرة الوطنية فإذا زالت ضاعت جماعتها بالفوضى واستحال على الفرد الواحد كل إنجاز في هذه الجماعة مهما عظمت قدرته ومواهبه، وإذا استمرت استمرت معها إنجازات الأفراد كل واحد منهم بحسب موقعه فيها.

هزائم الأميركيين وعملائهم في سورية

تصاعدت في مطلع عام 1957 المقاومة الوطنية السورية للمستعمرين، وخاصة منهم الأميركيين بناة الاستعمار الجديد، وأخذ تطبيق مبدأ "الحياد الإيجابي" يعطي ثماره فتكاثفت المبادلات التجارية مع المعسكر الاشتراكي كما تعززت الجبهة الوطنية أكثر فأكثروظهرت بوادر تشكيل القيادة الموحدة لها. وقد جدت الأمور التالية التي زادت في غضب المستعمرين ورعب أعوانهم وخدمهم:

1.قام رئيس الوزراء صبري العسلي بطرد وزراء حزب الشعب من وزارته في آخر كانون الأول عام 1956 واستبدل بهم بوزراء من حزب البعث وبخالد العظم وذلك في إثر إحالة بعض زعماء حزب الشعب المذكور على القضاء بقضية المؤامرة الكبرى الإنجليزية العراقية على سورية التي أشرنا إليها فيما سبق. وتشكلت الوزارة على الشكل التالي: صبري العسلي لرئاسة الوزارة (الحزب الوطني)، صلاح البيطار للخارجية (حزب البعث)، خليل كلاس للاقتصاد (حزب البعث)، خالد العظم للدفاع (الجبهة الديموقراطية)، حامد الخوجة للزراعة (الجبهة الديموقراطية)، صالح عقيل وزير دولة (الجبهة الديموقراطية)، فاخر الكيالي للأشغال (الحزب الوطني)، أسعد هارون للصحة (الحزب الوطني)، هاني السباعي للتربية (مستقل).

2. صدرت الأحكام في قضية المؤامرة الكبرى الشهيرة في السابع والعشرين من شباط عام 1957 وكانت تتراوح بين الحكم بإعدام عدد من كبار المتآمرين مثل عدنان الأتاسي (وزير سابق ونائب)، وهايل سرور (شيخ عرب المساعيد

ونائب)، وفضل الله جربوع (نائب)، وسامي كبارة (وزير سابق ونائب)، وغيرهم حكماً وجاهياً، ومثل حسن الأطرش (وزير سابق ونائب)، وأديب الشيشكلي وصلاح الشيشكلي، وميخائيل ليان (وزير سابق ونائب) حكماً غيابياً، والحكم بالأشغال الشاقة على آخرين مثل منير العجلاني (وزير سابق ونائب)، وغيره. وكان هذا الحكم في ظل الأحكام العرفية قطعياً غير خاضع للمراجعة أو النقض من أي هيئة قضائية أخرى وإنما يحق للحاكم العرفي أو نائبه أن ينقضه أو يدخل التعديلات التي يراها عليه أو يصدقه. وكان الحاكم العرفي حينذاك رئيس الجمهورية شكري القوتلي ونائبه وزير الدفاع خالد العظم.

وأتاني المرحوم جلال عقيل مدير العدلية العسكرية يزورني في بيتي في أوائل شهر آذار عام 1957 ليقول لي إن الرئيس القوتلي والوزير خالد العظم، اللذين كانا حينذاك في زيارة لمصر، منزعجان جداً من الحكم المذكور ويصعب عليهما العودة إلى دمشق حالياً لمواجهتكم (وكان يعني بهذا مواجهة العسكريين) خوفاً من وقوع أزمة عند إصراركم على

تصديق الحكم كما هو بدون أي تعديل من قبل الحاكم العرفي أو نائبه. فأبديت دهشتي واستغرابي الشديد وأجبته بحزم: ماذا يظنون بنا؟ نحن قضاة ولسنا قتلة.. إنه ليس من مهام المحكمة التي قمت برآستها إلا رؤية القضية والحكم بها فقط، وقد قمنا بهذا الواجب. أما التصديق أو عدم التصديق على أحكامنا فهو من مسؤولية الحاكم العرفي أو نائبه. واستطردت قائلاً إننا يا أستاذ جلال عقيل قضاة نهتم أولاً بالوقائع والتطبيق القانوني ثم الأخذ بعين الاعتبار الظروف الاجتماعية وسلامة الوطن لجهة التشديد أو التخفيف في التطبيق القانوني. أما الحاكم العرفي فهو سياسي يهتم أولاً بالظروف الاجتماعية وسلامة الوطن ثم يأخذ بالاعتبار الوقائع والتطبيق القانوني عند إحالة الأحكام إليه ليصدقها أو يعدلها لجهة التخفيف أو التشديد. وليس لنا أبداً أن نعطل هذه الآلية التي توزع السلطات والمهام على مختلف الوظائف الدستورية لأننا لسنا فاشيين مغتصبي سلطات. إننا لنأسف أشد الأسف أن يُظن بنا عكس ما نحن عليه، أن يُظن أننا نسعى إلى انتزاع التصديق على أحكامنا. إن مهمتنا تقتصر على ساحة القضاء وتنتهي عند صدور

الأحكام، فليقم الآخرون بأداء مهمتهم في ساحتهم. وفي النتيجة خُففت الأحكام من قبل الحاكم العرفي إلى الحبس العادي لمدد لاتتجاوز الخمس سنوات، ثم صدر العفو عن هذه الجرائم وأطلق سراح المحكومين بها جميعهم في غرة قيام الوحدة السورية المصرية بمسعىً حثيث بذله الدكتور عبد الوهاب حومد عضو حزب الشعب السابق ووزير عدل القطر الشمالي في دولة الوحدة.

3.عندما كانت أوروبا الرأسمالية قبل قيام وتمكن نظام الشركات المتعددة الجنسية العالمي وقبل إتمام بناء ما دمرته الحرب العالمية الثانية من بلادها تسعى إلى تجديد معاملها التي أكلتها القنابل وترمم اقتصادها المنهار تحت إشراف الولايات المتحدة الأميركية وبمساعداتها المقدمة تحت اسم "مارشال" كانت هذه الدولة الأخيرة المنهمكة حينذاك ببناء الاستعمار الجديد تعارض أشد المعارضة كل محاولة تهدف إلى إرساء صناعة ثقيلة في بلاد العالم الثالث، وخاصة منها بلادنا العربية: كانت تذهب في هذه السياسة إلى درجة السعي إلى إسقاط الحكم الذي يحاول حينذاك في ذلك العالم مخالفتها:

كـان العـالم الثالـث فـي تلـك المرحلـة بالنسـبة إلـى الرأسـمالية الاحتكاريـة الأميركيـة عـالم الاسـتهلاك وعـالم المـواد الأوليـة التي يجب بنظرها أن تـُحفَظ لصناعاتها في أميركا أولاً ثم لأوروبـا الناقهـة مـن الحـرب التـي عانتهـا وكـادت أن تـذهب بحضـارتها. أمـا اليـوم، بعـد قيـام عصـر الشـركات المتعـددة الجنسـية فـإن عـالم الجنـوب يبقـى عـالم الجـوع والاسـتهلاك والمـواد الأوليـة والمـواد نصـف المصـنعة وعـالم التفرعـات المحيطية والثانوية لصناعات وبحوث واقتصاد عالم الشمال. لـذلك كنـا نـرى المسـتعمرين فـي الخمسـينات مـن هـذا القـرن يقفون بزعامـة أميركـا ضـد مشـاريع إقامـة السـدود العاليـة فـي العالم الثالث وبناء مصافي النفط أو معامل إنتاج الفولاذ أو مـا شــابه. وعارضــوا بشــتى الأشــكال ومختلــف الوســائل مــثلاً مشـروعي بنـاء سـد الفـرات ومصـفاة الـنفط فـي حمـص مـدة طويلة فكانوا تـارة يهددون وأخرى يتقدمون بعروض وهميـة للحكومــة الســورية لعرقلــة وتــأخير عقــد الاتفاقــات اللازمــة لتنفيـذهما مـن قبـل دول أوروبـا الشـرقية. وقـد انفلـت غضـب وزيـر خارجيـة أميركـا دلـس وجنونـه فـي ربيـع عـام 1957

عندما تم الاتفاق مع شركة تكنو إكسبورت التشيكية لبناء مصفاة النفط الآنفة الذكر في حمص، وعندما تقدمت الأبحاث والدراسات الأولية لبناء سد الفرات وتطوير شبكة الخطوط الحديدية السورية وتنفيذ مشارع اقتصادية أخرى هامة بمساعدة الاتحاد السوفياتي، في خضم الحماس العارم للجماهير السورية وبحمايتها. لقد زال نهائياً ذلك "السد المانع" الذي كان يفصل العرب عن الكتلة الشرقية بفتح ثغرة واسعة فيه عبر القطر السوري. ففي الرابع عشر من حزيران عام 1957 حذر دلس الكونغرس الأميركي بقوله: "أستطيع أن أوكد لكم أن الشيوعية الدولية سوف تخوض كل المخاطر للفوز بالشرق الأوسط". ويقول باتريك سيل في كتابه "الصراع على سورية": "هناك سبب آخر لاهتمام الغرب وقلقه، وهو مصير أصدقائه في سورية بعد أن انهارت المؤامرة العراقية في تشرين الثاني عام 1956، إذ بدا ذلك بمثابة تدمير للتوازن السياسي وفتح الطريق أمام الشيوعيين للاستيلاء على السلطة، كما عززت هذه المخاوف التقارير التي تشير إلى القوة المتزايدة والتمرد لدى قوى المقاومة

الشعبية _وهي منظمة عسكرية مزودة بأسلحة صغيرة من الكتلة الشرقية_ والإشاعات عن وجود متطوعين سوفيات ينتظرون لحظة القفز للدفاع عن العرب المحاصرين، كما وتصريح الرئيس القوتلي بنفسه لدى عودته من الاتحاد السوفياتي في تشرين الثاني 1956 أن آلاف المسلمين السوفيات قد أعلنوا عن استعدادهم للمجيء إلى الشرق الأوسط لكي يخلصوا الأرض المقدسة من المعتدين والمستعمرين". انتهى قول باتريك سيل. وقد كنا أتينا في الحلقة السابقة على ذكر أقوالٍ للرئيس القوتلي يفند بها دعاوى المستعمرين واتهاماتهم للحركة الوطنية السورية في تلك الأيام. ومعروف جيداً أن الشيوعية كانت بنظر الأميركان وبقية المستعمرين هي كل اتجاه يعارض مخططاتهم العدوانية ويسير في طريق الحرية والتقدم الإنساني. فالعبوديون لا يخشون في الواقع إلا تحرر من يقهرونه من قهرهم. إنهم مثلاُ يسكتون اليوم عن الاشتراكية مؤقتاً ويأخذون بمحاربة حريات الإنسان تحت شعار التطرف والأصولية.

4. إن مـن يطـالع مـذكرات وأبحـاث وكتابـات عمـلاء المســتعمرين وخاصــة مــنهم مــوظفي ال (ســي، آي، إيــه) الأميركيـة يتملكـه العجـب مـن جهـل هـؤلاء النـاس وضـحالة تفكيرهم وانحطاطـه (إلـى جانـب انحطـاطهم الأخلاقـي بطبيعـة الحـال). ولكننـا نجـد مـع ذلـك أن هـؤلاء العمـلاء تمكنـوا مـن إلحـاق أكبـر الأذى بحركـة المقهـورين وسـوء فهمهـا لظـروف العصـر. إن ولبـر كـرين إيفلانـد مسؤول المخـابرات المركزيـة في الشرق الأوسط مثلاً وكاتب أخبار مؤامرات دولتـه أميركـا تحت عنوان "حبال من رمل" ينبئنـا بأخبـاره تلـك عن اتصـالـه بمخـائيـل ليـان وصـديق لـه هـو العقيـد عمـر قبـاني الـذي كـان يـرأس زمـرة ضـئيلة مـن العسـكريين لا يتجـاوز عـددها بضـع الأفـراد، وقـد طـرد هـؤلاء مـن الجيش فـي النهايـة فـي أعقـاب مؤامرة كرمت روزفلت ومعاونـه ستون التـي سيأتي الحـديث عنها فيما يلي من هذه الدراسة. ولا يختلـف أفـراد تلـك الزمـرة عن أولئك الأميركـان الـذين جنـدوهم بـالجهل والتفاهـة ليقومـوا بمحــاولات هــدم اســتقلال بلــدهم ويحطمــوا كفاحــه مــن أجــل الحـرية فيفشلوا كعادتهم عندما كـانوا دومـاً فاشـلين فـي خـدمتهم

العسكرية. وإذا كان ميخائيل ليان قد وصفهم لعميل الـ (سي، آي، إيه) كرين بأنهم كانوا من ذوي الرتب العالية في الجيش "ليصيد" دولاراته فإن رتبهم هذه، كما يحصل في كل الجيوش والبيروقراطيات، قد تكونت بتراكم الروتين وليس بالكفاءة. ولم يصدف أبداً على الرغم من قدمهم أن أثاروا الانتباه بأي منجز في كل ظروف خدمتهم إلا بسقوطهم في مَظنَّة التآمر على سلامة وطنهم، المظنة التي تأكدت فيما بعد بكتابات عملاء العدو من أمثال كرين المذكور. وكرين هذا هو حفيد سَمِيِّهِ الذي أرسله الرئيس الأميركي ويلسون في أعقاب الحرب العالمية الأولى إلى المنطقة العربية الآسيوية على رأس لجنة للعمل على الدعاية للاستعمار الأميركي في الولايات العربية التي انفصلت عن السلطنة العثمانية لكي تطلب هذه الولايات الدخول في عبودية الانتداب الأميركي، ولكن المستعمرين القدماء، وخاصة منهم الإنجليز، ما كانوا حينذاك قد وصلوا إلى تلك الدرجة من الهوان التي بلغوها في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فعملوا على إفشال مساعي تلك اللجنة واقتسموا غنائم تلك الحرب فيما بينهم بمنأى عن

الأميركان الذين عادوا بعد هذه "الصفعة" إلى عزلتهم. ونقرأ في أخبار "حبال من رمل" المذكورة عن مساعي هذا الكرين الحفيد في ذات المنطقة التي جهد فيها جده لإيقاعها في حبائل استعمار بلده أميركا، فنراه يفتخر حيث لا موجب للفخر بعمله مثلاً على تهريب المال عبر الحدود السورية لرشوة ميخائيل ليان وعصابته الآنفة الذكر ليخون هؤلاء بلدهم فيصور العملية وكأنها خرط القتاد وكأن سورية العربية الكريمة المضيافة مفازة غيلان. ولكن ضامر الشر جبان بنياته السيئة التي تعكس في وهمه مثل تلك الغابة. ونجد في خلاصة الأمر أن عملاء المستعمرين ملأوا في العقود الأخيرة من هذا القرن عشرات ألوف الصفحات بأخبار دسائسهم ومؤامراتهم التي حاكوها ضد الشعوب المستضعفة وأمنها، الأعمال التي كلفت الإنسانية من الضحايا ما لا يقل بعدده عدد ضحايا الحروب العالمية المعروفة. ونجد هؤلاء يتبجحون بأعمالهم القذرة هذه التي لا تجلب لهم في الجوهر إلا العار لو كانوا حقاً من بني الإنسان.

5. ارتكب المرحوم المقدم أمين النفوري خطأ فادحاً في مطلع شهر آذار عام 1957 عندما انفرد مع اللواء نظام الدين بإجراء تشكيلات تعدلت بها الأركان العامة للجيش بحيث تم تعييني رئيساً للشعبة الأولى مكان المقدم النفوري الذي عين آمراً لسلاح المدرعات، وعين المقدم عبد الحميد السراج ملحقاً عسكرياً في بروكسل وحل مكانه المقدم أكرم الديري في رئاسة الشعبة الثانية. وقد كانت هذه التشكيلات من العبث المحض الذي ما كان بالإمكان أبداً أن يؤدي إلى نتيجة أمام تلك المدرسة الوطنية التقدمية التي قادت الجماهير العسكرية والتحمت ببقية الجبهة الوطنية للبلاد كامتداد عسكري لها. والشائع خطأ أن المرحوم الرئيس شكري القوتلي كان وراء تلك التشكيلات بينما في الواقع أن بعض العناصر الرجعية في الأركان العامة التي ما كانت بعيدة عن تأثير المخابرات الأميركية عبر مختلف القنوات التي من جملتها الساداتية في الثورة الوطنية المصرية هي التي حرضت على إجرائها مستفيدة من عدم "استلطاف" متقابل كان يقوم حينذاك بين النفوري والسراج. وكانت هذه الرجعية تهدف بهذا الأمر إلى

إحداث انشقاق في الجيش وبلبلة في الجبهة الوطنية. فموقف القوتلي بعد الزيارة التي قام بها إلى موسكو في أيام العدوان على مصر كان واضحاً في مختلف تصرفاته وبياناته التي أشرنا إلى بعضها في هذه الدراسة. وكانت قد تمت في تلك الأيام بشكل حاسم أوضاع الاستقرار والتوازن الوطني السياسي بقيام حكومة الجبهة الوطنية برئاسة صبري العسلي واشتراك حزب البعث العربي الاشتراكي وخالد العظم والمستقلين الوطنيين الآخرين. والقوتلي أبعد الناس في تلك الأيام بعد قيام تلك الأوضاع عن التورط بمثل تلك المحاولة العقيمة التي ما كانت لتؤدي إلا إلى الانعكاس على إدارته لشؤون البلد فيما لو نجحت في زعزعة الاستقرار السياسي والاجتماعي. ثم إن الأحكام في قضية المؤامرة الكبرى كانت قد صدرت وأخذت مجراها القانوني الذي انتهى إلى تخفيفها كما ذكرنا أعلاه دون أي ضغط أو تدخل من قبل العسكريين في هذا الاتجاه أو ذاك. أما العلاقات مع المعسكر الشرقي التي أدت إلى التزود بالأسلحة منه وإلى الاستعانة بخبراته ومساعداته لتطوير اقتصاد البلد فقد كانت قد قطعت حينذاك

شوطاً بعيداً في الاتجاه الإيجابي الذي كان يلاقي مساندة جماهيرية عارمة تجرف أمامها كل عقبة. وما كان بإمكان الرجعية المرتبطة بالمستعمرين بمثل تلك التشكيلات الآنفة الذكر في قيادة الجيش أن تحدث أي تغيير في هذا الواقع وإن أثارت بعض الغبار الذي عملنا على تبديده بسرعة. والنتيجة التي حصل عليها الرجعيون كانت أن نقلنا تشكيلتنا الوطنية الدفاعية إلى الشكل الأعلى على طريق كفاحنا من أجل بلوغ أهدافنا التي يأتي في مقدمتها تحقيق الوحدة السورية المصرية. ولا يُنقِص من القيمة التاريخية لتلك التشكيلة الوطنية السورية التي حققت تلك الوحدة أن انهارت هذه الوحدة بفعل المستعمرين وخدمهم وبحماقة القيادة التي لم تعرف صيانتها.

كان أول إجراء اتخذته عند صدور تلك التشكيلات هو أني أصدرت تعليماتي إلى المقدم عبد الحميد السراج بأن يثابر على عمله كرئيس للشعبة الثانية ريثما يتم إلغاء نقله منها. ثم إنني وجهت اللوم الشديد إلى المقدم أمين النفوري لتصرفه الفردي وذكرته بأن هناك قيادة للجبهة الوطنية العسكرية كان

يجب الرجوع إليها قبل إقدامه على إصدار تلك التشكيلات. وذهبت بعد ذلك مباشرة لمقابلة رئيس الأركان العامة اللواء توفيق نظام الدين، بصفتي الجديدة كرئيس للشعبة الأولى المسؤولة عن الأفراد وتنقلاتهم في الجيش، ونبهته إلى أنه من الواجب وللمصلحة الوطنية تعديل التشكيلات الآنفة الذكر وجعلها على الشكل التالي: تعيين العقيد عفيف البزري رئيساً للشعبة الأولى، والمقدم عبد الحميد سراج رئيساً للشعبة الثانية، والمقدم أمين النفوري رئيساً للشعبة الثالثة. وتعيين الرئيس السابق للشعبة الثالثة العقيد رياض الكيلاني ملحقاً عسكرياً في القاهرة، والمقدم أكرم الديري آمر شرطة الجيش قائداً للكلية العسكرية، والمقدم هشام العظم آمراً لشرطة الجيش. وقد تفهم اللواء نظام الدين الوضع ولم يبد أي معارضة لإصدار التشكيلات التي اقترحتها فوقعها وعممتها مباشرة دون أي تأخير.

لقد كان بالإمكان أن ينتهي الأمر بسرعة بالشكل الآنف الذكر وتعود الأمور إلى سيرها الرتيب المعتاد لو أن التنسيق بين قيادتي الجبهة الوطنية المدنية والعسكرية كان قائماً

بالشكل الذي يمنع الفوضى والتصرف الفردي. فقد أتاني إلى مكتبي المرحوم خليل كلاس، وزير الاقتصاد والقائم بوزارة الخارجية لغياب الوزير الأصيل صلاح الدين البيطار بمهمة في أميركا، وأبلغني غضب قادة الجبهة الوطنية واحتجاجهم الشديد على إصدار تلك التشكيلات التي أجراها المقدم أمين النفوري بموافقة القائد العام اللواء نظام الدين، وأخبرني بأن وزير الدفاع خالد العظم قد لزم بيته بسببها وأنه سيستقيل وينسحب من الوزارة فيما لو نفذت. فأخبرته بدوري بأن الأمر لا يعدو كونه زوبعة في فنجان ولا يستحق كل هذه الأهمية فقد تم إيقاف التشكيلات المذكورة واستبدلت بأخرى أعادت الأحوال إلى شكل أفضل من السابق فأبعد عن الأركان العامة كل من يشتبه بإخلاصه للخط الوطني التقدمي. ونبهته إلى أننا في الواقع نعمل بين جماهير العسكريين كمدرسة بعيدة عن الفردية فلا يمكن أن يمر أمر مشبوه كذلك الذي وقع بخطأ عابر، وقد صحح آنياً وبالتالي لا محل لقلق المسؤولين في الحكومة عما يمكن أن يجري في القطاع العسكري.

وأتاني السراج بعد انتهاء اجتماعي بالوزير الكلاس ونقل إلي الأمور الثلاث التالية:

- استنفار للقطعات العسكرية في قطنا وفي الجبهة وكل المواقع الأخرى لإحباط ما ظُنَّ بأن هناك مؤامرة بُدِئَ بتنفيذها بالتشكيلات التي كنت عملت على إلغائها واستبدالها بالأخرى المذكورة أعلاه والتي لم يصل بعد خبر إلغائها إلى القطعات.

- دعوة لاجتماع عاجل لقادة الجيش في بيت وزير الدفاع خالد العظم.

- اجتماع قام في ذلك الوقت في بيت المقدم أحمد حنيدي، الذي كان حينذاك قد فقد السيطرة على لواء المدرعات المسندة قيادته إليه، وكان في هذا الاجتماع المقدم أمين النفوري والعقيد رياض الكيلاني وعدد من الضباط، خمسة أو ستة ضباط، من الزمرة التي كانت فيما مضى تسند حكم الديكتاتور السابق أديب الشيشكلي، ثم حصلت على العفو وأعيدت إلى صفوف الجيش بعد سقوط الديكتاتور المذكور. وكان لهذه الزمرة اتصالات سرية بقيادة الثورة المصرية

بواسطة أحد أفرادها، وكنا على علم بهذا الاتصال ولكننا كنا نغضي عنه (لاعتقادنا بعدم ضرره مادام مع ثورة عربية تناهض المستعمرين وأن كنا نفضل أن يكون أخوتنا المصريون أكثر صراحة معنا).

إن تلك الصورة الكاذبة، التي زورتها المخيلات في الأوساط العدوة وخدمها، اتخذها مزوروها المستعمرون والوثنيون حارقو البخور في محاريب الفردية المتألهة وخدم الطغيان العبودي وغيرهم، مادة لكتاباتهم التي أوهموا بها أن الأحوال في ذلك الوقت في سورية توحي بأن هذا القطر المجاهد كان يسير نحو الهاوية بسبب الخلافات القائمة فيه. وكانت الادعاءات الفردية الفارغة ومازال تصب في هذا السياق الكاذب عندما تنسب لنفسها مع التضخيم والمبالغة شرف هذا الإنجاز أو ذاك. ولكن الواقع كان عكس هذه الصورة تماماً فتلهب صحة وعافية قطرنا السوري الثائر مشاعر جماهير المنطقة الحماسية ضد المستعمرين وأذنابهم وتثير إعجاب كل الأحرار في العالم حتى أطلقو على هذا القطر اسم "جزيرة الحرية الخضراء" الذي ردده نهرو

لشكري القوتلي، وقد مر معنا هذا في الفصل السابق. كانت صحة وعافية سورية تدفع المنطقة نحو الحدث العظيم الذي هو أول وحدة عربية انتظرتها أمتنا منذ عهد صلاح الدين والمنطلق الأساسي لكل هدف حيوي تصبو إليه هذه الأمة. فالجماهير السورية بكل فئاتها كانت في تلك الظروف كلها مستنفرة تترصد زمر المتآمرين التافهة وتحاصرهم وتشل حركتهم: كان العسكريون المدعوون للاجتماع في بيت وزير الدفاع مع من كان في بيت أحمد حنيدي من جماعة الشيشكلي لايتجاوزون العشرين فرداً في الوقت الذي يبلغ فيه عدد المستنفرين في وحدات الجيش لقطع الطريق على كل متآمر عشرات الألوف. لقد كنا نسير في سهل فسيح رحب لا تقطِّعه "الهاويات" نحو الانتصارات العظيمة التي حققناها حينذاك ضد عتاة المستعمرين وعلى رأسهم الأميركان. لذلك قررت في تلك اللحظة التي حمل إلي فيها السراج تلك الصورة عن الوضع العسكري أن أبدأ بالذهاب إلى بيت المقدم أحمد حنيدي في عرنوس حيث كانت تلك الزمرة مجتمعة تتناقش حول الوضع المذكور. وكان برفقتي عبد الحميد السراج.

وبوصولي إلى ذلك البيت رأيت العقيد الكيلاني يحرض من كان حوله على مقاومة الاستنفار، أي مقاومة الجيش بكليته مع الشعب السوري. فأسكته وطلبت منه أن يذهب فوراً إلى بيته ويقوم بإعداد حقائبه للسفر إلى مصر تنفيذاً لأمر القيادة بتعيينه ملحقاً عسكرياً هناك وهددته بسوء العاقبة إن لم يفعل ذلك. ثم أخذت النفوري جانباً وأنبته للمرة الثانية على انصياعه لهذه الزمرة وطلبت منه أن يذهب إلى اجتماع قادة الجيش في دار وزير الدفاع خالد العظم وأن ينتظرني هناك. وقد انفرط عقد ذلك الاجتماع عند تركي له متوجهاً إلى قطنا وبرفقتي المقدم السراج، حيث استقبلني العسكريون المستنفرون هناك بترحاب كبير. وأبلغت قيادة الثائرين في قيادة المعسكرات بما تم من أمور في الأركان العامة، وأن تلك التشكيلات التي أثارت الغبار قد ألغيت واتخذت إجراءات أخرى عززت المقاومة الوطنية التي كانت تتصاعد وتشتت شمل المتآمرين. ثم طلبت من المقدمين مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت مرافقتي إلى اجتماع قادة الجيش في دار خالد العظم لتحويل تلك المظاهرة الرجعية إلى مظاهرة وطنية.

وذهبنا جميعاً: العقيد عفيف البزري والمقدمون سراج وحمدون وقنوت، إلى الدار المذكورة.

عندما دخلنا قاعة الاجتماع، أنا ورفاقي المقدمون الآنفو الذكر، وجدنا العقيد عمر قباني وزمرته الواردة أخبارهم أعلاه يتصدرون الحضور. وكان ذلك بطبيعة الحال بدعوة من اليمين الوطني السائر في تيار الجبهة الوطنية، من أوساط خالد العظم بالذات. فهذا اليمين كان مايزال بعيداً عن أن يسلم للوطنيين التقدميين فيدخل معهم في جبهة واحدة دون أن يحاول صنع امتداد له بين العسكريين. ولكن اختيارهم للقباني وزمرته من العسكريين الذين وردت أخبار علاقاتهم بعملاء الـ (الس، آي، إيه) بكتابات هؤلاء العملاء، ومنهم كرين كاتب "حبال من رمل" الآنف الذكر، كان يدل على عمائهم وجهلهم وسوء تقديرهم للأحوال في الجيش. وقد ظهر لي جلياً في تلك اللحظة أن ذلك اليمين المدني الذي كان قادته حاضرين في القاعة، من صبري العسلي وخالد العظم حتى مأمون الكزبري، دعا القباني وزمرته ليوازنونا بهم ويوجهوا بالتالي المناقشة في أمور الجيش الجارية حينذاك الوجهة التي

يرغبونها. أما أنا فكنت أرى أن هناك قيادة للجيش تتمثل بالأركان العامة القائمة ولا مجال لأي مناقشة سوى إبلاغ المسؤولين المدنيين أن كل شيء يجري على ما يرام وأن الجيش بجماهيره العسكرية يقف كتلة واحدة للدفاع عن حرية البلد ولإحباط كل مؤامرة يمكن أن يدبرها المستعمرون وعملاؤهم. لذلك تقدمت قبل تحيتي للحضور نحو القباني وزمرته وعنفتهم بشدة لعدم انضباطهم وحضورهم دون توجيه الدعوة لهم من قبل الأركان العامة وأمرتهم بمغادرة المكان حالاً والتزام بيوتهم كموقوفين ريثما يبت بأمرهم. فتملكهم الرعب وغادروا المكان فوراً. وتوجهت بعد ذلك نحو صديقيّ البعث، مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت، ونحو النفوري والسراج وقلت لهم بحضور قادة الجبهة الوطنية المنذهلين من المنظر، بحضور صبري العسلي وخالد العظم ومأمون الكزبري وأكرم الحوراني وخليل كلاس وخالد بكداش وغيرهم ممن امتلأت بهم القاعة، وحضور رئيس الأركان العامة اللواء توفيق نظام الدين ومعاونه اللواء عزيز عبد الكريم: إن عليكم أيها الرفاق أن تبينوا لمسؤولينا

الحاضرين هنا أنكم كتلة واحدة في وجه المستعمرين وأعوانهم ومؤامراتهم وأن تقسموا على ذلك ليتأكد الحضور من ذلك وليشيع هذا الأمر وينتشر في بلدنا فييأس المخربون وتسقط محاولاتهم في تفريق صفنا. ثم إن رفاق السلاح الأربعة هؤلاء تقدموا وشبكوا أيديهم بعضها ببعض ورددوا بعدي نص القسم الذي لقنتهم إياه أمام ذلك الحفل وتعانقوا. وبعد ذلك تقدمت من رئيس الوزراء صبري العسلي وقلت له: يا دولة الرئيس هذا هو الجيش قد شاهدتم حقيقته ساطعة فلا تصدقوا بعد اليوم ما ينقل إليكم من صور تخالف ما شاهدتموه هنا. وانفض الاجتماع عند هذا الحد.

لقد كان نصراً ساحقاً حققته جماهير العسكريين بوقوفها بحزم ضد المتآمرين العملاء الذين أرادوا استغلال بعض "المناحرات" الفردية التي ما كان لها علاقة قط بالاتجاه الوطني الذي تتوجه فيه أمتنا ليقوموا بدسيستهم تلك علها تصل إلى تشتيت ذلك الصف الوطني الجماهيري فارتدوا خاسرين. وكان مثلهم الذي كنت كثيراً ما أضربه لهم لتبكيتهم والسخرية منهم في تلك الأيام المجيدة التي طالما خرجوا فيها

خاسرين أمام صمود صفنا الوطني كـ "مَثل النعامة ذهبت لتأتي بقرنين فرجعت بلا أذنين". ثم إنني قلت أعلاه إن المستعمرين كانوا في تلك الأيام يعتمدون على تلك القلة الانتهازية العميلة التي ما كان عددها مثلاً في الاجتماعين الآنفي الذكر: في اجتماع دار خالد العظم واجتماع بيت الحنيدي، يتجاوز بضع الأفراد، في مقابل عشرات ألوف العسكريين الذين كانوا في تلك الساعات المجيدة يقفون متراصين كرجل واحد شاكي السلاح للضرب على كل يد تمتد لتنال من حرية الناس وتمس الحياة الديموقراطية التي كانوا ينعمون بها.[3] وكان يقف إلى جانبهم أيضاً المقاومون الشعبيون بمئات الألوف في مختلف أنحاء قطرنا السوري ومن ورائهم ملايين الجماهير يدعمونهم ويشدون أزرهم. وما كان هذا سوى مسيرة وطنية رائعة كانت تسيرها أمتنا في أيام الانتصارات الكبرى على المستعمرين. فقبل هذا اليوم المجيد بحوالي أسبوعين فقط كانت قد صدرت الأحكام الرادعة في

---

[3] المقصود هنا العسكريون المتآمرون الذين سبق الحديث عنهم والذين حضروا الاجتماعين المذكورين في بيت الحنيدي وفي دار خالد العظم وكانوا يهدفون من مؤامراتهم إلى تقويض الحياة الديمقراطية التي نعمت بها سوريا حينذاك. وتمت مقارنة أعدادهم القليلة في الجيش السوري بعشرات ألوف العسكريين الذين كانوا يساندون الديمقراطية ويقفون ضد الانقلابات العسكرية؛ (ي.ب).

قضية المؤامرة الكبرى المشار إليها أعلاه في سياق هذه الدراسة، وقبل ذلك انتشى شعبنا بالنصر الكبير على المستعمرين المعتدين على مصر التي أممت القناة، وبعد أقل من سنة تحقق حلم عربي كبير هو الوحدة السورية المصرية. ولكن المستعمرين وأعوانهم الوثنيين كهنةالمعابد الفردية رموا في الظل زخم الجماهير وسيطرة القوى الوطنية على الساحة بشكل مطلق في الوقت الذي سلطوا فيه الأضواء على هذه المناحرة أوتلك المناقرة بين هذين الفردين أو تلك الجماعتين الصغيرتين، وهذه أمور طبيعية جداً في كل الجماعات الإنسانية التي تخوض الجهاد المرير حيث تبلغ الحساسية ذروتها، وبالغوا في الوصف حتى جعلوا من تلك الخلافات الجانبية شروخاً خطيرة في صفوف الجماهير التي كانت تنعم حينذاك بأعياد انتصاراتها المجيدة على المستعمرين وأعوانهم. لقد قالوا مثلاً، وهم يكذبون على الله والناس وأنفسهم أننا ذهبنا نحن الضباط السوريون إلى عبد الناصر وطلبنا منه تحقيق ذلك الهدف القومي الكبير لإنقاذ أنفسنا من خلافاتنا فيما بين بعضنا بعضاً!.. وإنني أترفع عن الرد وتفنيد

شتائمهم وغمزاتهم الموجهة إلى شخصي فسيرتي في حياتي ترد عليهم وقد شرفني الله بكره المستعمرين الذين لا يمكنهم على كل حال إخفاء ما أنزلته بهم وبخدمهم الصهاينة وأشباه العرب بعونه تعالى وعون جماهير شعبنا السوري من هزائم وخيبات.

واتصلت بوزير الدفاع بعد تصفية ذيول تلك الأزمة واقترحت قيام قيادة عليا للجبهة الوطنية المدنية العسكرية مهمتها النظر في كل أمر طارئ والتنسيق فيما بين مختلف الأطراف الوطنية واتخاذ القرار المناسب في كل حالة. وقامت هذه القيادة في النتيجة وكانت تجتمع دورياً مساء يوم كل خميس من الأسبوع وعند الحاجة أيضاً في دار وزير الدفاع خالد العظم أو في دار رئيس الوزراء صبري العسلي. وضمت القيادة المذكورة كلاً من: صبري العسلي (عن الحزب الوطني)، خالد العظم (عن الجبهة الديموقراطية)، أكرم الحوراني وصلاح البيطار (عن حزب البعث)، مأمون الكزبري (عن المستقلين)، خالد بكداش (عن الشيوعيين)،

عفيف البزري (عن العسكريين). وكانت القرارات تصدر بالاتفاق وتقوم بتنفيذها الجهة المختصة.

[3] يشير عفيف البزري هنا إلى ديكتاتورية جمال عبد الناصر التي أدت إلى ترعرع التيار الساداتي واستفحاله ضمن الحركة الوطنية الناصرية؛ (ي.ب).

2[i] من العواء، نسبة للذئاب عندما تفترس ضحاياها؛ (ي.ب).

الذين المتآمرون العسكريون هنا المقصود)
الاجتماعين حضروا والذين عنهم الحديث سبق
خالد دار وفي الحنيدي بيت في مذكورينال
تقويض إلى مؤامراتهم من يهدفون وكانوا العظم
سوريا بها نعمت التي الديمقراطية الحياة
الجيش في القليلة أعدادهم مقارنة وتمت .حينذاك
كانوا الذين العسكريين ألوف بعشرات السوري

الانقلابـــــات ضـد ويقفـــون الديمقراطيـــــة يســـــاندون
.(ب.ي) العســـــكرية؛

الفصل الخامس عشر
وحدة المستعمرين وخدمهم

انقلاب الزرقاء

أشرنا فيما سبق من هذه الدراسة إلى أن الولايات المتحدة الأميركية، بعد أن دفعت قدماء المستعمرين الإنجليز والفرنسيين إلى تشديد عدوانيتهم على أمتنا ثم توريط هؤلاء الجزائري الذي حمل في شن الحرب على الشعب السلاح وثار على اغتصابهم أرض الوطن وتوريط هؤلاء وأولئك في شن الحرب على الشعب المصري الذي أمم قناة السويس، وبعد أن هزموا جميعاً في حربيهم المذكورتين، أرسل رئيسها أيزنهاور كتابه الشهير الى الكونغرس الأميركي في مطلع ربيع عام 1957 قام في المنطقة العربية المشرقية "فراغاً"يه ان يدعي ف بخروج أولئك المستعمرين القدماء منها مهزومين، الخروج

الذي ساعدت على تهيئة ظروفه طويلاً هذه الدولة لتتمكن في

النتيجـــة مـــن الادعـــاء بحـــدوث ذلـــك الفـــراغ المـــزعوم

وبالتـــالي لتتمكـــن مـــن مـــلء هـــذا الفـــراغ بـــإحلال

.د مكـــان اســـتعمار أولئـــك القـــدماءاســـتعمارها الجـــدي

وقـــد أعلـــن أيزنهـــاور بكتابـــه الآنـــف الـــذكر مبـــدأه

بحـــق تـــدخل دولتـــه فـــي شـــؤون المنطقـــة للمحافظـــة

علـــــى مصـــــالح دولتـــــه فيهـــــا، الاقتصـــــادية

والسياســـية والعســـكرية، ولحمايـــة دولهـــا مـــن الخطـــر

الشـــيوعي العـــالمي والمحلـــي، تحـــت عنـــوان: "مـــلء

طنيـة السورية مباشرة على الفــراغ". وردت الحكومـــة الـــو

برفض 1957هذا المبدأ في العاشر من كانون الثاني عام

دعوى وجود أي فراغ في المنطَقة، بعد خروج المستعمرين

الأغــراب منهــا، وبــرد الادعــاء الامــيركي بــان مــن حــق

تلـــك الدولـــة التـــدخل لحمايـــة دول المنطقـــة مـــن

الشـــيوعية. وأكـــد البيـــان الســـوري أن الخطـــر

يـــد الـــذي تتعـــرض لـــه المنطقـــة هـــو خطـــرالـــوح

الاســـتعمار وخادمتـــه الصـــهيونية. ومـــا كانـــت فـــي

الواقـــع الرأســـمالية الاحتكاريـــة الأميركيـــة بحاجـــة

الـــى البيـــان الســـوري المـــذكور لتتأكـــد مـــن أن الخطـــر

الوحيـــد الـــذي يهـــدد تســـللها الاســـتعماري فـــي

المنطقـــة هـــو الحركـــة الوطنيـــة العربيـــة وليـــس

الشـــيوعية كمـــا ادعـت كـذباً. أمـــا تلـــك الضـــجة

المفتعلـــة الـــتي أثارتهـــا حينـــذاك فكانـــت فـــي

الواقـــع مجـــرد عـــواء الـــوحش الـــذي يســـبق انقضاضـــه

علـــى فريســـته. ففـــي الثـــاني عشـــر مـــن آذار عـــام

1957 أرســـل أيزنهـــاور مستشـــاره الخـــاص لشـــؤون

الشـــرق الأوســـط جيمـــس ريتشـــاردز، كـــي يقـــوم

بجولـــة على دولـــه، وهـــو يحمـــل حقيبـــة تنتفـــخ

بمـائتـي مليون دولار لتوزع هنـا وهنـاك فـي هذه المنطقـة

بقصـد بنـاء "الأسـاس المـادي للحضـور الأميركـي فيهـا"،

"الحضور الذي سيخلف "الحضور الإنجليزي" الغـارب، الذي

سيؤمرك" الاستعمار فيها. فحلف بغداد مثلاً انقلب أميركياً

بانضـــمام الولايـــات المتحـــدة إليـــه كعضـــو كامـــل

العضـــوية فـــي الثـــالث والعشـــرين مـــن آذار عـــام

أي أثنـــاء جولـــة هـــذا الجيمـــس ريتشـــاردز فـــي 1957 المنطقـــة. وقـــد ســـبق وبينـــا فـــي هـــذه الدراســـة أن حلـــف بغـــداد أقيـــم مـــن قبـــل الإنجلـــيز لســـد الطـــريق علـــى تســـلل الأميركـــان فـــي منطقـــة الشـــرق الأوســـط فهـــا هـــو ذا يصـــبح بـــدولارات أميركـــا أداة بيـــد هـــذا د خنعت إنجلترة بذاتها مع اتباعها الاســـتعمار الوافـــد. وق وخدمها في العالم لهذا الاستعمار الجديد الذي تزعّم الرجعية العالميـــة. أمـــا فرنســـا فكانـــت، بانتظـــار الجـــنرال ديغـــول، تتخبـــط فـــي أمورهـــا بمـــا تعانيـــه مـــن ثقـــل كفـــاح الجـــزائر وكفـــاح الجمـــاهير الأخـــرى فـــي مختلـــف أنحـــاء إمبراطوريتهـــا الاســـتعمارية.

نـــت نتيجـــة جولـــة جيمـــس ريتشـــاردزوكـا المـــذكور فـــي المنطقـــة أن عجـــل الملـــك حســـين بانقلابـــه الـــذي قـــام بـــه فـــي الزرقـــاء فـــي مطلـــع شـــهر نيســـان عـــام 1957، فقبـــض علـــى الضـــباط الـــوطنيين وســـجن مـــن ســـجن منهـــم ونفـــى مـــن نفـــى وهـــرب مـــن هـــرب مـــن قبضـــته والتجـــأ إلينـــا. وطـــرد

وأعلن حكومة النابلسي الوطنية في ذات الوقت انسحابه من الحلف العربي الرباعي الذي ضم كلاً من مصر وسورية والأردن والسعودية قبل أشهر فقط من هذا التاريخ. وقد بينا في حلقة سابقة أن هذا الملك كان في الواقع قد ارتد فوصل ماانقطع بينه وبين الإنجليز بطرد كلوب من قيادة كبرى مع جيشه باشتراكه في تدبير المؤامرة ال الإنجليز ومدرسة نوري السعيد للإطاحة بالحكم الوطني في سورية أثناء العدوان الثلاثي على مصر ثم فشلت هذه المؤامرة فشلاً مخزياً، وقد مرّ معنا تفصيل هذا الأمر في مناسبة سابقة. أما بعد أن خنعت بريطانيا وخدمها في العالم لزعامة أميركا العالمية عد الجولة المذكورة لجيمس ريتشاردز في للاستعمار وب منطقتنا فإنه، أي الملك حسين، قد ا ستظل بالخيمة الأميركية ولكن بغير الوجه الذي تظاهر به بالوطنية عند طرد كلوب ففي هذه المرة أعلن عن قبوله دولارات .من قيادة الجيش ريتشاردز المذكور كي تحلّ هذه الدولارات محلّ المعونة

يــة مــن ســورية ومصــر الــتي ألغاهــا هــو مــن العــرب طرفـــه والـــتي كانـــت تعوضــــه عـــن المعونـــة .البريطانيـــة الـــتي انقطعـــت عنـــه إثـــر طـــرد كلـــوب وأيـــدت الســـعودية الملـــك حســـين فـــي انقـــلاب الزرقـــاء فـــي الوقـــت الـــذي ذهـــب فيـــه الملـــك ســـعود بزيـــارة رســـمية إلـــى الولايـــات المتحـــدة الأميركيـــة تـــه الـــى بلـــده عنـــدحيـــث أعلـــن وهـــو فـــي طـــريق عـــود انتهـــاء هـــذه الزيـــارة عـــن استحســـانه وقبولـــه لمبـــدأ أيزنهـــاور. وفـــي هـــذه الأثنـــاء جـــاء الشـــيخ يوســـف ياســـين وزيـــر خارجيـــة الســـعودية والقـــائم بـــوزارة الـــدفاع أيضـــا بزيـــارة خاصـــة إلـــى ســـورية. وأخـــذ يتصـــل بالمعارضـــة ويـــوزع المـــال يمنـــة ويســـرة ن يحصـــلويحـــرض علـــى الحكـــم الوطـــني علـــى أمـــل أ .فـــي دمشـــق مايشـــبه الـــذي كـــان قـــد جـــرى فـــي الزرقـــاء وفـــي ذات الوقـــت تحـــرك لـــواء ســـعودي كـــان يعســـكر فـــي منطقـــة العقبـــة فـــي أقصـــى جنـــوب الأردن ليعســـكر بجانـــب الفرقـــة الســـورية فـــي منطقـــة

المفـــرق فـــي أقصـــى شـــمال الأردن علـــى الحـــدود السـورية مــن الجبهـة الأردنيـة. وكانـت جميـع القـوات، السـوريـة والسـعودية، قـد دخلـت الأردن لـدعم جبهتـه تجـاه اسـرائيل عنـد بـدء العـدوان الثلاثـي علـى مصـر وبقيـت هنـاك ولمـا تنسـحب بعـد وتعـود الـى بلادهـا حينـذاك. وأتينـا علـى خـبر هـذا الأمـر فيمـا سـبق مـن هـذه الدراسـة. ثـم إن يوسـف ياسـين جاءنـا واجتمـع بضـباط هيئـة الأركـان لبحـث المشـكلة الناجمـة عـن انتقـال القـوات العامـة السـعودية مـن أقصـى جنـوب الأردن إلـى أقصـى شـماله لتعسـكر بجـوار الفرقـة السـورية دون أي سـبب معقـول سـوى محاولـة اسـتفزازنا وتقييـد حركتنـا عنـد حـدوث طـارئ مـدبر. وتمكنـا مـن دفعـه إلـى تسـجيل عـدد مـن طلباتـه التحريضـية الخيانيـة علـى محضـر تلـك اللقـاءات بيننـا وبينه، و المحضر الذي كان يكتبه بخط يده تطوعاً والذي سحبته منه أنـا ووضـعته فـي جيـبي فـي نهايـة المحادثـات

لاطـــلاع الـــرئيس شـــكري القوتلـــي والـــرئيس عبـــد الناصـــــر علـــــى الموقـــــف الحقيقـــــي للحكومـــــة السـعودية فـي تلـك الأيـام. وقـد قلـت لـه عنـدما كنــت أضــع ذلــك المحضــر فــي جيــبي بعــد أن بأنــه كمســلم يــؤمن بــاليوم الآخــر اســتوثقت منــه: أن الله ســيذيب الــذهب الــذي طالمــا بذلتــه حكومتــه الرجعيــة لخدمــة أغــراض أعــداء الإســلام المســتعمرين والصــهاينة فــي حلقــه وحلــق ملكــه يــوم القيامــة. ثــم طلبــت منــه مغــادرة ســورية فــي الحــال أو أنــه ســـيكون عرضـــــة للتوقيـــــف بســـــبب نشـــــاطه نــا فهــو مــن أصــل ســوري التــآمري غــير الخــافي علــي ولايحميــه مــركزه فــي الســعودية. وكــان مــن أبــرز ماســجل بخــط يــده علــى المحضــر المــذكور الأمــور التاليـــة:

- إلغـــــاء اســـــتعمال الأســـــلحة الســـــوفياتية واســـتبدالها بأســـلحة أميركيـــة تتعهـــد الســـعودية بالتوســـط لـــدى أميركـــا للحصـــول عليهـــا. ولايعـــني

مسلحةهـــذا ســـوى القضـــاء علـــى المقاومـــة ال،
العســـكرية والشـــعبية، للقطـــر الســـوري لأمـــد
طويـل.

- تأييـــد انقـــلاب الزرقـــاء ومســـاندة الملـــك
حســين ضـــد الحركةالوطنيـــة الأردنيـــة.

- الانضمام إلى حلف بغداد الذي كانت السعودية تشجبه
عندما كـان إنجليزيـا هاشـمياً ثـم أصـبح بنظرهـا حلفـاً إسـلامياً
يركــا إليـــهجديراً بالتأييد بعد انضمام أم.

وغـادر يوسـف ياسين سورية مباشـرة بعد إنذاري لـه.
وعندما وصل إلى السعودية ومثل أمام الملك سعود قام هذا
بضربه بيديه ورجليه ليشفي غليلـه منـه بعد أن سبب لـه تلك
الفضيحة بوقوعه فـي فخنـا وكشـف أوراق دولتـه بتحرير ذلك
المحضر بخط يده. ثم إنه لم يعش طويلاً بعد هذا الحادث الذي
أدى إلـى طـرده مـن وظائفـه فمـات فـي الاسـكندرية بعـد سـتة
اشهر.

إن الحلـف الربـاعي، حلـف سـورية ومصـر والسـعودية
والأردن، نشـأ فـي الواقـع أثنـاء المقاومـة الوطنيـة فـي المنطقـة

للاستعمار القديم، وخلال الصراع بين هذا الاستعمار وبين الآخر الأميركي الجديد. وهو، أي الحلف الرباعي المذكور، يجسد تسلل الاستعمار الجديد في الحركة الوطنية العربية للاستعانة بها لتقويض الاستعمار القديم ثم إجهاضها. ونرى بالفعل أن هذا الحلف ظل متماسكاً في كل المراحل التي كان الإنجليز يتآمرون فيها على الحكم الوطني في سورية، انطلاقا من العراق المحكوم بمدرسة نوري السعيد، ويماطلون في الجلاء عن مصر ويسعون إلى إقامة الأحلاف التي تسند استعمارهم في المنطقة كحلف بغداد مثلاً، أي باختصار ظل متماسكاً مادام الحضور الإنجليزي الاستعماري قائماً في المنطقة. وعندما انهار هذا الاستعمار القديم في أعقاب العدوان الثلاثي وأعلن رئيس الولايات المتحدة الأميركية أن فراغاً حدث بهذا الانهيار في منطقة الثروات الأسطورية وجدنا أن هذا الحلف يتزعزع اولاً ثم ينهار بانقلاب الزرقاء المذكور: أثناء المساعي المحمومة للحكومة البريطانية لترميم نفوذها الاستعماري في المنطقة وتوطيده أرسلت الجنرال السير جيرالد تمبلر رئيس هيئة الأركان الإنجليزية

إلى الأردن في كانون الأول عام 1955 ليعمل على تهيئة هذا القطر العربي للانضمام إلى حلف بغداد. ولكن المظاهرات العارمة التي واجهها مع مقاومة الضباط الوطنيين في الجيش الأردني ردته خائباً. وكانت النتيجة أن قام الملك تحت ضغط الحركة الوطنية وتشجيع الأميركان بطرد كلوب وتعريب الجيش في آذار عام 1956. وقد تعهدت حينذاك كل من سورية ومصر والسعودية بتعويض المعونة المالية التي كان يتقاضاها الأردن من الإنجليز لينفقها على احتياجات جيشه. وعند انهيار الاستعمار البريطاني في المنطقة أصبحت الحركة الوطنية العربية، وخاصة في سورية، في مواجهة مباشرة مع الأميركان، الأمر الذي فرز أنصار الأميركان عنها فرأينا انقلاب الزرقاء يحدث بتأييد كبير من السعودية وبتأييد ضمني من قبل الساداتيين. ثم إن زعماء حزب الشعب في سورية الذين طالما أيدوا هاشميي العراق ومن ورائهم أسيادهم القدامى الإنجليز انصرفوا عن هذا الخط للتحالف مع الساداتيين في الثورة المصرية فكانوا يحرضون ويتعاونون مع هذا التيار ضد الوطنيين التقدميين في سورية ومصر.

غدونا إذن هنا في المنطقة في ربيع عام 1957 كحركة وطنية تحررية وجهاً لوجه أمام الاستعمار الجديد المتمثل بالولايات المتحدة وقاعدتها إسرائيل وخدمها العرب وغير العرب من المسلمين ومن فلول الأجراء القدامى للإنجليز. وكان بالإمكان أن نقبر الاستعمار الجديد في رمال شواطئنا كما قبر صلاح الدين قطعان صهاينة البابوية في رمال عكا لو أن القيادة الوطنية انتبهت جيداً إلى حقيقة هذا الاستعمار الجديد وصممت على التصدي له قبل أن يتجذر في أرضنا، فالظروف كلها كانت مؤاتية لتحقيق نصر مؤزر للحركة الوطنية العربية. إنه ماكان للاستعمار سوى تلك الرجعيات والانتهازيات التي سحقتها جماهيرنا في كل الجولات التي خاضتها ضدها في تلك الأيام. ولكن تلك القيادات الوطنية ظنت أن المعركة مع الاستعمار قد انتهت بانهيار القديم منه، وكأن الاستعمار بحسب هذا الظن يقتصر فقط على جيوش الاحتلال والمفوضين السامين وحكام المستعمرات القدامى وليس نظامه العالمي الذي يقهر الضعفاء بألف وسيلة ووسيلة تجعل مثلاً بعض أهل البلد المستضعف

يحتل بلده لحساب سادة هذا النظام. أما الوجه الإيجابي الواعي في الحركة الوطنية السورية فقد التزم بشكل عام بخط مدرسته وقواعدها في مكافحة الأميركيين وقطع دابر مؤامراتهم وسار بخطى ثابتة نحو الوحدة مع مصر كهدف أساسي لابد منه حتى مع ما آلت إليه هذه المسيرة من فشل. فالذي سبب هذا الفشل هم أولئك الذين هدموا تلك المدرسة بحماقتهم وظنهم الكاذب بأنهم سجلوا النصر الحاسم على الاستعمار، وهم في الواقع مافعلوا أكثر من محاربة القديم وتكنيس أنقاضه لحساب الجديد وليس لحساب التحرر الوطني الحاسم.[3]

القيادة الوطنية تتعثر بقوتها

بعد ان توحد المستعمرون في ربيع عام 1957 في النظام الاستعماري الجديد بزعامة الولايات المتحدة الاميركية ووقفوا كتلة واحدة في وجه الحركة الوطنية العربية التي جاءت حينذاك المقاومة السورية في مقدمتها، وبعد ان توحد

---

[3] المقصود هنا عبد الناصر وقادة الحركة الناصرية؛ (ي.ب).

كل خدمهم ومحبي نظامهم في المنطقة بعد ان اختلفوا طويلا بين انجليز واميركان، اصبح من الضروري والواجب علينا ان نتقدم بحزم للاستيلاء على ما بقي لليمين والرجعية المناصرة لها من مواقع. لذلك اقترحت في اجتماع قيادة الجبهة الوطنية الذي سبق افتتاح مجلس النواب السوري لدورته العادية في شهر حزيران عام 1957 ان يتقدم الاستاذ اكرم الحوراني بترشيح نفسه لرئاسة هذا المجلس. فاعترض الحوراني على هذا الاقتراح وقال انه يعني القطيعة النهائية مع حزب الشعب الذي احتكر هذا الموقع الهام منذ الاطاحة بحكم الشيشكلي حيث كان يضع فيه الاستاذ ناظم القدسي بالتزكية ودون معارضة الحركة الوطنية التقدمية. فأجبته بقولي: "هل ماتزال لنا صلة بهذا الحزب الذي تآمر زعماء كبار منه على استقلالنا وحكم عليهم شعبنا بتلك الأحكام التي يقضونها حاليا؟ ثم اننا لانغتصب شيئاً منهم مادامت الاكثرية الى جانبنا في المجلس. اننا نسعى الى حقنا بالاسلوب البرلماني الديموقراطي وانا اصر على اقتراحي واطلب طرحه على التصويت". عندئذ سحب الاستاذ الحوراني

اعتراضه ونال اقتراحي موافقة قيادة الجبهة بالإجماع. وتم انتخابه لرئاسة مجلس النواب امام ذهول المستعمرين الاميركان ثم صراخهم من الالم وصدى هذا الصراخ بعويل خدمهم واذنابهم.

بعد سقوط ناظم القدسي واعتلاء الحوراني كرسي الرئاسة افتعل رشدي الكيخيا، نائب حلب وزعيم حزب الشعب، أزمة في مجلس النواب قدم بنتيجتها استقالته من النيابة وخرج من قاعة الاجتماع بصخب وهو يعلن انه لن يعود عن استقالته مادامت الاكثرية التي تمثل الجبهة الوطنية تتحكم بمجريات الامور. وقد كشف هذا التصرف الغريب المنافي لأبسط قواعد الشورى البرلمانية عن ذلك الطموح الديكتاتوري الجارف الذي كان يستولي على زعامة هذا الحزب ويدفعها الى تلك المحاولات البائسة اليائسة للاستيلاء على الحكم واحتكار السلطة باي ثمن. فالعديدون من زعماء هذا الحزب كانوا دوما وراء الانقلابات العسكرية الناجحة والفاشلة التي جرت في سورية لاخفات صوت الجماهير، ولكن هؤلاء كانوا بعد كل انقلاب يتباكون على

الديموقراطية عندما كانت الديكتاتورية العسكرية تنقلب ضدهم بعد فوزها بالسلطة. نقول اذن ان الكيخيا قدم استقالته وخرج من قاعة الاجتماع، فقام عندئذ نواب حزبه واعلنوا بشكل مسرحي انهم سيستقيلون جميعهم من نياباتهم في حال قبول استقالة زعيمهم تلك. وكان واضحا ان هذه المسرحية دبرت لخلق جو من البلبلة والفوضى ولكنها بينت بوضوح ضعف حزب الشعب بالاضافة الى اظهارها جهل قادته وحماقتهم، فهم بتصرفهم هذا اعطوا الفرصة للجبهة الوطنية التقدمية للسيطرة بشكل مطلق على الساحة السياسية لولا تدخل سفير مصر محمود رياض والتصرف الفردي الأرعن للأستاذ أكرم الحوراني.

ان قيادة الجبهة الوطنية قررت بالاجماع ليلة عرض استقالة الكيخيا على المجلس ليصوت عليها قبول تحدي حزب الشعب بقبول هذه الاستقالة لدفع نواب هذا الحزب الى التضامن مع زعيمهم فيقدموا بدورهم استقالاتهم. وكان بالامكان اجراء انتخابات نيابية لتعويض النواب المستقيلين يفوز بها مرشحو جبهتنا بكل تأكيد لهبوط سمعة أولئك

الشعبيين بعد الاحكام التي كانت قد صدرت ضد زملاء لهم جرموا بالخيانة الوطنية. ولكن استقالة الكيخيا رفضت من قبل اكثرية النواب بمساعي الاستاذ اكرم الحوراني رئيس المجلس ومحمود رياض سفير مصر الذي بلغ به الامر الى تخطي كل الاعراف عندما حضر الى غرفة الحوراني ليشرف بنفسه عن قرب على عملية الاقتراع التي تم بموجبها "ترضية الكيخيا" و "صفع قيادة الجبهة الوطنية". ولقد انتابني حزن شديد لهذه النتيجة المأساوية البالغة التأثير على مسيرتنا الوطنية، فسببت بعض البلبلة في صفوف العسكريين تمكنت من التغلب عليها بسرعة، ولكن قيادة الجبهة الوطنية أصيبت بطعنة نجلاء وعادت الى الانقسام بانفصال المدنيين عن العسكريين. فقد تبين ان هذه القيادة التي كان لها السلطة العليا في كل النواحي التشريعية والتنفيذية، وذلك بحكم تركيبها، هزيلة الى الحد الذي يتمكن معه سفير مثل محمود رياض من ايقاف كل قرار لايعجبه بواسطة فرد فيها لايأخذ امورها بالجدية الكافية. ففي اليوم التالي للجلسة التي رفض فيها مجلس النواب استقالة الكيخيا استدعاني وزير الدفاع عضو

الجبهة الوطنية الى مكتبه وعرض علي حضور اجتماع قيادة الجبهة كالعادة في منزله لمناقشة ماأستجد بعد تلك النتيجة المأساوية، وكان هو وخمسة من زملائه نواب الجبهة الوطنية قد نفذوا قرار القيادة بقبول استقالة الكيخيا المذكورة. ولكنني كنت مدركاً ان الامر بكليته مدبر: يرفض بعضهم الاستقالة وهم الاكثرية الساحقة بينما تقبلها اقلية لايتجاوز عددها الخمسة او الستة نواب "لارضاء العسكر"، الامر الذي زاد من المي وخيبة املي. فاعتذرت عن قبول دعوة وزير الدفاع لحضور الاجتماع المذكور بعد ان بينت له وجهة نظري. ودامت هذه القطيعة بين المدنيين والعسكريين بعض الوقت، حوالي الشهر. واتاني في نهاية الامر النائب البعثي من الجناح العربي الاشتراكي في مدينة حلب المرحوم عبد الفتاح الزلط، وكانت تربطني به صداقة، ورجاني الاجتماع بالاستاذ اكرم في غرفته في فندق سميراميس حيث كان ينزل. فلبيت طلبه وتم ذلك اللقاء الذي لم يؤدي إلا الى عودتي لاجتماعات قيادة الجبهة الوطنية الاسبوعية والطارئة دون التطرق الى التدخل الضار الفردي للاستاذ محمود رياض في شؤون جبهتنا

الوطنية لسببين: الاول هو عدم معرفتي حينذاك مدى هذا التدخل والدوافع التي وراءه والثاني هو انه ماكان من شأني في ذلك الزمان ان اقدر خطورة التيار الساداتي في الحركة الوطنية المصرية. ولكنني كنت أعرف جيدا ان الاستاذ محمود رياض كان يقضي معظم سهراته مع الاستاذ اكرم الحوراني وما كان هذا الامر يستلفت النظر لعميق اعجابنا في تلك الايام برجال الثورة المصرية وشدة ارتباطنا الروحي بهم. ولابد لي ان اعود الى تكرار التذكير بالخدمات الجليلة التي اداها الاستاذ اكرم الحوراني الى الامة العربية، الخدمات التي لاينكرها عليه الا كل جاحد وجاهل. فهو في الحق والواقع من رواد تحرير الفلاحين في سورية والوطن العربي وصاحب الصوت الذي طالما دوى في نصرة قضايانا الوطنية ونصرة حقوق الضعفاء من قومنا.

وكان الملك حسين قد طلب في آخر شهر ايار ان نعيد الفرقة التي كانت قد ارسلت الى الاردن لتعزيز الجبهة هناك تجاه اسرائيل، وقد مر معنا خبر هذا الامر فيما سبق من دراستنا هذه، فلبينا طلبه دون تأخير. وليس صحيحا ماذكره

باتريك سيل في "الصراع على سورية" من انه انتابنا الغضب عندما تلقينا الطلب المذكور الذي كنا نتوقعه.

فالاحمق وحده يغضب من وقوع امر يعرف سلفا انه لابد واقع. والحقيقة ان الملك حسين كان يريد ان نقوم نحن بسحب الفرقة المذكورة واعادتها الى سورية لان في هذا تخفيف في اعبائنا المادية، اما نحن فما كنا لنعطي الملك هذه الفرصة ليتهمنا بالتقصير في حماية جبهته.

هزيمة كاوية للولايات المتحدة

كان سعار الاميركان يتصاعد اكثر فاكثر امام صمود جبهتنا الوطنية وتنامي دعم الجماهير لها وقيامها مثلا للتصدي بثبات للمستعمرين في وطننا العربي وفي العالم. فاتوا لذلك "بورشتهم" المخصصة للاطاحة بالحكومات الوطنية المعارضة لسياستهم العدوانية الاستعمارية، الورشة التي كان يقودها كرمت روزفلت الشهير الذي عمل على اسقاط حكومة مصدق الايرانية وعلى ترميم حكم الشاه بعد ذلك هناك. ولقد كانوا يريدون الانتهاء من الحكم الوطني

السوري وتهديم مدرسته القائدة وتذرية رمادها في الرياح ان امكن. وهذه الورشة وامثالها في كل منطقة من العالم، مع المرتزقة من خونة اوطانهم والانتهازيين والرجعيين المستائين من التقدم على اختلاف أشكالهم، تشكل مخلب كل جهاز تقيم به الولايات المتحدة الاميركية مختلف علاقاتها مع العالم ويشكل خط التماس مع الاخرين. ويأتي الخط الثاني الذي يتألف من احلاف الشركاء والاتباع والحكومات الرجعية العميلة والاساطيل والقواعد العدوانية التي تلتف حول العالم. ثم يأتي الخط الثالث ويتشكل من القوى الاحتياطية على اختلاف اشكالها العسكرية وغير العسكرية القابعة في الاراضي الاصلية للمستعمرين في اميركا واوروبا. ووقع اختيار ورشة التخريب والهدم المذكورة على الديكتاتور السابق اديب الشيشكلي ومساعده ابراهيم الحسيني، الذي كان يشغل وظيفة الملحق العسكري حينذاك في السفارة السورية في روما، للقيام بانقلاب في دمشق من طراز عملية "الجنرال زاهدي" الايراني، الذي كان ايضا ملحقا عسكريا في احدى سفارات ايران فاتى به الاميركان

سرا الى طهران حيث اختبأ في سفارة دولتهم ليخرج منها في الوقت المحدد ويلتقي بالاشقياء اعوانه ويقوموا بالانقلاب الذي أودى بحكومة مصدق. فالسفارات الاميركية هي الاوكار التي يخرج منها في العادة القتلة والمخربون وغيرهم من المفسدين، كما خرج من تلك التي في تونس قتلة المرحوم الشهيد خليل الوزير مثلا، ثم يقومون بعد ذلك بمسح مثل هذه القذارات في وجه الموساد وأشباهها. نقول اذن انهم اختاروا الشيشكلي والحسيني ليحاولا تجنيد بعض المرتزقة لاعادة عرض تمثيلية زاهدي على المسرح الدمشقي.

واتصل الشيشكلي بمحام صديق له كان يعمل بوظيفة كبيرة في وزارة الداخلية ايام عهده وسأله الاتصال ببعض الضباط ممن كانوا من انصاره فيما مضى ليعملوا معه على الاطاحة بالحكم الوطني. واتصل الاميركان من جهتهم بعمر القباني وزمرته من العسكريين لذات الغرض. وكانت الاخبار ترد الينا اولا بأول ممن كانوا على صلة بهم من المدنيين والعسكريين في هذه القضية. فعلمنا في وقت مبكر من أن هناك شخصيتين قياديتين ستصلان سراً الى دمشق وان

احدهما هو الملحق العسكري في روما ابراهيم الحسيني ليقوما بقيادة عمليات تنفيذ المؤامرة التي تحاك. فقدرت ان الشخصية الاخرى لابد من ان تكون الشيشكلي. اما الحسيني فيمكن في الواقع وصوله الى دمشق بسهولة لأنه كان حينذاك مايزال في خدمة الدولة وغير ملاحق على الاطلاق بينما كان الآخر ملاحقا بحكم غيابي صدر ضده في قضية المؤامرة الكبرى المار ذكرها في سياق هذه الدراسة فلا يمكنه لذلك التسلل بسهولة الى دمشق. وقد ابلغني مؤخرا متقاعد عسكري لبناني، كان له مركز هام في جناح حركة سياسية يوالي السياسة الاميركية في تلك الايام، بانه استقبل الشيشكلي والحسيني في مطار بيروت عندما وصلا على متن طائرة اميركية وساعدهما على اجتياز الحدود السورية. كما اكد لي مستشار سفارتنا في روما الدكتور اسعد حومد غياب الملحق العسكري ابراهيم الحسيني في ذلك التاريخ. وفي الحادي عشر من آب ابلغنا أولئك الذين يتصل بهم كل من الملحق العسكري الاميركي روبرت مالوي ونائب القنصل الاميركي فرانسيس جيتون والسفير الثاني في السفارة الاميركية هوارد

ستون، وهذا الاخير كان مساعدا لكرمت روزفلت في عملية الاطاحة بالرئيس مصدق الايراني وهو على مايبدو كان يترأس تلك العملية في دمشق التي أطلق عليها اسم "مؤامرة ستون" فيما بعد، ان لقاءهم مع الشخصيتين الآنفتي الذكر سيكون في تلك الليلة، ليلة الحادي عشر الى الثاني عشر من آب، وان الحركة الانقلابية قد تكون في فجر اليوم التالي. عندئذ اصدرت امرا باستنفار القطعات حول دمشق، كما اصدرت تعليماتي للسراج بمحاصرة بيوت جميع الاميركيين القاطنين في منطقة العاصمة بعناصره، ولزمت مكتبي طوال ذلك اليوم وتلك الليلة اتلقى تقارير السراج وتقارير قادة القطعات عن تطورات الحالة. ففي هذه القطعات ماكان يقع اي شيء غير عادي، اما فيما يخص حركة العدو في بيوت السفارة الأميركية وبيوت موظفيها فان ستون وعصابته كانوا يستمهلون العناصر الذين ظنوا بانهم يعملون معهم ويؤجلون موعد اللقاء بالشخصيتين المذكورتين، الشيشكلي والحسيني، ثم قطعوا الاتصال فجأة في حوالي منتصف الليل مع عناصرنا المذكورة. فقدرت عندئذ ان أولئك الاميركان قد

احسوا بان عمليتهم تلك كانت مكشوفة لنا منذ بدايتها، لذلك اخذوا من طرفهم هم يستمهلون عناصرنا الذين خدعوا بهم في البدء وظنوا انهم يعملون معهم ويؤجلون موعد جمعهم بالشيشكلي والحسيني ساعة بعد ساعة كي يكسبوا الوقت ويعيدوا هاتين الشخصيتين الى لبنان ومن ثم الى روما على متن الطائرة الاميركية التي كانت حملتهما من هناك الى لبنان عند البدء بتنفيذ هذه المحاولة العدوانية الفاشلة. وقد مني في النتيجة بهزيمة كاوية ساحقة هذا العدو للانسان الذي يبني علاقاته بالامم الاخرى على التآمر والعدوان والاذى بوقاحة ماعرف التاريخ ابدا مثيلا لها عندما يدعي ظلما وباصرار مقرف بان سلوكه هذا هو سلوك الاحرار بينما دفاع ضحاياه عن انفسهم هو بزعمه من باب التطرف والهمجية وامتهان الحرية.

وفي صباح اليوم التالي، 12 آب عام 1957، عاد وزير الدفاع مع الوفد المرافق له وفيه رئيس الاركان العامة اللواء توفيق نظام الدين والمقدم امين النفوري من موسكو حيث جرت مباحثات بين وفدنا هذا وبين الجانب السوفياتي

تتعلق بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية المقدمة الينا. وقد قمت بعرض كل ما جرى في الليلة السابقة وما قبلها بقصد الاطاحة بالحكم الوطني على رئيس مجلس النواب اكرم الحوراني ورئيس مجلس الوزراء صبري العسلي ووزير الدفاع خالد العظم ووزير الخارجية صلاح الدين البيطار بصفتهم أعضاء قيادة الجبهة الوطنية. وطلبت طرد الأميركيين الثلاثة المذكورين أعلاه من سورية بصفتهم دبلوماسيين غير مرغوب فيهم. وقد صدر بلاغ رسمي عن وزارة الخارجية السورية في نفس اليوم بواقع هذا الامر واستدعي السفير الاميركي الى وزارة الخارجية وابلغ احتجاج سورية وطلبها ابعاد أولئك المتآمرين في سفارته واعادتهم الى بلدهم. ثم قدمت مشروع مرسوم بتسريح زمرة عمر قباني من الجيش وعددهم لايتجاوز الثمانية افراد وليس عشرات الضباط او مئاتهم كما زعم المستعمرون وخدمهم عندما كتبوا حول هذا الامر. وقمنا حينذاك باحالة افراد هذه الزمرة المتآمرة على القضاء لعدم توفر الادلة الكافية ضدهم، وقد ثبت فيما بعد ظننا فيهم عندما وردت اخبار اتصالاتهم

بالعدو وتآمرهم في مذكرات رجال ال (سي، آي، أي) من امثال كرين المشار اليه اعلاه في بحثه "حبال من الرمل".
ولكن اللواء نظام الدين لم يقتنع حينذاك بوجوب الخلاص منهم ومن دسائسهم في اوساط القطعات العاملة فقدم استقالته كي لا يرفع مرسوم التسريح المشار اليه. وقد رجوته بالحاح ان يعود عن استقالته فيبقى في قيادة الجيش لاننا نعتبره مثلا للضابط الوطني النزيه ذي الصفات العالية بكرم اخلاقه، ولكنه اصر على انسحابه من الخدمة العسكرية. وتم تعييني خلفا له في رئاسة الاركان العامة والقيادة العامة للقوات المسلحة التي ضمت الجيش والشرطة والامن الداخلي والخارجي وقوات المقاومة الشعبية.

وكتبت عني النيويورك تايمز في السابع من آب عام 1957 فوصفتني بانني شيوعي منظم وضابط مؤيد للسوفيات علنا وان منصبي الجديد يعني استيلاء شيوعيا على القيادة السورية العليا. واعقبت هذه الصحيفة في الثاني والعشرين من الشهر المذكور هذه الاقوال بمقال افتتاحي جاء فيه: "انها لدبلوماسية مشروعة للولايات المتحدة ان تشجع جميع الدول

المعادية للشيوعية في الشرق الاوسط لكي تستخدم كل ما في وسعها من الضغط والتأثير لكبح جماح سوريا". وماكانت هذه الاقوال لجريدة النيويورك تايمز سوى غيض من فيض في صحافة المستعمرين وإعلامهم وتهويلاتهم في تلك الايام. وفي الرابع والعشرين من ذات الشهر المذكور ارسل وزير الخارجية الأميركية دلس احد كبار معاونيه لوي هندرسون الى تركيا. وهذا الشخص كان ايضا احد اعضاء الفريق الاميركي الذي قاد عملية الاطاحة بمصدق وقام في هذه العملية بدور القائد السياسي الذي رتب مختلف العلاقات بين مختلف المتآمرين وانتهى في آخر العملية الى نقل السيادة على النفط الايراني من المستعمرين الانجليز الى الاحتكاريين الاميركان، وذلك بعد تقويض الحكم الوطني الذي امم هذا النفط. وفي انقرة عقد هذا الاميركي اول اجتماع مع مندريس رئيس وزراء تركيا بحضور كل من ملكي العراق والاردن. ثم ذهب الى لبنان واجتمع برئيس الجمهورية كميل شمعون. وعاد بعد ذلك الى انقرة حيث اجتمع بمندريس بحضور الوصي على عرش العراق ورئيس الاركان العراقية

وفيق عارف. وبعد عودته الى واشنطن وتقديم تقريره الى دلس وزير الخارجية صدر في الخامس من ايلول بيان هذه الوزارة مفاده: ان الوضع خطير في سورية وان الحكومة الاميركية تولي اهتمامها العميق بمصير سورية وتبدي خشيتها من ان تصبح هذه الدولة ضحية الشيوعية ومصدر خطر على جيرانها العرب. ثم قدمت الحكومة الاميركية في اليوم ذاته تحذيرا للحكومة السورية بعدم تجاوز حدودها والقيام بعدوان على جيرانها. وفي ذات الوقت صدر اعلان الحكومة الاميركية بارسال امدادات اسلحة الى كل من العراق والاردن ولبنان. ومن الواضح ان كل هذه الهيستريا والسعار الاميركي ضد سورية ما كانا الا ذيولا لفشل المؤامرة الاميركية الآنفة الذكر وليس لحدوث اي تغير في الحكم الوطني في قطرنا المجاهد. فالمدرسة الوطنية التي كانت تقود الكفاح ضد المستعمرين بقيت كما هي بذاتها وعلى ذات الخط النضالي منذ انهيار الحكم الديكتاتوري وانهيار مؤامرات المستعمرين الواحدة تلو الاخرى. واذا كان هناك تغيير ففي معسكر المستعمرين بحلول الاميركان محل

الانجليز. اما اني اتيت حينذاك الى قيادة القوات المسلحة فقد كنت عمليا قبلها أقود مدرسة المقاومة والكفاح العسكري ضد الاستعمار وعملائه منذ ان قامت هذه المدرسة، والاميركان يعرفون هذا جيدا.

ان باتريك سيل الذي تردد على اوساط سفير مصر محمود رياض واوساط السراج في تلك الايام قبل كتابته "الصراع على سورية" بزمن طويل، مستفيدا من كونه نشأ وترعرع في دمشق ومدارسها في بيت والده القس المبشر البروتستنتي، ليخدم المخابرات البريطانية والمستعمرين الغربيين على العموم، يقلب في كتابه الآنف الذكر ترتيب وتسلسل الاحداث، على طريقة حسنين هيكل، في كل مرة يعجز فيها عن تشويه هذه الاحداث وعن وضعها في الظل لوضوحها وشهرتها وذلك ليخدم غرضه في وضع القراء في الجو الذي يريده هو وليس في واقع ماجرى في الحقيقة. ففي القسم 21 من كتابه المذكور "الصراع على سورية" عرض الامور في المشهد المعنون بـ "وساطة الملك سعود" وكانه كان هناك صراع بين عبد الناصر وسعود حيث تنتقل سورية

بهذا الصراع من "جيب" عبد الناصر لتقع في "عب" الملك سعود، ثم يعود عبد الناصر ليستردها الى جيبه!.. اما الواقع الذي غاب او غيبه باتريك سيل عن صفحات كتابه فكان في غاية البساطة وهو ان سورية كانت حاضرة تؤدي دورها حينذاك وكانت جماهيرها مصممة على المقاومة حتى الاستشهاد. وقد اعلنت في كلمة القيتها في المقاومين الشعبيين الذين كانوا يقومون باعداد الارض للمقاومة في غوطة دمشق اننا لن ندعهم يمرون وسنقاتل من شارع الى شارع ومن بيت الى بيت ومن غرفة الى غرفة ولن نستسلم ابدا. وكانت المقاومة الشعبية منتشرة في كل انحاء القطر واعماقه ولديها ما يكفي من الاسلحة والوسائل لقتال الشوارع، وكان تدريبها ممتازا. فكان في كل مدينة عشرات كتائب المقاومة وكذلك في القرى والمزارع وفي الجبال والوهاد... وفي يوم من تلك الايام اتاني صحفي نمساوي برسالة شفهية من رئيس وزراء تركيا مندريس يتهمني فيها بانني ديكتاتور استعين بالجيش لافرض ارادتي على الشعب السوري وحكومته المدنية. فقلت لهذا الصحفي: لن ارد على هذا الاتهام مالم تقم انت بنفسك

بجولة في بلدنا لتتطلع عن قرب على احوالنا، واوصيك بشكل خاص ان تشاهد جماهير شعبنا المسلحة، ونحن مستعدون لوضع سيارة تحت تصرفك مع دليل يتلقى رغباتك وينفذها بحذافيرها، عدا ما يمس منها امور امننا. فشكرني بحرارة ولبى طلبي في الحال. وعندما عاد الي بعد جولته شكرني مرة اخرى واطلعني على صور للمقاومين الشعبيين في مختلف انحاء القطر. فسألته فيما اذا كان سيمر بانقرة في طريق عودته الى بلده فقال انني مستعد للمرور بها اذا كان الامر ضروريا. فقلت له: "اريد ان تبلغ مندريس جواب رسالته الشفهية الي فتقول له: سلح جماهير الشعب التركي كما نفعل نحن ولنر بعد كم يوم يمكنك البقاء في الحكم..". فتحمس ذلك الصحفي الطيب للفكرة ووعد بتنفيذها، وقد جعل رسالتي هذه الى مندريس عنوانا عريضا لحكاية رحلته الى سورية في عدد من صحيفته تكرم بارسالها الي.

لقد كان تقديرنا منذ ان بدأ السعار الاميركي بالارتفاع في اثر فشل تلك المؤامرة على بلدنا ان حكومة الولايات المتحدة الاميركية لن تأذن لاسرائيل بالدخول في "اللعبة" كي

لا تفضح العلاقة الحقيقية التي تربطها بها فيرى الناس بوضوح ان الصهاينة ما هم سوى خدم للمستعمرين الجدد وان كيانهم ماهو الا قاعدة لنظامهم العبودي العالمي في منطقتنا. ذلك لأن فضح هذا الامر يحرج عملاء اميركا من حكام العرب الذين يتظاهرون بالعداء لاسرائيل في الوقت الذي يخنعون فيه بلا خجل لاسيادهم المستعمرين الجدد، الامر الذي كان يؤدي الى زعزعة كراسي وعروش أولئك العملاء في ذلك الوقت الذي كانت فيه جماهيرنا تلتهب حماسا من المحيط الهائج الى الخليج الثائر وتصيح لبيك ايتها الحرية. اما جيراننا العرب، وعلى الاخص حكومة العراق التي كان لنا اتصال وثيق بجماهيرها المدنية والعسكرية، وخاصة بزعيم الرابع عشر من تموز عبد الكريم قاسم، فما كان باستطاعتهم اذن ابدا، امام جماهير اقطارهم المدنية والعسكرية ان يقفوا الى جانب اميركا المهزومة بمؤامرة مخزية حبكتها حينذاك ضد قطر شقيق. فلم يبق اذن سوى مندريس وحكومته ففيها من الصفاقة (التي اوصلتهم على كل حال فيما بعد الى السجون واعواد المشانق) ما يكفي ليجاهروا

بالتحالف مع هؤلاء المستعمرين الجدد بحجة الدفاع ومقاومة الشيوعية. ولكن هذا الخيار كان من الممكن ان يثير حربا عالمية نووية. وبالفعل فقد تحشد الجيش البلغاري على الحدود الغربية لتركيا، كما تحشدت القوات السوفياتية على الحدود الشمالية الشرقية لتركيا في القفقاس، بينما حذرت الحكومة السوفياتية تركيا من مغبة التدخل في الشؤون السورية عندما تحشد جيش هذه الاخيرة على حدودنا. وفي الرابع من تشرين الأول اطلق الاتحاد السوفياتي اول قمر صناعي ارسله الانسان الى الفضاء الخارجي، الامر الذي جمد الدم في عروق أولئك العدوانيين وخدمهم في العالم. لقد وقع المستعمرون الاميركان في نيران الشرور التي اضرموها عندما لم يوكلوا الى خدمهم الصهاينة او العرب مهمة التصدي لنا بينما يعملون هم من وراء ستار كما اعتادوا فيما بعد على فعله. وفي تلك الاثناء حاول الصهاينة جس نبضنا فقاموا باحتلال موقع في الارض المجردة. فاستدعيت قائد قوات الطوارئ الدولية وقدمت اليه انذار ينقله للصهاينة مآله: انني سآمر بفتح النار على طول الجبهة في حالة عدم انسحابهم من

الموقع المذكور خلال خمس ساعات. وقد انسحبوا قبل نهاية مدة الانذار. وكان هذا برهانا على صحة تقديرنا المذكور اعلاه.

ولتعزيز موقفنا، ولرفع مستوى اليقظة الجماهيرية في العالم العربي رأيت ان من المفيد ان يتحرك الجيش المصري الى سيناء ليقوم بمراقبة حدود الكيان الصهيوني. فسافرت الى القاهرة برفقة بعض مساعدي. وهناك اجتمعنا بمجرد وصولنا الى قصر الطاهرة حيث كنا ننزل بالمشير عامر القائد العام في القيادة المشتركة المصرية السورية. وعندما شرحت تصوراتنا للوضع العام القائم وطلبت بالنهاية ان يعود الجيش المصري الى سيناء، التي اخليت بالتسوية التي فرضها الاميركان في اعقاب العدوان الثلاثي على مصر، اجاب المشير بان الامر صعب ويتطلب استعدادات طويلة. فابديت دهشتي واستغرابي لهذا الجواب وشعرت ان الاخوة المصريين غير مستعدين للتخلي عن تلك التسوية باعادة قواتهم الى سيناء وقطاع غزة كي لا يصعدوا الازمة الى درجة المواجهة مع اميركا. وكان رأيي، الذي تأكد في نفسي

طوال مسيرتنا نحن العرب منذ تلك الايام حتى الان، انه لابد من مواجهة هذه الدولة العاتية واقتلاعها من منطقتنا هي واسرائيل بثورة عربية شاملة قبل ان يتجذر استعمارها الجديد في العالم القديم بدءا بمنطقتنا العربية. اما انها كانت وماتزال تهدد للوصول الى غاياتها اللئيمة باثارة الحرب النووية فهي قبل كل العالم التي تخشى هذه الحرب. ثم ان المطلوب كان، ومايزال، الوصول الى مواجهة فعالة معها بالجماهير العربية المدنية والعسكرية، كما فعل الكوريون والصينيون ثم بشكل رائع الفيتناميون حيث يستحيل استعمال الاسلحة النووية. ثم ان الاجتماع الأولي مع المشير عامر اجل ليستأنف مساء مع الرئيس عبد الناصر. واعدت في هذا الاجتماع الاخير تقديري للموقف واعاد عامر حديثه عن صعوبة المسألة بالنسبة الى استعدادات مصر المادية، واضاف: ان اول هذه الصعوبات هو عدم وجود قواعد تموين في سيناء وغزة للجيش المصري بسبب تخريب هذه القواعد من قبل الصهاينة عندما احتلوا اراضي هاتين المنطقتين في حرب عام 1956. فانذهلت من بساطة هذا

المشير الذي يقود جيشا سورية ومصر وقلت له: ان قواعد التموين لا تسبق الجيوش عند التقدم في اراضي عدوة وانما تلحقها، اما سيناء وغزة فهي اراضي مصرية وقد انسحب منها العدو بعد اخفاقه في العدوان الثلاثي وعادت سيادة مصر عليها فلامانع ابدا يمنع عودة الجيش المصري اليها. وتساءلت قائلا: هب اننا في مناورة لاختبار مدى قدرتنا على اعادة انتشارنا عسكريا في تلك المناطق ولاعادة بناء قواعدنا من كل الانواع فيها فما الذي يمنعنا من فعل هذا ونحن على ارض معترف لنا بالسيادة عليها؟.. عندئذ تدخل الرئيس عبد الناصر، وكان يبدو عليه الضيق من بساطة مشيره، وقال له: "من بكرة بدري بترسل الجيش الى سيناء وغزة..". ولكن هذا الامر الذي اصدره عبد الناصر الى المشير لم يبعث الارتياح في نفسي وطرحت اقتراحا طالما راود فكري وتمنيت قيام الفرصة لتحقيقه ومآله التالي: "في وضعنا الجغرافي وبالوسائل المتاحة في هذا العصر يمكننا تبادل المساعدة العسكرية بين قطرين عربيين او اكثر دون الحاجة الى تنقل جيوش كثيفة من قطر الى اخر لمد يد العون وانما

بالامكان نقل الكادرات والفنيين باسرع الوسائل، بالطيران مثلا من مصر الى سورية وبالعكس، على ان نهيئ الاسلحة ومختلف الاعتدة والمعدات والعساكر والكادرات والفنيين الصغار والثانويين وكل ما هو ضروري في الجبهة المراد مساعدتها ونجدتها: ان بالامكان مثلا نقل ثلاثمائة او اربعمائة ضابط وفني مدفعي على متن ثلاثة طائرات من مصر الى سورية خلال ساعات لتشكيل فرقة مدفعية لديها اكثر من مائة مدفع ثقيل عندما نكدس في سورية كل اسلحة هذه الفرقة واعتدتها ومعداتها ونهيئ محليا عساكرها غير المختصين وصغار الفنيين بدلا من نقل الفرقة بكل اثقال ما لا يقل عن خمسة الاف جندي، الامر الذي يحتاج الى اسطول سفن وايام عديدة لانجازه بحضور العدو الذي لن يقف مكتوف اليدين امام هذه العملية الطويلة المعقدة. ولاتمام هذه المناورة تقوم كل جهة من الجهات التي تتبادل المساعدة بالامور التالية:

- تهيئة الكادرات والفنيين من المراتب الدنيا وغيرها التي تتوفر بكثرة في العادة،

- تكديس وتخزين الاسلحة والاعتدة والمعدات والوسائل وكل الاثقال اللازمة في المناطق التي تتشكل فيها الوحدة القتالية،

- تكديس الالبسة ومواد الاعاشة التموينية وغيره، ثم انه من الواجب اجراء العديد من التمارين في ايام السلم ليتعرف المنتقلون من قطر الى قطر للنجدة على مراكزهم وعلى الوحدات التي سيقودونها ويعملون فيها اثناء رد عدوان العدو. وحيث ان سورية كانت هي المهددة في تلك الاوقات فانه كان على مصر ان تبادر بهذه الطريقة لاكمال نواقص اركان ووحدات الجيش السوري وان تساعد على تشكيل وحدات جديدة كانت اسلحتها وبقية لوازمها متوفرة في مستودعاتنا". انتهى اقتراحي.

وقد وافق الرئيس عبد الناصر فورا على هذا الاقتراح ووجد فيه مخرجا ممتازا لاوضاع حكومته عربيا وعالميا، وطلب الي اعطاء تقدير لاحتياجاتنا. وقد قمت مع مساعدي بوضع لائحة بالكادرات والفنيين اللازمين لاتمام نواقصنا، فبلغ تعداد هؤلاء الافراد سبعمائة وخمسين ضابطا وفنيا. وتم

الاتفاق على انتقال هذا العدد بالطائرات خلال بضع ايام، وبذلك نفاجئ الاعداء مفاجأة تامة برفع قدرتنا العسكرية بنحو عشرين بالمائة. ثم عدت الى دمشق بانتظار تنفيذ هذا الاتفاق. وفي الثاني عشر من تشرين الأول اخبرني الملحق العسكري المصري عبد المحسن ابو النور ان طرادا مصريا يوشك على الرسو في ميناء اللازقية وهو يحمل الضباط والفنيين المصريين الذين كان من المتفق ان يصلوا تباعا بالطائرات الى دمشق. فتوجهت مسرعا الى اللازقية لاكون في استقبالهم. وفي الثالث عشر من الشهر المذكور دخل الطراد الميناء فصعدت اليه برفقة محافظ اللاذقية الاستاذ عثمان الحوراني، وكان لقاء مؤثراً جداً مع الاخوة القادمين للنجدة. هذه هي قصة وصول القوات المصرية الى ميناء اللاذقية التي حرفوها لتلقى في الظل جهود عشرات ملايين الجماهير العربية لصالح وثنيات فردية حمقاء عاجزة على كل الاحوال.

وكانت وساطة الملك سعود بدوافع تقف وراءها الولايات المتحدة الاميركية التي احس ساستها بانهم ارتكبوا غلطاً فادحاً بتصدرهم وترؤسهم الحملة على القطر العربي السوري بدلاً

من بقائهم كما يفعلون حالياً وراء الستار وتظاهرهم بحياد "الجنابظة" الذين يلكمون رؤوس "البائعين العرب" بقبضة يدهم ليتنازلوا للصهاينة ويبيعوهم بثمن بخس آخر مابقي عندهم من مروءة وشرف. ففي الخامس والعشرين من شهر ايلول عام 1957 قام الملك سعود بزيارة لدمشق ولحق به في اليوم التالي رئيس وزراء العراق علي جودت الايوبي. وقد اعلن كل من ملك السعودية ورئيس وزراء العراق على مأدبة الغداء التي اقيمت على شرفهما في قاعة البرلمان انهما مع سورية العربية وحكومتها الوطنية ضد كل اعتداء عليها من اي جهة كانت وقالا ان سورية لاتهدد اي بلد عربي ولا تركيا. وكان قبل هذا قد صرح بهذه المعاني كل من ولي العهد فيصل سعود الذي كان دائم الاقامة في القاهرة ووكيل وزارة الخارجية السعودية احمد الشقيري الذي كان في القاهرة في ذلك التاريخ. وكان كل هذا لتسهيل محاولة سعودية لاسقاط شكوانا الى مجلس الامن ضد أميركا وتهديداتها وضد الحشود التركية على حدودنا. وقد فشلت ايضا هذه المحاولة الاميركية السعودية واستمر مجلس الامن

حينذاك في النظر في تلك الشكوى السورية حيث عرضت الاساليب الاميركية بهذه المناسبة للعالم، الاساليب المستجدة في ذلك الزمان الذي كانت تتظاهر فيه تلك الدولة بمناصرة الحرية والعادية تماما في ايامنا هذه التي ظهرت فيها للعالم بكل وضوح عدوانية وخطر الشكل الجديد للاستعمار الجديد.

كانت هذه هي باختصار قصة نزول الجيش المصري في ميناء اللاذقية وقصة وساطة الملك سعود، القصتان اللتان حُورتا وشُوهتا لإخفاء دور الجماهير العربية وإبراز سورية بمظهر "الرجل المريض" الذي تتنازعه الاطراف المختلفة، "تتصارع عليه"، لاحتوائه، في الوقت الذي يقوم فيه هذا "المريض" بايقاع الهزائم الكاوية بالمستعمرين واذنابهم فيسير نتيجة لذلك بقدم ثابتة لتحقيق الحلم الكبير الذي هو وحدة القطرين الشقيقين مصر وسورية، تماما كما حدث وانجزه صلاح الدين الايوبي عندما حرر فلسطين من صهاينة البابوية، كخطوة اولى لاشعال الثورة العربية الكبرى التي تحقق اعادة بناء الكيان السياسي الموحد لامتنا بعد تحرير

ارض وطننا الكبير من المستعمرين وقواعدهم التي يأتي في مقدمتها الكيان الصهيوني.

[∃] المقصود هنا عبد الناصر وقادة الحركة الناصرية؛ (ي.ب).

الفصل السادس عشر

الوحدة

الوحدة ثورة تحرر وتقدم

ان العبودية بمختلف اشكالها، من عبودية الرق الى عبودية الرأسمالية ومابعدها، تجمد كل مجتمع او جماعة انسانية تنزل فيها فتعطل وظيفتها التي تقوم بها في جملة المجتمعات الانسانية لصالح القلة التي تفرضها على البشر. فالعبوديون الرأسماليون مثلا مزقوا الامم والمجتمعات الانسانية وجمدوا ادوارها في التقدم الانساني الروحي والمادي في حدود خدمة مصالحهم الضيقة فسببوا في طريقهم الى هذه الغايات الانانية الحروب العدوانية والنزاعات الجاهلية مما اهلك البشر بالملايين ودمر الثروات التي لاتحصى. وكانت دار الاسلام هدف الرأسمالية الأول في الهدم والتمزيق لاستعباد اممها وتشتيت شمل مجتمعاتها وتعطيل ادوارها في بناء التقدم الانساني وحصرها في توفير

القيم والثروات لخزائنهم. وقد اصابت امتنا العربية، بانية دار الاسلام، اعظم المصائب من العدوان الرأسمالي الاستعماري وفي مقدمة هذه المصائب تمزيق اوطاننا وتشتيت شمل جماعاتها ومجتمعاتها. ثم ان العبودية بكل اشكالها تمزق المجتمعات وتجعل من انسانها سيدا ومسودا ومن اسيادها فئات متكالبة على المنافع متصارعة حتى الموت لاحتكار المكاسب. فكل وحدة في هذا العالم العبودي هي دوما وعلى مدى التاريخ وحدة متضادات تتفانى في صراعاتها القائمة فيما بينها. فالقضاء على العبودية هو اذن شرط لازم لبلوغ كل وحدة، كما ان تحقيق الوحدة لا يكون الا عبر صراع يهزم فيه العبوديون وخدمهم ويهدم فيه نظامهم.

انقسم العالم العربي الى مجموعة كيانات قميئة تقاسمها المستعمرون في عهودهم القديمة بعد تهديم دار الاسلام بنتيجة صراعات دامت عددا من القرون بين الرأسمالية المتفاقمة في نشوئها وبين عالم الاسلام المتقهقر. ثم اتى الاستعمار الجديد بزعامة الولايات المتحدة الاميركية يكرس التمزق والاوضاع المتخلفة في ديار الاسلام لمنفعته. والخطير في الامر هو ان

هذه الاوضاع المزرية القائمة على تمزق اوطاننا لاتبدو لقدم عهودها السوداء واستمرارها منذ زمن طويل حتى يومنا هذا والى زمن غير منظور طبيعية فحسب وانما نجد مسؤولينا يعملون على تشديد تفاقمها كما تأتي ظروف القهر الذي نحن فيه الى دفعها نحو الاسوأ. اننا نجد مثلا من يقول ان توحيد الوطن العربي جزئياً او كلياً يجب ان يأخذ بالحسبان الظروف الموضوعية القائمة. ولكن هذه الظروف الموضوعية القائمة كيف قامت ومن اقامها؟ الم تكن نتيجة لتقهقرنا امام الرأسماليين الذين بنوا نظامهم العبودي على اساس من عظام شهدائنا وشهداء غيرنا من الامم التي قاومتهم؟ وهل نحن بهذه "الظروف الموضوعية" الا تبعا لنظام الاسياد الرأسماليين الاحتكاريين حاليا فنحن بالتالي لابد من ان نكون في خندق الثوار الخارجين على هذا النظام للخلاص منه؟ انه من غير الممكن الجواب على هذه التساؤلات واشباهها الا بالاعتراف بان خلاصنا من التمزق وعودتنا لممارسة دورنا في بناء وتقدم الجملة الانسانية لا يتم الا بتحررنا من نظام العبودية الرأسمالية. لا يتم الا بالثورة على هذا النظام وايقاع

الهزيمة الحاسمة به. ثم ان الضرر مهما قدم لا يكتسب شرعية الوجود ولا بد من ازالته على رغم القلة المنتفعة المتشبثة به.

ان الاستعمار بكل اشكاله القديمة والجديدة عمل على تمزيق وتفتيت العرب وعلى ادامة تخلف مجتمعاتهم وافقارها وعلى الهائهم بمشاكل لاتنتهي ابدا مادامت انظمتهم منخرطة في نظامهم العبودي العالمي كتابع لاحول له ولا قوة. وقد القى في آخر الامر جرثومة الصهيونية الجديدة في قلب وطنهم فلسطين وراح يرعاها ويهيئ لها كل اسباب نموها السرطاني في هذا القطر وفيما حوله حتى غدت الى مانعلمه اليوم عنها. فهي تشكل للمستعمرين تلك القاعدة البؤرة التي تستقطب نظاما عدوانيا يحيط بنا ويمتد من البحر الابيض المتوسط الى المحيط الهندي. ويقوم هذا النظام على قواعد المستعمرين الاخرى واساطيلهم وامتداداتهم العميلة في مجتمعاتنا وكل علاقاتنا المتخلفة فيما بين بعضنا بعضا وفيما بيننا وبين العالم الذي يخضع لهم. هذا هو اطار "الظروف الموضوعية" التي ذكرناها اعلاه والتي قلنا ان بعضنا يدعونا

الى اخذها بعين الاعتبار ومراعاتها عندما نعمل على الخلاص والتخلص ممن هيأها لنا.. ولكن المطلوب هو الخلاص والتحرر من العبودية التي هيأت وصنعت هذه "الظروف الموضوعية" التي نحن في اسرها، اي التحرر من هذه الظروف بالذات بالثورة عليها وقلبها.

ان اعادة توحيد ما مزقه الاستعمار ومزقته العبوديات والوثنيات بمختلف اشكالها هو عمل ثوري لابد من ان يصطدم في طريقه بعقبات من يضادون الثورات من العبوديين والوثنيين. والثورة تلغي النظام المتخلف لتقيم نظاما متقدما: وحدة الوطن ثورة تلغي نظم الجاهلية المعاصرة السائدة حاليا في اقطار هذا الوطن العربي وفيما بينها وتقيم نظاما متقدما واحدا له. ولكن الذين يرعون التخلف لرعاية مصالحهم الانانية يمكن ان يعملوا في ظروف معينة على اقامة التعاون فيما بينهم ليمتلكوا وضعا وقوة مادية في مواجهة منافسين اقوياء آخرين لهم كالأوربيين الغربيين الذين يعملون حاليا على توحيد اممهم في كيان ينافس كلا من الولايات المتحدة واليابان والاتحاد السوفياتي. ولكن مثل هذه

المساعي لاتشكل سوى ثورة مضادة على المستوى العالمي، فيُشدَّد من عبودية النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي برفع مستوى التناحر الى سوية تنافس عمالقة لا تتوقف كتلهم عن التضخم الامر الذي ينعكس على جماهير البشر فيزيد من بلواها وشقائها ويزيد من تمزقها: في الوقت الذي تتكوم فيه الاغذية في عنابر هؤلاءالاحتكاريين جميعا و تتكدس الوف مليارات القيم في مؤسساتهم الاحتكارية نجد الانسان في العالم الثالث يموت جوعا ويغرق في الديون والمصائب الاخرى التي ما عرف لها التاريخ البشري شبيها. فهذا العالم الذي لايكف قادته عن التبجح بديموقراطيتهم التي اقامت نظاما يهلك فيه يوميا عشرون الف طفل دون الخامسة من العمر والذي تنتشر في ارقى بلاده، الولايات المتحدة الاميركية، تجارة اعضاء الاطفال ويعيش في هذا البلد "الراقي الديموقراطي" اكثر من ثلاثين مليون انسان دون مستوى الفقر، نقول في هذا العالم ازداد انحدار الانسان في جحيم الشقاء بتوحد امبراطوريات قدماء المستعمرين في إمبراطورية متعددة الرؤوس تتزعمها أميركا. وهناك أيضاً

وحدات يصطنعها الرأسماليون المستعمرون وخدم نظامهم العالمي. ان الجامعة العربية مثلا كان قد اصطنعها البريطانيون في اواخر الحرب العالمية الثانية بغرض تجميع العرب حول الكيانات التابعة لاستعمارهم في نظام يقف في وجه الزحف الاميركي على المنطقة العربية حينذاك، على البترول العربي. وما كان من المصادفات لقاء روزفلت وعبد العزيز سعود في المياه المصرية لاقامة تلك العلاقة النفطية العربية الاميركية في تاريخ قريب من قيام الجامعة العربية: اعلن عن قيام الجامعة العربية في 22 آذار عام 1945 كما تم اجتماع روزفلت - عبد العزيز سعود في شباط عام 1945 على الطراد الاميركي كوينسي في البحيرة المرة في منتصف قناة السويس بعودة الاول من يالطا. فمثل هذه الوحدة بين كيانات عربية تنخرط في النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي فلا تتحرك الا باوامر من اسياده المستعمرين لم تزد امتنا الا تمزقا وعجزا ادى بها الى كارثة فلسطين واقامة الكيان الصهيوني. انها في النتيجة تجمع يحمي فردية كل كيان فيه ويوسع تحركه في خدمة من اقامه من المستعمرين.

نقول اذن ونكرر: ان الوحدة الحقيقية تقوم بعملية بناء تنفي العوائق الانانية في العناصر المراد توحيدها وتعيد للكل الناتج دوره الذاتي في دفع عجلة التقدم الانسآي الروحي والمادي، وهي على عكس ذلك التجمع الرجعي الذي يزيد من تشتيت جماهير بني الانسان بين مصالح انانية متضاربة لاتتوقف عن التفاقم على حساب عذاب الجماهير. ولاتتم اقامة البناء الموحد الا بثورة تنظف الساحة من المستعمرين وتقضي على نظامهم فيها. ومن البديهي ان تنطلق عملية الوحدة العربية الثورية من المنطقة العربية التي تركز عليها الهجوم الاستعماري، من فلسطين وما حولها من اقطار عربية، وذلك بانجذاب كل الجماهير العربية في كل اقطار الوطن العربي نحو الساحة ماديا وروحيا. بمختلف اشكال الانجذاب المؤدي في النتيجة الى ابعاد كل مانع من طريق تلاحم مختلف اجزاء امتنا. وهذا ما كان يجري في خمسينيات هذا القرن عندما كانت الحركات الوطنية في الهلال الخصيب ووادي النيل تستقطب كل حركة وطنية في كل جزء من اجزاء وطننا الكبير. لقد كانت وحدة اقطار

المسلمين قائمة طوال قيام دار الاسلام وان تعددت في هذه الدار الممالك والحكومات. فالنظام كان واحدا في هذه الدار ويقوم على الشريعة الاسلامية. وما كان المسلم يجد اي عقبة في التنقل عبر تلك الدار او السكن في اي بقعة يشاؤها منها. كما لم يكن هناك حواجز في تنقل البضائع فيها من اقصى شرقها الى اقصى غربها ومن شمالها الى جنوبها. فلم يبحث الناس في عصورها عن وحدة مفقودة فيها وان بحثوا احيانا عن تضافر حكامها وملوكها تجاه هجمات الاعداء على دارهم عندما كانت تلك الهجمات تحقق تقدما في هذه الدار.

ولكن العرب بعد سقوط دار الاسلام على ايدي الرأسماليين الاوروبيين واقتسام اوطانهم من قبل هؤلاء المستعمرين العبوديين، ثم مؤخرا من قبل خدم هؤلاء العبوديين، افتقدوا تلك الوحدة مع افتقادهم لحريتهم ورأوا تلازم هذين الامرين: الوحدة والحرية، كما لمسوا التصاق هذين الامرين مع امر ثالث هو التقدم المادي والروحي الذي عطله فيهم اعداء الانسان عندما استعبدوهم فتعطشوا في النتيجة لذلك الثالوث الذي طالما تردد على شفاه الثوار والقادة بشتى اشكال

التعبير: الوحدة والحرية والتقدم، الوحدة والحرية والحياة الافضل، الوحدة والحرية والاشتراكية الخ.. وهنا يجب ان لانساق في سفسطائية تقديم هذا الركن اوذاك في الثالوث المذكور على الركنين الباقيين، فالكفاح الثوري يهدف بداهة الى تحقيقها كلها معا، او بعبارة اوضح ان تحقيقها كلها يكون على درب واحد هو درب الخلاص من نظام المستعمرين الرأسماليين. وحيث ان المستعمرين احاطونا بقواعدهم واساطيلهم العدوانية ومختلف مؤسساتهم الرجعية المنتشرة في مجتمعاتنا وعقدوا خيوط شبكتهم هذه في قاعدتهم الاساسية اسرائيل فان الدرب للوصول الى تحقيق ذلك الثالوث يبدأ بالعمل الوحدوي حول هذه القاعدة الاساسية مع القطع مع قواعد المستعمرين وامتداداتهم المتنوعة والصمود لهجماتهم حتى النصر الكامل. ونجد في النتيجة ان عملية الوحدة لاتنفصل ابدا عن عملية التحرر من المستعمرين كما لا يتحقق التقدم المادي والروحي الا على درب الكفاح الوحدوي التحرري. ولقد كان تحقيق الوحدة مع مصر من قبل المدرسة الوطنية السورية جزءا لا يتجزأ من المعركة الكبرى

التي كانت تخوضها في تلك الايام هذه المدرسة للتحرر من الاستعمار الجديد الذي تتزعمه الولايات المتحدة الاميركية وللخلاص من التخلف المادي: تمت وحدة القطرين السوري والمصري في الاشهر التي انهار فيها الاستعمار القديم في المنطقة ومباشرة بعد هزيمة المستعمرين الاميركان بكشف مؤامرة ستون الشهيرة وفشل حشودهم التركية على حدودنا وارتداد دعواهم بملء "الفراغ" الذي خلفه المستعمرون القدماء عندما ارتدوا امام الجماهير العربية الكاسحة التي سدت كل "فراغ" ينفذ منه أولئك الاميركان لضرب هذه الثورة وتشتيتها. ثم ان الامر الآن، بعد ثلث قرن من ذلك اليوم المجيد الذي تمت فيه تلك الوحدة، مايزال على حاله من جهة ما يطرحه على امتنا من تحديات. فتبقى وحدة وطننا الكبير ملتصقة التصاقا لاانفصام فيه بتحررنا من النظام الاميركي العالمي اللئيم الذي اقام بيننا وحولنا كل هذه العقبات والمشاكل التي تمزقنا.

الوحدة تتعثر بتردد المسؤولين

بعد اجلاء قدماء المستعمرين الفرنسيين والانجليز عن اول قطرين عربيين، سورية ولبنان، ملأت الوثنية القوتلية ساحة الكفاح السورية وشغلت الناس بمشاكلها بدلا من ان تستمر بقيادة الثورة السورية لتجعلها على رأس الثورة العربية لملاحقة المستعمرين جميعا في كل ارجاء الوطن العربي في تلك الظروف التاريخية المؤاتية لتحرر الانسان. وقد مرت معنا الاشارة الى هذا الامر واشباهه اكثر من مرة في هذه الدراسة. ثم ان الحركة الوطنية السورية انشغلت بمؤامرات المستعمرين وديكتاتورياتهم التي اقاموها في ربوعنا في الوقت الذي تمكنوا فيه من ارساء قاعدتهم العدوانية اسرائيل في فلسطين قلب وطننا. ولكن سلسلة المعارك مع المستعمرين انتهت بهزيمة الاستعمار القديم عندما تمكنت الحركة الوطنية السورية من السيطرة تماما على مقاليد الامور في بلدها في اعقاب الاطاحة بديكتاتورية اديب الشيشكلي، فكبدت الانجليز وخدمهم في العراق هزائم كاوية باحباط مؤامراتهم ورد احلافهم وتشتيت شمل عملائهم والحكم عليهم بجرائم الخيانة الوطنية في قضية المؤامرة الكبرى التي حبكوها في ذات

الوقت الذي كانوا يدبرون فيه امر عدوانهم على مصر ونزولهم مع المستعمرين الآخرين الفرنسيين في بور سعيد. ولم يقم بعد هذا لقدماء المستعمرين جميعا قائمة فانضمت فلول خدمهم الى الزمر الاخرى التي كانت تناصر وتعمل لخدمة الاستعمار الجديد الذي تزعم فيه الاستعمار الاميركي جميع المستعمرين. وقد رأينا تفصيل هذا الامر في الحلقة السابقة من هذه الدراسة. واتت الحركة الوطنية السورية لتقود الجماهير في قطرنا السوري في ظروف تقف فيها وجها لوجه امام النظام الاستعماري العالمي الذي بدأت اميركا حينذاك بتبوؤ قيادته وامام كل العملاء والانتهازيين الذين توحدوا تحت راية هذا الجديد بعد ان كانوا متناقضين متعارضين ايام تناحر وتعارض اسيادهم القدماء والجدد من المستعمرين. وكان من الطبيعي ان تلتقي الثورتان السورية والمصرية فتقوما بقيادة الجماهير العربية ضد المستعمرين، وكان في هذا الامر خطوة كبيرة في اتجاه توحيد وطننا العربي على طريق الكفاح ضد النظام الاستعماري العالمي. وكان لابد من أن تعقبه خطوة عملية اخرى هي دمج قيادتي الثورة

العربيــة فــي ســورية ومصــر فــي قيــادة واحــدة، اي توحيـد القطرين. وهذا امر واضح شديد البداهة وان حاولت مختلف الجهات طمسه: من الوثنية الفردية الى العميان الذين ينادون باخــذ ظــروف المنتفعــين، تحــت يافطــة "الظــروف الموضوعية" التي اسس لها الاستعمار طوال قرون، في الحساب ومراعاتها، وبالعمل على تجزيء تحرير اقطار الـوطن العربـي بتبنـي نظريـة الفصـل بـين اركـان الثـالوث المـذكور اعـلاه التـي لـم تثمـر الا الفشـل والندامـة، والـى الانتهازيين اصحاب المصالح الفردية الضيقة والى اشباههم ممن يلائمهم تمزق اوطاننا..

نقول اذن ونكرر ان وحدة الجماهير حينذاك في غليانها الثوري ضد المستعمرين بكل اشكالهم كانت بطبيعة الحال تضغط باقصى الشدة في اتجاه انجاز الخطوة التالية على طريق ذلك الكفاح. في اتجاه انجاز وحدة القطرين السوري والمصـري. واعلنـت الثـورة المصـرية بلسـان قائـدها عبـد الناصر في عيدها الثاني وحدة الثوار العرب حيث قال: "ايها الاخوة المواطنون لقد بدأت مصر مع العرب عهدا جديدا،

عهد قوامه الاخوة الصادقة الصريحة، التي تواجه المشاكل وتفكر فيها وتعمل على حلها. ان هدف حكومة الثورة ان يكون العرب امة متحدة يتعاون جميع ابنائها على الخير للجميع. ان الثورة تؤمن ان عبء الدفاع عن البلاد العربية يقع اول ما يقع على العرب وحدهم وهم جديرون به".

وفي السابع والعشرين من حزيران عام 1955 اعلن رئيس الوزراء السوري في المجلس النيابي مايلي: "سنسرع في توثيق علاقاتنا مع مصر من خلال محادثات فورية نأمل أن تؤدي الى سياسة مشتركة بين سورية ومصر ندعو الدول العربية المتحررة الى اتباعها كيما يصبح بالامكان تحقيق وحدة عربية شاملة". وتشكلت في الخامس من تموز عام 1956 لجنة وزارية برئاسة صبري العسلي وعضوية وزير الخارجية صلاح البيطار ووزير الداخلية احمد قنبر للتفاوض مع مصر في هدف اقامة علاقة وحدوية معها. ورحب المجلس النيابي السوري بهذه اللجنة عند تشكيلها بالقرار التالي: "ان مجلس النواب التزاما منه بالفقرة الثالثة من المادة الاولى من الدستور التي نصت على ان الشعب السوري جزء

من الامة العربية يؤيد قرار الحكومة الذي اعلنه رئيس الوزراء في هذا الاجتماع ويرجو للحكومة النجاح في اتباع هذا الطريق المقدس الذي يقربنا في المستقبل القريب من الهدف الذي انتظره الشعب العربي في كافة اقطاره". ولكن كل محاولات دفع التقارب بين القطرين الشقيقين السوري والمصري لم تتجاوز قيام القيادة المشتركة بين جيشي هذين القطرين العربيين، الامر الذي يمكن قيامه بين دولتين من قوميتين مختلفتين تعاديان معا دولة ثالثة: كانت مثلا توجد دوما قيادة مشتركة بين انجلترة وفرنسا موجهة ضد المانيا، ويوجد حاليا قيادة مشتركة بين دول الغرب ضد قيادة مشتركة لدول الشرق. لقد كانت الاطاحة بتلك "الظروف الموضوعية"، لاعادة وحدة القطرين المذكورين كنقطة انطلاق على طريق الكفاح الثوري لتحقيق وحدة الوطن العربي بكامله، تعني الاطاحة بكيان القطر العربي السوري ووجوده بالنسبة للمستعمرين وخدمهم، وكأن وجود القطر العربي لا يتحقق الا بـ "خلعه" من وطنه الكبير ليشكل كيانا هزيلا له مؤسسات دولة وان كانت ضعيفة خانعة... يقول

مثلا باتريك سيل في "الصراع على سورية": "في اواخر صيف عام 1957 اصبحت سورية على شفا الانحلال كمجتمع سياسي منظم، ولم يقتصر الامر على وجود اتفاق حول القواعد التي تحدد السلوك السياسي ولكن - وهذا الاسوأ - فقد الكثيرون من السوريين الثقة بمستقبل بلادهم ككيان مستقل. لقد حدثت اخطاء في جهاز الامن، ذلك الجهاز الذي يقوم في معظم المجتمعات بضمان عدم وصول الانشقاقات الداخلية الى مرحلة تدمير الدولة نفسها بحيث لا تبقى ثمة اخطاء يجري النزاع حولها...". انتهى قول باترك سيل. فنرى ان هذا الكاتب الاستعماري لتاريخ سورية في تلك الحقبة يتجاهل تماما الانتصارات الكبيرة التي كان يحققها هذا القطر الواقف بزعمه على شفا الانحلال على المستعمرين وفي طليعتهم دولته بريطانيا وسيدتها العبودية الاخرى اميركا. وفي الواقع كانت تلك "الظروف الموضوعية" التي هيأ اسسها المستعمرون هي التي كانت تنحل تحت ضربات قوانا الوطنية في الوقت الذي كان يسير فيه قطرنا السوري

بخطى ثابتة نحو تحقيق الحلم الثوري الكبير للعرب باقامة الوحدة مع مصر.

وجرت محاولات لتوحيد الجيشين السوري والمصري بدلا من تساندهما في اطار قيادة مشتركة، كما وحد خالد بن الوليد جيوش ابي بكر الاربعة الى بلاد الشام بتعبئتها قبل المعركة الحاسمة في اليرموك في جيش واحد، وكما وحد صلاح الدين قوات الشام وقوات مصر لخوض معركة ضد صليبيي البابوية، ولكن كل تلك المحاولات كانت تبوء بالفشل فيبقى كل واحد من الجيشين المذكورين منفصلا عن الآخر بكيان قطره الذي يحكمه دستور مستقل فلا تتجاوز عملية توحيدهما حدود تلك القيادة المشتركة. وقد جرت ايضا محاولات اخرى بين لجان حكومية من الطرفين السوري والمصري لتجاوز التحالف القائم حينذاك بين هذين القطرين الى شكل اعلى من التوحيد فكانت تلك المحاولات تسقط امام الاستقلال الدستوري لكل من القطرين. وكانت المحاولة تنتهي في بعض الاحيان الى "تمثيلية تهريج" لافائدة منها ويبقى كل من هذين القطرين مختلفا بكيانه الدستوري المستقل بالشكل

الذي يشتهيه لنا باتريك سيل المعبر عنه بعباراته الواردة اعلاه. فعندما اتى مثلا انور السادات على رأس وفد من مجلس الامة المصري الذي كان يرأسه هو حينذاك ليتفاوض مع وفد من نوابنا برئاسة اكرم الحوراني رئيس مجلسنا حول مسألة دفع عملية توحيد القطرين الى الامام، كان ذلك بعد وصول الطراد المصري الى ميناء اللاذقية في الثالث عشر من تشرين الاول عام 1957 حاملا الكادرات القيادية والفنية لسد نواقص واحتياجات الجيش السوري، انتهى الامر الى تمثيلية قيام السادات بترؤس جلسة لمجلس نوابنا وضع اثناءها العلمان القديمان لسورية ومصر واحد عن يمينه والآخر عن شماله، ربما ليثبتا ان كل شيء باق على حاله وان هناك دولتين منفصلتين وليس دولة واحدة موحدة!.. وقد تكررت التمثيلية في القاهرة عندما ذهب في اواخر الشهر المذكور الاستاذ اكرم الحوراني بوفد نيابي سوري وترأس هناك في النتيجة جلسة لمجلس الامة المصري بعلمين، واحد سوري وآخر مصري عن يمينه وشماله... ولكننا نتساءل اليوم عن الدافع الذي اجبر أولئك المسؤولين في القطرين

للقيام بذلك التهريج العبثي في تلك الايام، التهريج الذي لا ينطلي على احد والذي يعرفون هم بالذات انه عبث لايقدم في الامر شيئا؟.. انه التناقض الصارخ بين ارادة الجماهير التي كانت تخوض في القطرين المعركة الكبرى للتحرر الحاسم من المستعمرين ومخلفاتهم التي يأتي تمزيق وطننا في مقدمتها وبين قيام كيانين منفصلين من وطن واحد هو الوطن العربي الكبير. كان هناك تناقض صارخ بين تلك الارادة للجماهير للخلاص من الشرذمة والفرقة لبقعتين من وطن واحد وبين عجز المسؤولين المذكورين عن ازالة هذه الشرذمة بتوحيد ماهو واحد في الاصل، الامر الذي ادى بأولئك المسؤولين الى محاولة تغطية ذلك العجز بتلك التمثيلية الضحلة.

وكانت استقلالية قيادة كل من الحركتين الوطنيتين السورية والمصرية، الواحدة عن الأخرى، والحرص على هذه الاستقلالية، السبب الأول والكبير لعجز مسؤولي القطرين في تلك الايام عن الاقدام والمبادرة لتحقيق تلك الوحدة. فكان لا بد اذن من العمل على توحيد هاتين المدرستين لتوحيد

الثـورتين فـي ثـورة واحـدة للوصـول بالتـالي الـى توحيـد القطرين المذكورين: في الواقع لا مجال لوجود الثورتين من اجل هدف واحد لـوطن واحـد، فـالوطن هـو الـوطن العربـي والثـورة هـي الثـورة العربيـة. وعنـدما لا يكـون هنـاك فرديـة وثنية، في الطرفين معا او في احدهما، فان توحيد المدرستين لا يعني إلغاء احدهما بطرد رجالها من ساحة الجهاد. وكذلك يكـون توحيـد القطـرين لمصـلحة انسـانهما وفـي سـبيل تحقيـق الهدف الـوطني الكبيـر وهـو اقامـة المجتمـع العربـي الموحـد على كامل ارض وطنه والمنظم بدستور واحد يقوم عليه نظـام واحـد. وليسـت وحـدة تلـك التـي لاتضـمن علـى كامـل ارض الـوطن تعـاون النـاس وتكـاملهم وتكـافلهم فـي اطـار تسـاوي الفرص امامهم جميعا. ولكن الامر ما كان يتجـه بـاخلاص فـي هـذا الاتجـاه فـي كـل مـن الحـركتين الـوطنيتين السـورية والمصـرية. كانـت زعامـة البعـث مـثلا تحـاول الاسـتفادة مـن الشعبية التي اكتسبتها الثورة المصـرية عند الجمـاهير العربيـة للفوز بالانفراد بحكم سورية. وقد اذاعت الحكومـة المصـرية بوسائل اعلامها في اعقاب فشل محادثات الوحدة الثلاثية بين

مصر وسورية والعراق اسرار لقاءات جرت بين جمال عبد الناصر من جهة وبين زعماء البعث الثلاثة ميشيل عفلق وصلاح البيطار واكرم الحوراني في الايام الاولى للوحدة السورية المصرية من جهة ثانية. وتبين ان هؤلاء الزعماء البعثيين كانوا بحسب الاعلام المذكور يحاولون في تلك اللقاءات اقناع عبد الناصر بتسليمهم حكم القطر الشمالي، اي سورية، مع تشكيل قيادة سرية لمجموع الجمهورية المتحدة تتألف منهم ومن عبد الناصر. ويضاف الى هذا شكوك قادة حزب البعث القديمة والعميقة بالعسكريين وديكتاتوريتهم، فكانوا يبحثون عن كل ضمان لاستمرارية تأثيرهم في الساحة السياسية عند الوصول الى وحدة القطرين ويعملون جهدهم على ان لا يبتلعهم "العسكر" قادة الثورة المصرية. ولكنهم مع ذلك ماكان باستطاعهم مناقضة انفسهم كبناة لحزب وحدوي ومناقضة الجماهير الشعبية التي كانت تدفع بلا هوادة قادة الحركة الوطنية ليعجلوا بانجاز الوحدة مع مصر. ففي اواخر حزيران مثلا عام 1956 تقدم اكثر من ثلاثة الاف طالب من جامعة دمشق بعريضة الى مجلس النواب يطالبون فيها

بتحقيق وحدة القطرين. اما الثورة المصرية فكانت مساعيها الوحدوية تتجه نحو "تزعم" الاقطار العربية بالعمل الحثيث على ايجاد حكومات في هذه الاقطار تعترف بزعامتها وتخضع لها بصورة من الصور. وهذا امر طبيعي بالنسبة للمصري الذي انفصل عن اخوته العرب مدة طويلة على اعتبار ان مصر هي اكبر الاقطار العربية وتتصدر بحق النهضة العربية المعاصرة. ولكن هذا الامر بالذات لايقدم ولايؤخر في الامر شيئا، فقد سبق وقلنا اعلاه ان الوحدة الحقيقية هي عملية ثورية تحررية من كل اشكال التبعية، وبالتالي فان المصري ليس مصريا باكثر من السوري الذي هو ايضا ليس سوريا باكثر من المصري، وكذلك الحال بالنسبة لكل قطر من اقطار الوطن العربي.

ورثت الثورة المصرية الجامعة العربية بعد انهيار الاستعمار البريطاني وجعلت من هذه الجامعة جهازا لتحقيق طموحاتها الانفة الذكر واطار تعمل في حدوده لقيادة الامة العربية. اي انها اختصرت الطريق والتجأت الى ماهو محقق في الواقع لاستثماره في قيادة شؤون الامة العربية. فكانت

وحدة العرب بمفهومها هي وحدة سياساتهم بقيادتها. قال محمود رياض لباتريك سيل في كانون الاول عام 1961 في القاهرة: "لم نطلب الوحدة مع سورية مطلقا، بل اوضحنا دائما بان الفكرة سابقة لأوانها.. لقد كانت سياستنا في الواقع هي تجنب الوحدة..". ولكن محمود رياض هذا، الذي كان يتريث بعملية الوحدة ويحاول تأخيرها بتعليمات من حكومته بطبيعة الحال، كان في ذات الوقت يتدخل بالكبيرة والصغيرة في شؤون سورية الخاصة، وما كان ذلك ليؤذي شعورنا بل كنا نجده امرا طبيعيا يجعلنا نرحب باهتمام الثورة المصرية بكل شؤوننا لاننا وحدويون والثوار المصريون ليسوا غرباء عنا. الا انه من الوهم ان يعتقد هذا الموظف في خارجية الثورة المصرية بان الفضل يرجع اليه في اشاعة هذا الجو الملائم لهذه الثورة في سورية، فيعمل على نقل الوهم المذكور الى كل من حدثه عن ايامه في دمشق من المؤرخين والصحفيين العرب والاجانب حتى بلغ الامر بهؤلاء الى تصوير حركتنا الوطنية وكانها من صنعه هو وليست من افراز شعبنا السوري العريق، ككل العرب، بجهاده. ولكن العلة الاساسية

التي كانت تصيب، وماتزال بكل اسف، حركاتنا الوطنية هي فقدان العقيدة التي تقوم على تحديد هويتنا كأمة ثائرة على التمزق الذي سببه ويرعاه المستعمرون مع بقية الادواء التي اصابونا بها وتبين انه لابد من العمل على ادامة وتصعيد ثورتنا مادام الاعداء على اختلاف اشكالهم المجتمعة في نظامهم العالمي يسدون علينا سبل التحرر للانطلاق نحو اهدافنا القومية. والعقيدة التي افتقدناها ونفتقدها ايضا هي الانتهاء من تحديد عدونا تحديدا دقيقا لتوجيه كفاحنا الوجهة الصحيحة فلا نتخبط في قفص المستعمرين عندما ننشد التحرر. لقد كان تأخر حل مسألة العقيدة هذه السبب الاساسي في تخبطنا في مسيرتنا الثورية منذ تلك الايام حتى يومنا هذا.

قيام الوحدة

اتت السنة الاخيرة لمجلس النواب السوري ولرئاسة شكري القوتلي ونحن نحتفل بانتصاراتنا الكبيرة على المستعمرين الاميركان وحلفائهم في اوروبا وآسيا. واذكر انني اجبت على سؤال لمندوب جريدة المساء القاهرية في

زيـارة روتينيـة لـي لمصـر بقـولي: "جئـت لاقتسـم مـع اخـوتي رجال الثورة المصرية ثمار النصـر العظيم علـى المسـتعمرين الاميركان الذين يلقون حاليا بحرسـهم الامبراطـوري فـي اتـون المعركـــة". وكنـــت اقصـــد بهـــذا التعبيـــر تشـــبيه الاميـــركيين بـــالامبراطور نـــابليون بونـــابرت الـــذي القـــى بحرســـه الامبراطوري آخر احتياطي لديه قبل ان يهزم الهزيمة النهائية في واترلو. وكان امامنا طريقان فـي تلك الظـروف. الأول ان نتـرك الامـور تتطـور فـي سـورية الـى ان تنتهـي مـدة مجلس النواب وتقوم انتخابـات لمجلس جديد، والثـاني ان نعمل علـى تحقيـق وحـدة جديـة مـع مصـر كثمـرة لانتصـار الحـركتين الـوطنيتين فـي سـورية ومصـر. ففـي الحالـة الاولـى كـان مـن المؤكد ان تفوز الجبهة الوطنيـة السـورية لاقامـة مجلس نـواب تكـون لهـا فيـه الاكثريـة السـاحقة. وفـي هـذه الحالـة سـوف لا يكون هناك اي عائق جدي يقف امام تحقيق الوحدة مع مصـر حتى ولو جاء خالد العظم خلفا للقوتلي في رئاسـة الجمهوريـة السـورية، وذلـك لأن مسـيرة الجمـاهير حينـذاك وضـغطها الهائـل كانـا يعمـلان بقـوة لاتـرد فـي هـذا الاتجـاه. امـا الحالـة

الثانية ففيها اختصار للطريق عندما تتحقق الوحدة مباشرة دون انتظار ابتعاد الرجعية السورية والعربية عن التأثير في توجيه الاحداث بفشلها في الانتخابات النيابية المنتظرة: كان من المؤكد ان الوحدة مع مصر ستشكل المطلب الأول للناخب عندما سيدلي بصوته في الانتخابات المنتظرة.

وكنت كغيري من جماهير شعبنا السوري ارى ان تلك المحاولات الوحدوية غير الصادقة التي كان يقوم بها المسؤولون في ثورتي القطرين هي مجرد هروب من العجز عن تحقيق الوحدة الصحيحة، العجز امام مخلفات المستعمرين القدامى في اوطاننا وهجمات المستعمرين الجدد وجهودهم لابقائنا ضعفاء امام قاعدتهم التي اقاموها للصهاينة في فلسطين. ورأيت ان بالامكان مساعدة أولئك المسؤولين للتغلب على هذا العجز بجعل الجيش السوري يتدخل فيأخذ المبادرة لتحقيق ارادة الجماهير العربية ويحرر قيادة الثورة السورية من ترددها في هذه المسألة الوطنية. ومثل هذه الحركة تختلف جذريا عن الانقلاب العسكري لأن فيها تدمير لموقع استعماري عندما تزيل بالوحدة تمزق الوطن، وهي فرض

علـى كـل مـن يسـتطيع ذلـك عسـكريا كـان ام مـدنيا. وهـي لا تتطلــب ترتيبــاً تآمريــاً مــن اي نــوع كــان فازالــة الاذى الاستعماري يكون جهاراً في رابعـة النهـار وان تطلـب مباغتـة العـدو بالمبـادرة كـي لانتـرك لـه ايـة فرصـة لاثـارة الخـوف والتردد عند البعض والمعارضـة المبطنـة عنـد البعض الآخر مـن اصـحاب المصـالح الانانيـة. والمسـتعمرون جميعـا وكـل خـدمهم مـن الانتهـازيين والـوثنيين عبـدة الفـرد لا يسـتطيعون اليوم تفسير مـاجرى لانهم بوغتـوا حينـذاك واخـذوا علـى حين غـرة وخـرج الامـر مـن ايـديهم وتمـت الوحـدة كمـا ارادتهـا جماهيرنا العربية.

استدعيت في صـباح الثـاني عشـر مـن كـانون الثـاني عـام 1958 معاوني العميد امين النفوري وطلبت اليـه ان يسـتدعي الضباط ممثلي الجبهة الوطنية العسكرية لاجتماع طـارئ يعقد فـي مكتبـي فـي مسـاء اليوم ذاتـه. وافهمتـه ان قصـدي مـن هـذا الاجتماع هو بحث مسألة الوحدة الفورية مع مصـر ولكن عليـه ان لا يعلـن هـذا الامـر لاي كـان لانني سـاعلنه بنفسـي عنـد افتتــاح الاجتمــاع المــذكور وذلــك لضــمان السـرية ومباغتـة

المعارضين. كما اصدرت امرا باعداد طائرة لرحلة طويلة يقف طاقمها على اهبة الاستعداد للانطلاق الفوري: كان من الواضح لكل ذي عينين ان معارضة الوحدة الفورية مع مصر كانت مستحيلة في اجواء تلك الايام التي كنا نكافح فيها الاستعمار الاميركي ونكبده الهزائم الكاوية، فكان بالتالي لابد من مباغتة المعارضين الذين ماكانوا ليجرأوا على اعلان معارضتهم وحرمانهم من اي فرصة للمناورة بإطالة الاخذ والرد في هذا الموضوع وتعطيله في النتيجة. وعند افتتاح الاجتماع في الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم ذكرت الضباط المجتمعين بان البند الأول من ميثاق جبهتنا الوطنية ينص على ان مهام الجيش العمل على تحقيق اهداف امتنا العربية التي يأتي في مقدمتها تحقيق وحدة وطننا الكبير بدءا من الوحدة مع مصر. واقترحت الامور التالية:

1. ارسال كتب بنص واحد موقعة من قبل القائد العام للقوات المسلحة اللواء عفيف البزري الى كل من رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي ورئيس مجلس النواب السيد اكرم الحوراني والى رئيس الوزراء السيد صبري العسلي

والى وزير الدفاع السيد خالد العظم. ويتضمن ذلك النص تذكيرا لمسؤولي الدولة بدستور الجمهورية القائل بانها جزء لا يتجزأ من الوطن العربي وان على قادتها ان يعملوا بكل جدية على تحقيق الوحدة العربية بعد ان انتظرت امتنا طويلا جدا تحقيق هذا الهدف الكبير المصيري، ويتضمن ايضا طلبا الى مسؤولينا بان يبادروا فورا باتخاذ الخطوات اللازمة لاقامة وحدة مع القطر المصري الشقيق المتحرر كمنطلق نحو تحقيق وحدة كافة اقطار وطننا الكبير. ويحمل الكتب المذكورة الى المسؤولين السوريين وفد من الضباط برأسه العميد امين النفوري.

2. تشكيل وفد من الضباط برأسه اللواء عفيف البزري يذهب مباشرة الى مصر بعد انتهاء الجلسة والموافقة على هذه المقترحات للطلب الى قيادة الثورة المصرية لتباشر الاتصال بسورية لتحقيق الوحدة معها كخطوة اولى نحو توحيد وطننا العربي الكبير.

3. استدعاء العقيد عبد المحسن ابو النور الملحق العسكري المصري وضابط القيادة المشتركة في دمشق

والطلب اليه ان يبرق الى القيادة المشتركة لاستقبال وفد الضباط السوريين المذكور في القاهرة.

تمت الموافقة بالاجماع على مقترحاتي بدون اية صعوبة ووقعت الكتب الآنفة الذكر التي كانت جاهزة امام الحاضرين وسلمتها الى العميد امين النفوري ليقوم بتسليمها في صباح اليوم التالي الى اصحابها. وتم استدعاء الملحق العسكري المصري في اثناء ذلك الاجتماع وابلغته بالامر وطلبت اليه الاتصال بقيادته لاستقبالنا في القاهرة التي سنصلها في تلك الليلة بالذات. وقد حاول عبد المحسن ابو النور هذا ان يتدخل في الموضوع ويثنينا عن تنفيذ قراراتنا لكنني اسكته بحزم وقلت له ان قرارنا هو قرار مدرسة لها قيادة وان عليه ان يقوم بوظيفته كملحق عسكري لمصر وممثل لجيشها في القيادة المشتركة فيبلغ قيادته برقيا بتوجهنا الى القاهرة في تلك الليلة. ثم نهضت ودعوت الضباط الذين سيرافقونني في تلك الرحلة الليلية الى مصر للذهاب الى المطار حيث كانت الطائرة بانتظارنا هناك.

واتى المشير عامر للسلام علينا في قصر الطاهرة في صبيحة اليوم التالي وللاطلاع، كما هي العادة، على اسباب مجيئنا الى مصر بالتفصيل ثم نقل الامر للرئيس عبد الناصر قبل مواجهتنا. وفي مساء الثالث عشر من كانون الثاني عام 1958 جرى اللقاء الحاسم، بين الوفد السوري وبين ضباط قيادة الثورة جميعاً برئاسة عبد الناصر، في بيت الرئيس في منشية البكري. وبعد السلام والسؤال عن الأحوال خاطبت الرئيس عبد الناصر بقولي: "ان الساعة قد دقت لانهاء هذا التمزق الذي طال كثيرا لوطننا العربي وللبدء بجمع شمل امتنا العربية بدءا بتوحيد القطرين السوري والمصري، التوحيد الذي طالما رد عن العرب والاسلام أرجال الطامعين في خيرات اوطاننا. وقلت انه قد جرت محاولات وحدوية بين قطرينا في السنوات الاخيرة ولأن كل هذه المحاولات لم تؤد الى اي نتيجة ايجابية بسبب العوائق الدستورية التي خلفتها لنا عهود الاستعمار والتي بكل اسف مازلنا نتمسك بها ونعيش تحت حكمها. وتساءلت قائلا فيما اذا كنا حقا ثوارا نتطلع الى تحرير امتنا من كل ما ابتلانا به المستعمرون من مصائب

يأتي في مقدمتها تمزيق اوطاننا وخلق كيانات ضعيفة منها لاتقدر لتمزقها على الدفاع ضد عدو في حجم اسرائيل. وتساءلت ايضا قائلا اننا هنا جميعا، سوريين ومصريين، احرار في قرارنا هنا وفي هذه اللحظة فما الذي يمنعنا من اعلان توحيد قطرينا العربيين؟.. ثم انتهيت الى توجيه الكلام الى شخص الرئيس جمال عبد الناصر وقلت له: انك ياسيادة الرئيس جمال عبد الناصر تمسك في هذه اللحظة التاريخية بتطلع وامل الاجيال العربية ولا بد لك من ان تقول "نعم للوحدة الفورية". عندئذ استعرض عبد الناصر رفاقه المصريين بنظره، ثم التفت الينا وقال: "هذا اليوم هو عيد ميلادي الاربعون واقول نعم للوحدة الفورية..". ثم انه بعد هذه العبارة لم يدر اي نقاش بيننا سوى ان الرئيس قال ان الاوضاع السياسية غير متشابهة في القطرين فهل من المعقول ان نترك الامور على ماهي عليه؟.. فاجبت اننا ثوار ننجز عملا ثوريا ولابد من اتخاذ كل اجراء لتحقيق الهدف الكبير الذي هو الوحدة لصالح الجماهير في القطرين الموحدين.

فاجاب "على بركة الله". وقمنا نتصافح ونتعانق والسعادة تملاء قلوبنا لانجاز الحدث العظيم.

وكانت هذه هي قصة الوحدة بكل بساطة وماكنا حينذاك لنحلم او نتصور الصور الكاذبة القذرة التي خرجت فيما بعد من مخيلات الاعداء وخدمهم من الانتهازيين والطامعين والوثنيين واشباههم لتشوه ذكرى تلك اللحظات المجيدة من تاريخ امتنا. لقد قمنا بواجبنا حينذاك وادينا مهمتنا بنجاح مدهش وبنصر مبين.. ثم ان المدرسة السورية التي حققت الوحدة والتي كان عليها ان تحرس هذه الوحدة تحطمت وتحطمت بعدها الوحدة التي اوكل الى عملاء اميركا امر حراستها. ولكنني كنت مبعدا عن ساحة هذه الاحداث الاخيرة التي ليس لي فيها يد او حيلة.

انتهت الدراسة